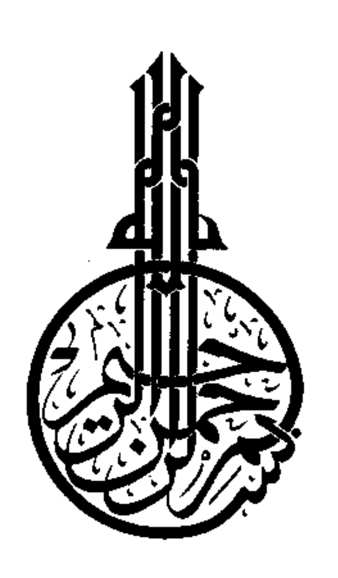
الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ

حَيَاةٌ مَاجِدَةٌ وَأَعْمَالٌ خَالِدَةٌ

تأليف
عبد الستّار الشيخ

دار القلم
دمشق



الخُلفاءُ الرَّاشِدُون

حَيَاةٌ مَاجِدَةٌ وأعْمَالٌ خَالِدَةٌ

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

مقـــدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين الذي اختتم الكتب المنزلة بالقرآن الحكيم، وختم الرسالات برسالة سيّد الأولين والآخرين محمد ﷺ؛ أكمل الخلق روحاً وعقلاً، وأعلاهم قدراً وذكراً، وأرفعهم مجداً وعزّاً، وأصدقهم قولاً وفعلاً، وأسدّهم مسلكاً ورأياً، وأرشدهم سلوكاً ومنهجاً.

وامتنَّ على البشـرية بأن أقام حوله رجالاً ربـانيين، وحواريين صادقين، ومؤمنين طائعين، وأصحابـاً تبّاعين، وأمناء مستمسـكين، وعُبّـاداً زاهدين، وأبطالاً ميـامين، ومجاهدين مخلصين، وحمـاة غيـورين، وحكماء مفوَّهين، ودعاة ملهمين، وعلماء عاملين، ومعلمين مرشدين، ومبلِّغين واعين، وأمراء عادلين، وقادة بارعين.

وصلوات الله، وصلوات الملأ الأعلى، وصلوات المؤمنين، على النبي الكريم، الصادق الأمين الذي وصفه ربه بأنه: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وأنه: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وتفضّل بإرسـاله ﴿رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ بلّغ الرسـالة، وأدى الأمانـة، ونصح الأمـة، وكشـف الله به الغمة، ومحا الظلمـة، وترك أمته على المحجّة البيضاء، ليلها كنهارها سواء، لا يزيغ عنها إلا هالك.

ولقد كان من أعلام نبوته ﷺ، ودلائل رسالته: ذلك الجيل القرآني الفريد الذي ربّاه على عينه، وحمل الراية من بعده، فبلّغ الرسالة إلى العالمين مشـرقاً ومغرباً، وشمالاً وجنوباً؛ فكان بحقٍّ خير جيل عرفته البشرية، لم يصنع أحد من قبله مثله، ولا يطمع أحد أن يأتي بمثيل له من بعده! ويتقدم هذا الجيلَ ويلتمع في

جبينه كأعلى درة في تاجه: الأئمةُ الأربعة الكبار الخلفاء الراشدون، الهادون المهديون؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. الذين أكرمهم الله سبحانه واجتباهم، ورفعهم وأعلاهم، فخصَّهم بالخلافة عن رسوله في أمته، فعُرِفوا على مرِّ التاريخ بـ(خلفاء رسول الله)، ولازمهم وصف (الراشدون) فشاع ذاك الوصف وهذا الوسام على لسان الخاص والعام!!.

وخصَّ رسولُ الله ﷺ خلفاءه بالمدح والثناء، بعد أن عمَّ صحابته بالثناء العاطر الجميل، وخصَّ من الصحابة أناساً بالتزكية والمديح، وخصّ من الخواص هؤلاء الأربعة الأساطين؛ فأصبحوا في مقدمة الركب الميمون الذي تخرَّج في مدرسة النبوّة، وحمل للناس الرسالة، ونافح عن المسلمين، وحمى بيضة الدين.

ووصف النبي ﷺ أيامهم من بعده بأنها على هدي النبوّة، وامتداد لهدي الرسالة الخاتمة وحضَّ الناس على الاستمساك بهديهم، ونهج طريقهم، والحرص على الاقتداء بهم، والاعتصام بحبلهم، والاهتداء بهديهم؛ ففي ذلك اتّباع الحقِّ المبين، وملازمةُ هدي سيّد المرسلين، والرشاد في الدنيا، والفوز يوم الدين.

عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله المُلك من يشاء»[1].

وعن العرباض بن سارية ـ في حديث طويل ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسّكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنّ كلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة»[2].

ولقد كانت حياة الخلفاء الراشدين الأربعة صورة حية، وتطبيقاً عملياً على نحو فريد، لمنهج الرسالة وهدي النبوّة الذي تربّوا عليه. وقاموا بأعباء الخلافة على أتمّ وجه وأكمله، في شتى المجالات، وعلى جميع الأصعدة، فبلغوا الذروة في إقامة معالم الدين، وتبليغه للعالمين، ففتحوا القلوب بالقرآن، وقارعوا الكفر

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والحاكم، وهو حديث صحيح.
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم، وهو حديث صحيح.

بالسِّنان، وأزالوا الطواغيت من وجه الناس، ليختاروا الدين الذي يريدون، ورفعوا العنت الذي وُضع على رقاب البشرية، ووضعوا عنها إصرها والأغلال التي كانت عليها، ودمدموا على الخرافات والوثنيات، وزرعوا مكانها العقيدة التي تكرّم الإنسان، وتحترم عقله، وتعلي فضائله، وتهدي نوازعه، وترشد غرائزه، وتحمي ماله، وتزكّي نفسه، وتحقق أشواقه، وتنير دربه، وتوصله إلى هدفه والغاية من وجوده.

وأغلَوا مكان الشورى وجعلوها من الشعائر المقدَّسة ومن حق جماعة المسلمين، وفسحوا المجال رحباً للكلمة المخلصة والرأي الشجاع، للنقد الهادف إلى تقويم المسار والوصول إلى الحق.

واحترموا إنسانية الإنسان ولو كان ذمّياً، ونشروا العدل، وأنصفوا المظلوم ولو خاصم أمير المؤمنين، واختاروا الأمراء الأمناء، والمعلمين الأكفاء، والقادة الشجعان المخلصين، والقضاة الحازمين العادلين، وحموا البلاد، ومهدوا السُّبل للعباد، وحرسوا الأموال، وأطابوا مواردها ومواضعها، ووزعوها على الوجه الذي أُريد لها، وأقاموا أنفسهم على أموال الأمة بمنزلة الوصي على مال اليتيم؛ إن استغنى عفَّ وإن افتقر أكل بالمعروف، حتى تدخلت الأمة في تحديد عطاء أمير المؤمنين!!.

ولم يتخلّفوا عن محاسبة الولاة، والقادة والأمراء، إذا تناهى إلى أسماعهم ما يستوجب المساءلة من شكوى أو نحوها، قطعاً لدابر الفتنة، التي يتلاعب بها المغرضون من ادّعاء الظلم مما يروج على الرَّعاع الذين لا يفهمون الأمور على وجهها.

بيد أن هذه الفترة الزمنية المباركة لم تخلُ من الشوائب التي عكَّرت صفو مسيرتها، ولا سلمت من المؤامرات والمكايد التي حيكت في الظلام، إذ إن الإسلام الذي اجتث عروش الطواغيت، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، ودخلت فيه شعوب من جنسيات متنوّعة وأعراق شتى، حملت معها أعرافها وتقاليدها، وفيهم من لم تزكُ نفسه بالإسلام حق التزكية، ولا سَمَتْ أخلاقه إلى ما يراد لها

من سموّ، فكانت هذه العناصر مرتعاً خصباً لنفوس ماكرة متربصة حاقدة، ومادة ليّنة بأيدٍ خبيثة، حاكت في الظلام مؤامرات استهدفت ضرب الإسلام وهدْم قلاعه، فوجَّهت السهام إلى خلفائه، وتستَّرت بأقاويل زيَّنها أصحاب الهوى، ولفَّقها أحفاد السامري، وصاغها شياطين التعدي، فقادوا جماعة من الرعاع قيادةً غير حميدة، لنشر الافتراءات، واختلاق الأكاذيب، حول الخلفاء، فادّعوا كذباً وزوراً أن هؤلاء الخلفاء قد خالفوا أمر النبي ﷺ، وخانوا وصاياه، وجنحوا عن العدل، وفرَّطوا في أموال الأمة، وقدّموا مَنْ حقه التأخير، وأخَّروا مَنْ حقه التقديم، وخبطوا في دين الله، وجعلوا الدولة حكراً على قبيلتهم أو المقربين إليهم!! فكان من الثمار المرة لهذه العاصفة الهوجاء اغتيال الخلفاء الثلاثة واحداً تلو الآخر، والقصد من وراء ذلك هدم الخلافة وزوال قيادتها الرشيدة للعالمين. فكان ذلك خسارة فادحة للأمة الإسلامية بخاصة، وللبشرية بعامة.

والحديث عن الخلفاء الراشدين عريض الجوانب، طويل المدى، واسع الآفاق، غزير المادة، تسابقت الأقلام في حلبته، وتنافست العقول في دراسته، وتعددت المناهج في الكتابة عنه، واختلفت الطرائق، وتباينت المذاهب، وجُمع في ذلك من الكتب ما ناء به كاهل التاريخ!.

وبعض من كتب: أطال القصير، وقصّر الطويل، ودَعَم المتهافت، وضمَّ المتفكك، واخترع ما لم يكن، وأشاح عن الحقّ وأعرض، وتولَّىٰ وأدبر، ونقل وتنقل، وزيّف وهرّج، وأساء وهو يظن أنه يحسن صنعاً! وكم من حقائق شوِّهت، وأمور كبيرة صُغِّرت، وصغيرة ضُخِّمت! ومنهم: من نقد ومحَّص، وحقّق وتثبَّت، وتخيَّر فكتب.

وفي زحمة الأقلام، وبين هذا الكم الهائل مما كُتب، يُشفق الباحث المسلم على القارئ أن يقع في شَرَك الأكاذيب، ويعطف على العامي أن يصدِّق ما يُلقى إليه، ويغار على الحقيقة أن تضيع بين الأباطيل، ويخشى على الحق أن تعصف به الأراجيف؛ فيجد من الواجب عليه أن يقدِّم مادة صادقة، نقية صافية، محققة ثابتة، تجمع المادة التاريخية لهذه الحقبة المباركة، بصورة وسطية تبعد عن

التطويل المملّ، وتنأى عن الاختصار المخلّ، وتخلّصها من أوضار الأباطيل، حتى لا يكون لأعداء الإسلام وشانئي خلفائه الكرام سبيلٌ إلى التشكيك بسيرتهم، وهدم أمجادهم وأعمالهم التي سطّروها فكانت من أكبر النعم التي قُدِّمت للبشرية كافة.

وقد قمتُ بجمع مادة ضخمة غزيرة كُتبت في حياة الخلفاء الأربعة قديماً وحديثاً، ثم رجعت أقرأ ما جمعت، وجعلت أُنقِّيه من غَلَس الأساطير، وأنفي عنه الروايات المكلومة، والحكايات المريضة، وفحصت ومحّصت، ووازنت ونقدت، حتى إذا استوى البحث على سوقه في إبراز معالم الحياة ومسيرة التاريخ في عهد الراشدين: أثبتُّ ما قوي من الروايات، ودخل في حيز القَبول، ووافق المنهج الرشيد الذي رُبّي عليه ذلك الجيل الفريد، ولم يعارضه معارض من مدركات العقل السليم، والمنطق القويم، والحقائق الكبرى التي شيدت عليها حقيقة الخلافة التي وصفها النبيّ ﷺ بأنها على منهاج النبوّة!.

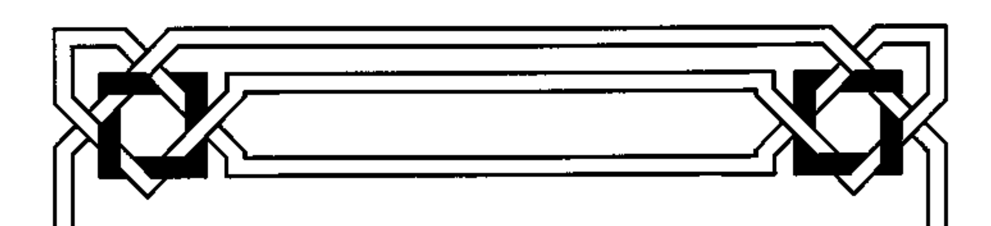
وأرجو أن أكون قد بَلَغت ما أريد من الكشف عن معالم تلك الحقبة الطيّبة، وإبراز معالمها الرئيسة وتثبيت حقائقها الكبرى، التي سطرها الراشدون بأعمالهم الخالدة وسيرتهم الماجدة، للتأكيد على أن مدتهم التي ناهزَتْ الثلاثين عاماً لاتزال ـ بعد هدي النبوّة ـ نبراساً شامخاً، وعلماً بارزاً، وأسوة تقتدى، ومثالاً يُحتذى.

اللهم إني أسألك من التوفيق ما يدلني على أرشد طريق، وأستهديك بلج الحق، وأستعين بك على السداد، وأعوذ بك من مساقط الهوى، وميل اليراعة عن جادة الرشاد، والمغفرة إن سها الفكر أو كبا القلم، وأن تجعل هذا العمل خالصاً لوجهك، مقبولاً عندك، وأن لا ينقطع أجره، وأن يستمر في المسلمين نفعه، وأن تجزل المثوبة لقارئه وناشره. آمين

الأربعاء ٩/ شعبان/ ١٤٢٠هـ
١٧ / ١١ / ١٩٩٩م

عبد الستار الشيخ

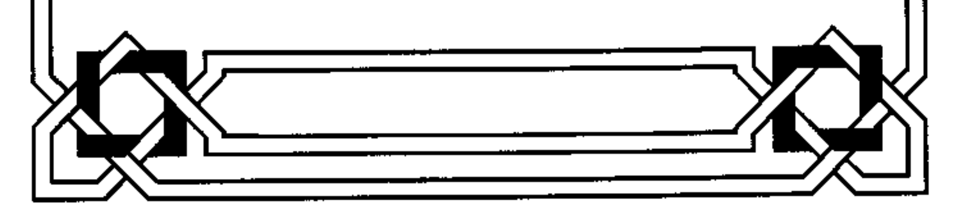




البَابُ الأوَّل

أبُو بَكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه

أوَّلُ خُلفَاءِ الإسلامِ



الفصل الأول

نبعته وحليته وإسلامه

اسمه ونسبته ولقبه وولادته:

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سَعْد بن تَيْم بن مرّة ابن كعب بن لؤي بن غالب، القرشي التيمي، أبو بكر الصدّيق بن أبي قُحافة.

كان يقال له (عَتيق) لحُسنِ وجهه وجماله، وطيب أصله، وطهارة نسبه، وأنه لم يكن في نسبه شيء يُعاب.

وذات يوم كان رسول الله ﷺ وأصحابه جالسين بفناء البيت، إذ أقبل أبو بكر، فقال النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّه أن ينظر إلى عتيق من النار، فلينظر إلى أبي بكر». فغلب عليه لقبه، واشتهر به.

صفتُه وحِلْيَتُه:

ولد بعد حادثة الفيل بسنتين وستة أشهر، وكان رجلاً أبيض نحيفاً، خفيف العارضين[1]، أجنأ[2]، لا يستمسك إزاره، يسترخي عن حَقْويه[3]، معروق[4] الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، يخضب بالحناء والكَتَم[5].

---

(١) العارض: صفحة الخدّ.

(٢) أي في ظهره انحناء يسير.

(٣) الحَقْوُ: الخصر.

(٤) أي لحم وجهه قليل.

(٥) نبت يُصبغُ به الشعر أسود.

هذا هوالرجل الذي اختارته الأقدار الإلـهية ليكون صدّيق النبي ﷺ، وصاحبه في الغار، وخليفته من بعده، ينشر نور الرسالة مشرقاً مغرباً، ويقيم دولةً تملأ عين الدنيا، وتسعد الناس. وهو الرجل الذي كانت خلافته السطور الأولى في نعي إمبراطوريتي فارس والروم!!

ولكأنَّ الله سبحانه وتعالى لما علم من هذا الإنسان الشاهق الباهر أنه يضيق ذرعاً بأن يُمَيَّز عن الناس بشـيء يجعله مهوى أبصارهم؛ اختار له هذا التكوين البشري البسيط: (نحيف الجسم، غائر العينين، ناتئ الجبهة)!.

أبواه وإسلامهما:

نشأ أبو بكر في كنف والده أبي قحافة ـ الذي أسلم يوم الفتح ـ، وأمه أمّ الخير سـلمى بنت صخر بن عامر، ابنـة عم أبي قحافة، التي أسلمت، وصحبت مع ابنها رسولَ الله ﷺ.

عمله ومكانته في قريش:

ونأى الشاب الطاهر عن رجس الجاهلية ودنسها، وتحلّى بالأخلاق العربية الأصيلة، فكان ذا خُلق ومعروف، محبباً سهلاً، صادق الحديث، طيب العِشْرة، حسن المجالسة. حرَّم على نفسه الخمر في الجاهلية، ولما سُئل: هل شربت الخمر في الجاهلية؟ قال: أعوذ بالله! فقيل له: ولِمَ؟ قال: كنتُ أصون عِرضي، وأحفظ مروءتي، فإنّ مَنْ شرب الخمر كان مضيعاً في عرضه ومروءته.

وكان أنسبَ العرب، وأنسب قريش لقريش، وأعلمهم بما كان منها من خير أو شرّ، وبلغ الغاية في علم تعبير الرؤيا، فكان المقدَّم فيه، وتوَّج ذلك بأنه تاجر مجرّب، ذو حنكة ودربة؛ فأحبه قومه، ووثقوا به، وعرفوا له منزلته، فأصبح من رؤسائهم في الجاهلية، وأهل مشاورتهم، وأَحَدَ عَشَرةِ رجال من قريش اتصل بهم شرف الجاهلية والإسلام. وأسندوا إليه أمر الديات، فإذا حمل منها شيئاً صدَّقوه، وأمضوا ذلك، وإن احتملها غيره خذلوه.

إسلامه:

وكان أبـو بكر يجلس طويـلاً إلى أولئك الثلاثـة الأحنـاف، والنفر الصالح: قَـسّ بن سـاعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نفيل، وورقـة بن نوفل؛ يصغي إلى كلماتهم الرطبة، ويلقي إليها سمعه، ويتتبّعها كما يتتبّع الطير الظامئ مواقع القطر والندى، وتتنسمها روحه كما يتنسم العليل هواء الربيع الناعش.

ولكن هؤلاء كانوا عاكفين على أنفسهم، لا يحملون دعوة منظَّمة، ولا ديناً يهدد قريشاً ووثنيتها وتقاليدها. ثم هم في مرتفعات أعمارهم، قد أوشكت حياة كل منهم على الأفول. فماذا يفعل؟! ولم يطل به التردد حتى التمعت في خاطره صورة القدوة الكاملة والمثل الأعلى؛ إنه محمد بن عبد الله ﷺ.

فمحمد ﷺ في ربيع العمر، حسيب نسيب، وهو في قومه كألمع درة في التاج، قد عزفت نفسه عن الأصنام، يقضي أيامه بعيداً عن عبث الجاهلية وسخافاتها، إذا دعاه أترابه لِلَّعب، فزع لذلك وقال: «أنا لم أُخلق لهذا»! يمضي يومه بالتأمل في هذا الملكوت الواسع الرهيب، فيرى أن له خالقاً ومبدعاً، يجب أن يعظَّم دون سواه. صحيح أنه لا يذكر الأصنام بسوء، لكنه كذلك لا يمدحها، ولا يسجد لها مع الساجدين، قد جرّد من نفسه أمة وحده، ومضى يبحث عن الحق واليقين.

وأبو بكر صديق محمد ﷺ، تجمعهما سنٌّ واحدة، ويرى فيه المَثَل الأعلى والقدوة التي تدعـو إلى الثقـة. ويجيل خاطره، ويُعْمِل فكـره في الحوادث العِظام، التي تُحُدِّث بها في جنبات مكة؛ فيقع على الحدث الجلل، الذي رآه منذ أعوام قليلة، حين أتمت قريش تجديد بناء الكعبة، وهمّوا أن يعيدوا الحجر الأسود إلى مكانه، فاشتجر الخلاف بينهم، وأنذر

بحرب كحرب الفِجَار، واحتدم الخلاف، وأشار أحدهم أن يحكِّموا بينهم أول قادم، وجاء محمد ﷺ فقال الجميع: (هذا الأمين محمد... نعم الحكم هو).

وينظر أبو بكر إلى وثنيات الجاهلية، وعبادتها المختلفة، فمنهم من يسجد للأصنام، وآخرون يعبدون الشمس، وثمّة من يعبد الملائكة، بل كان فيهم من يعبد الجنّ والكواكب، وهناك الدهريون، الذين قال الله فيهم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وضاعت الحنيفية في زحمة هذا الشرك المبرقع، فيتساءل أبو بكر: أَوَلا يجيء رجل يحسم هذا الخلاف العقائدي، كما جاء (الأمين) وحسم الخلاف بين بطون قريش، فجنَّبها وادياً من الدم كاد يجري!!.

وتطلَّع أبو بكر إلى (الأمين) الذي كان له ترباً وحميماً، وصحبه في رحلته إلى الشام، وسمع كلام (بَحيرا الراهب)، مع ما كان يسرّ إليه بعض مايراه من إرهاصات النبوّة... فأحبه أبو بكر، وتعلّقت به نفسه، ورأى فيه المخلّص والمنقذ.

وزاد من ذلك ما حدث معه في إحدى خرجاته إلى اليمن، قبل مبعث النبي ﷺ، فيحدثنا عنها قائلاً: (نزلتُ على شيخ من الأزْد عالِم، قد قرأ الكتب، وعَلِم من عِلْم الناس علماً كثيراً، فلما رآني قال: أحسبك حرميّاً؟! قال أبو بكر: قلتُ: نعم، أنا من أهل الحرم. قال: وأحسبك قرشياً؟! قلت: نعم، أنا من قريش. قال: وأحسبك تيمياً؟! قال: قلت: نعم، أنا من تَيْم بن مرّة، أنا عبد الله بن عثمان من ولد كعب بن سعد بن تيم بن مرّة. قال: بقيت لي فيك واحدة! قلت: ما هي؟ قال: تكشف عن بطنك! قلت: لا أفعل، أَوْ تخبرني لِمَ ذاك؟!

قال: أجد في العلم الصحيح الصادق أن نبياً يبعث في الحرم، يعاونه

على أمره فتى وكهل، فأما الفتى فخوّاض غمرات، ودفّاع معضلات، وأما الكهل فأبيض نحيف على بطنه شامة، وعلى فخذه اليسرى علامة، وما عليك أن تريني ما سألتك؛ فقد تكاملت لي فيك الصفة، إلاما خفي عليّ.

قال أبو بكر: فكشفت له عن بطني، فرأى شامة سوداء فوق سرّتي، فقال: أنت هو ورب الكعبة، وإني متقدم إليك في أمر فاحذره! قال أبو بكر: قلت: وما هو؟ قال: إياك والميل عن الهدى، وتمسك بالطريقة المثلى الوسطى، وخفِ الله فيما خوّلك وأعطاك! قال أبو بكر: فقضيتُ باليمن أَرَبي، ثم أتيت الشيخ لأودعه، فقال: أحامل عني أبياتاً من الشعر قلتُها في ذلك النبيّ؟ قلت: نعم، فذكر أبياتاً).

وعاد أبو بكر إلى مكة، وهو ينتظر مبعث النبي المنتظر، وما إن سمع النبأ العظيم، وأن صديقه الحميم محمداً قد نزل عليه الوحي، وحُمِّل رسالة السماء، حتى أسرع إليه، وقال له: أحقّ ما تقول قريش يا محمد، من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آباءنا؟!

فقال رسول الله ﷺ: «بلى، إني رسول الله ونبيّه، بعثني لأبلغ رسالته، وأدعوك إلى الله بالحق، فوَالله إنه للحق، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعته». وقرأ عليه القرآن، فأسلم وكفر بالأصنام، وخلع الأنداد وأقرّ بحقِّ الإسلام، ورجع وهو مؤمن مصدِّق.

آمن أبو بكر لساعته، ولم يطل التفكير، لما كان يعلمه من صدق النبي ﷺ وأمانته، وحسن سجيته، وكرم أخلاقه؛ ما يمنعه أن يكذب على الخلق، فكيف يكذب على الله تعالى؟! وهو قد صحب محمداً زهاء أربعين سنة، لم يَخُن فيها أمانة، ولم يختلق كلمة، ولم يكذب قط، حتى ولو كان مازحاً، لم تأخذه عن الطهر نزوة، ولم يُرَ إلا عظيماً، ولم تكن قريش مجاملة له ولا هازلة، ولا متفضلة عندما لقبته بـ(الأمين)، واشتهر ذلك فيها.

أَبَعْدَ هذا كلـه يكذب محمد على ربـه؟! آلآن تتحول حياة الصادق الأمين، الطاهر النقي، الأوَّاه الأوَّاب، الضارع الخاشع، الموحِّد المتبتل؛ إلى أن يكذب على الله في الرسالة؟! أبداً لا يكون هذا، وليس الأمر كما تزعم قريش.

فبادر وسابق، وكان أول الناس إسلاماً، وأشدهم تصديقاً برسول الله ﷺ ودعوته، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كَبْوَة، وتردد ونظر؛ إلا أبا بكر، ما عَكَمَ[1] عنه حين ذكرته، وما تردد فيه».

وسأل الشعبيُّ ابنَ عباس: أي الناس كان أولَ إسلاماً؟ قال: أبو بكر الصديق، ألم تسمع قول حسان:

إذا تذكَّرتَ شجواً من أخي ثقةٍ فـاذكـر أخـاك أبـا بكـرٍ بمـا فَعَـلا
خيـرُ البـريـةِ أتقـاهـا وأعـدلهـا إلا النبـيَّ وأوفـاهـا بمـا حَمَـلا
والثانيَ التاليَ المحمودَ مشهدُه وأوّلُ الناسِ منهم صدَّق الرُّسُلا

شهرته بـ(الصدِّيق):

فكان رسول الله ﷺ إذا أخبر بشيء سابق أبو بكر إلى تصديقه، والإيمان به، لأنه لا ينطق عن الهوى، فلقِّب بـ(الصدِّيق) واشتهر ذلك بعد حادثة (الإسراء والمعراج) حيث جاء المشركون إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟! يزعم أنه أُسْرِيَ به الليلة إلى بيت المقدس! قال: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم. فقال: لقد صدق، إني لأصدِّقه بأبعد من ذلك، بخبر السماء في غدوة أو رَوْحة!. فلذلك سمّي الصديق.

---

(١) ما عَكَمَ: ما تلبَّث بل أجاب بسرعة.

وحسب رسول الله ﷺ أن تنفرج شفتاه عن شيء، حتى يقول أبو بكر: صدق. فمن شاء فليبحث، ولينظر، وليتشكك، وليتحرَّ... أما أبو بكر فلا، فلقد أصبح شعاره منذ أسلم: (إن كان قال فقد صدق).

ولقد أعلن رسول الله ﷺ ذلك بين الناس، عندما صعد جبل أُحد مع أبي بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم الجبل، فقال النبي ﷺ: «اثبُت أُحد، فإنما عليك نبيّ وصدّيق، وشهيدان».

لهذا كان علي بن أبي طالب - في خلافته - يذكر على المنبر، ويكرر مراراً: (إن الله سمّى أبا بكر على لسان نبيه صدّيقاً).

وهذا ما حدا بأبي محجن الثقفي أن يقول:

وسمِّيتَ صدّيقاً وكلُّ مهاجرٍ ... سواك يسمّى باسمه غير منكرِ
سَبَقْتَ إلى الإسلامِ واللهُ شاهدٌ ... وكنتَ جليساً في العريشِ المشهَّرِ
وبالغارِ إذ سُميتَ بالغار صاحباً ... وكنتَ رفيقاً للنبيِّ المطهَّرِ

• • •

الفصل الثاني

صحبته وهجرته ومشاهده

صحبته وثبوتها في القرآن والسنَّـة:

آثر أبو بكر الإسلام على ما سواه، ودخل فيه أكمل دخول، ولم يزل مترقياً في معارفه، متزايداً في محاسنه، حتى توفي.

وصحب رسول الله ﷺ من حين أسلم إلى أن لحق النبي ﷺ بربه، فلم يفارقه في حضر ولا سفر، وهذا ما تقوله السيدة عائشة بنت الصديق: (لم أعقِل أبويَّ إلا وهما يَدِينان الدِّين، ولم يمر علينا يوم، إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طَرَفَي النهار بُكرةً وعشيةً). وبذلك استحق ذلك الثناء العظيم من الله سبحانه، فسمّاه في القرآن صاحباً: ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]. ولهذا قال العلماء: من أنكر صحبته كفر، لأن القرآن العزيز نطق أنه صاحبه! وسماه النبي ﷺ صاحباً، فقال له: «أنت صاحبي على الحوض، وصاحبي في الغار».

دعوته الناس إلى الإسلام، وعتقه العبيد:

ولم يكتفِ أبو بكر بأن دخل بنفسه في الإسلام، بل استخدم جاهه ومكانته في قريش لصالح دعوته، فقام يدعو من يثق بهم إلى الإسلام، يشرح لهم حقائقه وأصوله، ويرغبهم بطاعة رسول الله الصادق الأمين، متحرّياً في ذلك من يكون إسلامه عوناً لنشر الدعوة وحمايتها... فأسلم على يديه عثمان بن عفان، وطلحة ابن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وهم خمسة من العشرة المبشرين بالجنة. ثم جاء من الغد بعثمان بن مظعون،

وأبي عبيدة بن الجراح، وأبي سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، فأسلموا جميعاً رضي الله عنهم.

فازداد بذلك ركب الإسلام، وقويت كتيبة الإيمان، ووضع أبو بكر ماله لنصرة دين الله سبحانه، فلقد كان له أربعون ألفاً أنفقها على رسول الله، وفي سبيل الله، حتى قال النبي ﷺ: «ما نفعني مالٌ ما نفعني مالُ أبي بكر»!.

كان يمر على العبيد وهم يُعذَّبون، فيؤرِّقه حالهم، فبذل لتحريرهم حُرَّ ماله، فأعتق منهم سبعة، هم عامر بن فُهيرة، وأم عُبيس، وزِنِّيرة، والنَّهدية وابنتها، وجارية لبني مُؤَمّل. واشترى بلال بن رباح ـ مؤذن النبي ﷺ ـ بخمس أواق ذهباً، فقالوا له: لو أبيت إلا أوقية لبعناك. قال: لو أبيتم إلا مئة أوقية لأخذته!!.

وعلم أبو قحافة بمن يعتقهم ابنه، فقال له: يا بنيَّ إني أراك تُعْتِقُ رِقاباً ضِعافاً، فلو أنك إذ فعلتَ ما فعلتَ أعتقت رجالاً جُلْداً، يمنعونك ويقومون دونك؟! فقال أبو بكر: ياأبتِ إني إنما أُريد ما أُريد الله عز وجل! فنزل قول الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ٥ ـ ٢١].

تحمُّله في سبيل الدعوة، ودفاعه عن النبي ﷺ:

ومضى أبو بكر ينصر دين الله بكل وسيلة يملكها، بالدعوة إليه حيناً، وبعتق الرقاب حيناً آخر، وبالدفاع عن نبيه أبداً.

فبينا كان المشركون قعوداً في المسجد الحرام، يتذاكرون رسول الله ﷺ، وما يقول في آلهتهم، إذ دخل النبي ﷺ المسجد، فقاموا إليه، فقالوا: ألستَ تقول في آلهتنا كذا وكذا؟! قال: «بلى»! فتشبثوا به بأجمعهم، فأتى الصريخُ إلى أبي بكر، فقيل له: أدرك صاحبك. فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد، فوجد رسول الله ﷺ، والناس مجتمعون عليه، فقال: ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨]؟! فلهوا عن رسول الله ﷺ، وأقبلوا على أبي بكر يضربونه، فرجع إلى أهله، لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام!!.

وكان يجاهر بالدفاع عن رسول الله ﷺ، لا يخاف أذى، ولا يَهاب من أحد كثُرَ جمعه أو قلّ.

ويحدّث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ في خلافته ـ عن واحد من مواقف الصديق تلك فيقول: (ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فهذا يَجْبَؤُه[1]، وهذا يُتَلْتِله[2]، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلـٰهاً واحداً؟! فوالله مادنا منّا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويجبأ هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟! ثم رفع عليٌّ بُرْدة كانت عليه فبكى حتى اخضلَّت[3] لحيته، ثم قال للناس: أُنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم.

فقال: ألا تجيبونني؟ فوالله لساعة من أبي بكر خيرٌ من ألف ساعة من مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه!!).

وما إن بلغ أصحاب النبي ثمانية وثلاثين رجلاً حتى ألحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور والجهر بالدعوة، فقال له النبي: «ياأبا بكر إنَّا قليل». فلم يزل أبو بكر يلحّ حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرّق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته. وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أولَ خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضُربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً ووطئ أبو بكر، وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويحرّفهما لوجهه، ووثب على بطن أبي بكر، حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تَيْم[4] يتعادون، فأجلتِ المشركين عن أبي بكر،

---

(١) يبغته ويفجؤه.
(٢) يحرّكه ويقلقله ويزعزعه من مكانه ويزلزله.
(٣) أي: ابتلّت.
(٤) هم قبيلة أبي بكر.

وحملوه في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكّون في موته! ثم رجعت بنو تَيْم، فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبه بن ربيعة. فرجعوا إلى أبي بكر، وجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلِّمونه حتى أجاب، فتكلَّم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ؟! فمسّوا منه بألسنتهم ولاموه، ثم قاموا، وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه. فلما خَلَت به ألحّت عليه، فجعل يقول: مافعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أمَّ جميل فسألتها، فأنكرت أنها تعرف رسول الله وأبا بكر، خوفاً من أن تكون عيناً للمشركين. وذهبت بنفسها إلى أبي بكر، فوجدته صريعاً دَنِفاً، فصاحت قائلة: والله إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم!! قال أبو بكر: فما فعل رسول الله ﷺ؟.

فقالت أم جميل: هذه أمك تسمع!.

قال: فلا شيء عليكِ منها.

قالت: سالم صالح.

قال: أين هو؟.

قالت: في دار الأرقم.

قال: فإن لله عليَّ أن لا أذوق طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى آتي رسول الله ﷺ!!.

فمكث قليلاً، حتى إذا هدأت الرِّجْل، وسكن الناس، خرج الصديق يتكىء على أمه وأم جميل، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ، فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبّله، وأكبَّ عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة.

فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي يارسول الله، ليس بي بأس، إلا ما نال الفاسقُ من وجهي، وهذه أمي بَـرَّة بولدها، وأنت مبارك؛ فادعُها إلى الله، وادعُ لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النار. فدعا لها رسول الله ﷺ، ودعاها إلى الله، فأسلمت وشهدت شهادة الحق.

هجرته إلى الحبشة لم تتم:

ولما رأى أبو بكر تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه، ضاقت به مكة، فاستأذن النبي ﷺ في الهجرة، فأذن له، فخرج مهاجراً نحو الحبشة، فلقيه ابنُ الدَّغِنَة ـ وهو سيد القارة ـ فقال: أين تريد يا أبا بكر؟.

فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أَسيحَ في الأرض، وأعبد ربي.

قال ابن الدغنة: فإن مِثلك ياأبا بكر لا يَخْرُجُ؛ إنك تَكْسِبُ المعدومَ[1]، وتَصِلُ الرحم، وتحمِلُ الكَلَّ[2]، وتقرِي[3] الضَّيْفَ، وتعين على نوائب الحق[4]، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك.

فرجعا إلى مكة، وقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يعرض أحد له إلا بخير. فكفوا عنه، واشترطوا عليه أن يعبد الله في بيته.

فبقي الصّديق على ذلك يصلي ويقرأ القرآن في داره، ولا يستعلن بذلك. ثم ابتنى مسجداً بفناء داره، فكان يصلي ويقرأ القرآن، وكان رجلاً بكّاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فجعل نساء المشركين وأبناؤهم يزدحمون على بابه لسماع القرآن. ففزعت قريش، وأرسلوا إلى ابن الدغنة كي ينهىٰ أبا بكر عن ذلك، أو يردّ إليه جواره. وجاء ابن الدغنة إلى أبي بكر بهذا الطلب، فرفض الصديق أن يكفّ عن إعلان صلاته، وتلاوة القرآن، وقال: بل أردّ إليك جِوَارك، وأرضى بجوار الله عز وجل.

---

(١) أي: تتبرع بالمال لمن عدمه، وتعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك.
(٢) أي: تقوم بشأن من لا يستقلّ بأمره، لِيُتمٍ وغيره.
(٣) أي: تهيّئ له القِرى، وهو ما يقدم للضيف من طعام وشراب.
(٤) ما ينزل بالإنسان من حوادث ومصائب، وأضيفت إلى الحق، لأنها تكون في الحق والباطل.

هجرته مع النبي ﷺ إلى المدينة:

ولبث في مكة مع أصحاب رسول الله ﷺ، يناله ما ينالهم من أذى قريش واضطهادها لدين الله والمؤمنين به، حتى أَذِن النبي ﷺ للمسلمين في الهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجر مَنْ هاجر إليها، وهمّ الصدّيق بذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسْلِكَ، فإني أرجو أن يؤذَن لي». فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال: «نعم» فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعَلَفَ راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر أربعة أشهر.

وبينا أبو بكر جالس في بيته في نَحْرِ الظهيرة واشتداد الحرّ، إذا بقائل يقول: هذا رسول الله ﷺ متقنِّعاً؛ في ساعة لم يكن يأتي أبا بكر فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ.

وجاء رسول الله فاستأذن، فأُذن له، فَدَخل، فقال لأبي بكر: «أَخْرِجْ مَنْ عندك». فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبي أنت وأمي يا رسول الله! قال: «فإني أُذِنَ لي في الخروج». فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟! قال رسول الله ﷺ: «نعم».

فبكى أبو بكر من الفرح وتهلّل وجهه لهذه الصحبة، وهو يعرف جيداً أن قريشاً ستجنّد فرسانها، وتملأ السهل والجبل لتظفر بالنبي المهاجر. وهو يعلم حقّ العلم أنّ الهجرة ليست نزهة، بل مخاطرة، بل مخاطرة مهولة، ومغامرة فادحة!.

لكن لِمَ نقول هذا وأبو بكر يعلم أن الله الذي ألقى كلمته إلى رسوله ﷺ لم يكن ليتركها تذروها رياح الشرك من أول صيحة.

ويرى مع هذا أن إيمانه بهذا الدين، واتّباعه لهذا الرسول العظيم ﷺ؛ يحمّله مسؤوليات عظاماً، فلابد من أن يقدم لها تضحيات تليق بجلالها، ولتكن العواقب ما تكون!!.

وجاءت الساعة التي انتظرها أبو بكر طويلاً، وقد أعدّ لهذا الحدث الجليل ما يناسبه، لأنه ليس أمراً عادياً، بل سيغير وجه التاريخ. وأراد لأهل بيته جميعاً أن ينالوا شرف خدمة رسول الله ﷺ، والحفاظ على نفسه الكريمة، واستمرار دعوته، حتى تبلغ ما أراد الله لها. فأعدّ لكل فرد مهمة يقوم بها، فقامت عائشة وأسماء وصنعتا سُفْرة في جراب[1]، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت (ذاتَ النطاقين). ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور، فكَمَنَا فيه ثلاث ليالٍ، وعبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما، ويخرج وقت السَّحَر إلى مكة، يتسمّع ما يقول الناس في النهار من كيد للنبي ﷺ وصاحبه، فيأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام. وعامر ابن فُهيرة ـ مولى أبي بكر ـ يرعى غنمه نهاره، ثم يريح على فم الغار إذا أمسى، يعفِّي بذلك أثر أقدام عبد الله بن أبي بكر، ويشرب النبي والصدّيق اللبن، ويذبحان من الشاء. يفعلان ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

وبذلك اشترك البيت البكري كله، فنال شرف خدمة النبي ﷺ وسلامة دعوته في أحلك الظروف وأقسى الابتلاءات.

واحتمل أبو بكر معه ماله كله، ومعه خمسة آلاف درهم، ودخل أبو قحافة على أبناء الصدّيق، وقد ذهب بصره ـ تقول أسماء ـ: (فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه! فقالت أسماء: كلا يا أبتِ، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، فأخذتُ أحجاراً فوضعتُها في كوّة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيه، ثم وضعتُ عليها ثوباً، ثم أخذتُ بيده فقلت: يا أبتِ ضع يدك على هذا المال! فوضع يده عليه فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أَحْسَن، وفي هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكني أردت أن أسكّن الشيخ بذلك)!!.

وجاء نفرٌ من قريش إلى بيت أبي بكر وفيهم أبو جهل، فوقفوا على بابه،

---

(١) هو وعاء يُحفظ فيه الزاد.

فخرجت أسماء إليهم، فقالوا: أين أبوكِ يا بنت أبي بكر؟ قالت: لا أدري والله أين أبي! فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدّها لطمة طرح منها قرطها!!.

هكذا سوّلت لأبي جهل نفسُهُ أن يتعاظم على فتاة غاب عن عرينها الأسد الذي يحمي الذمار ويذود عن الديار! ولكن القدر الحكيم قد لقّنه درساً في (بدر)، حيث علا صدره المنتفخَ واحدٌ من أضعف المسلمين قوة، وأنحلهم جسماً، ذلكم هو عبد الله بن مسعود، الذي احتزّ رأسه وألقاه عند قدمي رسول الله ﷺ!!.

وما إن وصل النبي ﷺ وصاحبه إلى فم الغار حتى قال أبو بكر: (يا رسول الله، دعني فلأدخل قبلك، فإن كانت فيه حيّة أو شيء كانت بي قبلك. قال: «ادخل». فدخل أبو بكر فجعل يلتمس بيده، كلما رأى جُحراً جاء بثوبه، فشقّه ثم ألقمه الجُحر، حتى فعل ذلك بثوبه أجمع، فبقي جحر، فوضع عَقِبه عليه، ثم أدخل رسول الله ﷺ. فلما أصبح، قال له النبي ﷺ: «فأين ثوبك يا أبا بكر»؟! فأخبره بالذي صنع، فرفع النبي ﷺ يده فقال: «اللهمّ اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة». فأوحى الله تعالى إليه: إن الله قد استجاب لك).

وحمي الطلب على رسول الله ﷺ وصاحبه، واشتدّ المشركون يبحثون عنه في كل حدب وصوب، حتى وصلوا إلى فم الغار الذي فيه النبي ﷺ وأبو بكر، فأعمى الله أبصارهم، وصرف قلوبهم، والصدّيق في الغار ينظر إلى أقدامهم، وقد بلغ الخوف منه كل مبلغ، إشفاقاً من أن يهتدوا إليهما، فيبطشوا برسول الله ﷺ، فتتوقف الدعوة، وينقطع الوحي الأمين والنور المبين، فيعيش الناس في ظلمات ليل الشرك البهيم! ويقول لرسول الله ﷺ: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصَرنا، فيقول له ﷺ: «ما ظنّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»؟!.

سبحان مَنْ كلُّ شيء عنده بمقدار، لكأنما الأقدار الإلـٰهية قد اختارت أبا بكر لصحبة رسول الله ﷺ في الهجرة لتُريه هذا المشهد الفذ، ولتهيّئه لدوره

المخبوء عندما يصبح خليفة رسول الله، وليبلغ من عِظَته ما تبقى له من حظوظ إيمانه، وليرشف من اليقين آخر رشفاته، يبلغ معها ذروة الإيمان واليقين، فلا يظمأ بعدها أبداً!!.

ورجع المشركون خائبين خاسرين لم ينالوا خيراً، وكفى اللهُ رسولَه شرّهم، وانطلق الرسول ﷺ وصاحبه من الغار متجهَيْن إلى المدينة المنورة، ويصوّر لنا الصدّيق ذلك المشهد المثير فيقول:

(سَرَيْنا[١] ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة[٢]، وخلا الطريق لا يمرّ فيه أحد، فرميت ببصري هل أرى من ظل فآوي إليه، فإذا صخرة طويلة لها ظل، لم تأتِ عليه الشمس، فنزلنا عنده، وسوَّيتُ للنبي ﷺ مكاناً بِيَدي ينام عليه، وبسطتُ فيه فروة[٣]، وقلت: نَمْ يارسول الله. ثم انطلقتُ أنظر ما حولي، هل أرى من الطلب أحداً؟، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردنا، فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ قال: لرجل من قريش، سمّاه فعرفته. فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت: فهل أنت حالب لبناً؟ قال: نعم. فأخذ شاة فحلب في قَعْبٍ[٤] كُثْبَةً[٥] من لبن، ومعي إداوة حملتها للنبي ﷺ يرتوي منها، يشرب ويتوضأ. فأتيت النبي ﷺ فكرهت أن أوقظه، فوافقته حين استيقظ، فصببت الماء على اللبن حتى بردأسفله، فقلت: اشرب يارسول الله، فشرب حتى رضيتُ، ثم قال: «ألمْ يأنِ للرحيل»؟ قلت: بلى. فارتحلنا بعدما مالت الشمس، والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم، غير سراقة بن مالك على فرس له؛ فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يارسول الله! فقال: «لا تحزن إن الله معنا»!! حتى إذا دنا منا فكان بيننا وبينه قَدْر رمح ـ أو رمحين ـ

---

(١) سرنا في الليل.
(٢) أي نصف النهار حال استواء الشمس.
(٣) هي الجلد الذي يُلبس.
(٤) هو قدح من خشب.
(٥) قطعة من لبن قدر ملء القدح.

قلت: يارسول الله، هذا الطلب قد لحقنا، وبكيت! قال: «لِمَ تبكي»؟! قلت: أما والله ما على نفسي أبكي، ولكن أبكي عليك!! فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اكفناه بما شئت» فساخت قوائم فرسه إلى بطنها في أرض صلبة).

واستمر المهاجران المؤمنان في سيرهما قِبَل المدينة المنورة، وأبو بكر الصدّيق يحمي رسول الله ﷺ بنفسه، فتارة يمشي أمامه يخاف عليه الرَّصد، وحيناً يسير خلفه يخشى عليه الطَّلب. ويلقى رجلٌ أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل. فيحسب الحاسب أنما يهديه الطريق، وإنما يعني سبيل الخير. يفعل أبو بكر هذا خوفاً على رسول الله ﷺ من عيون قريش، ومَنْ تحلَّبت أشداقهم، وتطلعت نفوسهم لمئة ناقة رصدتها قريش جُعْلاً لمن يردّ إليها محمداً!!.

ووصل الركب الميمون إلى المدينة ـ حيث كانت الأنصار في انتظار رسول الله ﷺ ـ بعد رحلة مضنية، حفّتها المخاطر من كل جهة، وكان قدر الله وحفظه فوق كل تدبير وكيد، انضم إلى ذلك أَخذُ النبي ﷺ بالأسباب، والتخطيط الدقيق، والتعمية على قريش بكل وسيلة يمتلكها البشر، وكان أبو بكر وآل بيته الحراس الأمناء، والليوث الأقوياء؛ لإنجاح الهجرة المباركة، التي كانت أساس قيام الدولة الإسلامية الراشدة، بعد أن ألقت ناقة رسول الله ﷺ بجرانها في ديار أنصار الله وأنصار رسوله.

مشاهده:

وابتدأ رسول الله ﷺ بإقامة الدولة، وإرساء قواعدها، وتشييد دعائمها، فأضحى ذلك غصة في حلوق المشركين. وجاءت (غزوة بدر) لتسجل أعظم انتصار لجيش الحق وكُماته على جند الباطل وحماته!.

وكان لأبي بكر فيها موقف مشهود، فقد بنى الصحابة لرسول الله ﷺ عريشاً يشرف منه على القتال، وانتدبوا رجلاً يحمي النبي ﷺ من المشركين، ويحدّث

علي بن أبي طالب عن ذلك في خلافته، عندما وقف في الناس خطيباً؛ فيقول:

(أخبروني من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين. قال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه. ولكن أخبروني بأشجع الناس؟ فقالوا: لا نعلم، فَمَنْ؟ قال: هو أبو بكر، إنه لما كان يوم بدر، فجعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً، فقلنا: مَنْ يكون مع رسول الله ﷺ، لئلا يَهوي إليه أحد من المشركين؟ فوالله ما دَنَا منا أحد إلا أبو بكر، شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلا هوى إليه، فهو أشجع الناس).

فكان الصدّيق مع رسول الله ﷺ في العريش، كما كان معه في الغار، رسول الله ﷺ يكثر الابتهال والتضرع، ويخشى أن تهلك عصابة المؤمنين فلا يُعبد الله، ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد بعدها في الأرض». ويناشد ربه عز وجل ويقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك». ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه، وجعل أبو بكر يلتزمه من ورائه، ويسوّي عليه رداءه، ويقول مشفقاً على رسول الله، راجياً نصر الله: يارسول الله، بعض مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

وتلقى أبو بكر رضي الله عنه تلك البشارة من رسول الله ﷺ، التي رواها علي بن أبي طالب، قال: قال لي رسول الله ﷺ ولأبي بكر الصديق يوم بدر: «مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل مَلَكَ عظيم، يشهد القتال، ويكون في الصف». فكانت تكرمة عظيمة لأبي بكر في الدنيا، وعند الله أعظم الثواب في الآخرة.

* * *

وشهد أبو بكر مع النبي ﷺ (غزوة أُحُد)، وكان في صفوف المشركين ابنه عبد الرحمن[1] ـ أكبر ولده ـ وكان شاباً شجاعاً، ورامياً بارعاً، فدعا إلى البراز،

---

(١) أسلم رضي الله عنه في هدنة الحديبية، وحَسُنَ إسلامه، وحضر اليمامة مع خالد، وقتل=

وقام الصديق إلى فلذة كبده، وثمرة فؤاده، يواجهه، ويريد مبارزته، وقد نحّى عاطفة الأبوّة جانباً، ونأى بنفسه أن يراه الله سبحانه يسكت عن رجل يحادّ الله ورسوله، كائناً من كان، ولم يعبأ بفتوة هذا الشاب وجلادته، وقوة بأسه، وسداد رميته؛ لكن رسول الله ﷺ أخذ بِحُجْزَتِه وقال له: «متّعنا بنفسك»!.

وشهد (غزوة الخندق)، و(بيعة الرضوان) بالحُديبية، وكان له فيها موقف فذّ أَبَانَ فيه عن عَبقرية نادرة، فاحَ من مقام الصديقية الذي احتازه. فبعد أن أبرم النبي ﷺ (صلح الحُديبية)، وقد عزّ على المسلمين أن يرجعوا إلى المدينة دون اعتمار، وقد تنسّموا عبير البيت الحرام، فقام عمر بن الخطاب، فأتى النبي ﷺ فقال:

ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فَلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً؟! قال: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري». قلت: أَوَلَيْسَ كنتَ تحدثنا أنّا سنأتي البيت فَنَطُوفُ به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنّا نأتيه العام»؟! قال: قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَّوِّفٌ به». قال: فأتيت أبا بكر فقلت: ياأبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحقِّ وعدوّنا على الباطل؟! قال: بلى. قلت: فَلِمَ نعطي الدنيَّةَ في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بِغَرْزِهِ[1]، فوالله إنه على الحق. قلت: أليس كان حدثنا أنا سنأتي البيت ونطُوف به؟! قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطَّوِّف به...!!.

أيُّ إلهامٍ هذا، وأي إشراق، وأية عبقرية؟! إنه أبو بكر، الذي وضع نهج حياته وكلامه ومواقفه في قوله المشهور: (إن كان قال فقد صدق)!! فكل ما يصدر

= سبعة من كبار رجال مسيلمة الكذاب.

(١) أي: تمسّك بأمره ولا تخالفه.

عن رسـول الله ﷺ من قول وفعل هـو حق وصدق، وصواب ورشـاد وخيـر. ولا يقضي الإنسان من العجب إذا تأمل فرأى تطابق الإجابة من النبي ﷺ مع جواب أبي بكر لعمر رضي الله عنهما، بل حتى الكلمات ما خالفت واحدة أختها!

* * *

وكان مع النبي ﷺ في: (خيبر، وفتح مكة، وحُنين، والطائف، وتبوك، وحجة الوداع)، وحضر سائر المشاهد، ولم يتخلّف عن رسول الله ﷺ في واحد من مشاهده، ودفع رسول الله ﷺ رايته العظمى (يوم تبوك) إليه، وكان فيمن ثبت (يوم أُحد وحُنين) حين فرّ الناس!!.

وبعثه رسول الله ﷺ أميراً على الحج سنة تسع ليقيم للناس حجهم، وأرسل عليَّ بن أبي طالب بصدر سورة براءة، وأمره أن يؤذّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنىً: «أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان».

وخرج عليٌّ على ناقة رسول الله (العضباء)، وأدرك أبا بكر بالطريق، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور. ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، وقام علي بن أبي طالب فأذّن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ.

وكـان أبو بكر كالظلّ لرسـول الله ﷺ، لا يفارقـه في سَـفَر ولا حَضَـر، ما افتقد يوماً في مجلس رسول الله ﷺ، ولا غاب عن مشهد، ولا تخلّف عن واقعة. وكان عظيم التوقير لمقام النبي ﷺ، منقطع النظير في طاعته، بلغ به ذلك أنه لما نزل قوله الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]؛ قال أبو بكر: يارسول الله، لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلتُ! فقال: «صدقت»!!.

● ● ●

الفصل الثالث

أخلاقه وشمائله وعلمه ومكانته

عبادته وتقواه وورعه:

وفوق ذلك كان على درجة من التقوى والورع، والتبتل والتضرّع؛ وصل بها إلى مقام الصدّيقين، ونال منزلة المحسنين، يبادر الناس بالأعمال الصالحة، ويسابقهم فيسبقهم. يخشى الله في سرّه، ويديم مراقبته في جهره، يتحرى الحلال ويهرب من الشبهات، يؤدّب أهله، ويمسك بعنان نَفسه، ويحبس لسانه. لا يرى خصلة من خصال الخير إلا هرع إليها، ولا يسمع من رسول الله ﷺ حثاً على عمل إلا سبق إليه.

ذات يوم صلى النبي ﷺ صلاة الصبح، ثم أقبل على أصحابه بوجهه فقال: «من أصبح منكم اليوم صائماً»؟ فقال عمر: يا رسول الله، لم أحدّث نفسي بالصوم البارحة؛ فأصبحت مفطراً. فقال أبو بكر: ولكني حدثت نفسي بالصوم البارحة؛ فأصبحت صائماً. فقال: «هل أحد منكم اليوم عاد مريضاً»؟ فقال عمر: يارسول الله، لم نَبْرَحْ[1] فكيف نعود المريض؟! فقال أبو بكر: بلغني أن أخي عبد الرحمن بن عوف شاكٍ، فجعلت طريقي عليه لأنظر كيف أصبح. فقال: «هل منكم أحد أطعم اليوم مسكيناً»؟ فقال عمر: صلينا يارسول الله ثم لم نبرح. فقال أبو بكر: دخلتُ المسجد فإذا بسائل، فوجدت كسرة من خبز الشعير في يد عبد الرحمن، فأخذتها ودفعتها إليه. فقال: «أنت، فأبشر بالجنة». ثم قال كلمةً أرضى بها عمرَ، وزعم أنه لم يُرِد خيراً قطّ إلا سبقه إليه أبو بكر.

وفي واحد من مجالس النبي ﷺ سمع أبو بكر رسول الله ﷺ يقول: «من

---

(١) أي: لم نغادر مكاننا.

أنفق زوجين[1] في سبيل الله، نُودي من أبواب الجنة: ياعبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الرَّيَّان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة». فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي وأمي يا رسول الله، ما على من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة[2]، فهل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

* * *

وكان يصوم الصيف ويفطر الشتاء، طمعاً في زيادة الثواب والأجر من الله سبحانه وتعالى. لا يتكلم إلا فيما يعنيه؛ إذا صمت فَعَنْ علم، وإذا تكلم فعن مثل الجمان، ينطق بالحكمة والخير والمعروف وفَصْل الخِطَاب. يضبط لسانه، ويحاسب نفسه؛ اطَّلع عمر عليه ذات يوم فرآه آخذاً بلسانه ويقول: (هذا الذي أوردني الموارد)!!.

ويرعى أهل بيته وبنيه، يحملهم على عظائم الأمور، وينأى بهم عن سفاسفها، ويرغّبهم في الآخرة، وعدم الركون إلى زينة الحياة الدنيا. ولنستمع لهذا النبأ الباهر الذي تُحدِّث به ابنته الصديقة عائشة فتقول: (لبستُ مرة دِرْعاً لي جديداً، فجعلت أنظر إليه، وأُعجبت به. فقال أبو بكر: ما تنظرين؟ إن الله ليس بناظر إليك!!. قلتُ: ممَّ ذاك؟ قال: أما علمتِ أنّ العبد إذا دخله العُجب بزينة الدنيا مَقَته ربه عزَّ وجلّ حتى يفارق تلك الزينة؟!. قالت: فنزعتُه، فتصدقتُ به. فقال أبو بكر: عسى ذلك أن يكفِّر عنكِ).

لذلك كان يخشى من الدنيا وزينتها أن تلحق به، فيقصر عن مقام الصدّيقين الذي كأنما نفسه جُبلت لنواله؛ فقد دعا بشراب ذات مرة، فأتي بإناء فيه ماء

---

(١) عمل صنفين من أعمال البر.

(٢) أي من مضرة، أي: قد سَعِد من دُعي من الأبواب جميعاً، ودعوته منها جميعاً أن يُخيَّر في الدخول من أيها شاء، وهذا مزيد تكريم وفضل.

وعسل، فلما أدناه من فيهِ نحّاه، ثم بكى حتى بكى أصحابه من حوله، فسكتوا وما سكت، ثم عاد فبكى، حتى ظنوا أنهم لا يقوون على مسألته، ثم مسح وجهه وأفاق، فقالوا: ياخليفة رسول الله ﷺ ما أبكاك؟

قال: (كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ويقول: «إليكِ عني، إليكِ عني»، ولم أرَ معه أحداً، فقلت: يا رسول الله، ما هذا الذي تدفع ولا أرى أحداً معك؟ قال: «هذه الدنيا تمثّلت لي بما فيها، فقلت لها: إليكِ عني، فتنحَّت وقالت: أما والله إنك إن أفلتَّ فلن يفلتَ مني مَنْ بعدك»؛ فخشيت أن تكون قد لحقتني، فذاك الذي أبكاني)!!.

سبحانك يا خالق أبي بكر!!.

الرجل الذي سبق الناس إلى الإسلام، وما تردد ولا تلكأ لحظةً من ليل أو نهار في الإيمان بالله ورسوله.

الرجل الذي كان شعاره (إن كان قال فقد صدق)، حتى اشتهر بالصدِّيق.

الرجل الذي صحب النبي ﷺ في الغار، وكان رفيقه في الهجرة المباركة.

الرجل الذي دافع عن رسول الله ﷺ، وأنفق ماله في سبيل الله، وأعتق الرقاب.

الرجل الذي شهد مع النبي ﷺ المشاهد كلها، وكانت له المواقف المشهودة المحمودة...

هذا الرجل يخشى أن تلحقه الدنيا؟! ليس لها بك أرب يا أبا بكر.

* * *

ومع هذا التبتل الخاشع، والتخشع الضارع، كان يتحرى الحق حتى في اللقمة التي يدخلها إلى بطنه، فقد كان لا يسيغها إذا دنَّستها شبهة. (هذا غلام

لأبي بكر مملوك، يُخرج له الخَراج[1]، وكان أبو بكر يأكل من خَرَاجه، فجاء يوماً بشيء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنتُ تكَهَّنْتُ لإنسانٍ في الجاهلية، وما أُحْسِن الكِهانة[2]، إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه. فأدخل أبو بكر يده فقاءَ كلَّ شيء في بطنه. فقيل له: يرحمك الله، كل هذا من أجل هذه اللقمة؟! فقال: لو لم تخرج إلا مع نَفْسي لأخرجتها؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَىٰ بِهِ». فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة)!!.

والأعجب من هذا أنه مع كل هذا الورع والتقوى، وجماعه لخصال الخير، وصالح الأعمال، والسَّبق للإسلام، والذود عن النبي ﷺ ودعوته؛ ما اغترَّ بذلك كله، بل كان يخشى الله تعالى ويقول: (لوددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن).

ودخل ذات يوم بستاناً، فرأى طائراً في ظل شجرة، فتنفَّس أبو بكر الصُّعَدَاء، ثم قال: (طوبى لك يا طير، تأكل من الشجر، وتستظل بالشجر، وتصير إلى غير حساب، يا ليت أبا بكر مثلك).

إنها النفوس التي تربَّت على خشية الله تعالى، وعلمت قدر هول الحساب، والوقوف بين يدي الله سبحانه، فما تجرأت نفسه أن تحدثه في ساعةٍ من نهار بما قدَّمه للإسلام من تضحيات، وما بذله من معروف وخيرات، فهو يعمل العمل ويرجو الله سراً وعلانية أن يجعله في سجل القَبول وصحيفة الحسنات، فكان إذا مُدح قال:

(اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون)؟!.

---

(١) أي: يأتي له بما يكسبه من الخراج، وهو ما كان يقرِّره السيد على عبده من ماله يدفعه من كسبه.

(٢) الكهانة: هي الإخبار عما سيكون من غير دليل شرعي.

إنفاقه في سبيل الله:

ولم يترك أبو بكر واحداً من أبواب الخير، وخدمة دعوة الحقِّ إلا طَرَقَه، ودخل من أوسعها باباً، وسابق فيه غيره، فسبقه، ولم يتقدَّم عليه أحد. ولنصغِ إلى عمر بن الخطاب يحدِّثنا فيقول:

(أمَرَنا رسول الله ﷺ أن نتصدَّق، ووافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أَسْبِقُ أبا بكر - إن سبقتُه -، فجئتُ بنصف مالي. فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيتَ لأهلك»؟ قلت: مثلَه. وأتى أبو بكر بكلِّ ما عنده. فقال: «يا أبا بكر ما أبقيتَ لأهلك»؟ قال: أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه!!. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبداً).

ولما بُعث رسول الله ﷺ كان عند أبي بكر أربعون ألفاً، أنفقها كلها على رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، يعتق منها، ويعول المسلمين، فكان رسول الله ﷺ يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه، حتى قال النبي ﷺ:

«ما لأحَدٍ عندنا يَدٌ إلا وقد كافيناه، ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مالُ أحدٍ قطُّ ما نفعني مالُ أبي بكر».

وقال أيضاً: «إن من أَمَنِّ[1] الناس عَلَيَّ في صحبته وماله أبا بكر».

ولما سمع أبو بكر ذلك بكى وقال: (هل أنا ومالي إلا لك يارسول الله)؟!.

هكذا بمنطق المؤمن الصابر، ولا عجب فإنه الصدّيق، الذي يرى أن رسول الله ﷺ له المنّة والفضل على الإنس والجن، حيث أخرجهم الله به من ظلمات الشرك إلى نور الإسلام. وهو إذ فتح لهم باب الإنفاق، فإنما ذلك لتعلو درجاتهم، وتسمو منازلهم في درجات الجنة.

فلِمَ يمنّ المرء بنفقته وهو إنما يقدم الخير لنفسه؟!.

---

(١) أي أسمحُ بماله وأبذل له، ولم يُرِدْ به معنى الامتنان؛ لأن المِنَّةَ تُفسِد الصنيعة، ولا مِنّة لأحد على رسول الله ﷺ، بل له المنة على الأمة قاطبة.

علمه ومروياته ومن روى عنه:

وأبو بكر ـ كما كان رأس الصدّيقين من الصحب الكرام، وأسبق السُّبَّق إلى الإسلام، وأشجع الناس، وأكثرهم إنفاقاً في سبيل الله، وأعظمهم حباً وتعظيماً لرسول الله ﷺ، أوَّاهاً أوَّاباً، يخشى الله في السر والعَلَن. كذلك كان أعلمَ الناس وأفْقَههم. فقد كان يفتي في زمن رسول الله ﷺ، ولما سئل ابن عمر: (مَنْ كان يفتي الناس في زمن رسول الله ﷺ؟ فقال: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ما أعلم غيرهما).

ولذلك لما مرض النبي ﷺ قدَّم أبا بكر على من سواه ليصلي بالناس، ولا يصلي بهم إلا من كان أقرأهم وأعلمهم. وقد تجلى ذلك في مواقف عديدة، كان بعضها في حياة النبي ﷺ، وبعضها بُعيد وفاته، وفي خلافة أبي بكر.

وقف رسول الله ﷺ في أواخر أيامه، فخطب الناس، وقال: «إن عبداً خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده». فقال أبو بكر: فديناك يارسول الله بآبائنا وأمهاتنا!! قال: فَعَجِبنا! فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ماعنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا!! قال: فكان النبي ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر هو أعلَمَنا.

ولمّا مات رسول الله ﷺ، ومنع قوم الزكاة، وقف الصدّيق وِقفته المشهورة، وقال: والله لأقاتلنَّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه.

ووقف الصحابة عن فهم الحُكم في المسألة إلا هو، فناظرهم وحجَّهم بالدلائل، ثم ظهر لهم بمباحثته لهم أنّ قوله هو الصواب، فشرح الله صدرهم لما شرح الله له صدره من الحق، وهو قتال أهل الردة.

ولا أدلّ على سعة علمه بالقرآن، وكثرة محفوظه من السُنَّة، من موقفه في

(سقيفة بني ساعدة)[1]، لما قام خطيباً، فلم يترك شيئاً أُنزل في الأنصار، أو قَدْ ذكره رسول الله ﷺ في شأنهم إلا ذكره على ملأ من الناس.

وقد روى عنه جلَّة الصحابة، منهم: عمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن ابن عوف، وابن مسعود، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وابن عباس وحُذيفة، وأولاده؛ عبد الرحمن ومحمد وعائشة، وغيرهم كثير. وخلائق من التابعين كالصنابحي، ومرّة الطِّيب، وقيس بن أبي حازم، وسويد بن غَفَلة.

* * *

ومع هـذا العلم الواسـع فلم يُرْوَ له عن رسول الله ﷺ سوى مئة حديث واثنين وأربعين حديثاً، وسـبب قلّة روايته ـ مع تقدم صحبتـه، وطول ملازمته النبي ﷺ ـ أنه تقدمت وفـاته قبل انتشـار الأحاديث، واعتناء التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها، وانشغاله أعظم الشغل بحروب المرتدين من العرب ومانعي الزكاة، وإرساء قواعد الدولة الإسلامية، والحفاظ على سلطانها، وقيامه بمهام الخلافة العظيمة، فلم يتفرَّغ للجلوس في حلقات العلم ونشره، وكان على ثقة من أن بين الصحابة من يقوم مقامه في فتيا الناس.

وكان متواضعاً في علمه أشد التواضع، ولا يقول إلا ما يعلم، ولا يهجم على الفتيا بغير علم، فقد سئل مرة عن قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: (أي سماء تُظِلُّني، وأي أرض تُقِلُّني[2]، إن قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم)؟!.

تعبيره الرؤيا:

واشتهر بتعبير الرؤيا، وبلغ منها الغاية، فكان يعبر الرؤيا في زمن النبي ﷺ، حتى قال محمد بن سيرين ـ وهو المقدَّم في هذا العلم ـ: كان أبو بكر أعبرَ هذه الأمة بعد النبي ﷺ.

---

(١) هي ظلّة كانوا يجلسون تحتها.
(٢) تحملني.

● رأى النبي ﷺ رؤيا فقصَّها على أبي بكر، فقال: «ياأبا بكر، رأيتُ كأني استَبَقْتُ أنا وأنت درجة، فسبقْتُك بِمِرْقَاتَين[1] ونصف»؟ قال: خيرٌ يارسول الله، يُبْقِيكَ الله حتى ترى ما يَسُرّك ويُقِرُّ عينك. قال: فأعاد عليه مثل ذلك ثلاث مرات، وأعاد عليه مثل ذلك. فقال له في الثالثة: «ياأبا بكر، رأيتُ كأني استبقتُ أنا وأنت درجة، فسبقتُك بمرقاتين ونصف»؟ قال: يا رسول الله، يقبضك الله إلى رحمته ومغفرته، وأعيش بعدك سنتين ونصفاً.

● وروى ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، إني أرى الليلة في المنام ظُلَّةً[2] تَنْطُفُ[3] السَّمْن والعسل، فأرى الناس يَتكَفَّفُونَ[4] منها بأيديهم، فالمستكثِرُ والمستقِلُّ، وأرى سبباً[5] واصلاً من السماء إلى الأرض، فأراك أخذتَ به فَعَلَوْتَ، ثم أخذ به رجل من بعدك فَعَلاَ، ثم أخذ به رجل آخرُ فَعَلاَ، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع به، ثم وُصِلَ له فعلا.

قال أبو بكر: يارسول الله، بأبي أنت والله لَتَدَعَنِّي فَلأَعْبُرَنَّها. قال رسول الله ﷺ: «اعبُرْهَا». قال أبو بكر: أما الظلة: فظلة الإسلام. وأما الذي يَنْطُف من السَّمن والعسل: فالقرآن، حلاوته وَلِينُهُ. وأما ما يتكفَّفُ الناس من ذلك: فالمستكثِرُ من القرآن والمستقِلُّ. وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض: فالحقُّ الذي أنت عليه، تأخذ به فيُعْلِيكَ الله به، ثم يأخذ رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به. فأخبرني يارسول الله، بأبي أنت، أصبتُ أم أخطأتُ؟ قال رسول الله ﷺ: «أصبت بعضاً وأخطأتَ بعضاً»[6]. قال: فوالله يارسول الله لتُحَدِّثَني ما الذي أخطأتُ؟ قال: «لا تُقْسِمْ».

---

(١) أي: درجتين.
(٢) أي: سحابة.
(٣) أي: تقطر قليلاً قليلاً.
(٤) يأخذون بأكفّهم.
(٥) السبب هو الحبل.
(٦) قال العلماء: أخطأ في تفسير بعضها، فإن الرائي قال: (رأيتُ ظلّة تنطف السمن=

● ورأت ابنته عائشة رضي الله عنها كأنه وقع في بيتها ثلاثة أقمار، فقصَّتها على أبي بكر، فقال: (إن صدقت رؤياك ليُدْفَنَنَّ في بيتك خير أهل الأرض ثلاثة. فلما قبض النبي ﷺ قال: ياعائشة، هذا خير أقمارك)[1].

● ولما أجمع خالد بن الوليد الخروج إلى رسول الله ﷺ مسلماً، رأى رؤيا يحدِّثنا عنها فيقول: أرى في النوم كأني في بلاد ضيقة مجدبة، فخرجت في بلاد خضراء واسعة، فقلت: إن هذه لرؤيا، فلما أن قدمتُ المدينة قلت: لأذكرنها لأبي بكر، فقال أبو بكر: مخرجك: الذي هداك الله للإسلام. والضيق: الذي كنتَ فيه من الشرك.

● وجاءه ذات يوم رجل فقال له: رأيتُ في النوم أني أبول دماً!. فقال أبو بكر: أنت رجل تأتي امرأتك وهي حائض، فاستغفر الله ولا تَعُدْ!!.

مكانته عند النبي ﷺ وأصحابه:

لأجل ما تقدَّم كلّه ـ وما ذكرنا غيض من فيض ـ كانت لأبي بكر عند النبي ﷺ المكانة السامقة، والمرتبة الأولى التي تستشرف لها كل نفس، حتى قال رسول الله ﷺ: «لو كنتُ متخذاً خليلاً[2] غير ربي لاتّخذتُ أبا بكر، ولكن أُخوَّة الإسلام ومودَّتُهُ، لا يبقينَّ في المسجد بابٌ إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر».

ولما جاءه عمرو بن العاص يسأله: أي الناس أحبُّ إليك؟ قال: «عائشة».

= والعسل)، ففسره الصديق رضي الله عنه بالقرآن، حلاوته ولينه، وهذا إنما هو تفسير العسل، وتركَ تفسير السمن، وتفسيره السنة. فكان حقه أن يقول: القرآن والسنّة.

(١) والآخران هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٢) الخُلّة: الصداقة والمحبة التي تخلّلت القلب، فصارت خلاله، والخليل: الصديق. وإنما قال ﷺ ذلك لأن خُلّته مقصورة على حبّ الله تعالى، فليس فيها لغيره مُتّسع ولا شَرِكَة من محابّ الدنيا والآخرة. وهذه حال شريفة يختص الله بها من يشاء من عباده مثل رسول الله ﷺ.

فقلت: من الرجال؟ فقال: «أبوها». قلت: ثم من؟ قال: «عمر بن الخطاب». فعدَّ رجالاً.

وخرج النبي ﷺ ذات يوم على الناس فدخل المسجد، وأبو بكر وعمر أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، وهو آخذ بأيديهما، وقال: «هكذا نُبعث يوم القيامة». وذات مرة رأى أبا بكر وعمر فقال: «هذان السمع والبصر».

ولما قدم رسول الله ﷺ من حجة الوداع، صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس! إن أبا بكر لم يسؤني قط، فاعرفوا له ذلك. أيها الناس إني راضٍ عنه، وعن عمر وعثمان وعلي، وطلحة والزبير، وسعد وعبد الرحمن بن عوف، والمهاجرين الأولين، فاعرفوا ذلك لهم».

وحتى في حلقة النبي ﷺ كان له المكان المميّز، فإذا تأخر عن الحضور لأمر عارض لم يبح أحد لنفسه الجلوس فيه، ينقل ذلك أحد الأنصار فيقول: (إن كانت حلقة رسول الله ﷺ لتشتبك حتى تصيرُ كالإسْوار، وإنّ مجلسَ أبي بكر منها لفارغٌ، ما يطمع فيه أحد من الناس، فإذا جاء أبو بكر جلس ذلك المجلس، وأقبل عليه النبي ﷺ بوجهه، وألقى إليه حديثه، وسمع الناس).

وكثيراً ما كان الرسول ﷺ يقول: «آمنتُ بذلك وأبو بكر وعمر» أمام الناس وليس ثَمَّ هما، تبياناً لعظيم إيمانهما، وثقة رسول الله ﷺ بهما.

جلس النبي ﷺ يوماً يحدِّث الناس ويَعِظهم ويعلّمهم، فكان فيما قال: «بينما راعٍ في غنمه، عدا عليه الذئب، فأخذ منها شاة، فطلبه الراعي، فالتفت إليه الذئب، فقال: من لها يوم السَّبُع، يوم ليس لها راعٍ غيري»؟!

وبينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها، فالتفتت إليه فكلَّمَتْهُ، فقالت: إني لم أُخلق لهذا، ولكني خُلقتُ للحَرْثِ». قال الناس: سبحان الله! قال النبي ﷺ: «فإني أومن بذلك، وأبو بكر وعمر بن الخطاب». قال أبو سلمة: وما هما يومئذٍ في القوم.

ولأجل هذا الإيمان المتفرد، استحق أبو بكر الصديق رضوانَ الله تعالى،

الذي جاء به الوحي الأمين من عند الله عز وجل إلى النبي ﷺ، فقال: «يامحمد، إنّ الله يقرأ عليك السلام ويقول لك: قل لعتيق بن أبي قحافة إنه راضٍ عنه».

فكان رسول الله ﷺ يعرف لأبي بكر مكانته وفضله وسابقته، ويعلن ذلك بين الناس، بل ويطلب منهم أن ينشروا ذلك. قال مرة لحسان بن ثابت: «هل قلتَ في أبي بكر شيئاً»؟ قال: نعم. فقال: «قل وأنا أسمع». فقال:

والثاني اثنينِ في الغارِ المنيفِ وقد   طافَ العدوُّ بهِ إذْ صَعَّدَ الجَبَلاَ
وكان حِبَّ[1] رسولِ الله قد علموا   من البريَّة لم يعدلْ بِهِ رَجُلا

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه[2]، ثم قال: «صدقتَ ياحسان، هو كما قلتَ».

* * *

● لهذا كان الصحابة يعظِّمون أمر الصدّيق، ويكرهون مخاصمته حتى لا يغضب النبي ﷺ لغضبه.

يحدثنا أبو الدرداء عن واحدٍ من تلك المواقف فيقول: كنت جالساً عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه، حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامَرَ»[3]!

فسلَّم وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعتُ إليه[4]، ثم ندمتُ، فسألته أن يغفر لي، فأبى عليَّ، فأقبلتُ إليك.

فقال: «يغفر الله لك ياأبا بكر». ثلاثاً.

---

(١) الحِبّ: هو المحبوب.
(٢) النواجذ: جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس في الفم، والمراد أنه ضحك ضحكاً بالغاً.
(٣) أي: خاصَمَ.
(٤) أي: أسرعت إليه بالكلام الغليظ.

ثم إن عمر نَدِمَ، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أَثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا. فأتى النبي ﷺ، فسلَّم، فجعل وجه النبي ﷺ يتمعَّر[1]، حتى أشفقَ[2] أبو بكر، فجثا على ركبتيه، فقال: يارسول الله، واللهِ أنا كنتُ أظلمَ، مرتين.

فقال النبي ﷺ: «إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صَدَقَ. وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي»، مرتين. فما أوذِيَ بعدها.

● وذات مرة استبَّ عقيل بن أبي طالب وأبو بكر ـ وكان أبو بكر نسّاباً، غير أنه تحرَّج من قرابته من النبي ﷺ ـ فأعرض عنه، وشكا إلى النبي ﷺ، فقام رسول الله ﷺ في الناس فقال: «ألا تَدَعُون لي صاحبي؟ ماشأنكم وشأنه؟! فوالله ما منكم رجل إلا على باب بيته ظُلْمة، إلا باب أبي بكر، فإن على بابه النور. فوالله لقد قلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صدقتَ. وأمسكتم الأموال، وجادَ لي بماله. وخذلتموني، وواساني واتبعني»!!.

● لكن الصدّيق لم يكن ليغتنم مكانه من رسول الله ﷺ فيسيء لواحد من الصحابه، وإذا بدر منه شيء سارع للاعتذار، وردَّ الحق إلى صاحبه.

ولنصغِ إلى ربيعة بن كعب الأسلمي، الذي جرت بينه وبين أبي بكر خصومة عارضة، فيقول:

(كان بيني وبين أبي بكر كلام، فقال لي كلمةً كرهتُها، ثم نَدِمَ عليها، وقال لي: ياربيعة رُدَّ عليَّ مثلها حتى تكون قصاصاً. قلت: لا أفعل. فقال لي: لتأخذنَّ بحقك مني، أو لأشكونَّك إلى رسول الله. قلت: ما أنا بفاعل. فذهب عني منطلقاً إلى النبي ﷺ، وانطلقت وراءه.

فجاء ناس من (أسلم) فقالوا: يَرحم الله أبا بكر، في أي شيء يستعدي عليك رسول الله ﷺ، وهو الذي قال لك ما قال؟!.

---

(١) يتغيّر لونه من الضجر.

(٢) خاف على عمر، فجلس يستعطف النبيَّ ﷺ.

فقلت لهم: اسكتوا، هذا أبو بكر! هذا الذي قال الله عنه: ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ إياكم لا يلتفت فيراكم تنصرونني عليه فيغضب، فيغضب رسول الله ﷺ لِغَضَبِه، فيغضب الله لغضبهما؛ فيهلك ربيعة!.

وانطلقت وراء أبي بكر، حتى أتى الرسول ﷺ فحدَّثه بما كان. فرفع إليَّ رسول الله ﷺ رأسه وقال: «ياربيعة، مالكَ وللصدِّيق»؟. قلت: يارسول الله، إنه قال لي كلمة كرهتُها، ثم طلب إليَّ أن أردها عليه لتكون قصاصاً، فأبيتُ. فقال الرسول ﷺ: «أحسنتَ ياربيعة، لا تردّها عليه، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر». فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر. فولّى أبو بكر وهو يبكي)!!.

كلمة واحدة لم تكن من فحش القول ـ لأن أبا بكر ما تعوّد التفحُّش، وما أُثر عنه ذلك حتى في الجاهلية ـ يبكي أبو بكر من مغبّة الوقوع فيها! ومع أن ربيعة غفر له ذلك، لكنه يأبى إلا القصاص.

وكأنه في ذلك يأتسي برسول الله ﷺ عندما كان يسوّي الصفوف في (غزوة بدر)، فطعن سوادَ بن غَزِية في بطنه بسهم وقال: «استوِ يا سواد». فقال سواد: أقدني يارسول الله، فكشف النبي ﷺ عن بطنه وقال: «استقِد».

* * *

ولقد عرف الصحابة جميعاً منزلة أبي بكر من رسول الله ﷺ، ومكانته في الإسلام في حياة النبي ﷺ، وأثناء خلافة الصديق، وبعد موته.

● يقول عبد الله بن عمر: (كنّا نُخَيِّر[1] بين الناس في زمن النبي ﷺ، فنخيِّر أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، رضي الله عنهم).

● وفي خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جاء نفر فقالوا

---

(١) أي: نقول فلان خير من فلان.

له: والله ما رأينا رجلاً أقضى بالقسط، ولا أقوَل بالحق، ولا أشد على المنافقين منك يا أمير المؤمنين؛ فأنت خير الناس بعد رسول الله ﷺ!.

فقال عوف بن مالك رضي الله عنه: كذبتم ـ والله ـ لقد رأينا خيراً منه بعد النبي ﷺ!. فقالوا: من هو ياعوف؟. فقال: أبو بكر. فقال عمر: «صدق عوف وكذبتم، والله لقد كان أبو بكر أطيب من ريح المسك، وأنا أضلّ من بعير أهلي»[1]!!.

● ووفد أناس من أهل الكوفة وأهل البصرة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونزلوا المدينة، وتحدّث القوم بينهم، إلى أن ذكروا أبا بكر وعمر، ففضَّلَ بعض القوم أبا بكر على عمرَ، وفضَّل بعض القوم عمرَ على أبي بكر، وكان الجارود بن المعلّى ممن فضَّل أبا بكر على عمر.

فجاء عمر ومعه دِرَّته، فأقبل على الذين فضّلوه على أبي بكر، فجعل يضربهم بالدِّرَّة، حتى ما يتقي أحدهم إلا برجله.

فقال الجارود: أفِقْ، أفِقْ ياأمير المؤمنين، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يكن ليرانا نفضّلك على أبي بكر، أبو بكر أفضل منك في كذا، وأفضل منك في كذا!!.

فَسُرِّيَ عن عمر، ثم انصرف.

فلما كان من العشيّ، صعد المنبر فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: ألا إنَّ أفضل هذه الأمة بعد نبيّها أبو بكر، فمن قال غير ذلك بعد مقامي هذا فهو مفترٍ، عليه ما على المفتري.

● ومثل ذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا يفضّلني أحد على أبي بكر وعمر، إلا جلدته حَدَّ المفتري.

ولما سأله ابنه محمد ابن الحنفية فقال: (قلت لأبي: أيُّ الناس خير بعد

---

(١) أي حين كان مشركاً.

رسول الله ﷺ؟. قال: أبو بكر. قلت: ثم مَنْ؟. قال: عمر. وخشيت أن يقول عثمان، فقلت: ثم أنت؟. قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين)!.

● ودخل عبد الله بن عباس على معاوية: فلما جلس قال له معاوية: ماتقول في أبي بكر؟. فقال ابن عباس:

(رحم الله أبا بكر، كان ـ والله ـ للقرآن تالياً، وعن الميل نائياً، وعن الفحشاء ساهياً، وعن المنكر ناهياً، وبدينه عارفاً، ومن الله خائفاً، وبالليل قائماً، وبالنهار صائماً، ومن دنياه سالماً، وعلى عدل البرية عازماً، وبالمعروف آمراً، وإليه صائراً، وفي الأحوال شاكراً، ولله في الغدو والروْح ذاكراً، ولنفسه بالمصالح قاهراً. فاق أصحابه ورعاً وكفافاً، وزهداً وعفافاً، وبرّاً وحِياطة، وزهادة وكفاءة، فأعقبَ الله مَنْ ثَلَبَه[1] اللعائنَ إلى يوم القيامة).

أفيستغرب بعد هذا كله أن يُجْمِعَ أهلُ السنَّة على أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ هو أبو بكر؟!.

وقد عبّر عن ذلك أبو هريرة رضي الله عنه إذ يقول: كنا معاشر أصحاب رسول الله ﷺ ـ ونحن متوافرون ـ نقول: أفضل هذه الأمة بعد نبيّها أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان ثم نسكت.

أوَّلياته:

ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه بين الناس كالقَطْر، أينما وقع نفع، وحاز أشياء ما سبقه إليها أحد؛ فهو:

أول من أسلم من الرجال الأحرار الذين قويت بهم الدعوة، وأول من حجّ أميراً في الإسلام؛ حيث سيّره رسول الله ﷺ ليحج بالناس أميراً سنة تسع، وأول من سمّي خليفة رسول الله ﷺ، وأول من جمع القرآن وسمّاه مصحفاً،

---

(١) أي: ألحق به العيب وتنقَّصه.

وأول من اتخذ بيت المال.

وكـان ثـاني رجل في الدولـة الإسـلامية، واقتعد مكان الوزيـر الأول من رسـول الله ﷺ، يشـاوره في الأمور التي تهم المسـلمين، وثانيه في الإسلام، وثـانيه في الغار، وثـانيه في العريش يوم بدر، وثانيه في القبر، وثاني من تنشق الأرض عنه بعد رسول الله ﷺ. فرضي الله عن أبي بكر أي رجل كان!!.

من أهل الجنـة:

وكم للصدِّيق من مواقف ومآثر، فمناقبه أشهر من أن تُذكر، وأكثر من أن تُحصر، فلا يمكن استقصاؤها، ولا الإحاطة بعُشر معشارها. وما ذكرنا إلا ومضات عن ذلك النجم الساطع، والرجل الهاطل من السماء، الذي صاحَبَ نور النبوة، نستدلّ به على عَظَمة هذا الخليفة الشامخ الباهر، كما يدل الضياء النافذ من الكوّة على نور الشمس، التي تمدّ الأحياء بروح الحياة.

ورجـل جُبل على الفضائـل الرفيعـة، وحاز المآثـر الحميدة، ونال المناقب الكاملة المتكاثرة المتزاحمة في تكوينه الفذ؛ حريّ بأن ينال بشرى رسـول الله ﷺ الذي يقول ـ فيما يـرويه أبـو هريرة ـ: «أتاني جبريل، فأخذ بيدي، فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي».

فقال أبو بكر: يارسول الله، وَدِدْتُ أني كنتُ معك حتى أنظر إليه.

فقال رسـول الله ﷺ: «أما إنك يـا أبا بكر أولُ من يدخل الجنـة من أمتي».

وهو فيها من أهل الدرجات العُلى، جزاءً وفاقاً، وكأساً دهاقاً، تماماً كما كـان في الدنيـا على درجـات اليقين، فهـو كذلك في الآخرة في أرفع درجات الصدّيقين.

قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الدرجات العُلى ليراهم مَنْ تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم».

ومع هذه المنزلة السنيّة، هو أيضاً سيد بين أهل الجنة، كما كان بين قومه سيداً مقدّماً مطاعاً، وفي الإسلام سباقاً شجاعاً.

وقد قال النبي ﷺ له ولعمر: «هذان سيدا كهول[1] أهل الجنة من الأولين والآخرين، إلا النبيين والمرسلين».

● ● ●

(١) الكَهْل: من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين.

الفصل الرابع

خلافته وجلائل أعماله

موقفه عندما مات رسول الله ﷺ:

لقد كان أبو بكر في حياة رسـول الله ﷺ يعيـش في الظلّ، ويـؤثر ذلك، فيكون بين المسلمين واحداً منهم، ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى قام أبو بكر في الناس، يكشف لهم الطريق، ويقودهم إلى الحق. وبرزت للناس عَظَمَته، في الوقت الذي كان الصحابة، بل الدعوة الإسلامية، لا بل البشرية كلها؛ بحاجة إلى تلك الوقفات الخارقة حتى تهديها السبيل!!.

ففي آخر يوم من أيام رسـول الله ﷺ في هذه الدنيا الفانية، وبعد أن صلّى أبو بكر بالناس، دخل، فعادَ النبي ﷺ في حجرته، واستأذنه أن يغيب بعض الـوقت، وذهب إلى داره (بالسُّنْح)[1] ومضى وقت ليس بالطويل، قضى فيه أبو بكر حاجات أهله، وبينا هو يتهيأ للعودة إلى رسول الله ﷺ، إذا بالناعي يقطع الأرض إليه وثباً، ويلقي عليه النبأ المهول، الذي يهدّ الراسيات: (لقد مات رسول الله ﷺ).

واختلطت دموعه الهاطلة بصوته المتهدج، وهو يقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون). فأغذَّ السير، رابط الجأش إلى بيت رسول الله ﷺ، ولم يكد يقترب من المسجد النبوي حتى رأى الفاجعة الكبرى قد فعلت فعلها، وطاشت حُلُوم المسلمين، وفقدوا صوابهم، حتى القوي الراسخ، والعبقري المُلهَم المُحَدَّث

(١) إحدى محالّ المدينة، كان بها منزل أبي بكر حين تزوّج بنت خارجة بن زيد الأنصاري.

عمر كان واقفاً شاهراً سيفه وهو يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ مات، وإنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران! والله ليرجعنّ رسول الله، فليقطعنّ أيدي رجال زعموا أنه مات. ألا لا أسمعُ أحداً يقول: إن رسول الله ﷺ مات؛ إلا فَلَقْتُ هامته بسيفي هذا!!.

تلك كانت حالة عمر، فكيف حال من سواه؟! كأن المسلمين ما تصوروا أن يقال لهم يوماً: مات الرسول ﷺ، على الرغم من مرضه السابق! فما إن سمعوا كلمة الموت مقترنة باسم رسول الله ﷺ حتى طار صوابهم.

ولقد كان أبو بكر أحقَّ الناس بأكبر قدر من الأسى والحزن على رسول الله ﷺ؛ فهو صديق العمر منذ الطفولة، وهو صدّيقه من أول أيام الوحي، وصاحبه في الغار، ورفيقه في الهجرة، ولازمه ملازمة تجعل الصبر على فراقه فوق الطاقة. لكنَّ أبا بكر كأنما لا تحركه طاقة بشرية!!.

فلندع شاهد عيان يصف لنا ثبات أبي بكر عند الصدمة الأولى؛ فيقول: (وأقبل أبو بكر مكروباً حزيناً، فاستأذن في بيت ابنته عائشة، فأذنت له فدخل، ورسول الله ﷺ مسجًّى في ناحية البيت، فكشف عن رسول الله ﷺ، فجثا عليه يقبّله ويبكي ويقول: ليس ما يقول ابن الخطاب شيئاً، توفي رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده. رحمة الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حياً وميتاً! ثم غشاه بالثوب.

ثم خرج سريعاً إلى المسجد، يتخطّى رقاب الناس، حتى أتى المنبر، وجلس عمُر حين رأى أبا بكر مقبلاً إليه، وقام أبو بكر إلى جانب المنبر، ونادى الناس فجلسوا، وأنصتوا. فتشهَّد أبو بكر بما عَلِمه من التشهد، وقال: إن الله عز وجل نَعَى نبيه إلى نفسه وهو حيّ بين أظهركم، ونعاكم إلى أنفسكم ـ وهو الموت ـ حتى لا يبقى منكم أحد إلا الله عز وجل. قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران ١٤٤].

فقال عمر: هذه الآية في القرآن؟! والله ما علمتُ أن هذه الآية أنزلت قبل اليوم!!.

وقد قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وقال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧]. وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

إن الله عمَّر محمداً وأبقاه، حتى أقام دين الله، وأظهرَ أمرَ الله، وبَلَّغَ رسالة الله، وجاهد في سبيل الله، ثم توفاه الله على ذلك. وقد ترككم على الطريقة، فلم يَهلك هالك إلا من بعد البيِّنة والشفاء. فمن كان الله ربه فإن الله حيّ لا يموت، ومن كان يعبد محمداً ويُنْزِله إلـٰهاً فقد هلك إلـٰهُهُ! فاتقوا الله أيها الناس، واعتصموا بدينكم، وتوكَّلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وإن كلمة الله تامة، وإن الله ناصرٌ من نصره، ومعز دينه.

وإن كتاب الله بين أظهرنا، وهو النور والشفاء، وبه هدى الله محمداً ﷺ، وفيه حلاله وحرامه. والله ما نبالي من أَجْلَبَ علينا من خلق الله، إن سيوفنا لمسلولة، ما وضعناها بعدُ، ولنجاهدنَّ من خالفنا، كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ، فلا يبغينّ أحد إلا على نفسه)!!.

أيُّ عَظَمة وثبات ورسوخ وبهاء هذا الذي صدر من الصدّيق؟! وأية بصيرة نافذة، وحكمة بالغة، واستكشاف ملْهَمٍ للمستقبل بلغه أبو بكر؟!.

أفي هذه اللحظة الذاهلة، والفاجعة النازلة المزلزلة يكون مثل هذا الثبات؟! بل وينظر للغد القريب، فلكأنه يرى جيوشاً متحفزة تريد الهجوم على المسلمين؛ فينذرها بأن سيوفهم مسلولة! ولقد صدّقت الأيام التالية رأيَه.

كان أقصى ما ينتظر من أبي بكر كلمات توصي الناس بالصبر، وتسلّيهم،

وتمنحهم العزاء بالمصاب الجلل. لكنها الصدّيقية التي اكتمل لها الإيمان يوم الغار، وقد قال له رسول الله ﷺ: «ما ظنّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»، فاستحضر هذا الإيمان باللحظة الحاسمة: (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإنَّ الله حيٌّ لا يموت).

الله حيٌّ لا يموت!!.

وما دام الله معنا فهو كافينا وناصرنا ومؤيدنا، ولا بدَّ لدين الله أن ينتشر، ومحال على الحق إلا أن ينتصر. فيا خيل الله اركبي، ويا راية الحق ارتفعي، ويا حَمَلة هذا الدين قوموا وانهضوا، وواصلوا مسيرة الخير، وانشروا النور المُشرِق والدين الجديد في دياجير الظلام.

الإشارة النبوية لخلافته:

ولقد كان لموقف أبي بكر هذا الأثر الأكبر في تطلع الأنظار إليه، وأنه الرجل الذي سيملأ الفراغ الكبير الذي تركه رسول الله ﷺ برحيله إلى جوار ربه.

فهو الرجل الذي لم يفقد ثباته أمام المفاجأة المروعة، التي طاشت بعقول المسلمين.

وهو الرجل الذي احتفظ برباطة جأشه، وسكينة نفسه، وقوة عزيمته، وسداد فكره، على هذا النحو الفذ في هذا الموقف الذي يعصف بالعقول، ويَدَعُ الحليم حيران.

ولم يكن ذلك وحده مناط التزكية والتقديم، بل هناك الماضي الحافل بكل مكرمة، وبكل بطولة.

انضم إلى ذلك كله إرهاصات واضحة بخلافته، تشير حتى تكاد تنطق بدوره المقبل، وتقدُّمه وتزكّيه.

ففي مرض رسول الله ﷺ اختار أبا بكر ليصلي بالناس، يروي ذلك عبد الله

ابن زمعة فيقول: لما استُعِزَّ[1] بالنبي ﷺ، وأنا عنده في نفر من الناس، دعاه بلال إلى الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «مروا أبا بكر يصلِّي بالناس». قال: فخرجنا فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً، فقلت: يا عمر، قم فصلِّ للناس، فتقدم فكبَّر، فلما سمع النبي ﷺ صوته ـ وكان عمر رجلاً مُجْهِراً[2] ـ قال: «فأين أبو بكر؟! يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون»! فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلى بالناس.

ولما راجعتْه زوجتُه أم المؤمنين السيدة عائشة في ذلك وقالت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرتَ غير أبي بكر ـ قالت: والله مابي إلا كراهيةُ أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ ـ قالت: فراجعتُهُ مرتين أو ثلاثاً.

فقال: «ليصلِّ بالناس أبو بكر، فإنكنَّ صواحب يوسف»[3].

وفي ذلك إشارة قوية يفهمها كل ذي لب وعقل وإنصاف، أن الصدّيق أحق الصحابة بالخلافة، وهذا ما عبَّر عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: قدّم رسول الله ﷺ أبا بكر يصلي بالناس، وأنا حاضر غير غائب، وصحيح غير مريض، ولو شاء أن يقدِّمني لقدَّمني، فرضينا لدنيانا من رضيه الله ورسوله ﷺ لديننا.

وجاءت امرأة فسألت رسول الله ﷺ شيئاً، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: يا رسول الله، أرأيتَ إن جئتُ فلم أجدك؟! ـ كأنها تعني الموت ـ قال: «فإن لم تجديني فأتي أبا بكر».

وكأن النبي ﷺ يشير إلى أن الذي سَيَلي الخلافة من بعده ويقضي بين الناس هو أبو بكر.

---

(١) أي اشتدّ به المرض، وأشرف على الموت.

(٢) أي: صاحب جَهْر ورفْع لصوته.

(٣) أي من التظاهر على ما تُردن، وكثرة إلحاحكنَّ في طلب ما تردنه وتملن إليه.

وفي أواخر أيامه ﷺ قال: «ولو كنت متّخذاً خليلاً غير ربي لاتخذتُ أبا بكر، ولكن أخوّة الإسلام ومودّته، لا يبقينَّ في المسجد بابٌ إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر».

وذلك ليخرج منه إلى المسجد النبوي، فيخطب الناس، ويصلي بهم، ولا يكون هذا إلا للخليفة.

وأعظم من ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة، قالت: لما ثَقُل رسول الله ﷺ دعا عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: «ائتني بكتفٍ حتى أكتبَ لأبي بكر كتاباً لا يُخْتَلَفُ عليه». فذهب عبد الرحمن ليقوم، فقال: «اجلس، أبى الله والمؤمنون أن يُخْتَلَفَ على أبي بكر».

وهذا عمر بن عبد العزيز يرسل محمدَبن الزبير إلى الحسن البصري يسأله عن أشياء، قال محمد بن الزبير: فجئته فقلت له: اشفني فيما اختلف الناس فيه، هل كان رسول الله ﷺ استخلف أبا بكر؟!.

فاستوى الحسن قاعداً وقال: (أوَ في شكٍّ هو لا أبا لك؟! إي والله الذي لا إله إلا هو لقد استخلفه، ولهُوَ كان أعلم بالله، وأتقى به، وأشد له مخافة، من أن يموت عليها لو لم يؤمِّره).

هكذا فهم الإمام العظيم الإشارةَ النبوية أنها كالنص في استخلاف أبي بكر رضي الله عنه.

وسأل الرشيد أبا بكر بن عياش فقال: (يا أبا بكر، كيف استخلف الناس أبا بكر الصديق؟. قلت: يا أمير المؤمنين، سكت الله، وسكت رسوله، وسكت المؤمنون!. قال: والله ما زدتني إلا غمّاً. قال: يا أمير المؤمنين، مرض النبي ﷺ ثمانية أيام، فدخل عليه بلال فقال: يا رسول الله، من يصلِّي بالناس؟ قال: «مر أبا بكر يصلي بالناس»، فصلى أبو بكر بالناس ثمانية أيام والوحي ينزل، فسكت رسول الله ﷺ لسكوت الله، وسكت المؤمنون لسكوت رسول الله ﷺ!.

فأعجبه، فقال: بارك الله فيك).

بيعته وقصة السقيفة:

وعندما نطالع تاريخ أبي بكر، ونقلّب صفحات حياته، لا نجد عنده أدنى رغبة في الحكم، أو أن يكون خليفة لرسول الله ﷺ، فهو دوماً يؤثر العيش في الظلّ، ما لم يكن ثَمّة خطر يدعوه، لكن الرجل الأوّاه الأوّاب، الحيي الوديع، يجد نفسه يعلو صدر الأحداث عند وفاة النبي ﷺ، فيقف تلك الوقفة الفريدة التي سلطت عليه الأضواء. ذلك لأن الواجب والمسؤولية يمليان عليه أن يبادر عند المهمات، ويحلّ المعضلات، التي لا يقدر عليها غيره.

فما إن علم باجتماع الأنصار في (سَقيفة بني ساعِدة)، حتى أسرع إليهم مع عمر وأبي عبيدة، ليُسْكِتَ الفتنة، ويدّلهم على من رضيه لدينهم خليفةً لرسول الله ﷺ فيبايعوه: عمر أو أبي عبيدة، وما علم أن البيعة ستكون له!!.

ولندع أبا حفص يصوِّر لنا ذلك الموقف المرهوب، فيقول:

قلتُ لأبي بكر: يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم، لقِيَنَا منهم رجلان صالحان، فذكرا ما تَمَالأ عليه القوم، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. فقال: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقْضُوا أمركم. فقلتُ: والله لنأتينَّهم.

فانطلقنا حتى أتيناهم في (سقيفة بني ساعدة)، فإذا رجل مُزَمَّلٌ بين ظهرانيهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة. فقلت: ما لَهُ؟ قالوا: يُوْعَكُ. فلما جلسنا قليلاً تشهَّد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال:

أما بعد، فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رَهْطٌ، وقد دفَّتْ دافَّةٌ[1] من قومكم، فإذا هم يريدون ان يَخْتَزِلُونَا[2] من أصلنا، وأن

---

(١) الدافَّة: الرفقة يسيرون سيراً ليّناً، والمعنى: إنكم قوم غرباء مطرودون، أقبلتم من مكة إلينا.

(٢) أي: يقتطعونا من الأمر، وينفردوا به دوننا.

يَخضنونا[1] من الأمر.

فلما سكت أردت أن أتكلم، وكنت زوَّرْتُ[2] مقالةً أعجبتني، أردت أن أقدِّمها بين يدي أبي بكر، وكنت أُداري منه بعض الحَدِّ[3].

فلما أردت أن أتكلم، قال أبو بكر: على رِسْلِكَ[4]، فكرهت أن أغضبه، فتكلّم أبو بكر، فكان هو أحلمَ مني وأوقر!! والله ما ترك من كلمةٍ أعجبتني في تزويري؛ إلا قال في بديهته[5] مثلها أو أفضل منها، حتى سكتَ.

فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعْرَفَ هذا الأمر[6] إلا لهذا الحيّ من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بيدي وبيدِ أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا.

فلم أكره مما قال غيرها! كان والله أن أُقَدَّمَ فتُضربَ عنقي، لا يقرِّبني ذلك من إثم، أحبَّ إليَّ من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر! اللهم إلا أن تسوِّلَ لي نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن.

فقال قائل من الأنصار: أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ[7]، وعُذَيْقُها المرَجَّبُ[8]، منا أمير ومنكم أمير، يا معشر قريش.

فكثُرَ اللَّغطُ، وارتفعت الأصوات، حتى فَرِقْتُ من الاختلاف؛ فقلت:

---

(١) يخرجونا من الإمارة والحكم، ويستأثروا به علينا.
(٢) من التزوير، وهو التحسين والتزيين.
(٣) أي: أدفع عنه بعض ما يعتريه من الغضب ونحوه.
(٤) اتئد، واستعمل الرفق.
(٥) هي سدادة الرأي عند المفاجأة.
(٦) أي: الخلافة.
(٧) أي: أنا ممن يُستشفى برأيه.
(٨) أي: أنه داهية عالم في الأمور.

(ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته، وبايعه المهاجرون، ثم بايَعَتْهُ الأنصار).

وفي زحمة الأصوات لم ينسَ الصدّيق للأنصار فضلهم وإيواءهم لرسول الله ﷺ، ونصرتهم له، وإيثارهم إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، فلم يترك شيئاً أُنزل في الأنصار، ولا ذكره رسول الله ﷺ في شأنهم إلا ذكره، فقال: لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: «لو سلك الناس وادياً، وسلكتِ الأنصار وادياً لسلكتُ وادي الأنصار».

ولقد علمتَ يا سعد أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: «قريش ولاة هذا الأمر، فَبَرُّ الناس تبع لبرِّهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم».

قال: فقال له سعد: صدقتَ، نحن الوزراء، وأنتم الأمراء.

وقام عمر فذكَّرهم بذلك الموقف النبوي، الذي لم يزل رطباً؛ فقال: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يصلّي بالناس؟! فأيّكم تطيب نفسُه أن يتقدم أبا بكر؟! فقالوا: نعوذ بالله أن نتقدَّمَ أبا بكر!!.

وانبرى زيد بن ثابت الأنصاري ليردّ على ذلك الأنصاري الذي قال: (يا معشر المهاجرين، إنَّ رسول الله ﷺ كان إذا استعمل رجلاً منكم قَرَنَ معه رجلاً منّا، فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان منا ومنكم. وتتابعت خطباء الأنصار على ذلك).

فقام زيد فقال: (أتعلمون أن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وخليفته من المهاجرين، ونحن كنا أنصار رسول الله ﷺ؟! فنحن أنصار خليفته، كما كنا أنصاره، ثم أخذ بيدي أبي بكر، فقال: هذا صاحبكم!! فبايعه عمر، ثم بايعه المهاجرون والأنصار).

* * *

وهكذا اجتمع الناس على خيرهم بعد رسول الله ﷺ، ولم يكن الأنصار مفتئتين على الحقيقة في موقفهم ذاك، ولا طلاّب حُكْم وإمارة، فقد قُذف في

روعهم أنهم هم الذين آووا ونصروا، فلتستمرّ نصرتهم لدين الله ودعوة رسول الله ﷺ، وليحملوا هذه الراية خفّاقة عالية، فيكون لهم شرف ذلك في حياة النبي ﷺ وبعد موته!.

وما إن ذكّرهم أبو بكر بأن قريشاً ولاة هذا الأمر، وزاد عمر فأخذ بأنظارهم إلى قـول النبي ﷺ: «مُـروا أبا بكر فليصلِّ بالنـاس»، وغضبه عندما سمع تكبير عمر، فقال: «يـأبى الله ذلك والمسـلمون» وما إن سمع الأنصار ذلك حتى ثابوا وفاؤوا إلى رشدهم، وقال سيدهم سعد بن عبادة للصدّيق: صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء[1].

فلما كان من الغد، صبيحة يوم الثلاثاء، اجتمع الناس في المسجد النبوي، فتمَّت البيعة من المهاجرين والأنصار قاطبة، وقام عامة الناس، فبايعوا أبا بكر بيعة العامة، وكان ذلك قبل تجهيز رسول الله ﷺ تسليماً.

وهكذا أكرم الله سبحانه وتعالى المسلمين، بل والدعوة الإسلامية؛ بخلافة هذا الرجل العظيم، وكـان من الممكن أن لا يمضي (يوم السـقيفة) إلا ويترك في الجسم الإسلامي شروخاً غائرة، لكن المسلمين اجتازوا المحنة القاسية بسلام وعافية، واختاروا الخليفة في ومضة برق من عُمر الزمان، ما سجلها التاريخ من قبلُ ولا من بعدُ، إذ لم تغرب شمس ذلك اليوم حتى وُئدَت الخلافاتُ العارضة، فلكأنها ما وُلدت!!.

ورضي الناس جميعاً بخليفتهم الذي أمَّهم بالصلاة في حياة النبي ﷺ، وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ مرض ليالي وأياماً، ينادي بالصلاة فيقول: «مروا أبا بكر يصلِّي بالناس»، فلما قُبض رسول الله ﷺ،

(١) هذا هو الحق، لا ما زعمه خالد محمد خالد في كتـابه (خلفاء الرسول) من أن أبا بكر سارع (ليكبح جماح الطائفية) وأنه (آثر المهاجرين بالخلافة لسَبْقهم)!! وهو كلام غريب مستغرب، بل تمسّـك الصدّيق بالنص: (قريـش ولاة الأمر)، ونبّه عمر إلى أنّ إمامة أبي بكر في الصلاة إيذان بإمامته الكبرى بعد النبي ﷺ.

نظرت فإذا الصلاة علم الإسلام، وقوام الدين، فرضينا لدنيانا مَن رضي رسول الله ﷺ لديننا؛ فبايَعْنا أبا بكر).

وارتجّت مكة لما قُبض النبي ﷺ، فسمع أبو قحافة ـ والد الصدِّيق ـ ذلك فقال: (ما هذا؟. قالوا: قُبض رسول الله ﷺ. قال: أمر جَلَلٌ[1]، فمن قام بالأمر بعده؟ قالوا: ابنك. قال: فهل رضيتْ بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة؟ قالوا: نعم. قال: لا واضع لما رفعتَ، ولا رافع لما وضعتَ).

خوفه من الإمارة والحكم:

وهكذا أصبح أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ، وإمام المسلمين عامة، لا طمعاً فيها ولا رغبة؛ إنما تلبية لتبعات إيمانه، ومسؤوليات دينه، وتخوّفاً من فتنة رابية.

فلما أصبح أميراً جاءه صديقه رافع بن أبي رافع الطائي[2]، وقال: (يا أبا بكر، ألم تكُ نهيتني عن أن أتأمر على رجلين من المسلمين؟ قال بلى، وأنا الآن أنهاك عن ذلك! قال: فقلت له: فما حملك على أن تلي أمر الناس؟ قال: لا أجد من ذلك بدّاً، خشيتُ على أمة محمد ﷺ الفُرقة، وأن تكون فتنة بعدها ردة).

بل أعلنها على ملأ من الناس، حين وقف خطيباً فقال:

(والله ما كنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قطّ، ولا كنتُ راغباً فيها، ولا سألتهاالله في سرّ ولا علانية، ولكن أشفقتُ من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة، لقد قُلِّدتُ أمراً عظيماً ما لي به من طاقة ولا يدٌ إلا بتقوية الله).

خطّته في الخلافة:

وغداة يوم الثلاثاء يمَّم الصديق وجهه شطر منبر رسول الله ﷺ، ذلك

---

(١) أي: عظيم جداً، فادح، لا يُقوى على احتماله.

(٢) كان صديقه في غزوة ذات السلاسل.

المنبر الذي طالما وقف النبي ﷺ ينادي المسلمين من فوقه، يدعوهم إلى الهدى وإلى صراط مستقيم. وينقل أبو بكر خطاه في حياء ووجل، ليرتقي المنبر الذي غاب عنه رُبَّانُه! لكنه يصعد درجتين ثم يجلس، ونفسه لا تبيح له أن يصعد كلَّ الدرج، ولم يُبِحْ لنفسه أن يجلس حيث كان رسول الله ﷺ يجلس!!.

ويستقبل الحشودالهائلة، ويلقي عليهم أولى كلماته بعد أن انقطع الوحي ووري الجثمانُ الطاهر التراب!! قال:

(أما بعد، أيها الناس: فإني قد وُلِّيت عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، الضعيف فيكم قوي عندي؛ حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخُذَ الحق منه إن شاء الله، لا يدَعُ قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلِّ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عَمَّهُمُ الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله).

هذا الرجل العظيم الحليم، الذي وُلد سيّداً ومات سيّداً. الذي لم يترك فضيلة إلا احتازها، ولا مزية إلا نالها، ولا مكرمة إلا زانها. الرجل الذي امتدحه الله ورسوله، وأقرّت له الصحابة بالأسبقية والأفضلية. هو الذي يقول: (لست بخيركم)؟!.

إنه يريد أن يقِرَّ في نفوس كل أحد أن الحكم مغرم لا مغنم، وتكليف لا تشريف، وتضحية لا تزكية، وواجب لا استعلاء، ويريد أن ينزع من صدور الناس أي وهم يجعلهم يضعون الحاكم فوق قدره ومنزلته، ويريد أن يقرر أنَّ الحاكم وُجد لخدمة دينه ورسالته، وأنه فرد في الأمة، وليس الأمة كلها في فرد. فهو قد استخلفه الله لخدمتهم لا ليخدموه!!.

وقد حدد لهم مسؤولياته، كما بيّن لهم واجباتهم، وأنه منفّذ لأمر الله، يُطاع في حدود ماشرع، فإذا أساء ردّوه إلى الجادّة، وقوموه بالحجة والبرهان. وتلك

حقيقة علاقة الحاكم بشعبه، فالأمة شريكة في الحكم، فعليها أن تكون شريكاً بصيراً لا تابعاً ضريراً، والسيد المطلق في ذلك كلّه هو شرع الحق سبحانه.

نعم ليس بخيرهم لكونه أصبح خليفة، لكنه خيرهم لأنه الصدّيق، الذي توفر له من الإيمان والإخلاص، والتضحية والفداء، والأمانة والرشد؛ ما جعله بحقّ ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

عطـاؤه:

ومن أراد أن يرى جلال الحكم في نظر الحاكم الصدّيقي؛ فلينظر أبا بكر غداةَ استخلافه ماذا فعل؟!.

(أصبح غادياً إلى السوق، وعلى رقبته أثواب يتَّجِرُ بها!!. فلقيه عُمَرُ وأبو عبيدة، فقالا له: أين تريد ياخليفة رسول الله؟ قال: السوقَ. قالا: تصنع ماذا وقد وُلِّيت أمر المسلمين؟! قال: فمن أين أطعم عيالي؟ قالا له: انطلق حتى نفرض لك شيئاً.

فانطلق معهما، ففرضوا له كل يوم شطر شاة، وبُرداه إذا أخلقهما وضعهما وأخذ مثلهما، وظهره[1] إذا سافر، ونفقته على أهله، كما كان ينفق قبل أن يُستخلف). فقال أبو بكر رضي الله عنه: (رضيت).

وكانوا فرضوا له ألفي درهم في العام، فقال: (زيدوني، فإن لي عيالاً، وقد شغلتموني عن التجارة. فزادوه خمسمئة)!!.

خليفة رسول الله ﷺ بأسرته الكبيرة يعيش بهذا العطاء المتواضع، وهو التاجر الكبير!. إنه يفضّل أن يعيش كفافاً اقتداءً برسول الله ﷺ، فلقد كانت القناعة جزءاً من فلسفته. والأعجب من ذلك أن الرعية هم الذين يحدّدون له راتبه، ويطلب منهم الزيادة البسيطة فقبلوا ذلك، وزادوه شيئاً يسيراً!!.

---

(١) هي الدابة التي تُركب.

موقفه من تركة النبي ﷺ:

وفي أوائل خلافته امتُحن بواقعة عظيمة، ظهر فيها ولاؤه للحق والشرع، والتزام أمر رسول الله ﷺ، إذ جاءته فاطمة بنت النبي ﷺ تسأله ميراثها من النبي ﷺ، مما أفاء الله على رسول الله ﷺ، وهو سَهْم النبي بخيبر، وفَدَك بكمالها، وأموال بني النضير، مما لم يوجِف المسلمون عليه من خَيْلٍ ولا ركاب، وكانت هذه الأموال لرسول الله ﷺ خاصة، يعزل منها نفقة أهله لسَنَةٍ، ثم يجعل مابقي مجعل مال الله، يصرفه في الكُرَاع[1] والسلاح ومصالح المسلمين. ولم يبلغها قول رسول الله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة».

فلما طلبت ذلك من أبي بكر، أبى عليها، وقال: (إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال ـ يعني مال الله ـ ليس لهم أن يزيدوا على المأكل».

وإني والله لا أغيّر شيئاً من صدقات النبي ﷺ التي كانت في عهد النبي ﷺ. ولأعملنَّ فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ.

فتشهَّدَ عليٌّ ثم قال: إنا قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك، وذكر قرابتهم من رسول الله ﷺوحَقَّهم.

فتكلم أبو بكر فقال: والذي نفسي بيده، لَقَرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أصل من قرابتي).

فأبو بكر يعلم مكانة فاطمة الزهراء من رسول الله ﷺ، وأنها أولى الناس بالرعاية، وهو يؤثر أن يركب كل صعب حتى لا يقول لها: لا، لكنه قالها الآن، لأن الشرع والقول النبوي الثابت فوق كل مجاملة وكل قرابة. وهو أن يصل قرابة النبي أحب إليه من أن يصل قرابته؛ لكن رسول الله ﷺ قال: «لانورث»، فليقف عند قوله لا يريم.

---

(١) الكُراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

ولما طلبت فاطمة منه أن يضعها في أيديهم، ليجروها على ما كان في يد رسـول الله ﷺ ، رفض ذلك ، وقال : (لسـت أرى ذلك ، فأنا الوالي من بعده، أضعها في موضعها الذي كان النبي ﷺ يضعها فيه).

وقد تغضَّبت السيدة فاطمة على أبي بكر، وهَجَرَتْهُ مدة، فلما مرضت ذهب يترضاها، لمكانها من قلب النبي ﷺ، فاستأذن عليها، فقال عليٌّ: (يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليكِ؟. فقالت: أتحب أن آذن له؟. قال: نعم. فَأَذِنَتْ له، فدخل عليها يترضاها، فقال: أما واللهِ، ما تركت الدار والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ومرضاة رسوله، ومرضاتكم أهل البيت، ثم ترضاها حتى رضيت).

يا لَعظمة تلك النفوس، ويا لَبهاء الحكم، وأمانة الحاكم. وقف أبو بكر عند حدّ الشرع، وأرضى فاطمة بطيب القول.

قتال المرتدين:

وما كاد نبأ وفاة النبي ﷺ يذيع في البلاد؛ حتى ارتدت طوائف من حديثي العهد بالإسلام، الذين كان الدين في وجدانهم مرتبطاً بحياة الرسول ﷺ، وتصوّر المرجفون أن الإسلام مات بموت نبيّه، فقام المغرضون ورؤساء القبائل، واستغلوا حداثـة إسـلام هؤلاء، وغفلتهم وسـذاجتهم، ونقضوا واحدة من قواعد الدين، فرفضوا أداء الزكاة، ولسان قائلهم يقول:

أطعنا رسولَ اللهِ ما كان وَسْطَنَا ... فيـا لَعبـادِ اللهِ مـا لأبـي بكـرِ

أيـورثُنـا بكـراً إذا مـاتَ بعـدَه ... وتلك لعمرُ اللهِ قاصمة الظهرِ

وظهر آنذاك رأيان لمعالجة هذا الخرق السريع لركن من أركان الإسلام:

فرأيٌ يرى أن الامتناع عن أداء الزكاة هو حلّ لعروة من عرى الإسلام، سيتلوه هدم أركانه الأخرى، وأن من واجب الخليفة التصدي لهؤلاء وقتالهم، حتى يقيمَ الأمور على نصابها، وكان هذا رأي الخليفة الصدّيق.

ورأيٌ آخر يرى أن لا يقاتَل هؤلاء ما داموا يشهدون شهادة الحق، وعلى رأس القائلين به عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ويصوّر ذلك أبو هريرة، فيقول: (لما توفي النبي ﷺ، واستُخْلِفَ أبو بكر، وكَفَرَ مَنْ كفر[1] من العرب، قال عمر: يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أن أقاتلَ الناس حتى يقولوا: لاإلـه إلا الله، فمن قال: لاإلـه إلا الله، عَصَمَ مني ماله ونفسه، إلا بحقِّه وحسابه على الله»؟.

قال أبو بكر: والله لأقاتلنَّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقّ المال. والله لو منعوني عَنَاقاً[2] كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيتُ أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال، فعرفتُ أنه الحق).

ولما قال له عمر: (يا خليفة رسول الله تألَّفِ الناسَ وارفق بهم، فإنهم بمنزلة الوحش!! فقال: رجوتُ نصرتك، وجئتني بخذلانك، جباراً في الجاهلية، خوَّاراً[3] في الإسلام؟! بماذا عسيت أن أتألَّفهم؟ بشعر مفتعل، أو بسحر مفترىً!.

هيهات هيهات! مضى النبي ﷺ، وانقطع الوحي، والله لأجاهدنَّهم ما استمسك السيف في يدي، وإن منعوني عقالاً[4]!.

قال عمر: فوجدته في ذلك أمضى مني وأحزم).

وجمع أبو بكر رضي الله عنه المهاجرين والأنصار، وقال: (إن هذه العرب قد منعوا شاتهم وبعيرهم، ورجعوا عن دينهم؛ فأشيروا عليَّ، فما أنا إلا رجل

---

(١) هكذا يقول أبو هريرة إنه كفر، ونقض لركن عظيم، وليس إضراباً عن دفع الزكاة، أو امتناعاً عن دفع الضرائب كما مثّل له خالد محمد خالد!! فهو كلام غريب على الحس الإسلامي.

(٢) هي الأنثى من ولد المعز التي لم تبلغ سنة.

(٣) خار يخور إذا ضَعُفَتْ قوّته ووَهَتْ.

(٤) العِقال: الحبل الذي يُعقل به البعير.

منكم، وإني أثقلكم حِملاً لهذه البليّة).

فأطرقوا طويلاً، ثم تكلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أرى ـ والله ـ يا خليفة رسول الله أن تقبل من العرب الصلاة، وتدع لهم الزكاة، فإنهم حديثو عهد بجاهلية، لم يُعدِّهم الإسلام، فإماأن يردَّهم الله عنه إلى خير، وإما أن يعزّ الله الإسلام فنقوى على قتالهم. فما لبقية المهاجرين والأنصار يَدان بالعرب قاطبة.

فالتفت إلى عثمان رضي الله عنه، فقال مثل ذلك، وتابعهم المهاجرون، ثم التفت إلى الأنصار، فتابعوهم!!.

فلما رأى ذلك صعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

(أما بعد: فإن الله بعث محمداً ﷺ والحقُّ قُلٌّ شريدٌ، والإسلام غريب طريد، قد رَثَّ[1] حبلُه، وقلَّ أهلُه، فجمعهم الله بمحمد ﷺ، وجعلهم الأمة الباقية الوسطى، والله لا أبرح أقوم بأمر الله، وأجاهد في سبيل الله، حتى ينجزَ الله وعده، ويوفيَ لنا عهده، فيُقتل من قُتل منّا شهيداً في الجنة، ويبقى من بقي منا خليفة الله في أرضه ووارث عباده.

قضى الله الحقَّ؛ فإن الله تعالى قال ـ وليس لقوله خُلْف ـ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]، والله لو منعوني عقالاً مما كانوا يعطون رسول الله ﷺ، ثم أقبل معهم الشجر والمَدَر[2] والجن والإنس لجاهدتهم حتى تلحق روحي بالله!! إن الله لم يفرّق بين الصلاة والزكاة ثم جمعهما).

فكبّر عمر وقال: والله لقد علمت ـ والله حين عزم الله لأبي بكر على قتالهم ـ أنه الحقّ.

ذلكم هو موقف الخليفة الذي أشار النبي ﷺ باستخلافه، ورضيه المسلمون

---

(١) أي: ضَعُف.

(٢) أهل المدر: سكان البيوت المبنية، خلاف البدو سكان الخيام.

بالإجماع، ورأوا أنه أقواهم قوة، وأحزمهم حزماً، وأسدُّهم رأياً، وأعظمهم عظمة!! فهو الرجل الذي خبأه القدر ليتحرك تجاه الأحداث الداهمة بأسلوب يكشف عن مدى ما يستطيع الإيمان أن يقهر الصعاب، ويأتي بالمعجزات.

ولو سئل الناس، كل الناس: مَنْ الذي سيكون أشدَّ صرامة وحزماً، ومَنْ الذي سيكون أكثر رحمة وليناً في ذلك الموقف؟! لما تردَّدوا في الإجابة، ولقالوا: إنّ أبا بكر هو الداعي إلى الأناة والمهادنة، وعمر هو الصارخ بالقمع والمحاربة!!.

لكن التاريخ أثبت عكس ذلك؛ وبادر الصدّيق برأي سديد، وفكر رشيد، وهمة مشحوذة، في غير ما تردد: (والله لو منعوني عَنَاقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها).

ولسوف يقاتلهم ولو أقبل معهم الشجر والمدر، والجن والإنس، حتى تلحق روحه - رضي الله عنه - بالله خالقها سبحانه وتعالى!!.

يقول هذا لأنه خليفة رسول الله ﷺ، ومقامه ذاك يقتضي الإذعان الكامل لأوامره، فهو يحمل المسؤولية عن هذا الدين، أَفَيُنْتَقَصُ الدين وهو حيٌّ؟! لا يكون ذلك أبداً، فكلّ فريضة توفي رسول الله ﷺ وهي قائمة؛ لا بد أن تبقى كذلك مهما كانت التضحيات.

وهو يرى أن أية ملاينة ومهادنة، وأي انتقاص لجزء من الإسلام وشرعه في بداية الأمر؛ ستغري كل حانق على الإسلام، وستحرك جيوش الظلام، لغزو الدين، وهدّ بنائه الشامخ.

ولو أن رسول الله ﷺ كان حياً، فهل سيقف صامتاً متسامحاً أمام أولئك المرتدين، الذين رفضوا أداء حق الله في المال، وأرادوا أن ينكسوا راية الحق؟! إذاً فليصنع أبو بكر ماكان النبي ﷺ صانعه.

وركب أبو بكر رضي الله عنه في الجيوش الإسلامية شاهراً سيفه، من

المدينة المنورة إلى ذي القَصَّة[1]، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يقود راحلة الصديق، يريد قتال المرتدين بنفسه؛ فسأله الصحابة، وألحّوا عليه أن يرجع إلى المدينة، وأن يبعث لقتال الأعراب غيره، ممن يؤمَّره من الشجعان الأبطال.

وقال له علي بن أبي طالب: إلى أين يا خليفة رسول الله، أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أُحُد: «شِمْ سَيفَك، ولا تَفْجَعنا بنفْسك»، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً.

ولم يزالوا به حتى رجع، وأمَّر خالد بن الوليد، ورجع إلى المدينة.

وجيَّشَ أبو بكر جيوشه، وأرسل بأسه العادل، وسيفه القاطع على المرتدين، وعقد أحد عشر لواءً:

عقد لخالد بن الوليد، وأمره بِطُليحة بن خويلد، فإذا فرغ، سار إلى مالك ابن نُوَيْرة.

ولعكرمة بن أبي جهل، وأمره بمسيلمة، وبعث شُرَحْبيل بن حسَنَة في إثره إلى مسيلمة الكذاب، ثم إلى بني قضاعة.

وللمهاجر بن أبي أمية، وأمره بجنود الأسْوَد العنسي، ومعونة الأبناء على قيس بن مَكْشُوح.

ولخالد بن سعيد بن العاص، إلى مشارف الشام.

ولعمرو بن العاص، إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث.

ولحذيفة بن مِحْصن، وأمره بأهل دَبا.

ولِعَرْفَجَةَ بن هَرْثَمَةَ، وأمره بمهرة.

ولطريفة بن حاجر، وأمره ببني سُليم ومن معهم من هوازن.

ولسُويد بن مُقَرِّن، وأمره بتهامة اليمن.

---

(١) موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً.

وللعلاء بن الحضرميّ، وأمره بالبحرين[1].

وتفرَّقت جنود أبي بكر في أَصْقَاع الجزيرة، وطاردوا فلولَ طُليحة الأسَدي، والأسود العَنْسيّ، وسَجاح، والقبائل المرتدة، وقضى على نبوءة مسيلمة الكذاب في (حديقة الموت). وأقام في الأرض الحق، وأعاد الأمر إلى نصابه، فولَّت جيوش المرتدين الدُّبر، وتمزقوا بدداً، وتحطمت أمنياتُهم وأكاذيبهم أمام العزيمة الصلبة والحقِّ المبين.

فللَّه در ذلك الخليفة الذي ادّخرتْه الأقدار، فتحولت المحن في يديه إلى منح، وانقلبت الكوارث ربيعاً تملؤه روح الحياة.

ولنتأمل طويلاً هذا الموقف الباهر، يرويه أبو رجاء العطاري فيقول: (دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين، ورأيت رجلاً يقبِّل رأس رجل ويقول: أنا فداء لك، لولا أنت لهلكنا!! فقلت: من المقُبِّل ومن المُقبَّل؟ قالوا: ذاك عمر يقبِّل رأس أبي بكر في قتاله أهل الردة، إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين).

إنفاذ بعث أسامة:

ولنقف مع الصدّيق موقفاً آخر تزامن مع أحداث الردة، لنرى فيه جوانب جديدة من عظمة هذا الخليفة المختار، والرجل الشاهق الباهر، نَسيج وَحْدِه؛ ذلكم هو موقفه مِنْ (بَعْثِ أسامة بن زيد) رضي الله عنه.

فقبل وفاة رسول الله ﷺ كان عليه الصلاة والسلام قد أعدّ جيشاً وجهته الشام، تحت إمرة أسامة، وأمره أن يوطئ الخيلَ تخوم (البَلقَاء والداروم) من أرض فلسطين، فأوعبَ معه سبعمئة من المسلمين.

وسار الجيش حتى بلغ (الجُرف)[2]، وأرجأت زحفَه وفاةُ رسول الله ﷺ،

---

(١) بلد مشهور بين البصرة وعُمان.

(٢) موضع على ثلاثة أميال من المدينة.

وآنذاك جاء الصحابة إلى أبي بكر، يطلبون إليه أن يردَّ أسامة بجيشه، لأن المدينة المنورة أصبحت مهددة من المرتدين، وإمضاء (بعث أسامة) مخاطرة رهيبة! وكان على رأسهم عمر بن الخطاب، ومن أنصار هذا الرأي أسامة نفسه قائد هذا الجيش.

والمسألة بمقياس المنطق لا يبدو الصواب إلا معها، ولكن أبا بكر ينظر إليها من جانب أن رسول الله ﷺ عقد لأسامة اللواء، وأمر ـ وهو في مرضه ـ فقال: «أَنْفِذُوا جيش أسامة»، فليكن ما أمر به رسول الله ﷺ مهما تكن الأخطار المحدقة بالمدينة.

ولندعْ شاهد عيان يصف لنا الموقف، يقول أبو هريرة: (والذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استُخلِف ما عُبِدَ الله! ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة. فقيل له: مَهْ يا أبا هريرة!. فقال: إن رسول الله ﷺ وجه أسامة بن زيد في سبعمئة إلى الشام، فلما نزل بذي خُشُبٍ[1]، قُبض النبيُّ ﷺ وارتدتِ العرب حول المدينة. واجتمع إليه أصحابُ رسول الله ﷺ فقالوا: ردّ هؤلاء، تُوَجِّه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟! فقال: والذي لا إله إلا هو لو جَرَّتِ الكلابُ بأرجلِ أزواج النبي ﷺ ما رددتُ جيشاً وجَّهه رسولُ الله ﷺ، ولا حَلَلْتُ لواءً عقده!!. فوجَّه أسامة، فجعل لا يمرّ بقبيل[2] يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلْقَوُا الروم، فلَقُوهم، فهزموهم، وقتلوهم، ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام). وقال لهم: (والذي نفس أبي بكر بيده، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بَعْثَ أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبقَ في القرى غيري لأنفذته).

ثم تقدَّم إليه الصحابة ـ وعلى رأسهم عمر ـ بطلب آخر: أن يؤمِّر على الجيش غير أسامة؛ فأسامة شاب حديث السن، وفي الجيش شيوخ الصحابة! فوثب أبو بكر، وأخذ بلحية عمر، وقال له: (ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، أؤمِّر

---

(١) هو وادٍ على مسيرة ليلة من المدينة باتجاه الشام.

(٢) القبيل: الجماعة.

غير أمير رسول الله ﷺ)؟!.

ثم نهض بنفسه إلى (الجرف)، فاستعرض جيش أسامة، وأمرهم بالمسير، وسار أبو بكر معهم ماشياً، وأسامة راكباً، وعبد الرحمن بن عوف يقود براحلة الصدّيق. فقال أسامة: يا خليفة رسول الله، إما أن تركب، وإما أن أنزل. فقال: والله، لستَ بنازل ولستُ براكب. ثم استأذن الصديقُ من أسامة أن يرجع عمر بن الخطاب معه ـ وكان مكتتباً في جيشه ـ يستشيره في أمور الناس؛ فأذن أسامة!!.

ترى أي رجل هذا هو أبو بكر الصديق؟! هكذا يقول: (والذي لا إلـه إلا هو لو جرّت الكلاب بأرجل أزواج النبي ﷺ ما رددتُ جيشاً وجهه رسول الله ﷺ، ولا حللت لواءً عقده).

نعم، فالمسألة لا تحتمل الشورى ما دام رسول الله ﷺ أعطى كلمته، وعقد بيده! وكلّ ما يترتب على ذلك جَلَلٌ يهون، إلا أن يكون خروجاً عن طاعة الله ورسوله ﷺ.

فأبو بكر عقد مع الله مَوْثِقاً ألا يخالف رسول الله ﷺ حياته، ولو تخطفته الذئاب، وسيبقى يقاتل ما استمسك السيف في يده، وينفذ جيش أسامة ولو بقي في القرى وحده.

حقاً لقد كانت حظوظ الإسلام وافية، ومقاديره حميدة سعيدة، إذ جاءت هذه المحن والنوازل وأبو بكر حامل الراية، وقائد الأمة! ومن ثَمَّ لم يكن قول أبي هريرة افتئاتاً ولا مبالغة عندما قال: (والذي لا إلـه إلا هـو، لولا أن أبا بكر استُخلف ما عُبد الله). ثلاث مرار!! فليس الخبر كالعيان.

ولقد كان الخير كل الخير في إنفاذ (بَعْث أسامة)؛ لأن القبائل لم تكد تبصر ذلك الجيش اللَّجِب، حتى ثابت إلى رشدها، وقالت: لو كان حقاً أن المدينة تئنُّ تحت وطأة الضعف والخلاف، لما كان بوسع خليفة المسلمين أن يسيّر مثل هذا الجيش في هذه الأيام ليقاتل الروم، فكان مجرد تحرك الجيش مثبطاً لمن تسلّلت إلى نفوسهم فتنة الرِّدة.

فتوحاتـه:

وما إن استهلّت سنة اثنتي عشرة للهجرة، حتى كانت جيوش الصديق وأمراؤه الذين بعثهم لقتال أهل الردة، وجيش أسامة الذي بعثه إلى الشام؛ جوّالين في البلاد يميناً وشمالاً، فمهّدوا قواعد الإسلام، وقتلوا الطغاة من الأنام، وردّوا شاردَ الدين بعد ذهابه، وأعادوا الحق إلى نصابه، وتمهّدت ـ بفضل الله ـ جزيرة العرب، فصار البعيد الأقصى كالقريب الأدنى.

وحين فرغ خالد بن الوليد من (معركة اليمامة)، وقضى على فتنة مسيلمة الكذاب؛ كتب أبو بكر الصديق إلى خالد ـ وهو باليمامة ـ يوجهه بمن معه إلى العراق:

(من عبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى خالد بن الوليد والذين معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان: سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إلـه إلا هو، أما بعد:

فالحمد لله الذي أنجز وعده، ونصر عبده، وأعزَّ وليّه، وأذلَّ عدوَّه، وغلب الأحزاب فرداً. فإن الله الذي لا إلـه إلا هو قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥] وعداً منه لا خُلْف له، ومقالاً لا ريب فيه.

فرض الجهاد على المؤمنين فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فاستتمُّوا بوعد الله إياكم، وأطيعوه فيما فرض عليكم، وإن عظمت فيه المؤونة، واستبدَّت الرزيّة[1]، وبَعُدت الشُّقَّة، وفُجعتم في ذلك بالأموال والأنفس فإن ذلك يسير في عظيم ثواب الله، فاغزوا ـ رحمكم الله ـ في سبيل الله ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١].

---

(١) أي: المصيبة العظيمة.

ألا وقد أمرت خالد بن الوليد بالمسير إلى العراق، فلا يبرحها حتى يأتيه أمري، فسيروا ولا تتثاقلوا عنه، فإنه سبيلٌ يعظم الله فيه الأجر لمن حسنت فيه نيته، وعظمت في الخير رغبته، فإذا وقعتم على العراق، فكونوا بها حتى يأتيكم أمري، كفانا الله وإياكم مهمات الدنيا والآخرة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

فمضى خالد من اليمامة إلى العراق، وخاض المعارك الفاصلة المظفرة ضد الفرس (كذات السلاسل، والمَذار، وأُلَّيس) وغيرها. ثم ساروا إلى الحيرة والأنبار، وعين التمر، ومنها إلى دُومَة الجَنْدل.

وبعدها سار خالد بجيشه إلى الفِراض ـ وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة ـ ووقعت مع الروم معركة هائلة، قتل فيها المسلمون مئةَ ألف من عدّوهم. وجاءت تباشير النصر إلى المدينة النبوية. فكتب الصديق إلى خالد: (لا يدخلنَّك عُجْبٌ، فتخسر وتذلّ، وإياك أن تدلّ بعمل، فإن الله له المنّ، وهو ولي الجزاء).

ودخلت سنة ثلاث عشرة والصدّيق عازم على جمع الجنود، ليبعثهم إلى الشام، وذلك مرجعه من الحج، عملاً بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣]، واقتداء برسول الله ﷺ الذي جمع المسلمين لغزو الروم عام تبوك، وبعث أسامة بن زيد ليغزو تخوم الشام.

فقام، فدعا عمر، وعثمان، وعلياً، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبا عبيدة بن الجراح، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه، فقال أبو بكر: (إن الله ـ عز وجل ـ لا تحصى نعماؤه، ولا تبلغ جزاءَها الأعمالُ، فله الحمد؛ قد جمع الله كلمتكم، وأصلح ذات بينكم، وهداكم إلى الإسلام، ونفَى عنكم الشيطان، فليس يطمع أن تُشركوا به، ولا تتخذوا إلـهاً غيره، فالعرب اليوم بنو أم وأب.

وقد رأيتُ أن أستنفر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، ليؤيد الله المسلمين،

ويجعل الله كلمته العليا، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر، لأنه من هلك منهم هلك شهيداً، وما عند الله خير للأبرار، ومن عاش عاش مدافعاً عن الدين، مستوجباً على الله ثواب المجاهدين. وهذا رأيي الذي رأيته، فلْيُشِر امرؤ عليَّ برأيه).

فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: (الحمد لله الذي يخصّ بالخير مَنْ شاء من خلقه، والله ما استبقنا إلى شيءٍ من الخير قطّ إلا سبقتنا إليه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. قد ـ والله ـ أردتُ لقاءك بهذا الرأي الذي رأيتَ، فما قُضي أن يكون حتى ذكرته، فقد أصبتَ ـ أصاب الله بك سبيل الرشاد ـ سرِّبْ[1] إليهم الخيل في إثر الخيل، وابعث الرجال بعد الرجال، والجنود تتبعها الجنود؛ فإن الله ناصرٌ دينه، ومعزٌّ الإسلام وأهله).

واعترض عبد الرحمن بن عوف على رأيهما، فقام فقال: (يا خليفة رسول الله، إنها الروم وبنو الأصفر!! حد حديد[2] وركن شديد، ما أرى أن نقتحم عليهم اقتحاماً، ولكن نبعث الخيل فتُغير في قواصي[3] أرضهم ثم ترجع إليك، وإذا فعلوا ذلك بهم مراراً أضرُّوا بهم، وغنموا من أداني أرضهم، فقعدوا بذلك عن عدوّهم. ثم تبعث إلى أراضي اليمن، وأقاصي ربيعة ومضر، ثم تجمعهم جميعاً إليك. ثم إن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك، وإن شئتَ أغزيتهم). ثم سكت وسكت الناس.

وسمع الصدّيق مقالتي عمر وابن عوف، وأراد مزيداً من الآراء التي عند وجوه الصحابة؛ فقال: ما ترون؟. فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: (إني أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين، شفيق عليهم، فإذا رأيت رأياً تراه لعامَّتهم صلاحاً؛ فاعزم على إمضائه، فإنك غيرُ ظَنين)[4]. فقال طلحة والزبير وسعد

---

(١) أي: أرسل قطعة قطعة.
(٢) أي: هم قوة قوية.
(٣) جمع قاصية، أي البعيدة.
(٤) أي: غير متَّهم.

وأبو عبيدة وسعيد بن زيد ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم: (صَدَقَ عثمان، ما رأيتَ من رأي فامْضِه، فإنّا لا نخالفك ولا نتهمك).

ثم توجّه أبو بكر إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: ماذا ترى يا أبا الحسن؟. فقال عليٌّ: (أرى أنّك إن سرت إليهم بنفسك، أو بعثتَ إليهم؛ نُصرت عليهم إن شاء الله!. فقال: بشّرك الله بخير، ومن أين علمت ذلك؟!. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال هذا الدين ظاهراً[1] على كلِّ مَن ناوأه، حتى يقوم الدين وأهله ظاهرون». فقال: سبحان الله، ما أحسن هذا الحديث! لقد سررتني به سرَّك الله).

وبعد أن استشار أبو بكر الناس، واستكشف مستكنّات النفوس؛ عزم الله له على الرشد، فقام في الناس خطيباً، فذكر الله بما هو أهله، وصلّى على نبيه ﷺ، ثم قال:

(إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأكرمكم بالجهاد، وفضّلكم بهذا الدين على أهل كلِّ دين، فتهجّزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام، فإني مُؤمِّر عليكم أمراء، وعاقد لهم ألوية، فأطيعوا ربكم، ولا تخالفوا أمراءكم، لِتَحْسُنْ نيتكم وأشربتكم وأطعمتكم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).

وكتب أبو بكر إلى أهل اليمن يستنفرهم للجهاد في سبيل الله؛ فلبّوا راغبين، وسارعوا إلى إحدى الحُسنيين: النصر أو الشهادة.

ثم جمع الأمراء من أماكن متفرقة من جزيرة العرب، وعقد لهم الألوية والرايات، ولما ركبوا مشى معهم يودِّعهم، حتى بلغ ثَنِيَّة الوداع، فقالوا: (يا خليفة رسول الله؛ تمشي ونحن ركبان؟! فقال: إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله).

---

(١) أي: غالباً.

ثم أوصاهم فقال: (أوصيكم بتقوى الله، اغزوا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، فإن الله ناصرٌ دينَه. ولا تَغُلُّوا[1]، ولا تغدروا، ولا تجبنوا، ولا تفسدوا في الأرض، ولا تعصوا ما تؤمرون. فإذا لقيتم العدو من المشركين ـ إن شاء الله ـ فادعوهم إلى ثلاث؛ فإن هم أجابوكم، فاقبلوا منهم وكفُّوا عنهم. ادعوهم إلى الإسلام، فإن هم أجابوكم، فاقبلوا منهم وكفوا عنهم، فإن هم أبَوا، أن يدخلوا في الإسلام، فادعوهم إلى الجزية، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم وكفّوا عنهم. وإن هم أبوا، فاستعينوا بالله عليهم، فقاتلوهم إن شاء الله.

ولا تعقرنَّ نخلاً، ولا تحرقُنَّها، ولا تعقروا البهيمة، ولا شجرة بثمر، ولا تهدموا بِيْعة[2]، ولا تقتلوا الولدان، ولا الشيوخ، ولا النساء).

● وكان أول لواء عقده لخالد بن سعيد بن العاص؛ فولاه أرض تيماء، يكون فيها فيمن معه من المسلمين حتى يأتيه أمره.

● وبعث أبا عبيدة على جند آخر، وجعل له نيابة حمص.

● وبعث عمرو بن العاص في ثلاثة آلاف، فيهم ناس كثير من المهاجرين والأنصار، وخرج أبو بكر يمشي إلى جنب راحلة عمرو، وهو يوصيه ويقول:

(ياعمرو، اتَّقِ الله في سرائرك وعلانيتك، واستحِيه؛ فإنه يراك ويرى عملك، وقد رأيتَ تقديمي إياك على من هم أقدم سابقة منك، ومن كان أعظمَ غِنًى عن الإسلام وأهله منك. فكن من عمَّال الآخرة، وأردْ بما تعلم وجه الله، وكن والداً لمن معك، ولا تكشفنَّ الناس عن أستارهم، واكتفِ بعلانيتهم، وكن مجدّاً في أمرك، وأصدق اللقاء إذا لقيت، ولا تجبُن، وتَقَدَّم في الغُلول[3] وعاقب عليه، وإذا وعظت أصحابك فأوجز، وأصلح نفسك، تصلح لك رعيتك).

---

(١) الغلول: السرقة من الغنيمة.

(٢) البيعة: المعبد للنصارى واليهود.

(٣) أي: انْهَ عنه.

● وشرحبيل بن حَسَنَة، أقبل من عند خالد من العراق، فأمَّره على جيش وبعثه إلى الشام، وأوصاه فقال: (فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأي التقي الناصح؛ فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذُ بن جبل، ولْيَكُ ثالثاً خالد بن سعيد، فإنك واجد عندهم نصحاً وخيراً، وإياك واستبداد الرأي عنهم، أو تطوي[1] عنهم بعض الخير).

● وعقد لواء ليزيد بن أبي سفيان، وجعل له دمشق، وأوصاه فقال: (يا يزيد، إن لك قرابة عسيَت تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكبر ما أخاف عليك، فإن رسول الله ﷺ قال: «من وُلِّي من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباة له بغير حق، فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صَرفاً ولا عدلاً حتى يدخله الله جهنم. ومن أعطى أحداً من مال أخيه محاباة له فعليه لعنة الله». إن الله دعا الناس إلى أن يؤمنوا بالله فيكونوا في حمى الله، فمن انتهك في حمى الله شيئاً بغير حق فعليه لعنة الله).

ثم أوصاه بما يعمل به في وجهته التي يقصدها، فقال له: (أوصيك بأبي عبيدة ابن الجراح خيراً، فقد عرفتَ مكانه من الإسلام، وأن رسول الله ﷺ قال: «لكلِّ أمّة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»؛ فاعرف له فضله وسابقته، وانظر معاذ بن جبل، فقد عرفتَ مشاهده مع رسول الله ﷺ، وأنّ رسول الله ﷺ قال: «يأتي أمام العلماء برَتْوَة»[2]. فلا تقطع أمراً دونهما، وإنهما لن يألوَا بك خيراً).

هكذا يوجه هذا الخليفة المُسَدَّد أمراءه وقواد جنده، فيوصيهم بتقوى الله وطاعة رسوله واتّباع هَدْيه في الفتوح، ودعوة الناس للإسلام، وإصلاح السرائر، ومجافاة المحاباة بغير حق، واستشارة ذوي الرأي، ومعرفة الفضل لأولي السابقة، ثم الرأفة بمن معهم من الجيش، وعدم إيرادهم المهالك.

---

(١) أي: تخفي.
(٢) أي: برَمْية سَهْم، وقيل: بميل، وقيل: مَدَى البصر.

ثم أمر كل أمير أن يسلك طريقاً غير طريق الآخر، لما لَحَظَ في ذلك من المصالح، مقتدياً بنبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام عندما قال لبنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾ [يوسف: ٦٧].

واجتمعت الجيوش الرومية مقابل كل أمير من المسلمين في جيش كثيف، وبعث المسلمون إلى أبي بكر يطلبون المدد، فكتب لهم: (اجتمعوا وكونوا جنداً واحداً)، وجعل عليهم أبا عبيدة.

ثم بعث بإثر خالد بن الوليد إلى العراق، ليقدم إلى الشام، فيكون الأمير على من به. وأقبل خالد واستناب على العراق المثنى بن حارثة الشيباني، وسار خالد في تسعة آلاف وخمسمئة، سلك طريقاً لم يسلكه قبلَه أحد، فوصل في خمسة أيام.

وجاءت الأمداد إلى الروم، فاكتملوا مئتين وأربعين ألفاً، وانضم خالد وعكرمة بجيشيهما، فأصبح المسلمون زهاء أربعين ألفاً، وتواجه الجيشان في (اليرموك).

واستمد المسلمون أبا بكر، فالعدو قد جاء في أعداد هائلة، وعدة عديدة، فكتب إليهم الخليفة يقول: (إنه قد جاء في كتابكم تستمدوني، وإني أدلكّم على مَن هو أعزّ نصراً، وأحضر جنداً، الله عز وجل؛ فاستنصروه، فإن محمداً ﷺ قد نُصر يوم بدر في أقّل من عدتكم)!!.

ونظر خالد فوجد الجيوش تقاتل متفرقة، فجيش أبي عبيدة وعَمْرو ناحية، وجيش يزيد وشرحبيل ناحية؛ فأمرهم بالاجتماع، ونهاهم عن التفرق والاختلاف، وقال: فلنتعاور الإمارة. ووليها خالد أولاً.

وحمي وطيس المعركة، وتصاول الأبطال، وإبّان احتدام الوغى جاء نَعْي الخليفة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه؛ فأُخفي نبأ ذلك عن الجيش، لئلا يدب فيهم الضعف. واستكملت الفتوح في عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.

وبذلك بدأت أبراج كسرى وقيصر تتهاوى تحت قَدَمَيْ أبي بكر، الذي سطّر بفتوحاته المظفرة بداية نَعْي أعظم وأظلم إمبراطوريتين في ذلك الزمان.

ولم يكتف أبو بكر بما حققه من انتصارات وفتوحات، بل تطلعت نفسه المؤمنة إلى باقي بلاد الدنيا، فأراد أن يبلغها نور الوحي الإلـٰهي، ويسودها شرع الله الحكيم، وقد أوصى بذلك وهو على فراش مرضته التي مات فيها؛ فدعا عمر فقال له: (اسمع يا عمر ما أقول لك، ثم اعمل به. إني لأرجو أن أموت من يومي هذا ـ وذلك يوم الإثنين ـ ؛ فإن أنا متُّ فلا تمسينَّ حتى تندب الناس مع المثنّى، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحنّ حتى تندب الناس مع المثنى. ولا تشغلنّكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم، وقد رأيتني مُتَوفًّى رسول الله ﷺ وما صنعتُ، ولم يُصَب الخلق بمثله. وبالله لو أنّي أنِي[1] عن أمر الله وأمر رسوله؛ لَخَذَلنا ولعاقَبَنا)، فاضطرمت المدينة ناراً[2].

جمع القرآن في مصحف:

وتمخَّضت عن تلك المعارك الفاصلة أحداث جسام، من أشدها خطراً على الإسلام موت حَفَظَة القرآن العظيم في معركة اليمامة. ففزع عمر بن الخطاب رضي الله عنه لذلك، فالصحابة قد انتشروا في الأصقاع يُبلِّغون الناس دعوة السماء، والشهادة أُمنية كل أحدٍ منهم، والقرآن محفوظ في صدورهم، مما يجعل موتهم خطراً على القرآن!.

فأسرع عمر إلى أبي بكر يشاوره في جمع القرآن في مصحف.

والصدّيق السبّاق إلى كل خير توقَّف هذه المرة؛ لا لشيء، إلا لأن رسول الله ﷺ لم يفعل هذا الأمر، فكيف يتجرأ هو على ذلك!!.

---

(١) أي: أتأخر.

(٢) كناية عن استبسال أهلها وإقبالها على الجهاد.

وكأن أبـا بكر قد وضع في قلبـه قولته الشـهيرة: (إن كان قال فقد صدق) فيصلاً وفرقانـاً لكلّ أمرٍ يقْدِم عليه أو يحجم عنـه؛ فرسـول الله ﷺ ما فعل هذا الأمر، ولا أمر بفعله، بل ولـم يُشر إلى ذلك، فكيف يفعله أبو بكر؟!.

ولـم يزل عمر يراجعه ويناقشه، ويبيّن له وجوه الخير في ذلك؛ حتى انشرح لذلك صدره، واطمأنت نفسه، ورأى أن الخير كلّه في جمع القرآن المنزّل في مصحف، لحفظه من الضياع.

ويحدّثنا عن هذا الأمر الخطير كاتبُ الوحي الأمين زيدُ بن ثابت؛ فيقول: (أرسل إليَّ أبو بكر مَقْتَلَ أهل اليمامة[١] فإذا عمر بن الخطاب عنده.

قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد اسْتَحَرَّ[٢] يوم اليمامـة بِقُرَّاء[٣] القرآن، وإني أخشـى أن يَسْتَحِرَّ القتلُ بـالقرّاء بالمَوَاطن[٤]، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعلُ شيئاً لم يفعلْه رسولُ الله ﷺ؟ قال عمر: هو واللهِ خير. فلم يـزل عمر يراجعني، حتى شـرح الله صدري لذلـك، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبـو بكر: إنك رجل شـاب عاقل لا نتَّهمك، وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فَتَتَبَّعِ القرآن فـاجمعه. فوالله لو كلَّفوني نقل جبلٍ من الجبـال ما كـان أثقلَ علي مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله؟. قال: هو والله خير.

فلم يـزل أبو بكر يراجعني، حتى شـرح الله صدري للذي شـرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

---

(١) أي: أيام قُتِل من المسلمين في (معركة اليمامة) مع مسيلمة الكذاب.
(٢) أي: اشتد وكثر.
(٣) أي: حَفَظَة القرآن.
(٤) المواضع التي سيغزو فيها المسلمون، والمعارك التي تكون بينهم وبين أعدائهم.

فتتبّعتُ القرآن أجمعه من العُسُبِ[1] واللِّخَافِ[2] وصدور الرِّجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خُزَيْمَةَ الأنصاري، لم أجدها مع أحدٍ غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة. فكانت الصُّحُف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياتَه، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه).

وتلك لَعمْرُ الله واحدة من أعظم أعمال الصدّيق إن لم تكن أعظمها؛ فإذا مات القرّاء، وضاع كثير من القرآن، فماذا بقي للمسلمين بعدها من حصن يتحصنون به، وشرع يمتثلون أمره ويجتنبون نهيه؟!.

ولكن لِمَ نقول هذا والقدر الحكيم قد أرسل الصديق ليرسخ قواعد الإسلام، ويحمي ذمار الدين، ويحافظ عليه كما تركه رسول الله ﷺ عندما لحق بربه، فلا ينتقص منه شيء مهما كانت التضحيات؟

وليس عبثاً ولا مجاملة ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين.

تواضعه ورحمته، وورعه وقضاؤه:

ومع هذه الصرامة في المواقف، والصلابة في الحق، كان قلبه يشيع رحمة، ونفسه تفيض حناناً ورأفة ورِقَّة. لم تغيّر الخلافة من جوهر نفسه، ولا من أسلوب حياته، ولم ينسَ تواضعه وفضائله في زحمة انتصاراته، ولم يعش فوق الناس، بل ظل واحداً بينهم.

فقد كان قبل الخلافة يؤمُّ بيوت العجائز، فيسقي لهن، ويقضي حوائجهنَّ، ويحلب للأيتام ـ الذين فقدوا آباءهم ـ الشياه! ولما بويع بالخلافة، ما غيّر ذلك من خُلقه شيئاً.

---

(١) جمع عسيب، وهو جريدة النخل العريض.
(٢) جمع لَخْفَة، وهي حجارة بيضاء رقيقة.

فهذه واحدة من النساء تقول: (نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين قبل أن يُستخلف، وسنة بعدما استُخْلِف، فكان جواري الحيّ يأتينه بغنمهن، فيحلب لهن).

ولما قالت إحدى الجواري ـ بعدما بويع بالخلافة ـ: (الآن لا يحلب لنا منائحنا[1]!! فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمري لأحْلُبَنَّها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيّرني ما دخلتُ فيه عن خُلُق كنتُ عليه. فكان يحلُبُ لهم، فربما قال للجارية من الحيّ: يا جارية، أتُحبّين أن أُرْغِيَ[2] لكِ أو أُصَرِّحَ[3]؟ فربما قالت: أرْغُ، وربما قالت: صرِّح، فأي ذلك قالت، فعلَ).

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يروي لنا استباقه مع الخليفة الصديق في خدمة عجوز عمياء، فقد (كان يتعهد عجوزاً كبيرة عمياء في بعض حواشي المدينة من الليل، فيسقي لها، ويقوم بأمرها، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها، فأصلح ما أرادت. فجاءها غير مرة كيلا يُسبق إليها، فرصده عمر، فإذا هو بأبي بكر الذي يأتيها ـ وهو يومئذٍ خليفة ـ فقال عمر: أنت هو لَعَمْري)!!.

نعم، فليس لأحد إذا سابقه عمر أن يسبقه؛ إلا أن يكون أبا بكر، حتى ولو أصبح خليفة المسلمين.

إن بساطة هذا الحاكم الرباني، وإن رحمته بأمته، لمن الأمور المعجزة، ولقد أعطاه رسول الله ﷺ حقه عندما قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر».

* * *

● كان يقضي بين الناس بالقسطاس المستقيم، ويبيّن لهم برأيٍ سديدٍ وفَصْلٍ من القول، وجهَ الحق فيما اختلفوا فيه، فقد جاءه مرة رجل فقال: (إن أبي يريد أن يأخذ مالي كله يجتاحه!. فقال لأبيه: إنما لك من ماله ما يكفيك. فقال:

---

(١) هي الغنم ذوات اللبن، مفردها منيحة.

(٢) من الإرغاء: وهو الحلب بحيث يأتي عليه الزبد.

(٣) من التصريح: وهو الحلب بدون الزبد.

يا خليفة رسول الله، أليس قد قال رسول الله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك»؟ قال: نعم، وإنما يعني بذلك النفقة).

● وإذا عُرضت عليه المسألة، ولم يجد عنده فيها علماً؛ سأل الصحابة هل سمعوا فيها من رسول الله ﷺ شيئاً، فإذا أجابوه قضى به، كما حدث له في ميراث الجدة. يقول قَبيصة بن ذؤيب: (جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها، فقال: مالكِ في كتاب الله شيء، وما علمتُ لكِ في سنّة نبي الله ﷺ شيئاً، فارجعي حتى أسأل الناس.

فسأل الناسَ، فقال المغيرة بن شعبة: حضرتُ رسولَ الله ﷺ أعطاها السدس. فقال أبو بكر: هل معك غيرك؟. فقام محمد بن مسلمة فقال مثل ما قال المغيرة. فأنفذه لها أبو بكر).

● وكان أبو بكر رضي الله عنه أسدَّ الصحابة رأياً، وأكملهم عقلاً؛ لكنه ما كان يهجم على الفتوى، بل يتهيب ذلك، ويخشى الله تعالى، وفي ذلك يقول ابن سيرين: (لم يكن أحد بعد النبي ﷺ أَهْيَبَ لما لا يعلم من أبي بكر، ولم يكن أحد بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر. وإن أبا بكر نزلت فيه قضية، لم يجد لها في كتاب الله أصلاً، ولا في السنة أثراً، فقال: أجتهد رأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني، وأستغفر الله).

* * *

ولقد كان من نهج أبي بكر أنه حدَّد في أولى خطبه سياسته في القضاء، والفصل في الخصومات، فالضعيف قوي عنده حتى يرد إليه حقه، والقوي ضعيف عنده حتى يأخذه الحق منه. وهكذا كانت خلافته رحمة وعدلاً، ومحبة وإخاءً بين الناس، حتى لم يعد هناك أحد يشتكي ظُلامة.

فبعد أن استُخلف، وفرض له المسلمون عطاءه، قال عمر: (إليَّ القضاء)، وقال أبو عبيدة: (إليَّ الفيء).

فكان عمر قاضياً في خلافة الصديق، يقول عمر: (فلقد كان يأتي عليَّ الشهرُ ما يختصم إليَّ فيه اثنان).

وفي العام الذي ولي فيه أبو بكر (استعمل عمر على الحج، ثم حج أبو بكر من قابل، ثم اعتمر في رجب سنة اثنتي عشرة، فدخل مكة ضَحْوةً، فأتى منزله، وأبو قحافة جالس على باب داره مع فتيان يحدثهم، فقيل له: هذا ابنك.

فنهض قائماً، وعَجِل أبو بكر أن ينيخ راحلته، فنزل عنها وهي قائمة، فجعل يقول: يا أبهْ لا تقم، ثم التزمه، وقبَّل بين عيني أبي قحافة، وجعل أبو قحافة يبكي فرحاً بقدومه.

وجاء والي مكة عَتَّاب بن أسيد، وسهيل بن عمرو، وعِكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام؛ فسلَّموا عليه: السلام عليك يا خليفة رسول الله، وصافحوه جميعاً. فجعل أبو بكر يبكي حين يذكرون رسول الله ﷺ، ثم سلموا على أبي قحافة.

فقال أبو قحافة: يا عَتيق، هؤلاء الملأ فأحسِن صحبتهم.

فقال أبو بكر: يا أبهْ، لا حول ولا قوة إلا بالله، طوِّقت عظيماً من الأمر، لا قوة لي به ولا يدان إلا بالله.

وقال: هل من أحد يشتكي ظُلامةً؟ فما أتاه أحد!! فأثنى الناس على واليهم).

اتخاذه بيت المال:

وكان يخاف الله في المسلمين، ويرعى الناس في أموالهم وحقوقهم، فجعل لما يأتيه (بيت مال)[1] بالسُّنْحِ[2] ليس يحرسه أحد.

فقيل له: (يا خليفة رسول الله ﷺ، ألا تجعل على بيت المال من يحرسه؟!.
فقال: لا يُخاف عليه. قلت: لِمَ؟. قال: عليه قُفْل).

---

(١) وهذا خلاف ما هو مشهور بين الناس أن أول من اتخذ بيت المال هو عمر.
(٢) السنح: إحدى محالّ المدينة، كان بها منزل أبي بكر الصديق.

وكان يعطي ما فيه حتى لا يبقى فيه شيء، ولما تحوَّل أبو بكر إلى المدينة حوَّله، فجعل بيت ماله في الدار التي كان فيها. فقدم عليه مال فكان يقسمه على فقراء الناس، فيسوي بين الناس في القَسْم: (الحرّ والعبد؛ والذكر والأنثى؛ والصغير والكبير؛ فيه سواء. وكان يشتري الإبل والخيل والسلاحَ، فيحمِلُ في سبيل الله.

واشترى عاماً قطائف[1] أُتيَ بها من البادية، ففرقها في أرامل أهل المدينة في الشتاء).

فلما توفي أبو بكر ودُفن، دعا عمرُ بن الخطاب الأمناءَ، ودخل بهم بيت مال أبي بكر، ومعه عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان وغيرهما، ففتحوا بيت المال، فلم يجدوا فيه ديناراً ولا درهماً، ووجدوا خَيشة للمال، فَنُفِضَت فوجدوا فيها درهماً! فترحَّموا على أبي بكر.

وكان بالمدينة وزّان على عهد رسول الله ﷺ، وكان يزن ما عند أبي بكر من مال، فسئل الوزّان: (كم بلغ ذلك المال الذي وَرَدَ على أبي بكر؟ قال: مئتي ألف)!!.

أنفق الصدّيق ذلك كله على فقراء الناس ومعوزيهم، وما زاد اشترى ببعضه الكساء لمن لا يجده، والبعض الآخر اشترى به السلاح لإرهاب عدو الله، والتمكين للمسلمين في الأرض.

خطبه ومواعظه:

ولم يكن أبو بكر رجل الملحمة وفارس الحرب فحسب ـ أو القاضي العادل، والمجتهد المبدع، أو الأوّاه الحليم، القوّام على أمور رعيته بالقسطاس المستقيم ـ بل جمع إلى ذلك كله أنه كان خطيباً مصقعاً، إذا تكلَّم كان للمنابر هزة، وللقلوب بكاء.. ينصح الناس في أخراهم ودنياهم، ويكشف لهم

---

(١) جمع قَطِيفَة، وهي كساء له أهداب.

ما فيه سعادتهم في الدارين. فمن واجبه لكونه خليفة أن لا يجد خيراً للناس إلا طار بهم إليه، ولا شراً إلا نأى بهم عنه.

وقد ألقى في الناس خطباً جليلة ومواعظ مؤثرة، من فوق منبر رسول الله ﷺ، وقف بهم ذات يوم، فقال:

(أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تُثنوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلِطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف في المسألة؛ فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ثم اعلموا عباد الله، أن الله تعالى قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، واشترى منكم القليل الفاني بالكثير الباقي. وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه، ولا يُطفأ نوره، فصدِّقوا قوله، وانتصحوا كتابه، واستبصروا فيه ليوم الظلمة، فإنما خلقكم للعبادة، ووكَّلَ بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون.

ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون في أجل قد غُيِّب عنكم علمه، فإن استطعتم أن تنقضي الآجال وأنتم في عمل الله فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله. فسابقوا في مُهَلِ آجالكم قبل أن تنقضي آجالكم، فيردّكم إلى أسوأ أعمالكم، فإن أقواماً جعلوا آجالهم لغيرهم، ونَسُوا أنفسهم، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم.

والوَحَا الوَحَا[1]، النجاءَ النجاءَ، فإن وراءكم طالباً حثيثاً أمره سريع).

وقال: (ثم تفكَّروا عباد الله فيمن كان قبلكم، أين كانوا أمس وأين هم اليوم؟!

أين الملوك الذين أثاروا الأرض وعمروها؟ قد بعدوا ونُسي ذكرهم، وصاروا كلا شيء.

---

(١) أي: السرعة السرعة، وهو منصوب على الإغراء.

أَلاَ إن الله عز وجل قد أبقى عليهم التبعات، وقطع عنهم الشهوات، ومضوا والأعمال أعمالهم، والدنيا دنيا غيرهم، وبقينا خَلَفاً بعدهم، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا، وإن اغتررنا كنا مثلهم.

أين الوُضَّاء[1] الحسنة وجوههم، المعجبون بشبابهم؟ صاروا تراباً، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم.

أين الذين بَنوا المدائن وحصَّنوها بالحوائط، وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاوية، وهم في ظلمات القبور ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[2] ﴾ [مريم: ٩٨].

أين من تعرفون من آبائكم وإخوانكم، قد انتهت بهم آجالهم، فوردوا على ما قدموا، فحلُّوا عليه، وأقاموا للشقوة أو السعادة بعد الموت.

ألا إن الله ـ لا شريك له ـ ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً، ولا يصرف عنه به سوءاً؛ إلا بطاعته واتّباع أمره.

واعلموا أنكم عبيد مدينون، وأن ما عنده لا يُدرك إلا بطاعته.

أما آن لأحدكم أن تُحسر عنه النار، ولا تبعد عنه الجنة؟!.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وصلوا على نبيكم ﷺ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

استخلافه عمر:

واستمر الصدّيق على هذا النهج الفذ طيلة فترة خلافته، وكان همه الأكبر هو إقامة حكم الله في الأرض، وإرساء دعائمه. فبعد أن قضى على ظاهرة الردة؛

(١) جمع وضيء، وهو الحسن الوجه.
(٢) ركزاً: أي الصوت الخفي.

جهز الجيوش، وعقد الألوية، وسيّرهم لفتح الشام والعراق، وأمدهم بالأمداد، حتى يصل نور الرسالة إلى حيث يبلغ نور الشمس.

وختم ذلك بأحسن مناقبه، وأجلِّ فضائله؛ حيث استخلف عمر بن الخطاب على المسلمين، وما أراد أن يستبدّ بذلك، بلى استدعى رؤوس المهاجرين والأنصار، يسألهم عن عمر ـ وهو به أعلم ـ، فلما ثقل به المرض (دعا عبدَ الرحمن ابن عوف، فقال:

أخبرني عن عمر بن الخطاب؟. فقال: ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني. فقال أبو بكر: وإنْ!. فقال عبد الرحمن: هو والله أفْضَلُ مَنْ رأيْك فيه[1]!!. ثم دعا عثمان بن عفان، فقال: أخبرني عن عمر؟. فقال: أنت أَخْبَرُنا به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله. فقال عثمان: اللهم عِلْمي به أن سريرته خَيْرٌ من علانيته، وأنه ليس فينا مثله. وشاوَرَ معهما سعيد بن زيد، وأُسَيْدَ بن الحُضَيْر، وغيرهما من المهاجرين والأنصار. فقال أُسيد: اللهم أعلمه الخَيَرة بعدك، يرضى للرضى، ويَسْخَطُ للسّخْط، الذي يُسِرُّ خير من الذي يُعْلِن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه).

وبذلك ازدادت فراسة الصدِّيق بعمر صدقاً، واطمأن لما عزم عليه بإشارة أعيان الصحابة وفقهاء الناس وسادتهم، وعزم على إعلان استخلافه عمرَ بين الناس، فدخل عليه بعض الصحابة، وقال له قائل منهم: (ما أنت قائلٌ لربك إذا سألك عن استخلافِك عمرَ علينا وقد ترى غِلْظَته)؟!.

فقال أبو بكر: (أجلسوني، أبالله تُخوِّفوني؟! خاب من تزوّد من أمركم بظُلْم! أقول: اللهمّ استخلفتُ عليهم خير أهلك، أبلغْ عني ما قلتُ لك مَنْ وراءك)!!.

ثم اضطجع، ودعا عثمان بن عفان فقال: (اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم،

---

(١) أي: هو أفضل مَنْ تراهم أهلاً للخلافة.

هذا ما عَهِدَ أبو بكر بن أبي قُحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويَصْدُقُ الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آلُ الله ورسولَه ودينَه ونفسي وإياكم خيراً. فإن عَدَلَ فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدّل فلكلِّ امرئٍ ما اكتسب. والخيرَ أردتُ، ولا أعلم الغيب، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

ثم أمر بالكتاب فختمَه، ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوماً، فبايع الناس ورَضُوا به.

ثم دعا أبو بكر عمرَ خالياً، فأوصاه قائلاً: (اتَّقِ الله يا عمر، واعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضته.

وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة، باتّباعهم الحق في دار الدنيا، وثقله عليهم؛ وحُقَّ لميزان يوضع فيه الحقّ غداً أن يكون ثقيلاً.

وإنما خفَّت موازين من خفَّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفَّته عليهم؛ وحُقَّ لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً.

وأن الله تعالى ذكر أهل الجنة، فذكّرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيِّئه، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأخاف ألاّ ألحق بهم.

وأن الله تعالى ذكر أهل النار، فذكّرهم بأسوأ أعمالهم، وردَّ عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو ألا أكون مع هؤلاء.

ليكون العبد راغباً وراهباً، لا يتمنى على الله، ولا يقنط من رحمة الله.

فإن أنت حفظتَ وصيتي، فلا يكُ غائب أحبَّ إليك من الموت ـ وهو آتيك ـ وإن أنت ضيَّعتَ وصيتي، فلا يكُ غائبٌ أبغضَ إليك من الموت، ولستَ تُعجزه)!!.

ثم خرج عمر من عنده، فرفع أبو بكر يديه وقال: (اللهمَّ إني لم أُرِدْ إلا صلاحَهم، وخفتُ عليهم الفتنةَ، فعملتُ فيهم بما أنت أعلم به، واجتهدتُ لهم رأيي؛ فولَّيتُ عليهم خيرهم وأقواهم عليهم، وأحرصَهم على ما أرشدهم، وقد حَضَرني من أمرك ما حضر، فاخْلُفْني فيهم، فَهُم عبادك، ونواصيهم بيدك، أصْلِح لهم واليَهم، واجعله من خلفائك الراشدين، يتّبعُ هدى نبيّ الرحمة، وهُدى الصالحين بعده، وأصلِح له رعيّته).

هذا هو منطق إيمان الصدّيق، وتلك هي فلسفته ونظرته لدينه، وتلكم هي رحمته لهذه الأمة.

(وخفتُ عليهم الفتنة)! هي العبارة نفسها التي قالها لما بويع هو بالخلافة، فليتابع وَأْدَ الفتنة قبل أن تطل برأسها، وليصنع ذلك في آخر عهده بالدنيا، ليموت مطمئناً أن الفرقة والشر لن تقوم لهما قائمة بعد رحيله.

هل رأت عين الدنيا، أو سمعت أذن التاريخ، وهل قرأ الناس سيرة رجل، أو شاهدوا حاكماً؛ يحرص على وحدة أمته، ويخاف على رعيته، حتى في النزع الأخير، وعندما جاءت سكرة الموت بالحق؟! نعم، إنه أبو بكر.

ولقد صدقت فراسته في عمر، فخلفه الله عز وجل في المسلمين أحسن الخلافة، وظهر لعمر ـ الذي هو حسنة من حسنات الصدّيق وواحدة من فعلاته ـ تمهيدُ الإسلام، وإعزاز الدين، وتصديق وعد الله تعالى بأنه يظهره على الدين كله.

وما إن خرج عثمان بن عفان بالكتاب ليخبر الناس، حتى أشرف الصدّيق عليهم من كوّة وقال: (أيها الناس إني قد عهدت عهداً، أفترضون؟! فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله. فقام علي فقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر! قال: فإنه عمر)!!.

وما أبرع وأروع قولة ابن مسعود: (أَفْرَسُ الناس ثلاثة: أبو بكر حين استخلف عمر، وصاحبة موسى حين قالت: استأجره، والعزيز حين تفرَّس في يوسف فقال لامرأته: أكرمي مثواه).

• • •

الفصل الخامس

وفاته وأسـرته

وصيته قبل موته:

واقترب الموت من أبي بكر، وحان الأجل المحتوم، فدعا ابنته عائشة رضي الله عنها، فأوصاها قائلاً:

(يا بنيّة، إنا وُلِّينا أمر المسلمين، فلم نأخذ ديناراً ولا درهماً، ولكنّا أكلنا من جَرِيش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وإنه لم يبق عندنا من فَيء المسلمين قليلٌ ولا كثيرٌ، إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح[1]، وجَرْد هذه القطيفة[2]، فإذا متُّ فابعثي بها إلى عمر.

وانظري اللِقْحَة[3] التي كنا نشرب من لبنها، والجَفْنَة[4] التي كنا نصطبغ فيها، والقطيفة التي كنا نلبسها، فإنا كنا ننتفع بذلك حين كنا نلي أمر المسلمين، فإذا متّ فارددیه إلى عمر).

هذا الرجل الباهر الشاهق، الذي أسلم في أوج ثرائه، وأنفق ماله في سبيل الله، يحرّر الأرقاء، ويطعم الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً...

والخليفة الذي بدأت تنثال في أيامه خيرات الشام والعراق؛ فينأى بنفسه عن ذلك، وتردِّد روحه الطاهرة تلك الكلمات لردّ الأمانة إلى بيت مال المسلمين!!.

---

(١) هو البعير الذي يُستقى عليه الماء.
(٢) التي انجرد خَمَلُها وبليت.
(٣) هي الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.
(٤) أي: القصعة.

وفَوْرَ وفاة الصديق نفّذت السيدة عائشة وصية أبيها، وأرسلت ما عندهم من مال المسلمين إلى عمر، وما إن رآه حتى انفجر باكياً، وقال: (رحمك الله يا أبا بكر، لقد أتعبت من جاء بعدك).

وفاته ـ مرض الموت، ووصيته في تركته:

وكان أول مرض أبي بكر ـ كما روت ابنته عائشة ـ (أنه اغتسل يوم الإثنين لسبع خَلَوْنَ من جمادى الآخرة، وكان يوماً بارداً، فَحُمَّ خمسة عشر يوماً، لا يخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمرَ يصلي بالناس، ويدخل الناس عليه يعودونه، وهو يثقل كل يوم، وكان عثمانُ ألزمَهم له في مرضه).

وكان مما قالوا له في مرض موته: (يا خليفة رسول الله، ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك؟ قال: قد نظر إليّ. قالوا: ما قال لك؟ قال: قال: إني فعّال لما أريد)!!.

ثم دعا عائشة فقال لها: (يا بُنيّة، والله ما من الناس أحد أحب إليَّ غنًى منكِ، ولا أعزّ عَلَيَّ فقراً بعدي منكِ، وإني قد نَحَلْتُكِ جَدَادَ[1] عشرين وَسْقاً، فلو كنتِ جَدَدْتِه واحترزته كان لك، وإنما هو اليوم مالُ وارثٍ، وإنما هو أخوَاكِ وأُختاكِ، فاقسموه على كتاب الله).

فقالت: (يا أبتِ والله لو كان كذا وكذا لتركتُه، إنما هي أسماء، فمن الأخرى)؟.

قال: (ذو بطن ابنة خارجة[2]، أراها جارية). وفي رواية: (ذات بطن ابنة خارجة، قد ألقي في روعي أنها جارية فاستوصي بها خيراً. فولدت أمَّ كلثوم)!.

---

(١) الجداد: قطع ثمرة النخل، والمراد: نخل يُجَدّ منه ما يبلغ عشرين وَسْقاً، والوَسْق: مِكْيَلَةٌ معلومة، وهي ستون صاعاً.

(٢) ابنة خارجة: هي حبيبة بنت خارجة بن زيد، زوج أبي بكر. وذو بطن: يشير إلى أنها حامل، وقد ولدت له جارية بعد وفاته، سميت أم كلثوم.

ثم أوصى بِخُمسِ ماله، وقال: (آخذ من مالي ما أخذ الله من فيء المسلمين). (لأن أوصي بالخمس أحب إليَّ من أن أوصي بالربع، وأن أوصي بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث، ومن أوصى بالثلث لم يترك شيئاً)!.

وكان رضي الله عنه يقول في دعائه: (اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم لقائك).

ويكثر من قوله: (اللهم إني أسألك الذي هو خير لي في عاقبة الأمر، اللهم اجعل آخر ما تعطيني من الخير رضوانك، والدرجات العُلى في جنات النعيم).

وألحَّ عليه المرض، واشتد به، ودخلت عليه ابنته البارَّة الصدّيقة عائشة رضي الله عنها، فرأته يعالج سكرات الموت؛ فتمثلت بقول الشاعر:

لَعَمرُكَ ما يُغْنِي الثراءُ عن الفتى إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ [سورة قَ: ١٩].

ثم قال لابنته: (في كم كفَّنتم النبي ﷺ؟ قالت: في ثلاثة أثواب سَحُوليَّةٍ[١]، ليس فيها قميصٌ ولا عمامة. وقال لها: في أي يومٍ توفِّي رسول الله ﷺ؟. قالت: يوم الإثنين. قال: فأي يوم هذا؟. قالت: يوم الإثنين. قال: أرجو فيما بيني وبين الليل[٢]. فنظر إلى ثوب عليه كان يُمَرَّضُ فيه، به رَدْعٌ[٣] من زعفران؛ فقال: اغسلوا ثوبي هذا، وزيدوا عليه ثوبين، فكفِّنوني فيها. قلت: إن هذا خَلَقٌ[٤]؟ قال: إن الحيَّ أحق بالجديد من الميت، إنما هو لِلْمُهْلَة[٥]. فلم يُتَوَفَّ

---

(١) أي بيض، نسبة إلى سحول وهي قرية باليمن.
(٢) أتوقع أن تكون موتتي فيما بين ساعتي هذه وبين الليل.
(٣) لَطْخ وأثر.
(٤) بالٍ غير جديد.
(٥) أي: للقيح والصديد الذي يذوب من جسم الميت.

حتى أمسىٰ من ليلة الثلاثاء، ودُفن قبل أن يصبح).

وأوصى أن تغسله امرأته أسماء بنت عُمَيْس، ويعينها عبد الرحمن بن أبي بكر، وأن يُدفن جنب رسول الله ﷺ.

هكذا حتى في موته لا يريد فراق رسول الله ﷺ، ولا مخالفة هَدْيه. فرسول الله ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب، فليكفن هو بمثلها. ورسول الله مات يوم الإثنين، فهو يرجو أن يموت في مثل ذلك اليوم. والنبي ﷺ دفن في بيت عائشة، فهو يريد أن يجاوره، حتى إذا انشقّت الأرض عن خير خلق الله؛ كان الصدّيق في صحبته، ورفيقه عندما يُحشر الناس لله رب العالمين!!.

غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه:

وغُسِّل الجسد الطاهر، وكُفِّن بما أوصى به في نزعه الأخير، وصلَّىٰ عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بين قبر النبي ﷺ ومنبره، وكبّر عليه أربعاً، ثم حُفر له، وجُعل رأسه عند كَتِفَي النبي ﷺ، وأُلصق اللّحد بقبر رسول الله ﷺ. ونزل في حفرته عمر بن الخطاب، وطلحة، وعثمان، وعبد الرحمن بن أبي بكر، ثم أهيل عليه التراب، وارتجَّت مكة لموته، فقال أبو قحافة: ما هذا؟ قالوا: مات ابنك. قال: رُزْءٌ[1] جليل، من قام بالأمر بعده؟. قالوا: عمر. قال: صاحبه.

وهوى النجم المتوقّد، وتوارى الخليفة الشاهق، والرجل الفرد، ووري التراب مساء ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء، لثماني ليالٍ بقين من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية.

عمره ومدة خلافته:

وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وأياماً. وتُجمع الراويات على أنه توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، وأنه استوفى بخلافته سنَّ رسول الله ﷺ.

---

(١) الرُّزْء: المُصِيبة.

زوجاته وأولاده:

وكان له من الزوجات أربع، هن:

قُتيلة بنت عبد العزى، وأم رومان بنت عامر، وأسماء بنت عُمَيْس، وحبيبة بنت خارجة.

ومن الولد ستة، ثلاثة ذكور، وثلاث إناث:

فالذكور هم: عبد الله، وعبد الرحمن، ومحمد.

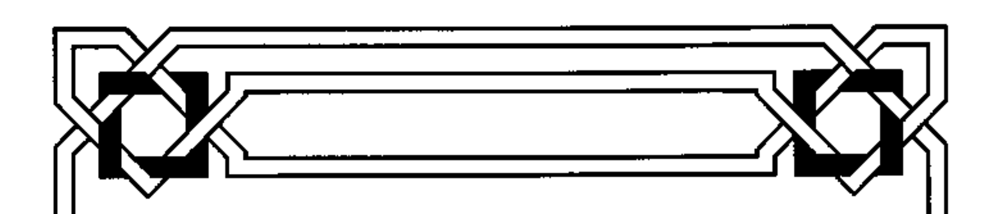
والإناث هن: عائشة أم المؤمنين، وأسماء ذات النطاقين، وأم كلثوم، وُلدت بُعَيد وفاة أبي بكر رضي الله عنه.

* * *

هذا هو أبو بكر، فمهما كتب الكاتبون، وأثنى المداحون، وتكلَّم الخطباء، ونشر الناس، عن مناقبه ووفرة فضائله؛ فإنهم لا يرفعون بذلك عند الله من قدره، إنما يرفعون من أقدار أنفسهم، عندما يؤهِّلونها للحديث عن هذا العَلَم الشامخ والإنسان الباهر، والطود العظيم، والخليفة الراشد الأول بعد رسول الله!!.

فرحمك الله أبا بكر في الأولين، ورضي عنك في الآخرين، ولْتَهْنِكَ الصحبة في الغار، والذود عن المختار ﷺ، والنصرة في العريش، والاستخلاف بإجماع المسلمين، وصمودك لجيوش المرتدين، وجمعك للذكر الحكيم، وليهنك المنزل في القبر بجوار رسول رب العالمين، ورضي الله عنك، وحشرنا في زمرتك، وأماتنا على محبتك.

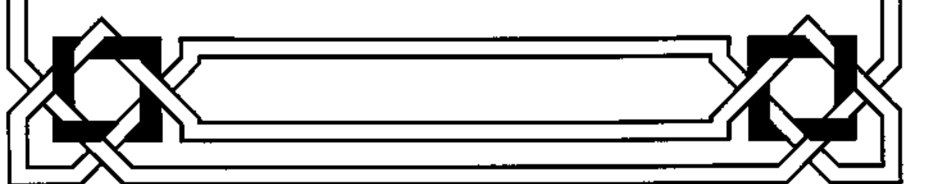
● ● ●



الباب الثاني



الفاروق العادل





الفصل الأول

نبعته وحليته وإسلامه

اسمه ونسبه وولادته:

في رحاب مكة، وجوها القائظ، وريحها اللافحة، وصحرائها القاحلة، وبعد حادثة الفيل بثلاث عشرة سنة؛ ولد عمر بن الخطَّاب بن نُفَيل بن عبد العزى، ابن رياح، بن عبد الله، بن قُرْط، بن رزاح، بن عدي القرشي.

وأبوه الخطّاب بن نُفيل العدوي، شديد البأس، قوي الشكيمة. وأمه حَنْتَمة بنت هاشم، بن المُغيرة، بن عبد الله، بن عُمر، بن مخزوم، ابنة عم أبي جهل!.

نشأ في كنف والده، وورث عنه طباعه الصارمة، التي لا تعرف الوهن، والحزم الذي لا يدانيه التردد، والتصميم الذي لا يقبل أنصاف الحلول.

حِلْيَتُه وصفاته ومكانته في قريش:

وصفه من رآه بأنه رجلٌ آدم[1]، أغسَرَ يَسَر، يعمل بكلتا يديه، أصلع، ضخم، مفرط الطول، يفوق الناس طولاً، إذا كان بينهم بدا كأنه راكب على دابة والناس يمشون، جسيم، كأنه من رجال سدوس، كبير الشارب. إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع. يصارع الفتيان في (سوق عكاظ) فيصرعهم، ويلغ من فروسيته وشدة بنيانه أنه كان يأخذ بأذن الفرس بيد، وبأذنه بيده الأخرى، ثم يثب على الفرس!!.

---

(١) آدم: شديد السُّمرة.

وكان من أشراف قريش وأعيانها، وإليه كانت السِّفارة في الجاهلية، فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم، أو بينهم وبين غيرهم، بعثوه سفيراً ـ أي رسولاً ـ. وإذا نافرهم منافر[1]، أو فاخرهم مفاخر؛ رضوا به، وبعثوه منافراً ومفاخراً.

ذلكم هو عمر بن الخطاب في الجاهلية: رجل قوي البنيان، مجدول اللحم، رابط الجأش، ثابت الجنان، صارم حازم، لا يعرف التردد والأرجحة، ينأى عن الذبذبة والمراوغة، لا تتناوبه أهواء متنازعة، ولا آراء مشتتة، بل نفْسه كلٌّ واحد، إذا تحرك تحركت كل قدراته، واحتشدت في شخصية واحدة متكاملة متسقة؛ فحيثما وُجد عمر، وُجدت شخصيته وإرادته ومنهجه، في دقة واتساق، كأنه جيش لَجب، يتحرك بخطىً قوية إلى اتجاه واحد محدد، بشخصية فذّة ليس لذرَّة في كيانه عن إرادته شذوذ، أو عن وجهته من مهرب!!.

صافي النفس صفاء سماء مكة، واضح السريرة من غير تعرّج ولا انحناءات وضوح الصحراء التي ترعرع فيها، راسخ العزيمة رسوخ الجبال الرواسي التي رعى الأغنام بين جنباتها، متلألئ الصفات كالكوكب الدرّيّ في كبد السماء.

فكان من كل ذلك هذا الرجل الشامخ العملاق، الصارم الحازم، الصلب الصلد، الواضح وضوح الشمس، الذي إذا رأيتَه قرأتَ دخيلة نفسه وقد ارتسمت على ملامح وجهه، لا مخبوء فيها ولا مستور.

ولقد أصابت قريش في اختيارها، وما اختارته إلى عن ابتلاء منها واختبار؛ ليكون لها سفيراً ومنافراً، ومفاخراً ومكاثراً.

إسلامه:

هذا العنفوان العارم، والبأس الشديد، قد جنّده عمر في محادّة دعوة الله سبحانه، عندما قام رسول الله ﷺ يدعو الناس على بصيرة للتوحيد ونبذ الأصنام.

---

(١) تنافر الرجلان إذا تفاخَرا ثم حكَّما بينهما واحداً. والمُنافرة: المُفَاخَرة والمُحاكمة.

فكان عمر في الصف المعادي للإسلام، وقد أفرغ كل قوته في بحر الشرك المتلاطم حول الدعوة الجديدة. وكان متشبّثاً بموقفه لدرجة تعصف بأي أمل في إسـلامه، وأن يكون يوماً ما مع الركب المؤمن. ولقد كاد أذاه للمسـلمين يبلغ أذى قريش مجتمعة، ولم يسلم منه حتى أخته وصهره سعيد بن زيد، الذي قال (لو رأيْتُني مُوثِقي[1] عمرُ على الإسلام، أنا وأخته).

ومع ذلك كله كان رسول الله ﷺ يطمع في إسلامه؛ لما يعلمه فيه من القوة التي اتّسـمت بالوضـوح والتفوق البـاهر، الذي جُنّد في غير طريق الحق. فكان نبي الله ﷺ يدعو الله ويقول: «اللهم أعِزَّ الإسلام بأحبِّ الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام». فكان أحبهما إلى الله عمر بن الخطاب.

ويقول: «اللهم اشدد الدين بعمر، اللهم اشدد الدين بعمر، اللهم اشـدد الدين بعمر».

وصعدت الدعوة إلى السماء، وأخذت الأقدار تغير من وجهة عمر، وتقوده إلى الحق والصواب، ويحدثنا هو عن أول إشعاعات القرآن، التي اخترقت قلبه الصلد، ففتحت بعض مغاليقه، وحركت عقله الوقّاد، الذي يميز الحق من الباطل؛ فيقول:

(خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ، فوجدته سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن.

فقلت: هذا ـ والله ـ شـاعر كما قالت قريـش، فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤١].

فقلت: كاهن؛ قال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ حتى ختم السورة. فوقع الإسلام في قلبي كل موقع).

---

(١) الوَثَاق، هو ما يُشَدُّ به ويُربط.

لكن طغيان الوثنية، وعرامة الشرك، والتمسك بما عليه الآباء من عقائد وعادات، وموقف كبراء قريش وزعمائها وعدائهم للدعوة؛ كل ذلك لم يكن ليترك عمر يسلم بيُسْرٍ وسهولة، بل لا بد للقلب الشديد، والقوة الهادرة، من صوت مجلجل، ومنطق قاهر باهر، يقرع سمع عمر وفؤاده ليفتحه فتحاً قوياً.

ويمرّ عمر ذات يوم بأم عبد الله بنت أبي حَثْمة، وقد ترحَّلت للهجرة إلى أرض الحبشة، فرآها على تلك الحال، فقال لها: إنه للانطلاق يا أمَّ عبد الله»؟.

قالت: نعم، والله لنخرجنّ في أرض الله، آذيتمونا وقَهَرتمونا حتى يجعل الله مخرجاً.

فقال: صحبكم الله!!.

وشهدت المرأة من رِقَّة عمر التي ما عهدتها فيه، وما اعتادت أن ترى منه إلا البلاء والإيذاء والشِّدة، وما إن جاء زوجها عامر حتى قالت: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفاً ورقَّته وحُزْنَه علينا!!.

قال: أطمعتِ في إسلامه؟

قالت: نعم.

قال: فلا يُسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطَّاب. قال ذلك يأساً منه لما يرى من غلظته وقسوته على الإسلام.

فكانت هذه هي الصيحة الثانية في قلب عمر، ما لبثْ أن خَفَتَ نورها، وخفَّ أوارها؛ لكنها كانت بمثابة الفتيل الذي سيضرم ناره امرأة شاهقة شامخة باهرة، رضعت مع عمر من ثدي واحد، ونشأت على نمط فذّ مثله.

فها هو ذا يخرج من داره في يوم لاهب، قد حمل إصراره، وتوشّح سيفه، ميمماً شطر (دار الأرقم)، حيث كان الرسول ﷺ مع صحبه هناك، يريد قتله، فيلقاه في الطريق نُعيم بن عبد الله النحّام ـ وكان قد أسلم، وأخفى إسلامه فَرَقاً من

قومه ـ فقال له: أين تريد يا عمر؟.

فقال: أريد محمداً هذا الصابئ، الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها؛ فأقتله.

قال له نُعيم: والله لقد غرتّك نفسُك من نفسِك يا عمر؛ أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟!.

وهنا يخشى عمر أن يكون نُعيم قد أسلم فيقول له: (ما أراك إلا قد صبوت، وتركت دينك الذي أنت عليه)؟!.

وبسرعة البرق تتفتق عبقرية نُعيم عن المخرج ـ وهو يعرف بطش عمر ـ فيصرفه عن مقصده، ليرفع الأذى عن رسول الله ﷺ ثم عن نفسه، فيقول لعمر: (أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟!.

قال: وأي أهل بيتي؟.

قال: خَتَنُك[1] وابن عمِّك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد ـ والله ـ أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما)!!.

ويلوي عمر زمام نفسه، فما له ولدار الأرقم ومن فيها، وقد دهم الخطر بيته، واقتحم عرينه.

(فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خبّاب بن الأرتّ، معه صحيفة فيها (سورة طه)، يُقرِئهما إياها، فلما سمعوا حسّ عمر، تغيب خبّاب في مخدع لهم، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة، فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خبّاب عليهما.

فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنَمة[2] التي سمعت؟.

قالا له: ما سمعتَ شيئاً.

---

(١) الخَتَن: الصهر.

(٢) الكلام الخفي الذي لا يُفهم.

قال: بلى والله. لقد أُخبرتُ أنكما تابعتما محمداً على دينه. وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها، فضربها فشجَّها.

فلما فعل ذلك، قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك)!!.

وهنا تقرع كلمة الحق الصادقة من أخته وختنه قلبَ عمر وهو في أوج بأسه، فتمزّق ما عليه من غشاوة، فيلين ويتخشع، وفي هذه اللحظة تبرز طبيعة عمر التي تميز بها عن الأشداء من قريش ـ كأبي جهل وأضرابه ـ الذين استبان لهم الحق، فكابروا وعاندوا، وركبوا متن المحادّة لله ولرسوله. لقد كانت قوة عمر قوة تفوّق لا قوة طيش وتهور وتعنّت؛ فما إن قرعت قلبه كلمات الصدق، وجلجلت في فؤاده مدوّية، حتى ميّزها بأَحْوَذِيّته التي لا تعرف المواربة والمراوغة، بل تألف الوضوح وتطمئن إليه أنّى كان.

ونهض كالبرق الخاطف من فوق صدر سعيد، وندم على ما صنع وارعوى، وتضرع إلى أخته فقال: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً؛ أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ـ وكان عمر كاتباً ـ.

فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها.

قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردّنها إذا قرأها إليها.

فلما قال ذلك طمعت بإسلامه، فقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر.

فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وقرأ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ١ ـ ٨]. ويتابع عمر القراءة بقلب واجف، وجنان راجف، ويتلو بخشوع وتبتُّل:

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ [طه: ١٤]. وما إن انتهى من هذه الآية حتى قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمَه! دلّوني على محمد.

(فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس، وهو يقول: «اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب» فالله الله يا عمر.

فقال له عند ذلك عمر: فدلَّني يا خباب على محمد حتى آتيه فأُسلم.

فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه نفر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشَّحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم البابَ، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خَلَل الباب، فرآه متوشحاً السيفَ، فرجع إلى رسول الله ﷺ، وهو فَزِع فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشّحاً السيف!!.

فقال حمزة بن عبد المطلب: فَأْذَن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله ﷺ: «ائذن له». فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجمع ردائه، ثم جَبَذه جبذة شديدة وقال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة»!!.

فقال عمر: يا رسول الله، جئتُك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله.

قال: فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم).

وانضم عمر إلى أربعين رجلاً كانوا سبقوه للإيمان بالله وبرسوله ﷺ، وكان ذلك في السنة السادسة للبعثة.

وهكذا تحوّلت القوة الشـديدة التي كانت تحرس آلهة قريـش في الظلام، فوثبت إلى النـور، لتحمي ذمـار التوحيد، وتلقي بكل بأسـها في خدمـة الدين الجديد، في لحظة حاسمة قدَّرها العليم الخبير.

ففي أول النهار كـان عمر يذود عن حياض الأوثـان، ورمـوز الجاهليـة، وما غربت شمس ذلك اليوم إلا وعمر في ركب الإيمان، قد أسلم وجهه لله وهو محسن! وشتان بين عقيدته آنذاك وعقيدته الآن؛ فهو قبل قليل كان يؤمن بإلـه من حجر ومدر، لا بـرهان له بـه إلا التقليد الأعمى الذي يحجب عن النفـس نـور الحقيقة، وهو الآن قد آمن بإلـه نزّل الفرقان، وملأ نوره السموات والأرض، عليم خبير، وعلى كل شيء قدير!.

ومنذ اللحظة تحوّل رجل قريش، الذي هو في ربيع العمر، وعنفوان الشباب من فتى يصارع الأشداء في (سوق عكاظ)، إلى مؤمن ينازل الباطل والطغيان مع رسول الله وصحبه!! ثم بعد رسوله ﷺ حتى يثلَّ عروش كسرى وقيصر.

وطبيعـة عمر التي ترفض التبعيـة، وتسـتعلي على الخضوع، قد وجدت نفسها ومناخها الطبيعي في هـذا الدين، الذي يترنم الوجود بآيـات الله يتلـوها رسوله ﷺ، وتصلصل كلمات الحق في الألباب فتجد معها برد اليقين!.

هذا الدين الذي يرفع الرؤوس عالياً لتتعلق القلوب برب السماء، وتجعل الناس سواسية كأسنان المشط، وتحملهم على عزائم الأمور، وفضائل الأعمال، وتنأى بهم عن دنيا الوثنية، التي يتكفّأ رجالها على عبادة الطواغيت، ويجرّبون حظَّهم العاثر وهم يستقسمون بالأزلام، ويبيعون عقولهم للخمور، تلعب بها كيف تشاء!.

إن دينـاً كهذا يجب أن تنصبّ فيـه قوة عمر وعبقريتـه وطاقـاته وإمكانـاته المتزاحمة. وهو إذ جاء لقتل محمد بكل عزم وحزم، وقد تحوّل إلى مؤمن به ذائد عن حياض دينه؛ فماذا عساه يفعل؟!.

تسميته بالفاروق:

لقد أبان عن منهجه الذي سيبدأ به، ويبقى عليه، إلى أن يلقى وجه ربه العليّ الأعلى، ذلكم هو قوله الباهر، وعبارته المتفوّقة، وشعاره الذي كان يستحضره دائماً: (ألسنا على الحق؟!).

ففي اللحظة التي أعلن عمر فيها إسلامه، وقف بين يدي رسول الله ﷺ قائلاً: (يا رسول الله، ألسنا على الحقّ إن متنا وإن حيينا؟!.

قال: «بلى والذي نفسي بيده، إنكم على الحق إن متّم وإن حَييتم».

فقلت: ففيمَ الاختفاء؟! والذي بعثك بالحق لنخرجنّ!.

فأخرجناه في صفّين: حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كَدِيد[1] ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرتْ إليَّ قريشٌ وإلى حمزة، فأصابتهم كآبةٌ لم يصبهم مثلها، فسمّاني رسول الله ﷺ يومئذٍ (الفاروق).

جهره بإسلامه:

ويتابع عمر طريقه في مستوى أعلى وغاية أسمى، فهو الذي جاء ليقتل محمداً ودينه الحق، الذي كان ـ عمر ـ يتوهمه باطلاً، انكفأ على طول الخط، ليصرع الباطل الوثني الذي كان يظنه حقاً!! ويدوّي بصوته المجلجل ليصكّ آذان المشركين: (والله ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خائف).

ويأبى أن يترك مكاناً رفع فيه عقيرته بذكر الأصنام، إلا أن يجاهر فيه بقول: (لا إله إلا الله محمد رسول الله). وكأنه بهذا يريد أن يمحو من ذاكرة الزمان والمكان كل إثم فعله، ويقتلع الأشواك التي ملأ بها طريق رسول الله ﷺ وصحبه؛ ليزرع مكانها الأزاهير والورود!.

---

(١) هو التراب الناعم فإذا وُطئ ثار غباره، أي إن الغبار كان يثور من مشيهم كغبار الطحين.

فيذهب إلى أبي جهل فيقرع بابه، فيقول: من هذا؟ فيجيب: عمر بن الخطاب، وقد أسلمت! فأجاف الباب في وجهه. ثم ذهب إلى رجل آخر من عظماء قريش، ففعل مثل الذي فعل مع أبي جهل، فقال عمر: ما هذا بشيء، إن المسلمين يُضربون ولا أُضْرَب!!.

فيسأل عن رجل نقَّال للحديث، ليذيع نبأ إسلامه بين رجالات قريش، يقال له: جميل بن مَعْمَر الجُمَحِيّ؛ فيأتيه عُمر ويقول له: (أعلمتَ يا جميلُ أني قد أسلمت، ودخلت في دين محمد)؟!.

فوالله ما راجعه جميل حتى قام يجرّ رداءه، ووقف على باب المسجد وصرخ بأعلى صوته: (يا معشر قريش، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ! وعمر يقول من خلفه: كَذَبَ، ولكني قد أسلمتُ، وشهدتُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله).

فثاروا إليه، فما برح يُقاتلهم ويُقاتلونه، حتى قامت الشمس على رؤوسهم، حتى أعيى عمر، فقعد، وهو يقول: (افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمئة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا)!!.

فبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخ[1] من قريش عليه حُلَّة حِبَرَة، وقميص مُوَشًّى[2]؛ حتى وقف عليهم، فقال: (ما شأنكم؟.

قالوا: صبأ عمر.

فقال: فَمَهْ! رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عديّ بن كعب يُسْلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلُّوا عن الرجل.

قال: فوالله لكأنما كانوا ثوباً كُشط عنه).

---

(١) هو العاص بن وائل السَّهْمي.

(٢) أي مخطَّط.

ولم يكتفِ عمر بهذا، وهو مَنْ عَلِمَ أن قريشاً قد كان يصيبها السرور والحبور لأنها ترى عمر يعذِّب أصحاب محمد، ويضربهم بيده؛ فليمنح الآن الصحبَ الكرام سروراً وفرحاً مثله! وهو إذ لم يستطع الآن أن يطوّح برؤوس الشرك، ويلوي أعناق سادة قريش؛ فلا أقل من أن يريهم أنه يضرب مثل عمار وبلال وصهيب وخباب، وأن عمر الجسور الباهر الشامخ العملاق يضطهد في سبيل دينه!!.

فيأتي العاصَ بن وائل ويقول له: (جِوارك رَدٌّ عليك. فقال: لا تفعل يا ابن أختي. قلت: بل هو ذاك. فقال: ما شئتَ. قال: فما زلت أَضرب وأُضرب حتى أعزَّ الله الإسلام).

ويصوِّر عبد الله بن مسعود ذلك أدق تصوير وأبرعه وأصدقه فيقول: (كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة. ولقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلِّي في البيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم، حتى تركونا فصلّينا).

ويقول صهيب: (لمّا أسلم عمر ظَهَرَ الإسلام، ودُعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حِلَقاً، وطُفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غَلُظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به).

وحسب إسلام عمر مكانة ورفعة وسموّاً قول ابن عباس: لمَّا أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم اليوم منا وأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤].

كيف لا يكون ذلك وقد خرجت الدعوة بإسلام عمر من الخفية إلى الاستعلان، وبرز المؤمنون القلّة ليواجهوا خصومهم، ويعلنوا مبادئهم صريحة مدوّية، وتصلصل تكبيراتهم وتهليلاتهم في جنبات مكة، فأوَّبت معهم جبالُها، وتلقَّت قريش ساعتئذٍ أولى كلمات النعي لمبادئها الباطلة وأصنامها المصطنعة.

• • •

الفصل الثاني

صحبته وهجرته ومشاهده

هجرته:

وانضم عمر إلى ركب الإيمان في مكة المكرمة، ينافح عن رسول الله في دعوته، ويصكّ بصوته الجهوري أسماع قريش بكلمات التوحيد، ويشارك إخوانه بعض ما ينالهم، حتى أذِنَ رسول الله ﷺ لهم بالهجرة إلى المدينة.

وهاجر من هاجر مستخفياً، أما عمر الذي كان مميزاً بين لِدَاته، حتى في بنيانه الجسمي، وطوله الذي علا به الناس؛ أبَتْ عليه طبيعته المتفوقة إلا أن يجهر بهجرته ليكون أنكى لقريش، وأقسى على قلبها، ويحدثنا عن ذلك علي بن أبي طالب فيقول: (ما علمتُ أحداً من المهاجرين إلا هاجر مختفياً، إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلّد سيفه، وتنكَّب[1] قوسه، وانتضى[2] في يده أسهماً، واختصر عَنَزَته[3]، ومضى قِبَل الكعبة، والملأ من قريش بفِنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكّناً، ثم أتى المَقَام فصلى متمكّناً، ثم وقف على الحِلَق واحدة واحدة وقال لهم:

شاهت[4] الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس[5]، من أراد أن تَثْكَلَهُ

---

(١) أي وضعها في منكبه.
(٢) انتضى السهم: أخرجه من الكنانة فجعله في يده.
(٣) العَنَزَة: أطول من العصا، وأقصر من الرُّمح، وفيها سِنَان مثل سنان الرُّمح؛ والعكازة قريب منه. واختصرها: أي وضعها على خصره.
(٤) أي: قَبُحت.
(٥) المعاطس: جمع مَعْطِس، وهو الأنف.

أمّه، ويُؤتَم ولده، وتَرْمُل زوجته، فَلْيَلْقَني وراء هذا الوادي!.

قال علي: فما تبعه أحد، إلا قوم من المستضعفين علّمهم وأرشدهم، ومضى لوجهه).

وقدم المدينة المنورة في عشرين راكباً، وقد سبقه إليها مصعب بن عمير وابن أم مكتوم الأعمى!! وتوالت جماعات المهاجرين بالقدوم إلى المدينة، حتى تمّ انتظام العقد بهجرة رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق. وقام رسول الله وأصحابه الكرام ببناء الدولة الجديدة على أسس راسخة قوية.

مشاهده:

ووقعت معارك فاصلة، وأيام حاسمة، بين نور الحق وظلمات الباطل، وصارع الإسلامُ الشركَ فصرعه، وقاتله فقتله؛ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وكان لِعُمَرَ في كل معركة رأي بارز، وموقف مشهود. وقد أمَّره رسول الله ﷺ على بعض السرايا، وشهد بدراً، وأُحداً، والخندق، وبيعة الرضوان، وخيبر، والفتح، وحُنيناً، والطائف، وتبوك، وسائر المشاهد، وكان ممن ثبت مع النبي ﷺ في (غزوة أُحد).

وفي كل ذلك كان عمر كما هو، بكل حزمه وعزمه، وتصميمه الذي لا يعرف التلجلج، وإصراره الذي لا يقبل التردد، ووضوحه الذي يرفض المراوغة والغموض، وقوته التي لا ترضى أنصاف الحلول! فلقد كان كذلك في جاهليته، فكيف وهو في الإسلام، الدين الأبلج الواضح كالشمس؟! فلن يزيده إلا تماسكاً وقوة وحزماً وعزماً وصلابة ووضوحاً.

فما تكـاد (غزوة بدر) تنتهي، ويقع الأسـرى في يـد النبي ﷺ؛ حتى تظهر مشكلتهم، وماذا سيُفعل بهم. ولندعْ عمرَ نفسه يحدثنا كيف استشار رسول الله ﷺ أصحابه في الأسرى؛ فيقول: استشار رسول الله ﷺ أبابكر وعلياً وعمر.

فقال أبو بكر : يا رسول الله، هؤلاء بنو العمّ والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن نأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله، فيكونوا لنا عضداً.

فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب»؟.

قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه، وتمكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان ـ أخيه ـ فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم!!.

فَهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلتُ، وأخذ منهم الفداء.

فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما؟!.

فقال رسول الله ﷺ: «للذي عَرَضَ عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء!! قد عُرِض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة» ـ لشجرة قريبة ـ، وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ[1] عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨].

تلك هي طبيعة عمر التي لم تتغيّر حتى بين يدي رسول الله ﷺ، فهو يتصرف وفق طبيعته القوية الأمينة المؤمنة، ويرى وكأنه مسؤول عن كل شيء لا عن نفسه فحسب، وإذا عبَّر عن رأيه لا ينتظر النصراء عليه، ولا مَنْ يؤيده فيه، فما دام يرى فيه الحق، ونصرة الحق الذي يحمله، فلتكن العواقب ما كانت. وهؤلاء الذين

---

(١) أي من الفداء.

اضطهدوا الدعوة، وعذّبوا حماتها ودعاتها، فيم العفو عنهم، أو تركهم يتنفسون الهواء؟!.

وفي (غزوة أُحُد) بعد أن ولى المشركون الأدبار، وركب المسلمون أكتافهم، وترك الرماة مواقعهم، وأخذوا يجمعون الغنائم، فاغتنمها المشركون سانحة، والتفّوا على المسلمين من الخلف، وأوقعوا فيهم إصابات بالغة كانت جزاء مخالفة الرماة أمر النبي ﷺ، واستشهد من المسلمين سبعون رجلاً، وانكشف الناس؛ كان عمر هناك فيمن ثبت مع رسول الله ﷺ.

وأشرف أبو سفيان فقال: (أَفِي القوم محمدٌ؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه. ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاث مرات. ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات. ثم رجع إلى أصحابه فقال: أمّا هؤلاء فقد قُتلوا!!.

فما مَلَكَ عمر نفسه، فقال: كذبت والله يا عدوَّ الله، إن الذين عددتَ لأحياءٌ كلُّهم، وقد بقي لك ما يسوؤك)!!.

ولعبت نشوة النصر بأبي سفيان، فنادى بكلمات يمجّد فيها بآلهته، واختار رسول الله ﷺ عمرَ للرد عليه، لما اختص به من الصولة والمهابة، وما عهد منه في ملازمته التفريد، ومحاماته على معارضة التوحيد، وأنه لا ينهنهه عن مصاولة عدوّه العدة والعديد.

قال أبو سفيان: أُعْلُ هُبَلْ.

فأجابه عمر: الله أعلى وأَجَلّ.!.

ثم قال: لنا العُزّى ولا عُزّى لكم.

فأجابه عمر: الله مولانا والكافرون لا مولى لهم!.

ثم قال: يوم بيوم بدر، الأيام دُوَل، وإن الحرب سِجال.

ويجيبه عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار!!.

إنها إجابات (عُمَرِيّة)، ومواقف عمرية، ونظرات عمرية! فالله أعلى وأجلّ،

وهو مولى المؤمنين، وقتلاهم في الجنة، هل يستوي كل هذا مع أصنام، وعُزّى، وقتلى مصيرهم النار؟ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢].

وفي (صلح الحديبية) بعد أن مُنع الرسول ﷺ وصحابته من الاعتمار والطواف بالبيت الحرام، وجرت بنود الصلح؛ رأى عمر فيها ما هو في صالح المشركين، وما داموا هم على الباطل، فلا بدّ من مناجزتهم ومصاولتهم، ولا بد للحق أن يستعلي بدل أن يهادِن، وأن ينازل بدل أن يساير، هكذا فهم عمر المسألة وكوّن رأيه فيها.

ويسرع إلى رسول الله ﷺ فيقول: (ألستَ نبيَّ الله حقاً؟.

قال: «بلى».

قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟.

قال: «بلى».

قلت: فلِمَ نعطي الدنيَّة في ديننا إذاً؟!.

قال: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري»).

وتقرع كلمةُ (رسول الله) سمعَ عمر وقلبه، إنه لكذلك، وهو ماينطق عن الهوى، فلا بد من الإذعان والطاعة!! ثم تعادوه نفسه الشامخة ويردد: ألسنا على الحق؟! ويتوجه إلى أبي بكر، ويسرُّ إليه بالحديث، وبالأسئلة ذاتها؛ وإذا به يجد الإجابة عينها؛ فيرعوي، ويلزم غَرْزَ رسول الله ﷺ، بل يقول: (فعملتُ لذلك أعمالاً)!! وكأنه رأى التقدُّمَ بين يدي النبي ﷺ مخالفةً تتطلّب التكفير عن الخطأ والذنب.

وبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عَمْرو، إذ جاء أبو جندل ابن سهيل بن عمرو في قيوده، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ، فقام إليه أبوه وضرب

وجهـه، وطلب إلى النبي ﷺ أن يـردّ أبـا جندل ـ حسـب شـروط الصلح ـ إلى المشركين!!.

وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأُرَدّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟! فازداد الناس غمّاً.

وقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإنَّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً».

فوثـب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب! قال: ويُدْني قائمَ السيف منه، يقول عمر: رجوتُ أن يأخذ السيف فيضرب به أباه. فضنَّ الرجل بأبيه، ونفذت القضية.

* * *

وتوالت الأيام، وراية التوحيد تعلو خفّاقة، وترفرف فوق ربوع جزيرة العرب، حتى يمَّمَ النبي ﷺ به إلى تخوم الشام في (غزوة تبوك)، وكان الناس في عسرة شديدة، وكان معهم عمر الذي يحدثنا عن ذلك فيقول: (خرجنا إلى تبوك في قَيْظ شديد، فنزلنا منزلاً، وأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إنْ كان أحدنا ليذهب فيلتمس الرَّحْل، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيعتصر فَرْثَه[1] فيشربه، ثم يجعل ما بقي على كبده).

ومع هذه الشدة الشديدة، والجوع اللافح، كان عمر يخاف أن يكثر الذبح في الإبل، فيصبح الناس لا رَكوب لهم، ولما استأذن الناسُ رسولَ الله ﷺ بنحر الإبل قائلين: لو أذِنْت لنا فننحر نواضحنا[2] فأكلنا وادّهنا؟ فأشفق النبي ﷺ عليهم فقال: «افعلوا».

---

(١) بقايا الطعام في الكَرِش.
(٢) النواضح: جمع ناضح: الدابة.

وجزع عمر من ذلك، وأسرع إلى النبي ﷺ وقال: (يا رسول الله، كيف بنا إذا نحن لقينا العدوّ غداً جياعاً رجالاً[1]؟ ولكن إن رأيتَ يا رسول الله أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم، وتجمعها، ثم تدعو الله فيها بالبركة، فإن الله سيبارك لنا في دعوتك).

إنها العبقرية الفذة، والنظرة الثاقبة، حلاها وغشاها الأدب العظيم لمقام النبي ﷺ؛ يتمثل ذلك في قول عمر: (لكن إنْ رأيت يا رسول الله)!!.

وكان ما ارتآه عمر، حتى ملأ الجيش جميع أوعيتهم، وبقي مثل ذلك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله».

حبه للنبي ﷺ ودفاعه عنه:

وإن طبيعة عمر الهادرة الجياشة، وقوته الفائقة الغَلاَّبة، قد أسلمت لله، ووثَّقت به عراها، وأسلستْ لرسول لله ﷺ خطاها. ونهضت ثابتة الخطى فوق صراط الحقّ والعدل، والفضيلة والواجب، حتى كان النَّفَس الذي يخرج من عمر لله ولرسوله، خالص الوجهة، صافي القصد.

فبينا رسول الله ﷺ ذات يوم وهو آخذ بيد عمر، إذ يقول له عمر: (يا رسول الله، لأنت أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده، حتى أكونَ أحبَّ إليك من نفسك». فقال له عمر: فإنه الآن ـ والله ـ لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: «الآن[2] يا عمر»).

لله در عمر ما أوضحه، وما أصدق صراحته، بل ما أسرع استجابته، وأقوى تبتّله في محراب الإيمان، وهو لا يتلكأ في الإجابة، بل يبادر مُلبياً لطبيعته الباهرة المتفوّقة.

---

(١) أي: مُشاة.

(٢) أي الآن عرفتَ فنطقتَ بما يجب.

● ولقد حمل نفسه على أن يحب كل شيء يهواه رسول الله ﷺ أو يتمناه، فهذا عمّ النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب يقع أسيراً يوم بدر بيد رجل من الأنصار، وقد أوعده أن يقتله، (فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتِلوه»!.

قال عمر: أفآتيهم؟.

قال: «نعم».

فأتى عمرُ الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس.

فقالوا: لا والله لا نرسله.

فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رِضىً؟.

قالوا: فإن كان له رضى فخذْه.

فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له عمر: يا عباس أسلِمْ، فوالله لأن تُسلم أحبّ إليّ من أن يسلم الخطّاب، وما ذاك إلا لما رأيتُ رسولَ الله يعجبه إسلامك)!.

هكذا يحب إسلام العباس ويتمناه أكثر مما يتمنى إسلام أبيه الخطاب؛ وما ذلك إلا لأنَّ رسول الله يحب ويتمنى إسلام عمه.

● ولقد بلغ به حبّ النبي ﷺ أنه أراد أن يتصل بنسبه: فخطب إلى علي بن أبي طالب ابنته أمَّ كلثوم ـ وأمها فاطمة بنت رسول الله ﷺ ـ فزوَّجه إياها، فخرج عمر على الصحابة فقال: ألا تهنئوني؟! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سببي ونسبي».

● بل أصبح كل شيء يصدر عن النبي ﷺ معظَّماً لدى عمر، محترماً موقَّراً.

يروي لنا عبد الله بن عباس حادثة وقعت في خلافة عمر، فيقول: (كان

للعباس ميزاب على طريق عمر، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة، وكان قد ذُبح للعباس فرخان، فلما وافى الميزاب صُبّ ماءٌ بدم الفرخين فأصاب عمرَ، فأمر عمر بقلعه، ثم رجع عمر فطرح ثيابه، ولبس ثياباً غير ثيابه، ثم جاء فصلّى بالناس.

فأتاه العباس فقال: والله إنه للمَوضع الذي وضعه رسول الله ﷺ!!.

فقال عمر للعباس: وأنا أعزم عليك لَما صعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ، ففعل ذلك العباس)!!.

لله در عمر!! أي تعظيم للنبي ﷺ يعلو فوق هذا التعظيم، بل يبلغه أو يطمح بالوصول إليه؟!.

● وتآخى مع ذلك الحب المتفرد لرسول الله ﷺ الطاعةُ المطلقة لكل أمر يأمر به رسول الله أو يفعله؛ فهذا عمر يذهب إلى الحج ويؤدي المناسك على الوجه الذي فعله النبي ﷺ، ثم (جاء إلى الحجر الأسود فقبّله، فقال: إنّي أعلمُ أنك حجرٌ لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أني رأيتُ النبي ﷺ يقبِّلُكَ ما قبَّلْتُك).

ثم قال: (فما لنا وللرَّمَل[1]، إنما كنا راءينا[2] به المشركين، وقد أهلكهم الله! ثم قال: شيء صنعه النبي ﷺ فلا نحبّ أن نتركه).

فهو إذ يبدي رأيه، ويجهر به إلى أبعد مدى، كذلك يقدّس النصوص، ويسلّم تسليماً مطلقاً بأمور قد لا يفهم حكمتها، بل يؤديها لمجرد أن رسول الله ﷺ قالها أو فعلها.

وهذا هو الفهم العميق، والإيمان المتناسق الكامل الباهر، الذي اتسم به الفاروق، إذ لا تعارض البتة بين الإيمان بالنصوص والطاعة الأمينة، وبين إبداء

---

(١) أي: الهرولة.
(٢) من الرُّؤية: أي أرَيْناهم بذلك أنَّا أقوياء.

الرأي فيما لا نصَّ فيه؛ لذلك نلاحظ مثل هذه المواقف الفذّة التي يقفو عمر فيها أثر النبي ﷺ دونما تردد ولا التفات.

* * *

ورجل هـذه صفاتـه وقناعاته، وتلك إمكانـاته وطاقـاته؛ نراه يدافع عن رسول الله ﷺ كلما وجد شيئاً قد ينال من قداسة الرسالة ومقام النبوّة، لا للذبّ عن مكانة النبي ﷺ السامقة الشاهقة وحسب، بل لأنه يعتقد تمام الاعتقاد أن أي تطاول أو تعدٍّ على شخص رسول الله ﷺ هو خدش لحرمات الشريعة، وجرأة على قدسيّتها!!.

● فهذا حبر يهود زيد بن سَعْنَة، يأتي رسول الله ﷺ يتقاضاه دَيْناً، وكان قد عرف فيه كل علامات النبوة إلا اثنتين: يسبق حلمُه جهلَه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً.

يقول زيد: (فلما حلّ الأجل أتيته، فأخذت بمجامع قميصه وردائه ـ وهو في جنازة مع أصحابه ـ ونظرت إليه بوجه غليظ، وقلت: يا محمد ألا تقضيني حقي؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لَمُطْل!.

قال: فنظر إليَّ عمر، وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير! ثم قال: يا عدوّ الله، أتقولُ لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل ما أرى؟ فوالذي بعثه بالحقّ لولا ما أُحاذِر من لومه لضربتُ بسيفي رأسك!!.

ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة، وتبسّم، ثم قال: «أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء[١]، وتأمره بحسن التّباعة[٢]».

---

(١) ولم يحن الأجل بل بقي منه ثلاثة أيام.
(٢) أي: التقاضي.

اذهب يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعاً[1] من تمر). فأسلم زيد!.

● ولما انقضت غزوة بدر، وذكر المشركون مصابهم في قتلاهم؛ عزم عُمَير بن وَهْب الجُمَحِيّ على قتل رسول الله ﷺ، فَشَحَذَ سيفه، وانطلق حتى قدم المدينة، وأناخ على باب المسجد، فرآه عمر ـ في نفرٍ من المسلمين ـ فقال: (هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشرّ، وهو الذي حرَّش[2] بيننا، وحَزَرَنا[3] للقوم ببدر).

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: (يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب، قد جاء متوشحاً سيفه!.

قال: «فأدْخله عليَّ».

فأقبل عمر، حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبَّبه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله ﷺ).

● وبينا رسول الله ﷺ بالجِعْرَانة منصرفَه من (حنين)، وهو يقسم قسماً، وفي ثوب بلال فضة، ورسول الله ﷺ يقبض منها، ويعطي الناس؛ إذا برجل يقول: يا محمد، اعدل!.

قال: «ويلك، ومَن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خِبْتَ وخَسِرْتَ إذا لم أكن أعدل»!!.

فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق.

فقال: «معاذ الله أن يتحدَّث الناس أني أقتل أصحابي»!!.

---

(١) الزيادة لأجل ترويع عمر لزيد.
(٢) أي: أفسَدَ.
(٣) أي: قدَّر عددنا تخميناً.

هذا هو عمر، وتلك هي مواقفه من رسول الله ﷺ، يؤمن به إيماناً مطلقاً، ويصدِّق ما يقوله أبعد تصديق، ويقفو أثره، ويطيع أمره، ويلتزم هَدْيه، ويسلّ سيفه الباتر على كل من تسوّل له نفسه أنْ يسيء إلى جناب صاحب الرسالة بأدنى سوء. وهو مع كل هذا لا يمتنع من بسط رأيه بين يدي النبي ﷺ فيما يراه الحقّ، وأنه لمصلحة المسلمين، فإذا استبان الأمر واستقام؛ لزم عمر ما يختاره رسول الله ﷺ طائعاً راغباً راضياً.

● ● ●

الفصل الثالث

أخلاقه وشمائله وعلمه ومكانته

إيمانه وتدينه وتقواه:

ولقد بلغ عمر بذلك أوجاً شاهقاً في محراب الإيمان والتقوى، والتبتُّل والتخشع، حتى إن رسول الله ﷺ ليرى رؤيا عجيبة ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ فيقول:

«بينا أنا نائمٌ رأيت الناس يُعْرَضُون عليّ، وعليهم قُمُصٌ، منهم ما يبلغ الثُّدِيَّ، ومنها ما دون ذلك، وعُرِض عَليَّ عمر بن الخطاب، وعليه قميص يجرُه»[1]. قالوا: فما أوَّلْتَ ذلك يا رسول الله؟. قال: «الدِّينَ».

بكلمات وجيزات يصف النبي ﷺ فيها عمرَ بأنه قد بلغ من التدين الغاية، حتى تمكّن الإيمان من نفسه أي تمكّن، وظهرت آثار ذلك على جوارحه أيّما ظهور، يرى ذلك القاصي والداني، من يعرفه أو يجهله، تماماً كما لا يختلف الناس إذا رأوا إنساناً يسحب ذيول كسائه على الأرض، بأنه متفرد بين الناس في هذا.

وعمر الذي كان بين الصحابة متفرداً بالصرامة والصراحة، والقوة في الحق، والشدة في دين الله، هو نفسه عمر الأوّاه الأوّاب، الخاشع الضارع، المخبت المنيب، الذي ذلّت له نفسه في الله، بل ذلّ له شيطانه، الذي لم يجرؤ أن يسير في طريق يسلكه عمر، بل إذا رآه ولى مدبراً ولم يعقّب.

وما أفصح وأدق قول رسول الله ﷺ وهو يرى عمر داخلاً عليه ذات يوم

---

(١) أي: يسحبه على الأرض لطوله.

فيقول: «إيهٍ يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً قطّ إلا سلك فجّاً غير فجّك». «إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فرُّوا من عمر».

ولّت الشياطين الدُّبر فَرَقاً وخوفاً من هذا المؤمن المؤيَّد بنصر الله، ويأساً منه أن تصرفه عن عزائم الأمور، بله الوسوسة له بالشرّ، فليس هذا من شأنها معه!!.

فهو إذا قال قال حقاً، وإذا آمن آمن صدقاً، لا يقول هُجراً من القول وزوراً، ولا يفعل من الأمور نُكراً، حتى وصفه علي بن أبي طالب فقال: (كنا أصحابَ محمد ﷺ لا نشك أن السكينة تنطق على لسان عمر).

* * *

رجل مدحه رسول الله ﷺ بما منحه الله سبحانه من كريم الخلال، وطيب الفعال.

رجل إذا رآه الشيطان ارتعش فرقاً، وولى ليسلك طريقاً آخر ليس فيه عمر.

رجل السكينةُ تسيل على لسانه.

كيف يكون حاله وورعه وتقواه وإخباته؟!.

● لقد كان في صلاته شديد الإنابة والتبتل، واسع الخشية، يقف بين يدي الله تعالى كأنه ثوب ملقى، لفَرْط خشوعه، يتلو آي الله، وله حنين يسمعه من يليه، بل حدّث عبد الله بن شداد فقال: (سمعت نشيج[1] عمر ـ رضي الله عنه ـ وأنا في آخر الصفوف في صلاة الصبح، وهو يقرأ سورة يوسف حتى بلغ ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

---

(١) النشيج: صوت معه توجُّع وبكاء، كما يردد الصبي بكاءه في صدره.

وقال عبيد بن عمير ـ رضي الله عنه ـ: صلّى بنا عمر بن الخطاب صلاة الفجر، فافتتح سورة يوسف، فقرأها حتى إذا بلغ: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]، بكى حتى انقطع، فركع).

وإذا أمَّ الناسَ سوّى صفوفهم فقال: استووا، تقدَّم يا فلان، تأخَّر يا فلان، أقيموا صفوفكم، يريد الله بكم هَدْيَ الملائكة، ثم يتلو: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥ ـ ١٦٦].

وكان يحب الصلاة في كبد الليل، حدَّثت إحدى زوجاته فقالت: (كان يصلي العَتَمة[1]، ثم يأمر أن نضع عند رأسه تَوْراً[2] من ماء نغطيه، ويتعارّ[3] من الليل، فيضع يده في الماء، فيمسح وجهه ويديه، ثم يذكر الله ما شاء أن يذكر، ثم يتعارّ مراراً، حتى يأتيَ على الساعة التي يقوم فيها لصلاته).

وبلغ من حبه لركعتي سنة الفجر أنه قال: لَهما أحب إليّ من حُمْرِ النَّعَم.

● وكان إذا دخل بيته نشر المصحف، فقرأ فيه، وربما دعا أبا موسى الأشعري ـ وكان حسنَ الصوت جداً ـ وقال له: (ذكِّرنا ربنا عز وجل). فيقرأ عليه القرآن.

وإذا سمع الآية من القرآن فيها تهديد ووعيد خرَّ مغشياً عليه، فيُحمل إلى بيته، يعوده الناس ليس به المرض إلا الخوف والخشية، حتى لقد رئي في وجهه خطان أسودان من البكاء!!.

● وكان رضي الله عنه يصوم الدهر، وحج في خلافته بالناس عشر حجج متوالية.

● وأما جوده في ماله، وسخاؤه وبذله في سبيل الله؛ فحدِّث عن البحر ولاحرج، وصفَه مولاه أسلم فقال: (ما رأيتُ أحداً قط بعد رسول الله ﷺ حين

---

(١) هي صلاة العشاء.
(٢) هو إناء من صُفْر أو حجارة.
(٣) أي: يستيقظ.

قُبض، كان أجدَّ ولا أجودَ، حتى انتهى[1]، من عمر بن الخطاب).

فلقد أصاب عمر أرضاً بخيبر، فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها فقال: (أصبتُ أرضاً بخيبر، لم أصِبْ مالاً قطّ أنفسَ عندي منه، فما تأمر به؟.

قال: «إن شئتَ حبستَ أصلها وتصدّقتَ بها».

قال: فتصدق بها عمر، قال: إنه لا يُباع أصلُها، ولا تُوهَبُ ولا تُورث، وتصدّق بها في الفقراء، والقربى، وفي الرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل والضيف).

* * *

وبلغ من الزهد والترفع عن ملذات الدنيا ما وصفه به معاوية رضي الله عنه أروع وصف وأدقّه فقال: (أما أبو بكر: فلم يُرِد الدنيا ولم ترده. وأما عمر: فأرادته الدنيا ولم يرِدْها).

فلقد أُلقيت بين يديه كنوز كسرى وقيصر، وسالت على عتبة خلافته أنهارٌ من ذهب، فأعرض عنها غير عابئ بها، ولا ملتفت إليها، وهذا ما يلخصه قول سعد بن أبي وقاص بقوله: ما كان عمر بأقدمنا هجرة، وقد عرفتُ بأي شيء فضلنا، كان أزهدنا في الدنيا.

مرّ مع أصحابه ذات مرة على مزبلة فاحتبس عندها، فكأنّ أصحابه تأذوا بها، فقال: (هذه دنياكم التي تحرصون عليها).

* * *

وكان على جانب عظيم من الخوف والرجاء، جلس عنده بعض أصحابه عند موته يثنون عليه بما قدّمه للإسلام، فقال: (والله لو أن لي طِلاَعَ[2] الأرض ذهباً،

---

(١) أي إلى آخر عمره.

(٢) أي: ما يملأ الأرض حتى يطلع ويسيل.

لافتديت به من عذاب الله عزَّ وجلّ قبل أن أراه).

ويحمل تِبْنَةً من الأرض ويقول: (ليتني كنت هذه التبنة، ليتني لم أُخْلق، ليت أمي لم تلدني، ليتني لم أكُ شيئاً، ليتني كنت نَسْياً مَنْسِياً).

وكثيراً ما كان يردد بين أصحابه وجلسائه: (لو نادى منادٍ من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلاً واحداً؛ لخفت أن أكون أنا هو).

ولو نادى منادٍ أيها الناس إنكم داخلون النار إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا هو.

وكان يطوف بالبيت ويقول: (اللهم إن كنت كتبتني في السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبتني في الشقاوة فامحني منها، وأثبتني في السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أمُّ الكتاب).

هذا الطود الشامخ، والرجل الباهر القوي الأمين، الصلب في دين الله، القانت الزاهد، التقي النقي، لا تفرحه نفسه بما قدّم من أعمال، ولا ييأس من رَوْح الله. أخذ الزهدَ بقوة، ولم يقتحم عليه تزهُّد الخانعين، فهو لا يرضى من أي شيء إلا بأعلاه وأقواه؛ ليتواءم مع طبيعته المتفردة!.

ولله درّ عليّ بن أبي طالب ما أبلغه عندما قال: إذا ذُكر الصالحون فَحَيْهلاً بعمر!.

قوله الحق وموافقاته:

ولقد كان من أبرز الصفات التي ميّزت شخصية عمر؛ قوله الحق، لا يخاف فيه لومة لائم؛ فهو إذا رأى الرأي يصدع به، غير هيّاب ولا وَجِل، ولقد كان موفقاً مُسَدداً في ذلك، حتى قال فيه رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه».

وقال أيضاً: «رحم الله عمر يقول الحقَّ ولو كان مرّاً، تركه الحق وما له من صديق».

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (والله ما أعرف رجلاً لا تأخذه في الله لومة لائم إلا عمر).

ولقد صحب عمر رسـول الله ﷺ سـنوات طويلة، والوحي الأمين ينزل، والنبي ﷺ يبلّغ الناس، ويعلّمهم ويبيّن لهم، وتقع الواقعة، وتحدث مشكلات، ويكـون لعمر فيها رأي؛ فيـأتي الوحي مؤيّداً لرأي عمر. بل إنَّ عمر يرى أموراً يتمنى أن تبدّل، ويستحسن أموراً أخرى، ويرجو أن تكون؛ فيتنزّل القرآنُ وفق ما تحدَّث به عمر وتمنّاه.

وهذا من النعم التي أفـاءها الله على عمر، وبيّنها رسـول الله ﷺ للنـاس بقوله: «قد كان يكون في الأمم قبلكم مُحَدَّثُونَ[1]، فإن يكن في أمتي منهم أحد، فإن عمر بن الخطاب منهم».

وقال: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكَلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد فعُمر».

● يقول عمر رضي الله عنه: (وافقت[2] ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبرهيم مصلّى؛ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وآيـة الحجاب، قلتُ: يا رسـول الله، لو أمـرتَ نسـاءكَ أن يحتجبن، فإنه يكلمهن البرُّ والفاجر؛ فنزلت آية الحجاب[3]. واجتمع نساء النبي ﷺ في الغَيْرَةِ عليه، فقلت لهنّ: عسى ربه إن طلقكنَّ أن يُبْدِلَه أزواجاً خيراً منكن؛ فنزلت هذه الآية[4]).

● وكان من رأي عمر أن لا يُصلّى على منافق مات أبداً؛ لأنهم حادّوا الله

---

(١) أي: يجري الصواب على ألسنتهم، أو يخطر ببالهم الشيء فيكون، بفضل من الله تعالى وتوفيق.

(٢) أي وافقني ربي، فأنزل القرآن على وفق ما رأيت.

(٣) هي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

(٤) هي قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥].

ورسوله، ونافقوا فمردوا على النفاق، فنزل القرآن بذلك.

يقول عمر: (لمَّا مات عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، دُعي له رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه، فقلت: يا رسول الله، أتصلّي على ابن أبيّ، وقد قال يوم كذا: كذا وكذا؟ قال: أُعدِّد عليه قوله، فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال: «أخِّر عني يا عمر». فلما أكثرتُ عليه قال: «إنّي خُيِّرتُ فاخترتُ، لو أعلم أنّي إنْ زدتُ على السبعين[1] يُغْفَرْ له لزدت عليها»!!.

قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم انصرف. فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من (براءة): ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤].

قال: فعجبتُ بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم).

● ويتمنى عمر أن تجتث كل خصلة خبيثة من المجتمع الإسلامي، وينظر فيجد الخمر لم تحرَّم بعدُ بنص قاطع واضح فيقلِّب وجهه في السماء ويقول: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيان شفاء.

فنزل قوله تعالى ـ من سورة البقرة ـ: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فدُعي عمرُ، فقرئت عليه فقال: (اللهم بيِّن لنا في الخمر بيان شفاء).

فأنزل الله تعالى ـ في سورة النساء ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]، فدُعي عمرُ، فقرئت عليه، فقال: (اللهم بيِّن لنا في الخمر بيان شفاء).

فنزلت الآية من سورة المائدة: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١]

---

(١) يريد قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٨٠].

فدعي عمر، فقرئت عليه، فقال: (انتهينا، انتهينا)!!.

● وذات يوم لقي يهودي عمرَ فقال له: إن جبريل الذي يذكره صاحبكم عدوٌّ لنا، فقال له عمر: من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين. فنزلت على لسان عمر.

● ولما نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢]؛ قال عمر: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وموقف عمر من الأسرى في غزوة بدر ونزول القرآن موافقاً له، مشهور مذكور، وكثير من المواقف التي تنزَّل بها الوحي غير ما ذكرنا، أحصى العلماء منها خمسة عشر موضعاً، ويعبر عن هذا قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (ما نزل بالناس أمر قطّ، فقالوا فيه، وقال فيه عمر، إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر)!!.

شدته في الحق:

وعمر الذي كان شديداً على الإسلام قبل دخوله فيه، أصبح شديداً للإسلام بعد أن أسلم، فجهر بإسلامه أشد ما يكون الجهر، وأظهر من عزة الإسلام والمسلمين أعلى ما تكون العزة، فتحولت طاقته الهائلة وإمكاناته المحتشدة في نفسه المتفردة، قوة للمسلمين، حتى وصفه رسول الله ﷺ بقوله: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر. وأشدّهم في دين الله عمر».

وقال فيه بعد حكمه بأسرى بدر:

«وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]. وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨].

فأيّ شرف، وأيّ تكريم، وأيّ رفعة أعظم من هذا الثناء على عمر، فيشبَّه في موقفه برسولين عظيمين من أولي العزم من الرسل؟!.

● هذا أبو سفيان بن حرب يأتي المدينة المنورة مسرعاً، للاعتذار عن قريش التي نقضت (صلح الحديبية)، وليشدّ في العقد، ويزيد في المدّة، وكلم بعضَ الصحابة، فما أجابوه لطلبه، ولما كلّم عمرَ أن يشفع له عند رسول الله ﷺ؛ انتفض عمر وقال: (أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذرّ[1] لجاهدتكم به)!!.

وأردف قائلاً: (ما كان من حلفنا جديداً فَأَخْلَقَهُ الله، وما كان منه متيناً فقطعه الله، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله).

فقال أبو سفيان: (جُزيت من ذي رحم شراً).

وماذا كان أبو سفيان يرجو من الفاروق غير هذا الجواب الصاعق، والإيمان الشاهق؟!.

● ويجهّز النبي ﷺ جيشه لفتح مكة، وما إن يصبح المسلمون على مشارفها، إذا بالعباس بن عبد المطلب يركب بغلة النبي ﷺ وقد أردف أبا سفيان وراءه، ومرّا بنار عمر، فقال عمر: من هذا؟ وقام إليه، فلما رأى أبا سفيان على عَجُز البغلة قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عَقْد ولا عَهْد.

وخرج عمر يشتدُّ نحو رسول الله ﷺ حتى دخل عليه، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد؛ فدَعْني فلأضرِبْ عنقه! وأكثرَ في ذلك.

فقال العباس: مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من رجال بني عديّ بن كعب

---

(١) أي: صِغار النمل.

ما قلتَ هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف! .

فقال عمر: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يومَ أسلمتَ كان أحبَّ إليّ من إسلام الخطّاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم!! .

وصدق ـ والله ـ عمر، فهو لم يرد البطش بأبي سفيان إلا لأنه كان يناوئ الدعوة سنين طويلة، وما كانت قولة عمر تلك إلا لله ولرسوله ولدينه.

ولقد كانت شدة عمر وهيبته تقرع القلوب، وعرف عنه ذلك عند القاصي والداني، فكان شديد الهيبة، حتى في قلوب أصحابه، وفي حضرة رسول الله ﷺ، ولْنصغِ إلى سعد بن أبي وقاص يصوِّر لنا هذا المشهد في بيت النبوّة، فيقول:

(استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ، وعنده نسوة من قريش يكلِّمْنَهُ ويستكْثِرْنَه، عاليةً أصواتُهن، فلما استأذن عمر بن الخطاب قُمْنَ فبادَرْنَ الحجاب، فأَذِنَ له رسول الله ﷺ، فدخل عمر ورسول الله يضحك! .

فقال عمر: أضحكَ الله سنَّك يا رسول الله.

فقال النبي ﷺ: «عجبتُ من هؤلاء اللاتي كنَّ عندي، فلما سمعنَ صوتك ابتدرن الحجاب»! .

فقال عمر: فأنت أحقُّ أن يَهَبْنَ يا رسول الله، ثم قال عمر: يا عدوَّات أنفسهنَّ أَتَهَبْنَنِي ولا تهبنَ رسول الله ﷺ؟ .

فقلن: نعم، أنت أفظُّ وأغلظ[1] من رسول الله ﷺ.

---

(١) هي عبارة عن شدة الخَلق وخشونة الجانب، وليست لفظة أفعل هنا للمفاوضة، بل هي بمعنى فظ وغليظ، لأن الله تعالى يقول في نبيّه ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فقال رسول الله ﷺ: «إيهٍ يا ابن الخطاب، فوالذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً إلا سلك فجّاً غير فجّك».

* * *

وشدَّة الأسْرِ في شخصية عمر، وحزمه وصلابه رأيه، وقوة نفْسه، ما كانت بالتي تخرجه عن طوره، أو أن يتعدى الحق قيد أنملة، بل كان وقّافاً عندما يُذكَّر.

يصفه ابنه عبد الله فيقول: ما رأيت عمر غضبَ قطّ فذُكر الله عنده، أو خوِّف، أو قرأ عنده إنسان آية من القرآن إلا وقف عما كان يريد.

وقال بلال لأسلم ـ مولى عمر ـ: (كيف تجدون عمر؟ فقال: خير الناس، إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم! فقال بلال: لو كنتُ عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه).

ويحدِّث عبد الله بن عباس عن واحد من تلك المواقف الباهرة لعمر ـ في خلافته ـ فيقول: (قدم عُيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحُرِّ بن قيس ـ وكان من النَّفَر الذين يدنيهم عمر، وكان القرَّاء[1] أصحابَ مجالس عمر ومشاورته، كُهولاً كانوا أو شباناً ـ فقال عُيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وَجْهٌ عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه.

قال ابن عباس: فاستأذن الحرُّ لعيينةَ، فأذِن له عمر، فلما دخل عليه قال: هِيْ يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجَزْلَ، ولا تحكمُ بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ به. فقال له الحرُّ: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيّه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله تعالى).

وكان عمر رضي الله عنه يقول في ذلك: (ما تجرَّع عبد جرعة من لبن أو عسل خيراً من جرعة غيظ).

---

(١) هم الذين يقرؤون القرآن ويحفظونه ويفقهونه.

علمه ومروياته ومن روى عنه:

هذا الإنسـان الباهر العظيم، المُحدَّث المُلْهَم، الذي وفَّقه ربه في مواقف كثيرة، ومناسبات عديدة، أن يبديَ آراء، ويتمنى أمنيات، فيتنزّل الوحي بتأييدها.

هذا العبقري الفذّ أوتي ذكاءً مبدعاً متوقّداً، أفاءه عليه ربه سبحانه، فكانت الحكمة تخرج من نواحيه. ولقد ارتفع عمر مع هذه الألمعية إلى أعلى مستويات الذكاء الإنساني، وشجاعة التفكير، وحسن التعليل؛ فالتقت في عبقريته أعمق رؤى البصيرة، وأدق أسـرار الشريعة، فكان لقاءً سـعيداً في قريحة هذا المؤمن الراشد الأمين، وكانت خصوبة ذلك واضحة في كل كلمة من كلماته، وتصرف من تصرفاته.

ولقد أشاد الرسول ﷺ بهذه النعمة التي حباها اللهُ عمرَ، ونبّه الصحابة على ما عنده، لينهلوا منها، فقال: «بينا أنا نائم، إذ أُتِيتُ بقَدَح لبنٍ فشربتُ حتى إني لأرى الرِّيَّ يخرجُ من أظفاري، ثم أعطيتُ فَضْلي[1] عمرَ بن الخطاب». قالوا: فما أوَّلْتَه يا رسول الله؟ قال: «العلمَ».

وكـان رضي الله عنه حريصاً على حضور مجالـس العلم بين يدي رسول الله ﷺ، لا يترك واحداً منها يفوته، ويحدِّث عن ذلك فيقول: (كنت أنا وجار لي من الأنصار، في بني أمية بن زيد ـ وهي من عوالي المدينة ـ وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، ينزل يوماً، وأنزل يوماً؛ فإذا نزلتُ جئتُه بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك).

ولم يكن عمر بالذي يحفظ العلم دونما فقه، ويحمله داخل عقله فتاوى كالقوالب الجامدة؛ بل كان يتمتعُ بنظر ثاقب، وفهم سديد، يتحرك في كل الجهات، يعرف لكل موقف ما يناسبه، وصفته بذلك السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت:

---

(١) أي: ما زاد عني من اللَّبَن.

(كان والله أَحْوَذِيّاً، نَسِيجَ وَحْدِهِ[1]، قد أعدّ للأمور أقْرَانها).

وذكاء عمر واسع عميم، ونظرته الثاقبة تجلّي كل غامض، وتدخل الحنايا فتكشف الخفايا، وتنفذُ إلى غور الأمور. وكان عليماً بأحداث الدنيا وأسرار الحياة، ذا فقهٍ عظيم بطبائع النفوس. لا تغرّه المظاهر، ولا يكتفي بالنظرة العابرة لتكوين أحكام على الآخرين، فهو يقضي بذكائه لا بعواطفه، ولا يقبل بأحكام جزئية ممزقة، بل تتراحب أبعاد فكره الوقّاد، لإيجاد الحلول الناجعة للمشاكل الواقعة. ولقد عبّر ذكاؤه المتفوّق، وحصافته وعبقريته عن نفسها أشدّ تعبير حينما أصبح خليفة المسلمين وأميراً للمؤمنين.

ولقد عبّر ابن مسعود عن الرُّزْء الجليل، الذي أصاب العلم عند موت عمر، فقال: (لو أن علم عمر وضع في كِفَّة ميزان، ووُضع علم أحياء الأرض في كفة؛ لرجح علم عمر بعلمهم. ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم. ولمجلس كنت أجلسه مع عمر أوثق في نفسي من عمل سنة).

ويقول حذيفة بن اليمان: (كأنَّ علم الناس كان مدسوساً في حِجْر عمر).

لذلك كثُرَ الآخذون عنه من الصحابة والتابعين، فروى عنه عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وابنه عبد الله بن عمر، وابن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، وعدي بن حاتم، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وابن الزبير، وابن عَمْرو، وأبو هريرة، وأبو موسى الأشعري، وأم المؤمنين عائشة، وحفصة، وغيرهم من الصحابة.

ومن التابعين: ابنه عاصم، وأسلم مولى عمر، وسعيد بن المسيّب، وعمرو ابن ميمون الأودي، وشريح القاضي، وعلقمة بن وقاص الليثي، وأبو عثمان النهدي، وخلق كثير.

وروت له كتب السنة خمسمئة حديث وتسعة وثلاثين حديثاً.

---

(١) أي: لا نظيرَ له.

من أهل الجنّـة:

بعد هذا السجل الحافل، المليء بالمواقف والبطولات، ماذا يكون من عمر، وأين هي منزلته؟.

عمر الذي دخل الإسلام في حفاوة من رسول الله ﷺ وصحابته، وفي اليـوم ذاته أصبح الإسـلام جهوري الصوت، يجلجل بالتكبيـر في مناحي مكة. وينعته رسول الله بالفاروق، وأنه جعل الله الحق على لسانه وقلبه، ويشهد معه المعارك الفاصلة، ويكون له فيها مواقف شامخة. ويقترح على النبي ﷺ بعض آرائه، فيتنزل الوحي بما رآه، ويصبح قرآناً يتلى على مرّ الأيام.

يجلس رسول الله ﷺ ذات مرة يحدث أصحابه فيقول: «بينا أنا نائمٌ رأيتُني في الجنـة، فإذا امرأةٌ تتوضّأُ إلى جانب قصرٍ، فقلتُ: لمن هذه؟ قالـوا: لعمر. فذكرت غيرته، فولَّيتُ مدبراً»! فبكى عمر وهو في المجلس، ثم قال: أوَ عليك يا رسول الله أغارُ؟!.

وتتوالى البشريات من رسول الله ﷺ لعمر بأنه من أهل الجنة، بل هو من السابقين مع المقربين، يحدث أبو موسى الأشعري عن واحد من تلك المشاهد فيقول:

(كنت مع النبي ﷺ في حائط[1] من حيطان المدينة، فجاء رجلٌ فاستفتح، فقال النبي ﷺ: «افتح له وبشّره بالجنة». ففتحت له، فإذا أبو بكر، فبشَّرتُه بما قال النبي ﷺ، فحمدَ الله، ثم جاء رجل فاستفتح، فقال النبي ﷺ: «افتح له وبشّره بالجنة». ففتحتُ له، فإذا هو عمر، فأخبرته بما قال النبي ﷺ، فحمد الله).

ويقول ﷺ: «إن أهل الدرجات العُلى لَيَرَاهم مَنْ تحتهم، كما ترون النجم الطالع في أفق السماء، وإنّ أبا بكرٍ وعمر منهم، وأنْعمَا»[2].

---

(١) هو بستان فيه نخيل.

(٢) أي هما منهم، وزادا في هذا الأمر، وتناهيا فيه إلى غايته.

ويروي علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أبو بكر وعمر سيّدا كهول أهل الجنة، من الأوّلين والآخرين، ما خلا النبيّين والمرسلين، لا تخبرهما يا عليّ».

مكانته عند النبي ﷺ وأصحابه:

ورجل قد نال من ربه سبحانه على لسان رسوله ﷺ هذه الدرجة السامقة في الجنة، ليصبح ـ بعد الرسل والنبيين ـ مع أبي بكر سيد أهل الجنة، وقد انضم إلى ذلك نصرته للإسلام، والشدة على أعدائه، والتبتل الرباني، لحريّ أن يشير رسول الله ﷺ على الناس أن يقتدوا به، بعد أن يلحق النبي ﷺ بربه سبحانه، فيقول:

«إني لا أدري ما بقائي فيكم، فاقتدوا باللَّذيْن من بعدي: أبي بكر وعمر».

بل إن رسول الله ﷺ قد أبان عن منزلة عمر عنده، ورفَعَه فوق كل ما سبق، فقال: «لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمرَ بن الخطاب».

فأي مرتبة شاهقة مثل هذه يستطيع أن يبلغها بشر، أو يطمع أن يقترب منها؟!

فكان عمر رضي الله عنه مقرّباً عند رسول الله ﷺ، وكثيراً ما كان يقول: «كنت وأبو بكر وعمر، وفَعَلْت وأبو بكر وعمر، وانطلقتُ وأبو بكر وعمر». و«ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلتُ أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر». و«أومن بذلك وأبو بكر وعمر».

لذا أضحى وزير النبيّ الثاني بعد أبي بكر، وبمنزلة السمع والبصر عنده، وإذا خرج على أصحابه تبسَّم لهم عامة، وإلى أبي بكر وعمر خاصة.

ويستأذن عمرُ النبيَّ ﷺ في العمرة، فيأذن له رسول الله ﷺ، ويقول له: «لا تَنْسَنا يا أُخَيَّ من دعائك».

ولقد كان الصحابة يعرفون للفاروق هذه المنزلة، ويضعونه من أنفسهم

حيث وضعه رسول الله ﷺ، فقدَّموه ليصلي بهم في مرض النبي ﷺ حيث كان أبو بكر غائباً؛ لأنهم رأوا أنه أحق من حضر بذلك.

وهذا أبو بكر يعلنها بين الناس: (ما على ظهر الأرض رجل أحب إلي من عمر).

ويقول ابن مسعود: إذا ذُكر الصالحون فَحَيْهلاً بعمر، إن عمر كان أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا في دين الله.

ويقول عبد الله بن عمر: (كنا نُخَيِّرُ[1] بين الناس في زمن النبي ﷺ، فنخيِّر أبا بكر، ثم عمرَ بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، رضي الله عنهم).

● ● ●

---

(١) أي نقول فلان خير من فلان.

الفصل الرابع

في رحاب خلافته: سياسته وجلائل أعماله

استخلافه وبدايات ذلك، وتسميته بأمير المؤمنين:

ورجل عبقري مُلْهَم له كل هذه الإمكانات المحتشدة، والطاقات المزدحمة، والمميزات النادرة، والمنزلة الرفيعة من قلب رسول الله ﷺ وأصحابه، وتأييد الوحي لرأيه غير مرة، وأن الحق ضرب على قلبه ولسانه، فينطق به، وأن الشيطان يفرق إذا رآه من بعيد، فيسلك طريقاً غير طريقه، مع العلم الغزير، والتقوى المتبتلة، والخشوع المنيب، والزهد القوي... أفيستغرب بعد كل هذا ـ وأكثر منه ـ أن يستخلفه المؤمنون ليكون لهم أميراً؟!.

ألم يكن أبو بكر الصديق عندما اختاره موفقاً، بل مُلْهماً في ذلك؟ وهو الذي عاش عمره ناصحاً للأمة، ذائداً عن دين الله، ولما قَرُب عهده بالآخرة، أراد استمرار الخير لها من بعده، فدعا عِلْية الصحابة، يستشيرهم في عمر، فأثنوا عليه خيراً، فقال عثمان: (علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأن ليس فينا مثله).

وقال أُسيد بن الحُضير: (لن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه).

ويأتيه رأيٌ معارض فيقول لأبي بكر: (ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غِلْظته)؟!

فقال أبو بكر: (أجلسوني، أبالله تخوّفني، خاب من تزوَّد من أمركم بظلم، أقول: اللهمَّ استخلفتُ عليهم خير أهلك، أبلغ عني ما قلتُ مَنْ وراءك).

ثم دعا عثمان بن عفان وقال له: (اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حين يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويَصْدُق الكاذب. إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آلُ الله ورسوله ﷺ ودينَه ونفسي وإياكم خيراً. فإن عَدَلَ، فذلك ظني به، وعلمي فيه، وإن بدّل، فلكل امرىءٍ ما اكتسب، والخيرَ أردتُ، ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

وخرج عثمان على الناس بذلك، فبايَعوا عمر جميعاً، ورضوا به، فكانت بيعته إجماعاً، وأدخل اللهُ بفعل الصدِّيق السرورَ على قلوب المسلمين باستخلاف عمر، وما آثره بالخلافة، بل آثر الخلافة به:

مـا آثـروكَ بهـا إذ قـدَّمـوكَ لهـا ... لكنْ لأنفسِـهمْ كانـتْ بـكَ الأثَـرُ

وتوفي أبو بكر مساء ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، فاستقبل عمر بخلافته يوم الثلاثاء صبيحة موت أبي بكر، رضي الله عنهما. وتقبَّل عمر الخلافة، وهـو كاره لها، مكرهاً عليها، ولولا أن اعتذاره في تلـك الساعة الحرجة يعدّ هروبـاً من المسؤولية، ولولا خشـية سؤال الله له عن ذلك؛ لرفض الإمارة وهرب منها.

ويصعد المنبر، فيتأبّى على نفسه أن يقفَ حيث كان أبو بكر يقف، ويصارح الناس بذلك فيقول: (ما كان الله ليراني أن أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر)، فنزل مرقاة[1]!!.

ثم استقبل المسلمين فقال:

(أيها النـاس، إني قد ولِّيتُ عليكم، ولـولا رجاء أن أكون خيركم لكم،

---

(١) درجة.

وأقواكم عليكم، وأشدَّكم اضْطِلاعاً بأموركم؛ ما تولَّيتُ ذلك منكم، ولكفى عمر انتظار الحساب.

ولو علمتُ أن أحداً من الناس أقوى عليه مني؛ لكنتُ أُقدَّمُ فَتُضْرَبُ عنقي أحبُّ إلي من من أن أَلِيَهُ).

ثم يقول: (إن الله ابتلاكم بي، وابتلاني بكم، وأبقاني فيكم بعد صاحبيَّ، فوالله لا يَحْضُرُني شيء من أمركم فَيَلِيَه أحد دوني، ولا يتغيَّب عني فآلو[1] فيه عن الجَزْء[2] والأمانة، ولئن أحسنوا لأُحْسِننَّ إليهم، ولئن أساؤوا لأنكِّلَنَّ بهم).

هذه هي نظرة عمر للخلافة، ليست لنيل الجاه والمنصب والتسلط على رقاب الناس، بل هي ابتلاء واختبار، ومسؤولية عن الحاضر والغائب، ولولا أن ولايته هي خير للأمة جميعاً ما تولاها، ولا نْشغل بنفسه منتظراً لقاء الله، وهو يخشى الحساب عن نفسه وحدها، فكيف وقد قُلِّد أمر الناس، وسيحاسبه الله كيف سار بهم، وحكم بينهم.

ويضرع إلى الله مستمداً منه العون، ويطلب من الناس أن يؤمِّنوا، فيقول خاشعاً ضارعاً راجياً: (اللهمَّ إني شديدٌ فليِّنِّي، وإن ضعيفٌ فقوِّني، وإني بخيل فسخِّني)!!.

أي عظمة هذه التي احتازها ابن الخطاب؟! فهو الشديد في الله، القوي في دينه، يجأر إلى الله بهذا الدعاء! وهو السخي الجواد، الذي لم يكن بعد رسول الله ﷺ وصدِّيقه أجود منه حتى فارق الدنيا، ومع ذلك يقول: إني بخيل! هذا الرجل المعطاء الذي يفزع البخل منه، ويتمنى الجود والكرم والسخاء أن يكون جزءاً منه! نعم، إنه سَيَلي أمور الناس، ويحكم بينهم، ويتولى أموالهم وتوزيع غنائمهم، فليدعُ إذاً أن تكون هذه الأموال بين يديه يصرفها للناس، ويقضي حوائجهم، ويسدّ

---

(١) أي: فأقصِّر.
(٢) ما يجزئ فيه، أي ما يكفي.

خلتهم، ويشبِع جائعَهم، ويكسو عاريَهم، ويعفّ سائلَهم.

* * *

ويمكث عمر خليفة للمسلمين زماناً طويلاً ليس له راتب من بيت مال المسلمين، حتى دخلت عليه خَصاصةٌ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فاستشارهم قائلاً: (قد شغلت نفسي في هذا الأمر، فما يصلح لي منه؟! فقال عثمان بن عفان: كُلْ وأطعم. فقال لعلي: وما تقول أنت في ذلك؟ قال: غداءً وعشاءً. فأخذ بذلك عمر).

لله درّ الخلافة يا عمر! كم كانت بك سعيدة، وكم كانت حظوظ المسلمين ـ بل الدنيا ـ وافية سابغة؛ إذ صرت لهم أميراً! تستأذن الناس كي يحدّدوا لك عطاءً، وإذا قالوا أخذت به ما تعديته؟!.

هذا عمر الذي قال بعد أن عيّن له المسلمون راتباً يتقاضاه: (يحلّ لي حُلّتان، حلة في الشتاء وحلة في القيظ، ومَا أَحُجُّ عليه واعتمر من الظَّهْر، وقوْتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثم أنا بعدُ رجل من المسلمين، يصيبني ما أصابهم).

ثم أردف قائلاً: (إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة مال اليتيم: إن استغنيتُ استعففتُ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروف).

ولقد سار على هذا الهَدْي ما غيَّر ولا بدَّل، حتى والكنوز تلقى بين يديه، وبساط كسرى تحت رجليه!! قال ابنه عبد الله: (كان عمر يقوت نفسه وأهله، ويكتسي الحُلّة في الصيف، ولرُبّما خُرِق الإزار حتى يرقعَه، فما يُبَدِّل مكانه حتى يأتي الإبّانُ، وما من عام يكثُر فيه المال إلا كُسْوَتُه ـ فيما أرى ـ أدنى من العام الماضي، فكلَّمَتْه في ذلك حفصة، فقال: إنما أكتسي من مال المسلمين، وهذا يُبَلِّغني).

وإذا نزلت به حاجة (أتى صاحب بيت المال فاستقرضه، فربما عَسُرَ، فيأتيه

صاحب بيت المال يتقاضاه فَيَلْزَمُه، فيحتال[1] له عمر، وربما خرج عطاؤه فقضاه).

هكذا!! عمر يستقرض من بيت المال، وبإذن من القائم على ذلك، حتى إذا حان الأجل، وكان الخليفة معسراً، سعى في وفاء الدَّين، ولم يبطش بوزير المالية، أو يأمره بالتغاضي عنه لأنه الحاكم! أفهذه خلافة أم ملائكية؟! بل إنها الخلافة على منهاج النبوّة.

* * *

وكان عمر الخليفة الثاني إذا كتب كتاباً كتب فيه: (من خليفة خليفة رسول الله)، حتى كتب إلى عامله على العراق: (أن ابعثْ إليّ برجلين جَلْدَين نبيلين أسألهما عن العراق وأهله.

فبعث إليه عامل العراق لبيد بن ربيعة العامري، وعدي بن حاتم الطائي، فلما قدما المدينة أناخا راحلتيهما بفناء المسجد، ثم دخلا المسجد، فإذا هما بعمرو بن العاص، فقالا له: استأذن لنا على أمير المؤمنين يا عمرو!.

فقال عمرو: أنتما ـ والله ـ أصبتما اسمه، نحن المؤمنون، وهو أميرنا. فوثب عَمرو، فدخل على عُمر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

فقال عمر: ما بدا لك في هذا الاسم، يعلم الله لَتَخْرُجَنَّ مما قلتَ، أو لأفعلنَّ.

قال: إنَّ لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم قدما فأناخا راحلتيهما بفناء المسجد، ثم دخلا المسجد وقالا لي: استأذن لنا يا عمرو على أمير المؤمنين، فهما والله أصابا اسمك، أنت الأمير ونحن المؤمنون.

فجرى الكتاب بذلك من يومئذٍ).

---

(١) يحتال: يسعى في تدبير المال.

خطته في الحكم:

وبعد أن بيّن عمر للناس أنه ما قَبِلَ الخلافة إلا مضطراً، وما رضيها إلا خشية الفتنة، ولصالح المسلمين، وأن الحكم أمانة لا استعلاء، وتكليف لا تشريف، وغُرم لا غُنم؛ أبان لهم أن الخليفة يجب أن تتوفر فيه أربع صفات، بل يجب أن يكون بنيانه مكوناً من خصال أربع، إذا خُرقت إحداها خرّ البنيان، فقال في ذلك: (لا ينبغي أن يلي هذا الأمر إلا رجل فيه أربع خصال:

١ ـ اللِّين في غير ضعف.

٢ ـ والشدَّة في غير عنف.

٣ ـ والإمساك في غير بخل.

٤ ـ والسماحة في غير سَرَف.

فإن سقطت واحدة منهن، فَسَدَت الثلاث).

قال ابن عباس: (ما اجتمعت هذه الخصال إلا في عمر رضي الله عنه).

ثم يصعد عمر المنبر ليبسط سياسته، ويبيّن واجباته تجاه الله ورسوله ودينه وأمته، ويضع بين أيديهم التبعات التي أنيطت بهم، لكونهم مسلمين، تجاه شرع الله سبحانه، وطبيعة علاقتهم بالخليفة. ويستهل خطبته فيقول:

(بلغني أن الناس هابوا شدتي، وخافوا غلظتي، وقالوا: قد كان عمر يشتدّ ورسول الله ﷺ بين أظهرُنا، ثم اشتدّ علينا وأبو بكر والينا دونه؛ فكيف وقد صارت الأمور إليه؟!.

ألا مَنْ قال هذا فقد صدق، فإني كنت مع رسول الله ﷺ عونَه وخادمه، وكان ﷺ من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكان كما قال الله تعالى: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني، أو يَدَعني فأمضي. فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفَّاه الله، وهو عني

راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد.

ثم وَلِيَ أمرَ المسلمين أبو بكر، فكان من لا تنكرون دَعَته، وكرمه ولينه، فكنتُ خادمَه وعونه، أخلط شدتي بلينه، فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني، أو يدعني فأمضي. فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل، وهو عني راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد.

ثم إني قد وُلِّيت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أُضْعِفَتْ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدّي، فأما أهل السلامة والدين والقصد؛ فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض. ولست أدَعُ أحداً يظلم أحداً، أو يعتدي عليه، حتى أضع خدّه على الأرض، حتى يُذْعِنَ للحق.

وإني بعد شدتي تلك، أضع خدّي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف!

ولكم عليَّ أيها الناس خصالٌ أذكرها لكم فخذوني بها:

لكم عليَّ ألا أجتبي شيئاً من خَراجكم، وما أفاء الله عليكم، إلا من وجهه.

ولكم عليَّ إذا وقع في يدي، ألا يخرج مني إلا في حقّه.

ولكم عليَّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم، إن شاء الله تعالى، وأسدَّ ثغورَكم.

ولكم عليَّ ألا ألقيكم في المهالك، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم.

فاتقوا الله وأعينوني على أنفسكم بِكَفِّها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم)!.

هل في حكام الدنيا من بلغت به الشجاعة الأدبية أن يقول: (أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف)؟!.

وهل يطمع العدل أن يصل لدرجة فوق التي وضعه عندها الفاروق عمر؟!.

أم هل سمع الزمان، وحَوَت معاجمه مثل هذه الدرر التي تحدّرت من بين

شفتي أمير المؤمنين؟! أين ومتى؟!.

لقد كان في زمن النبي ﷺ وأبي بكر جندياً من جنودهما، وسيفاً مسلولاً بين أيديهما، يبدي الرأي، ولكن ما له إلا أن يسمع ويطيع. أما الآن وقد أضحى القائد والجندي معاً؛ فإن الأمر قد تغيَّر، لأنه أصبح مسؤولاً، ليس أمام الناس والأمة والتاريخ، وغيرها من المصطلحات؛ بل أمام الكبير المتعال، الذي سيحاسبه على النقير والقطمير، والذي لا تخفى عليه خافية.

إنه الآن مشغول بمبدئه المتفرد، الذي وضعه لنفسه (ما تقول لربك غداً)، فيخاف أن تتعثر الكلمات على لسانه حين يلقى الله تعالى فيسأله عن كل شيء.

إنها المسؤولية الكبيرة، والحمل الذي ينوء بالعصبة أولي القوة، وعمر وحده من يعرف قدر هذا العبء الثقيل، والموقف المرهوب.

فلننظر كيف سار عمر بين الرعية، وإلى أي مدى وفّى بما عاهد الله عليه، وأن ذلك لم يكن منه مواقف استعراضية تتبخر عند الجلوس على كرسي الحكم!!.

مواقفه مع الناس في الخلافة:

لقد حمل عمر نفسَه على سلوك هَدْي رسول الله ﷺ وخليفته الأول أبي بكر، يحدث سعيد بن المسيَّب فيقول: (أصيب بعير من الفَيء فنحره عمر، وأرسل إلى أزواج النبي ﷺ منه، وصنع ما بقي، فدعا عليه من المسلمين، وفيهم يومئذٍ العباس ابن عبد المطلب، فقال العباس: يا أمير المؤمنين، لو صنعتَ لنا كل يوم مثل هذا، فأكلنا عندك وتحدَّثنا! فقال عمر: لا أعود لمثلها، إنه مضى صاحبان لي ـ يعني النبي ﷺ وأبا بكر ـ عَمِلا عملاً، وسلكا طريقاً، وإني إن عملت بغير عملهما سُلك بي طريقٌ غير طريقهما)!.

● فكان يلبس جبةً من صوف مرقوعةً بعضها بأَدَم، ويطوف بالأسواق على عاتقه الدِّرَّة، يؤدب بها الناس، ويمر بالغزل المنقوض، والنوى، فيلتقطه ويلقيه في منازل الناس ينتفعون به.

● وكان يَعُسُّ المسجد[1] بعد العشاء، فلا يرى فيه أحداً إلا أخرجه، إلا رجلاً قائماً يصلي، فمرَّ بنفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، فيهم أُبيّ بن كعب، فقال: مَنْ هؤلاء؟.

فقال أبيّ: نفر من أهلك يا أمير المؤمنين.

قال: ما خلَّفكم بعد الصلاة؟.

قال: جلسنا نذكر الله.

فجلس معهم، ثم قال لأدناهم إليه: خُذْ[2]. قال: فدعا، فاسْتَقْرَأَهُم رجلاً رجلاً، يدعون، حتى انتهى إليَّ، وأنا إلى جنبه، فقال: هاتِ، فَحُصِرْتُ، وأخذني من الرِّعْدة أَفْكَلٌ[3]، حتى جعل يجد مسَّ ذلك مني، فقال: ولو أن تقول: اللهم اغفر لنا، اللهم ارحمنا.

قال: ثم أخذ عمر، فما كان في القوم أكثر دمعة ولا أشد بكاء منه، ثم قال: إيهٍ، الآن فتفرَّقوا.

● وخرج رضي الله عنه ليلة يحرس، فرأى مصباحاً في بيت، فدنا، فإذا عجوز تطرق شَعراً لها لتغزله - أي تنفشه بقدح - وهي تقول:

على محمد صلاة الأبرارْ صلى عليك المصطفون الأخيارْ
قد كنت قوّاماً بَكِيّ[4] الأسحارْ يا ليت شعري والمنايا أطوارْ
هل تجمعني وحبيبي الدارْ

- تعني النبي ﷺ -. فجلس عمر يبكي، فما زال يبكي حتى قرع الباب عليها،

---

(١) أي: يطوف به بالليل ويتفقّده.
(٢) أي: ابدأ في الدعاء.
(٣) الأفْكَل: الرِّعْدة. يقال: أخذه، أَفْكَلٌ: ارتعد من بردٍ أو خوفٍ.
(٤) أي: كثير البكاء.

فقالت: من هذا؟ قال: عمر بن الخطاب. قالت: وما لي ولعمر، وما يأتي بعمر هذه الساعة؟! قال: افتحي رحمك الله فلا بأس عليكِ، ففتحت له، فدخل فقال: ردِّي عليَّ الكلمات التي قلتِ آنفاً، فردَّتها عليه، فلما بلغت آخرها قال: أسألكِ أن تدخليني معكما.

قالت: وعمر، فاغفر له يا غفارْ.

فرضي ورجع)!!.

● وذات يوم خرج ومعه ابن مسعود، فإذا هو بضوء فاتبع الضوء حتى دخل داراً فإذا بسراج في بيت، فدخل ـ وذلك في جوف الليل ـ فإذا شيخ جالس، وبين يديه شراب وقَيْنة[1] تغنِّيه، فلم يشعر حتى هجم عليه عمر، فقال عمر: ما رأيتُ كالليلة منظراً أقبح من شيخ ينتظر أجله!!.

فرفع رأسه إليه، فقال: بلى يا أمير المؤمنين، ما صنعتَ أنتَ أقبح، تجسستَ وقد نُهي عن التجسس، ودخلتَ بغير إذن!!.

فقال عمر: صدقت، ثم خرج عاضاً على ثوبه يبكي، وقال: ثكلت عمرَ أُمُّه إن لم يغفر له ربه، يجد هذا كان يستخفي به من أهله، فيقول: الآن رآني عمر فيتتابع عليه.

وهجر الشيخ مجلس عمر حيناً، فبينا عمر بعد ذلك جالس، إذ به قد جاء شبه المستخفي حتى جلس في أخريات الناس، فرآه عمر فقال: عليَّ بهذا الشيخ. فأُتي، فقيل له: أجب. فقام وهو يرى أن عمر سيسوءه بما رأى منه!.

فقال عمر: ادنُ مني، فما زال يدنيه حتى أجلسه بجنبه، فقال: أدنِ مني أذنك، فالتقم أذنه، فقال: أما والذي بعث محمداً بالحق رسولاً ما أخبرتُ أحداً من الناس بما رأيتُ منك، ولا ابن مسعود فإنه كان معي!.

---

(١) هي الأمَة المغنية.

فقال: يا أمير المؤمنين، أدنِ مني أذنك، فالتقم أذنه فقال: ولا أنا والذي بعث محمداً بالحق رسولاً ما عدتُ إليه حتى جلست مجلسي هذا.

فرفع عمر صوته يكبِّر، فما يدري الناس من أي شيء يكبّر.

ما أعظم هذا الخليفة الذي يحب الخير للناس، ولا يتتّبع عوراتهم، وإذا رأى شراً كتمه، ولم يفضح صاحبه بين الناس، حتى لا يكون عوناً للشيطان عليه.

● وذات مرة (خرج في سواد الليل فرآه طلحة، فذهب فدخل بيتاً، ثم دخل بيتاً آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا عجوز عمياء مُقْعَدة[1]، فقال لها: ما بـال هذا الرجل يأتيكِ؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يُصْلِحني، ويُخرج عني الأذى! فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة، أَعَثَرات عمر تتبع)؟!.

● وهذا أسلم ـ مولى عمر ـ يحدثنا عن واحدة من ليالي عمر الخليفة، فيقول: (خرجت ليلةً مع عمر إلى ظاهر المدينة، فَلاَحَ لنا بيت شعر، فقصدناه فإذا فيه امرأة تَمْخَضُ وتبكي، فسألها عمر عن حالها فقالت: أنا امرأة غريبة، وليس عندي شيء.

فبكى عمر وعاد يهرول إلى بيته، فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب: هل لكِ في أجر ساقه الله إليكِ؟ وأخبرها الخبر، فقالت: نعم.

فحمل على ظهره دقيقاً وشحماً، وحملت أم كلثوم ما يصلح للولادة، وجاءا، فدخلت أم كلثوم على المرأة، وجلس عمر مع زوجها ـ وهو لا يعرفه ـ يتحدث.

فوضعت المرأة غلاماً، فقالت: أم كلثوم: يا أمير المؤمنين، بشّر صاحبك بغلام!.

---

(١) أصابها داء القعاد، فلا تستطيع المشي.

فلما سمع الرجل قولها استعظم ذلك، وأخذ يعتذر إلى عمر، فقال عمر: لا بأس عليك. ثم أوصلهم بنفقة وما يصلحهم وانصرف).

● ويحدثنا عن ليلة أخرى ـ لا بل قُلْ: عن درّة أخرى ـ فيقول: (خرجت ليلة مع عمر إلى حَرَّة وَاقِم، حتى إذا كنا بِصِرَار[1]، إذا بنار، فقال: يا أسلم ههنا رَكْبٌ، قد قَصَّرَ بهم الليل، انطلق بنا إليهم، فأتيناهم، فإذا امرأة معها صبيان لها، وقدر منصوبة على النار، وصبيانها يتضاغون. فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء. قالت: وعليك السلام. قال: أدنو؟ قالت: ادنُ أو دَعْ. فدنا فقال: ما بالكم؟ قالت: قصَّر بنا الليل والبرد. قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون[2]؟ قالت: من الجوع. فقال: وأي شيء على النار؟ قالت: ماء أعللهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر!

فبكى عمر، ورجع يهرول إلى دار الدقيق، فأخرج عِدْلاً من دقيق وجراب شحم، وقال: يا أسلم احمله على ظهري. فقلتُ: أنا أحمله عنك. فقال: أنت تحمل وزري يوم القيامة؟! فحمله على ظهره، وانطلقنا إلى المرأة، فألقى عن ظهره، وأخرج من الدقيق، وجعله في القدر، وألقى عليه من الشحم، وجعل ينفخ تحت القدر، والدخان يتخلل لحيته ساعة، ثم أنزلها عن النار، وقال: ايتيني بصحفة، فأُتي بها، فغرفها، ثم تركها بين يدي الصبيان، وقال: كلوا. فأكلوا حتى شبعوا، والمرأة تدعو له ـ وهي لا تعرفه ـ. فلم يزل عندهم حتى نام الصغار، ثم وصلهم بنفقة وانصرف، ثم أقبل عليَّ وقال: يا أسلم، الجوع الذي أسهرهم وأبكاهم).

هكذا كان عمر ينظر لمسؤولية الحكم، فهو مسؤول عن كل رجل في سربه، وكل امرأة في بيتها، وكل صغير في حجر أهله. وهو يحمل مسؤوليته على عاتقه، ولا يوزعها على الآخرين، وشعاره في ذلك: (أنت تحمل وزري يوم

---

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق.
(٢) يتضاغون: يبكون من شدة الجوع.

القيامة)؟! وحين تنادي المسؤوليةُ عمرَ نرى جيشاً لجباً يتحرك ويموج، وليس فرداً واحداً مجرد فرد!!.

* * *

وإذا أتاه آتٍ يسأله من مال الأمة الذي أصبح قيّماً عليه، فإن وجد أجزل له العطاء، وإلا خلع عليه ما يجد في بيته. فهذا أعرابي قد أتى من كبد الصحراء، يقف على عمر منشداً:

يـا عمـرَ الخيـرِ جُـزيـتَ الجَنَّـهْ
جهِّــزْ بُنَيَّـــاتـــي وَاكسهنَّـــهْ
أقســـــم بـــــالله لتفعلنَّـــــهْ

قال عمر: فإن لم أفعل يكون ماذا يا أعرابي؟.

قال:

أقســـــم بـــــالله لأمضِيَنَّـــــهْ

قال: فإن مضيتَ يكون ماذا يا أعرابي؟.

قال:

واللهِ عـــن حـــالـــي لتُسْـــأَلَنَّـــهْ
ثـــم تكـــونُ المســـألاتُ عَنَّـــهْ
والـــواقـــفُ المســـؤولُ بَيْنَهُنَّـــهْ
إمَّـــا إلـــى نـــارٍ وإمّـــا جَنَّـــهْ

فبكى عمر حتى اخضلَّت لحيته بدموعه، ثم قال: يا غلام، أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره، والله ما أملك قميصاً غيره!!.

* * *

وتعاظمت المسؤولية في نفسه، وتراحبت أبعادها في فكره، حتى إنه ليتابع رعاءَ الشاء في مهامهم، ويوجههم للإخلاص فيها، وأدائها على وجهها، لأنهم عن ذلك مسؤولون.

فبينا هو في سفر، ولما كان قريباً من الرَّوْحَاء[1]، إذ سمع صوت راعٍ في جبل، فعدل إليه، فلما دنا منه صاح: (يا راعيَ الغنم! فأجابه الراعي فقال: يا راعيها. فقال عمر: إني مررت بمكان هو أخصبُ من مكانك، وإن كلَّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيّته. ثم عدل صدور الرِّكاب)!!.

وكثيراً ما كان يقول ويعلنها بين الناس: (لو مات جَمَلٌ ضَيَاعاً على شطّ الفرات لَخَشِيتُ أن يسألني الله عنه)! (لو مات جدي بطفٍّ[2] الفرات لخشيت أن يحاسب الله به عمر).

مع الولاة:

هكذا كانت نظرة عمر للمسؤولية، ليس هناك مسؤوليات كبيرة خطيرة، وأخرى صغيرة لا شأن لها، بل هناك مسؤوليات وكفى، فالمسؤولية واحدة لا تتجزأ ولا تتفاوت، ولا تتنوّع عند الفاروق. فإذا وضعت أمامه قضية احتشدت لها كل طاقاته، ووجدته كله عندها، بقوته، وشدته، وعظمته، وزهده، وورعه، وتبتله، وعدله، يتصرف وفق طبيعته القوية الأمينة المؤمنة. فالصغير والكبير، والرجل والمرأة، والأمير والمأمور، والغني والفقير؛ أمام الحق والشرع سواء.

وأي مسألة تقع أو أزمة تحدث، قام عمر لحلّها ومقارعتها، وأبدى لها أبهى وأعظم آيات التفوق الإنساني في تحمل المسؤولية ونبوغ الفكر، وصلابة الرأي، وبطولة الروح.

---

(١) هي قرية على لَيْلَتين من المدينة، بينهما أحد وأربعون ميلاً.
(٢) الطفّ: ساحل البحر وجانب البرّ، ومنه (طف الفرات). والطفّ: هو بناحية العراق من أرض الكوفة.

وإن تعجب فاعجب لقول أبي عثمان النهدي ـ أحد تلاميذ عمر ـ: (والذي لو شاء أن تنطق قناتي نطقت، لو كان عمر بن الخطاب ميزاناً، ما كان فيه مَيْطُ[1] شَعْرَة).

هل يحتاج هذا الوصف الباهر لشرح أو توضيح أو تعليق؟!.

فلننظر سياسة عمر مع عماله الذين أرسلهم إلى الأمصار، ووكل إليهم مصاير الناس في البلاد البعيدة والقريبة، ماذا كان يشترط عليهم، وماذا كان يفرض لهم من رواتب، وكيف كان يسأل الناس عن سيرتهم، والطريقة التي يحاسبهم ويؤدبهم.

فهو أولاً يختار من لا يسأل الإمارة، ولا يسعى إليها، بل يخشاها ويهرب منها، فقد همَّ ذات يوم أن يولي أحد الصحابة واحداً من الأقاليم، وبينا هو على ذلك، إذ قدم الرجل ذاته يسأله الإمارة، فيتبسّم عمر ويقول: (قد كنا أردناك لذلك، ولكن من يطلب هذا الأمر لا يُعَان عليه، ولا يُجاب إليه)! ثم صرفه وولّى غيره.

فعمر يرى أن الذي يشتهي الحكم يحمل شهوة التحكّم، ولو كان يقدِّر المسؤولية حق قدرها لفزع منها وزهد فيها.

وقد لخَّص طريقته في تحديد صفات الأمير الذي يختاره ويريده بأنه: (رجل إذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم، وإذا لم يكن أميرهم كأنه أميرهم). يريدهم أمراء في أخلاقهم وتواضعهم وتفوّقهم على الناس بالبذل والجهاد وفعل الخيرات، لا يتعالون على الخلق بإمْرتهم وحكمهم، فإذا مشوا فسحوا لهم الطريق ليتخطوا رقاب الناس!!.

ثم بعد ذلك إذا استعمل عاملاً كتب له عهداً، وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين واشترط عليه أن:

---

(١) أي: مَيْلُ شعرة.

١ ـ لا يركب دابة مُطَهَّمَة.

٢ ـ ولا يأكل نقياً[1].

٣ ـ ولا يلبس رقيقاً.

٤ ـ ولا يغلق بابه دون ذوي الحاجات.

فإن فعل شيئاً من ذلك حلّت عليه العقوبة.

هكذا يريد عمر أن يكون الوالي واحداً في الناس، يركب مما يركبون، ويأكل مثل الذي يأكلون، ويلبس مما يلبسون، ويفتح بابه لقضاء حوائج الناس، والنظر في أمورهم. ويريد لهم أن يعيشوا خدّاماً للناس، لا سادة لهم، وأن يتفوَّقوا على الناس بطهارة النفس، وتقوى القلب، لا بأناقة اللباس، وزخرف الحياة. ولا يريد أن يميزهم الحكم بميزة، إلا أنهم يقيمون أمر الله، ويرفعون منارة العدل.

لذا تراه يتعقبهم في كل مظاهر الزينة التي تركن بهم إلى الدنيا، وتلهيهم عن عملهم العظيم الذي أرسلهم من أجله.

* * *

ثم بعد ذلك يوصي الوالي بخشية الله وطاعته فيما ولاه، ويحذره مغبَّة الظلم والترفّع على الناس، فيقول لأبي موسى الأشعري:

(أما بعد: فإن أسعد الرُّعاة من سعدت به رعيته، وإنَّ أشقى الرعاة عند الله عز وجل من شقيت به رعيته. وإياك أن ترتع فيرتع عمالك، فيكون مَثَلك عند الله عز وجل مثل البهيمة، نظرت إلى خضرةٍ من الأرض، فرعت فيها، تبتغي بذلك السِّمَن، وإنما حتفها في سِمَنها، والسلام عليك).

ويقول: (مَن خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، ومن تزيّن

---

(١) هو الخبز الأبيض.

للناس بغير ما يعلم الله من قلبه شانَه الله عز وجل، فما ظنك في ثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام).

وكان عمر يعلن بين الناس طريقته في إرسال الولاة على الأمصار، ويدَوي صوته المجلجل في كل مجلس جلس فيه، فيقول: (إني لم أستعمل عليكم عمالي ليضربوا أبشاركم[1] وليشتموا أعراضكم، ويأخذوا أموالكم، ولكني استعملتهم ليعلّموكم كتاب ربكم، وسنة نبيكم؛ فمن ظَلَمه عامله بمظلمة فلا إذنَ له عليَّ، ليرفعها إليَّ حتى أُقِصَّه منه!.

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن أدَّب أميرٌ رجلاً من رعيته أتُقِصّه منه؟.

فقال عمر: ومالي لا أُقِصّه منه، ورأيت رسولَ الله ﷺ يُقِصّ من نفسه؟!.

وكتب عمر إلى أمراء الأجناد: لا تضربوا المسلمين فتُذلّوهم، ولاتَحْرِمُوهم فتُكفِروهم، ولا تجمِّروهم[2] فتفتِنوهم، ولا تنزلوهم الغِيَاض[3] فتُضَيِّعوهم).

وكان إذا استعمل عاملاً فقدم إليه الوفد من تلك البلاد، قال: (كيف أميركم؟ أيعود المملوك؟ أيتبع الجنازة؟ كيف بابه أَلَيِّنٌ هو؟ فإن قالوا: بابه ليّن، ويعود المملوك تركه، وإلا بعث إليه بنزعه).

بل إن عمر لا يكتفي بذلك، إنما يأمر عماله أن يأتوه من أقاصي الدنيا، ليجتمعوا به في الحج، وهناك يقف الفاروق بين الناس، فيتراحب العدل، ويشمخ برأسه، ويتعالى بصوت عمر الجهوَريِّ، وهو يقول:

أيها النـاس، إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبـوا من أبشـاركم، ولا من

---

(١) أي: ظاهر جلودكم.
(٢) جمَّر الأمير الجيش: جمعهم في الثغور وحَبَسهم عن العَوْد إلى أهليهم.
(٣) جمع غيضة، وهي الشجر الملتف، لأنهم إذا نزلوا تفرّقوا فيها فتمكّن منهم العدوّ.

أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم، وليقسموا فَيْئكم بينكم، فمن فُعِلَ به غير ذلك فلْيَقم!.

فما قام أحد إلا رجل واحد قام فقال: يا أمير المؤمنين إن عاملك فلاناً ضربني مئة سوط!. قال: فيمَ ضربته؟ قمْ، فاقتص منه!. فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، إنك إن فعلتَ هذا يكثُر عليك، ويكون سنّة يأخذ بها مَنْ بعدك. قال: أنا لا أُقِيدُ وقد رأيت رسولَ الله ﷺ يُقيد من نفسه؟!. قال: فَدَعْنا فلْنُرضِه. قال: دونكم فأرْضوه. فافتدى منه بمئتي دينار، كل سوط بدينارين).

وذلك أن عمر قد حدد للناس سياسته وطريقته، وعمل بها على أتم وجه وأحسنه، فقال للناس: (أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل؛ أيبرئ ذلك ذمتي)؟.

فيقول الناس: نعم.

فيرد عمر قائلاً: (كلا، حتى أنظر في عمله، أعَمِلَ بما أمرته أم لا).

ثم يردف قائلاً: (أيما عامل لي ظَلَمَ أحداً فبلغتني مَظْلَمَتُهُ فلم أُغيِّرها فأنا ظَلَمْتُه).

* * *

لهذا كان ـ رضي الله عنه ـ دائمَ السؤال عن الولاة، يقتصّ أخبارهم: كيف يحكمون بين الناس، وما هي طبيعة عيشهم فيهم، وكيف سيرتهم، وما مدى رضى الناس عنهم؛ فإذا استبان له شيء يبعث على القلق، أو يُخشى منه فتنة تقع في واحد من الأمصار، فإن شعاره في ذلك هو قوله: (هانَ شيء أُصْلِحُ به قوماً أن أُبَدِّلهم أميراً مكان أمير).

● ولّى سعيدَ بن عامر الجُمَحِيّ على (حمص) فسلك فيهم منهج الصالحين، ورغب عن الدنيا، وقام برعاية العهود والأمانات، ولكنَّ أهل حمص كانوا كثيري

الشكاية، حتى كان يقال لهم: (الكُوَيفة الصغرى)!.

فلما قدم عمر بن الخطاب حمص قال: (يا أهل حمص، كيف وجدتم عاملكم؟. قالوا: نشكو أربعاً: لا يخرج إلينا حتى يتعالَى النهار. قال: أعْظِمْ بها، وماذا؟. قالوا: لا يجّيب أحداً بليل. قال: وعظيمة! وماذا؟. قالوا: وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا. قال: عظيمة، وماذا؟. قالوا: يَغْنِط[1] الغَنْطة بين الأيام.

فجمع عمر بينهم وبينه وقال: اللهم لا تفل[2] رأيي فيه اليوم. ما تشْكون منه؟. قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار. قال سعيد: والله إن كنت لأكره ذكره، ليس لأهلي خادم، فأعجن عجيني، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ، ثم أخرج إليهم!.

فقال: وما تشْكون منه؟. قالوا: لا يجيب أحداً بليل. قال: ما تقول؟. قال سعيد: إن كنت لأكره ذكره، إني جعلت النهار لهم، وجعلت الليل لله عز وجل!

قال: وما تشْكون منه؟. قالوا: إن له يوماً في الشهر لا يخرج إلينا فيه. قال: ما تقول؟. قال سعيد: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا لي ثياب أبدلها، فأجلس حتى تجفّ، ثم أدلكها، ثم أخرج إليهم من آخر النهار.

قال: وما تشْكون منه؟. قالوا: يَغْنط الغنطة بين الأيام. قال: ما تقول؟. قال سعيد: شهدت مصرع خُبَيب الأنصاري بمكة، وقد بضَّعت[3] قريش لحمه، ثم حملوه على جذعة، فقالوا: أتحب أن محمداً مكانك؟ فقال: والله ما أحب أني في أهلي وولدي وأن محمداً ﷺ شِيك بشوكة! فما ذكرتُ ذلك اليوم وتَرْكي نصرته في تلك الحال ـ وأنا مشرك لا أومن بالله العظيم ـ إلا ظننت أن الله عز وجل

(١) غَنَط يغنط: أشرف على الهلاك ثم أَفْلَت.

(٢) أي: لا تخطِّئ رأيي فيه.

(٣) أي: قطَّعت.

لا يغفر لي بذلك الذنب أبداً، قال: فتصيبني تلك الغنطة!.

فقال عمر: الحمد لله الذي لم يفل فراستي).

● وبعث عمير بن سعد والياً على حمص ـ أيضاً ـ فمكث هناك عاماً كاملاً، لا يرسل شيئاً من الخَراج، ولا تصل منه أية أنباء، فقال عمر لكاتبه:

(اكتب إلى عمير ـ فوالله ما أراه إلا قد خاننا ـ: إذا جاءك كتابي هذا فأقبل، وأقبِل بما جبيت من فيء المسلمين، حين تنظر في كتابي هذا).

(فأخذ عمير جِرابه فجعل فيه زاده، وقصعته، وعلّق إداوته، وأخذ عَنَزَته، ثم أقبل يمشي من حمص حتى دخل المدينة! فقدم وقد شَحَبَ لونه، واغبرَّ وجهه، وطالت شَعْرته[1]، فدخل على عمر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فقال عمر: ما شأنك؟. فقال عمير: ما ترى من شأني! ألستَ تراني صحيح البدن، طاهر الدم، معي الدنيا أجرُّها بقرونها؟!. قال عمر ـ وقد ظن أنه قد جاء بمال ـ: وما معك؟. فقال: معي جِرابي أجعل فيه زادي، وقَصْعتي آكل فيها، وأغسل فيها رأسي وثيابي، وإداوتي[2] أحمل فيها وَضوئي وشرابي، وعَنَزَتي أتوكأ عليها، وأجاهد بها عدواً إن عرض، فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي!.

قال عمر: فجئتَ تمشي؟. قال: نعم!. قال: أما كان لك أحد يتبرع لك بدابة تركبها؟. قال: ما فعلوا، وما سألتهم ذلك. فقال عمر: بئس المسلمون خرجتَ من عندهم. فقال له عمير: اتقِ الله يا عمر، قد نهاك الله عن الغيبة، وقد رأيتُهم يصلون صلاة الغداة. قال عمر: فأين بعثتك، وأيَّ شيء صنعتَ؟. قال: وما سؤالك يا أمير المؤمنين؟. فقال عمر: سبحان الله!. فقال عمير: أما لولا أني أخشى أن أغمّك ما أخبرتك، بعثتني حتى أتيتُ البلد، فجمعت صُلَحاء

---

(١) الشَّعْرة: واحدة الشَّعر.

(٢) الإداوة: إناء صغير يُحمل فيه الماء.

أهلها، فوليتهم جباية فَيْئهم، حتى إذا جمعوه وضعتُه مواضعه، ولو نالك منه شيء لأتيتك به.

قال: فما جئتنا بشيء؟. قال: لا. قال: جدِّدوا لعمير عهداً. قال: إن ذلك لشيء، لا عملتُ لك ولا لأحد بعدك)!!.

ولما مات عمير قال عمر بن الخطاب: (وددت أن لي رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين به في أعمال المسلمين).

● ونبأ عمر مع حاكم مصر وفاتحها المظفّر عمرو بن العاص، قد سارت به الركبان، فقد وفد ذلك المصري على عمر يستعيذ به، ويستعديه على محمد بن عمرو بن العاص، وذلك فيما حدَّث به أنس بن مالك (أن رجلاً من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، عائذ بك من الظلم!. قال: عذتَ مَعاذاً[1]. قال: سابقت ابنَ عمرو بن العاص، فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم، ويقدم بابنه معه. فقدم، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب. فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الألأمَيْن!!.

قال أنس: فضرب والله! لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما أقلع[2] عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه. ثم قال للمصري: ضَعْ على صَلْعَةِ عمرو!!. فقال: يا أمير المؤمنين، إنما ابنه الذي ضربني، وقد استَقَدْتُ منه!. فقال عمر لعمرو: مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!. قال: يا أمير المؤمنين، لم أعلم ولم يأتني).

إن عَظَمة عمرو وفتوحاته الكبيرة لم تشفع له عند عمر، ولم يرضَ الفاروق أن يظلم ابنُ عمرو واحداً من عامة الشعب، بل إنه ليرى أن عَمْراً هو المسؤول عن

---

(١) أي لجأتَ إلى ملجأ يحميك.
(٢) أي: فما كفَّ وترك.

ذلك، لأن من واجب الأمير تفقد أحوال الناس، والنظر في الشكايات، ورد الحقوق إلى أهلها؛ لذلك قال للمصري: ضَعْ على صلعة عمرو!!.

● واستعمل حذيفةَ بن اليمان على (المدائن)، وكتب للناس هناك في عهده: (أن اسمعوا له وأطيعوا، وأعطوه ما سألكم. فخرج حذيفة من عند عمر على حمار موكّف، وعلى الحمار زاده. فلما قدم المدائن، استقبله أهل الأرض والدَّهاقين، وبيده رغيف وعَرْق[1] من لحم، على حمار على إكاف[2]، فقرأ عهده إليهم. فقالوا: سَلْنا ما شئت. قال: أسألكم طعاماً آكله، وعلف حماري هذا ما دمت فيكم. فأقام فيهم ما شاء الله، ثم كتب إليه عمر أن أقدم. فلما بلغ عمرَ قدومُه، كَمَنَ له على الطريق في مكان لا يراه، فلما رآه عمر على الحال الذي خرج من عنده عليه، أتاه فالتزمه، وقال: أنت أخي وأنا أخوك).

لله در عمر ما أعظمه؛ وما أعدله؛ وما أروعه، يكمن لحذيفة لا ليتجسس عليه، بل ليطمئن على حاله، وأن الإمارة لم تغيّره، وأن الدنيا لا تساوي عنده شيئاً، خاصة وهو أمير ينظر إليه الناس، ويقتدون به، فإذا رتع رتعوا، وإن عفّ عفّوا. حقاً لقد كانت فلسفة عمرية!!.

● ولما فُتحت العراق، أمر سعد بن أبي وقاص باختطاط الكوفة، وكان أول بناء وضع فيها المسجد، ثم عمَّر قصراً تلقاء محراب المجسد للإمارة، وبيت المال. (وبُني لسعد قصر قريب من السوق، فكانت غوغاء الناس تمنع سعداً من الحديث، فكان يغلق بابه ويقول: سكن الصوت! فلما بلغت هذه الكلمة عمر بن الخطاب بعث محمد بن مسلمة، فأمره إذا انتهى إلى الكوفة أن يقدحَ زناده ويجمع حطباً، ويحرق باب القصر، ثم يرجع من فوره، فلما انتهى إلى الكوفة فعل ما أمره به عمر. وأمر سعداً أن لا يغلق بابه عن الناس، ولا يجعل على بابه أحداً يمنع الناس

---

(١) هو العَظْم أُخِذَ عنه معظم اللَّحم.
(٢) أي بَرْذَعَة، وهي ما يُوضع على الحمار أو البغل ليُرْكَبَ عليه.

عنه، فامتثل ذلك سعد، وعرض على محمد بن مسلمة شيئاً من المال، فامتنع من قبوله، ورجع إلى المدينة)!!.

الله الله لهؤلاء الولاة، أي درجة وصلوها، وأي سبق احتازوه، وأي إيمان بلغوه! ولا عجب من هذا كله، فهم أولاء الذين تربّوا في مدرسة القرآن، ونهلوا من بحر النبوّة والمثل الكامل رسول الله ﷺ، ثم هم بعد ذلك ولاة للفاروق، اختارهم ببصيرة إيمانه، ونطق بتأميرهم لسانه، الذي جعل الله الحق عليه ينطق به.

* * *

ولم يقف عمر رضي الله عنه عند هذا الحد، بل كان يحاسب ولاته على أموالهم، وقد وضع أمام عينيه مبدأ: (من أين لك هذا)؟.

ولم يكن هذا رأيه عندما أضحى خليفة، بل حتى في عهد أبي بكر رضي الله عنه، عندما كان عمر وزيراً له ومعيناً؛ فقد وقع بمعاذ بن جبل الدَّيْن حتى أكل ماله كله، فلما حج رسول الله ﷺ بعث معاذاً على اليمن، وهناك عمل بالتجارة، وعاد إلى المدينة بعد وفاة النبي ﷺ وقد حمل مالاً وافراً.

(فقدم على أبي بكر الصديق، فجاء عمر فقال: هل لك أن تطيعني فتدفع هذا المال إلى أبي بكر، فإن أعطاكه فاقبله؟. فقال معاذ: لِمَ أدفعه إليه، وإنما أرسلني رسول الله ﷺ لِيَجْبُرَني؟!. فلما أبى عليه انطلق عمر إلى أبي بكر فقال: أرسل إلى هذا الرجل، فَخُذْ منه ودَعْ له!. فقال أبو بكر: ما كنت لأفعل، إنما بعثه رسول الله ﷺ لِيَجْبُرَه، فلست آخذُ منه شيئاً.

فلما أصبح معاذ انطلق إلى عمر فقال: ما أراني إلا فاعل الذي قلتَ، إني رأيت البارحة في النوم أُجَرّ إلى النار، وأنت آخذ بِحُجْزَتي. فانطلقَ إلى أبي بكر بكل شيء جاء به، حتى جاء بسوطه، وحلف له أنه لم يكتمه شيئاً. فقال أبو بكر رضي الله عنه: هو لك لا آخذ منه شيئاً. فقال عمر حينذاك: هذا حين حلّ وطاب.

لذا كان في خلافته إذا استعمل عاملاً كتب مالَه، فإذا عزله حاسبه على ماله.

يروي ابن عمر: (أن عمر أمر عمّاله فكتبوا أموالهم، منهم سعد بن أبي وقاص، فشاطرهم عمر أموالهم، فأخذ نصفاً، وأعطاهم نصفاً)!.

هكذا حتى يعلم الناس أن الولاية ليست جباية بل أمانة، وليست شيئاً يرغب فيه ويُحرص عليه، بل يُخشى منه ويُنأى عنه. وعَلِمَ الله أن عمر ما كان يفعل ذلك لشبهة سمعها أو خيانة ظنها، بل ليعلي منزلة ولاته عند الناس، ويرتفع بهم فوق الشبهات، فترتفع درجاتهم عند الله سبحانه وتعالى.

ولقد أخذ ولاته بالعزائم، وحاسبهم حساباً دقيقاً، فهذا عامله على البحرين، أبو هريرة عالم الصحابة وحافظ السنّة الأكبر، يمثل بين يدي عمر، فيسائله عمر، ويغلظ له بالقول، فيما يحدث به أبو هريرة نفسه فيقول: (قال لي عمر: يا عدوّ الله وعدوّ كتابه سَرَقْت مال الله؟!. فقلت: ما أنا بعدوّ الله ولا عدوّ كتابه، ولكنّي عدو من عاداهما، ولا سرقتُ مال الله!. قال: فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف؟!. قلت: يا أمير المؤمنين، خيلي تناسلت، وسهامي تلاحقت، وعطائي تلاحق!. قال: فأمر بها أمير المؤمنين فقُبضت. فكان أبو هريرة يقول: اللهم اغفر لأمير المؤمنين).

وهو باجتهاده العظيم هذا لأنْ يخطئ بحق أحد الولاة فيُسأل عنه أهون ألف مرة من أن يخطئ بحق أهل مِصْرٍ بأكملهم، فيحاسبه الله عنهم جميعاً! ثم هو بعد ذلك ينال الرضى من ولاته، والدعاء له في الدنيا، وما ذلك إلا لصدق نيته، وإخلاص ولاته، وعلمهم أن عمر ما يفعل بهم لعجز أو خيانة، بل ينقّيهم كما يُنقّى الذهب من شوائبه!.

يقول أبو هريرة: (ثم أرسل إليَّ بعدُ أنْ ألاَ تعمل؟. قلت: لا. قال: لِمَ؟ أليس قد عمل يوسف؟. قلت: يوسف نبيّ ابن نبيّ، فأخشى من عملكم ثلاثاً واثنتين!. قال: أفلا تقول خمساً؟. قلت: لا، أخاف أن يشتموا عرضي، ويأخذوا مالي، ويضربوا ظهري. وأخاف أن أقول بغير حِلْم، وأقضي بغير عِلم)!!.

* * *

وأعجب من ذلك وأرفع منه أن عمر كان ينزع الولاية ممن لا يقبّل ولده، لأنه إن لم يرحم أبناءه فهو بالناس أقل رحمة وأشد قسوة.

استعمل رجلاً من بني أسد على عمل، وجاء الرجل إلى عمر ليأخذ عهده، فأُتي عمرُ ببعض ولده فقبّله، فقال الأسديّ:

(أتقبّل هذا يا أمير المؤمنين؟ والله ما قبّلت ولداً قطّ!.

قال عمر رضي الله عنه: فأنت ـ والله ـ بالناس أقل رحمة، هاتِ عهدنا، لا تعمل لي عملاً أبداً). فردّ عهده.

أية شفافية هذه وأي إشراق في روح عمر رضي الله عنه؟! نعم، فإنما يرحم الله من عباده الرحماء، ومن لا يرحم ولده، ويبش لهم، ويخفض لهم جناحه، فكيف سيكون بين الناس وهوَ لهم أمير؟! ليس لأمثال هؤلاء مكان في الإمارة عند الفاروق.

* * *

وكان يخلط شدته وحزمه باللِّين والرحمة، حتى لا ييأس من عدله ضعيف، ولا يطمع به قوي، وكان يقول على الأشهاد: إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالشدة التي لا جبر فيها، وباللِّين الذي لا وَهْنَ فيه.

وذات يوم (اجتمع علي وعثمان، وطلحة والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد ـ وكان أَجْرَأَهُم على عمر عبدُ الرحمن بن عوف ـ فقالوا: يا عبد الرحمن، لو كلَّمتَ أمير المؤمنين للناس، فإنه يأتي الرجل طالبُ الحاجة فتمنعُهُ هيبتُك أن يكلمك في حاجة حتى يرجع، ولم يقضِ حاجته.

فدخل عليه فكلَّمه، فقال: يا أمير المؤمنين، لِنْ للناس، فإنه يَقْدمُ القادم فتمنعه هيبتك أن يكلمك في حاجته حتى يرجع ولم يكلمك.

قال: يا عبد الرحمن، أَنْشُدُك الله أَعَليٌّ وعثمان وطلحة والزبير وسعد أمَروك بهذا؟. قال: اللهم نعم. قال: يا عبد الرحمن، والله لقد لِنْتُ للناس حتى

خشيتُ الله في اللِّين، ثم اشتددت عليهم حتى خشيت الله في الشدّة، فأينَ المَخرَجُ؟!

فقام عبد الرحمن يبكي، يَجُرُّ رِداءَه، يقول بيده: أفٌّ لهم بعدك، أفٌّ لهم بعدك)!.

ولقد كان رضي الله عنه يشتدّ في الموقف الذي يتطلب الشدة، ويلين في الوقت الذي لا يصلح فيه إلا اللِّين، وفي هذا يقول رضي الله عنه: (والله لقد لاَنَ قلبي في الله، حتى لهو ألينُ من الزُّبْد[1]، واشتد قلبي في الله حتى لهو أشدّ من الحجر)!!.

لقد كانت شدته لدين الله، وتوطيد أركان الدولة، وليست قسوة وفظاظة وغلظة وبطشاً بعباد الله، ورحمته كانت بالضعاف وذوي الحاجات وأصحاب المظلمات، فهو لهم ليِّن رحيم ودود، وعلى من ناوأهم شديد لافح البأس!.

محافظته على مال الأمة، وتوزيعه على الناس:

ولم تكن مسؤولية عمر تجاه مال الأمة بأقل عجباً من سياسته مع الولاة، فلقد كانت نظرته لأموال المسلمين تبهر الألباب، وتحيِّر العقول.

وفد عليه الربيع بن زياد الحارثي، فرأى طعاماً غليظاً، وملبساً خشناً؛ فقال: (يا أمير المؤمنين، إن أحقَّ الناس بطعام ليِّنٍ، ومركب لينٍ، وملبس لينٍ لأنت! فرفع عمر جَريدة[2] معه فضرب بها رأسه، وقال: أما والله ما أراك أردتَ بها الله، وما أردت بها إلا مقاربتي، هل تدري ما مثلي ومثل هؤلاء؟ قال: وما مثلك ومثلهم؟ قال: مثل قوم سافروا، فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم، فقالوا له: أنْفِق علينا، فهل يَحِلّ له أن يستأثر منها بشيء؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. قال: فكذلك مثلي ومثلهم)!!.

لذلك إذا سمع عمر أن درهماً واحداً من أموال الأمة قد انتُهب أو أُنفِق في

---

(١) أي: الزبدة.

(٢) هي سَعَفَة طويلة تُقَشَّر من ورقها.

غير محله؛ كأنَّ القيامة تقوم، ويرتجف لذلك فؤاد عمر، ويرجِف مَنْ حوله، وكثيراً ما كان يردد ويقسم: لو أن بعيراً من إبل الصدقة ضاع على ضفاف دجلة؛ لخشي أن يسأله الله عنه.

ولنتابع هذا النبأ الباهر الأخّاذ، يشهده عثمان بن عفان ومولاه، في يوم قائظ اشتد حرّه، يقول مولى عثمان:

(بينا أنا مع عثمان في مالٍ له بالعالية في يوم صائف، إذ رأى رجلاً يسوق بَكْرين، وعلى الأرض مثل الفراش من الحرّ، فقال: ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى يُبْرِد ثم يروح؟! ثم دنا الرجل فقال: انظر من هذا؟ فنظرت فقلت: أرى رجلاً مُعْتَمّاً بردائه يسوق بكرين، ثم دنا الرجل، فقال: انظر، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقلت: هذا أمير المؤمنين! فقام عثمان فأخرج رأسه من الباب، فآذاه لَفْحُ السَّمُوم، فأعاد رأسه حتى حاذاه، فقال: ما أخرجك هذه الساعة؟.

فقال: بَكْران من إبل الصدقة تخلّفا، وقد مضي بإبل الصدقة، فأردت أن ألحقهما بالحِمَى[1]، وخشيت أن يضيعا فيسألني الله عنهما. فقال عثمان: يا أمير المؤمنين، هلمَّ إلى الماء والظلّ، ونكفيك. فقال: عُدْ إلى ظلك!. فقلت: عندنا من يكفيك. فقال: عُدْ إلى ظلك، فمضى. فقال عثمان: من أحب أن ينظر إلى القوي الأمين؛ فلينظر إلى هذا).

* * *

وكان رضي الله عنه يتعاهد إبل الصدقة بنفسه في اليوم الشديد الحرّ، فيكتب ألوانها وأسنانها، ويحصيها حتى لا يضيع منها شيء، وإذا مرضت قام على تطبيبها.

● رآه ذات يوم علي بن أبي طالب وهو يعدو إلى ظاهر المدينة، فقال له:

---

(١) هو موضع فيه الكلأ والعشب، يحميه الإمام من الناس، فلا يرعى فيه أحد ولا يقربه، وكان عمر حمى (النَّقِيع) لنَعَم الصدقة والخيل المعدَّة في سبيل الله.

إلى أين يا أمير المؤمنين؟ . فقال: قد ندَّ بعير من إبل الصدقة، فأنا أطلبه. فقال علي: قد أتعبت الخلفاء من بعدك.

● ويزوره وفد العراق وفيهم الأحنف بن قيس، فيفاجؤون بعمر قد انهمك في تطبيب واحد من إبل الصدقة، يطليه بالقطران، وما إن يراهم حتى ينادي الأحنف قائلاً: (ضع ثيابك يا أحنف، وهلمَّ فأعِنْ أمير المؤمنين على هذا البعير، فإنه من إبل الصدقة، وفيه حق للأَمَة والمسكين واليتيم)! . فيذهل الوفد، ويقول قائلهم: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، إن عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا! . فيجيبه عمر في عظمة التواضع، وثقل المسؤولية، والخضوع لله تعالى: (وأي عبدٍ أعْبَدُ مني ومن الأحنف)؟! .

● ولقد ارتقت به نفسه في قمم المُثُل، فبلغ بتصرفاته أعلى ما يمكن أن يبلغه الكمال الإنساني، حتى إن العظمة لتتمنى أن تكون بعضاً من تكوينه الشامخ الشاهق؛ فبلغ الأمر به، وتقديره للمسؤولية التي يحملها على عاتقه أنه كان يحرس مال المسلمين بنفسه.

يحدّث ابنه عبد الله فيقول: (قدمت رفْقَةٌ من التجار، فنزلوا المُصلّى، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: هل لك أن نحرسهم الليلة من السَّرَق؟ فباتا يحرسانهم، ويصليان ما كتب الله لهما).

* * *

أما الفقراء والمساكين والمحتاجين؛ فلهم عند عمر شأن أي شأن؛ يسدّ فقرهم، ويقضي حوائجهم، ويعرف لأهل السبق سبقهم فيكرمهم، بل إنه ليكرم ذريتهم، يحدّث أسلم ـ مولى عمر ـ فيقول:

(خرجت مع عمر بن الخطاب إلى السوق، فلحقت عمرَ امرأةٌ شابة، فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجي وترك صِبْيَة صغاراً، والله ما يُنْضِجون كُرَاعاً[1]،

(١) أي: ليس عندهم كراع حتى ينضجوه، والكُراع ما دون الكعب من الدابة.

ولا لهم زَرْعٌ ولا ضَرْعٌ[1]، وخشيت أن تأكلهم الضَّبُعُ[2]، وأنا بنت خُفَاف بن إيْماء الغِفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ. فوقف معها عمر ولم يَمْضِ، ثم قال: مرحباً بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظَهِير[3] كان مربوطاً في الدار، فحمل عليه غِرَارَتَين[4] ملأهما طعاماً، وحمل بينهما نفقة وثياباً، ثم ناولها بخطامه، ثم قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير. فقال رجل: يا أمير المؤمنين، أكثرتَ لها! قال عمر: ثكلتك أمُّك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها، قد حاصرا حِصناً زماناً فافتتحاه، ثم أصبحنا نَسْتَفِيءُ[5] سُهْمَانهما[6] فيه).

لذا إذا جاءه المال أسرع في إنفاقه، حتى لا يبقى بين المسلمين جائع أو عار أو مسكين أو محتاج. يقول عبد الله بن عمر: (قدم على عمر رضي الله عنه مال من العراق، فأقبل يقسمه. فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، لو أبقيت هذا المال لعدوّ إن حضر، أو نائبة إن نزلت؟! فقال عمر: مالَكَ قاتلك الله، نطق بها على لسانك شيطان! لقّاني الله حجتها، والله لا أعصينَّ الله اليوم لغد، لا، ولكن أعدّ لهم ما أعدّ لهم رسول الله ﷺ)!.

ولنستمع لهذا النبأ:

(كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري، أما بعد: فأَعْلَمُ يوماً من السنة لا يبقى في بيت المال درهم حتى يُكْتَسَحَ اكتساحاً، حتى يعلم الله أني قد أدّيتُ إلى كلِّ ذي حقٍّ حقه. قال الحسن: فأخذ صفْوَها، وترك كَدِرها حتى ألحقه الله بصاحبيه).

---

(١) كناية عن المواشي.
(٢) هي السنة الشديدة المجدبة.
(٣) أي: قوي الظهر، معدّ للحاجة.
(٤) تثنية غِرارة، وهي وعاء يتخذ للتبن وغيره.
(٥) أي: نطلب الفيء، وهو ما يأخذه المسلمون من يد الكفار.
(٦) جمع سَهْم وهو النصيب، أي هما فتحاه ونحن الآن ننتفع بثمرة جهدهما.

وكان رضي الله عنه يخشى من كثرة المال أن تكون محنة وابتلاء، يحدّث ابن عباس فيقول: (دعاني عمر بن الخطاب فأتيتُه، فإذا بين يديه نطع[1] عليه الذهب منثور حَثاً[2]، قال: هلمَّ فاقْسِم هذا بين قومك، فالله أعلمُ حيث زَوَى هذا عن نبيه عليه الصلاة والسلام وعن أبي بكر، فأُعْطِيتُه، لخير أعطيته أو لشرّ!. قال: فأكببت عليه أقسم وأزيّل[3]. قال: فسمعت البكاء، فإذا صوت عمر يبكي ويقول في بكائه: كلا والذي نفسي بيده ما حبسه عن نَبيّه عليه الصلاة والسلام وعن أبي بكر إرادة الشر لهما، وأعطاه عمر إرادة الخير له)!!.

ولما فاض المال، وألقيت الكنوز بين يدي عمر؛ دوّن الديوان، وفرض للناس أعطياتهم ورواتبهم، حتى المولود الصغير، ما إن يرى نور الحياة حتى يسجل اسمه في الديوان، ليأخذ نصيبه من مال الأمة.

نفقته على نفسه:

وكان عمر يرقب الله تعالى في مال الأمة، ويخشى أن يحاسبه على لقيمات يقمن صلبه، يأكلهن من بيت المال بإذن المسلمين، فكان يأخذ نفسه وأهله بالشدة، ولا يتبسط في زخارف الدنيا ومتاعها، بل يرضى بالكفاف، وهو بذلك يقفو أثر رسول الله ﷺ.

● اشتكى ذات يوم من مرض ألمَّ به، فوُصِفَ له العسل، وفي بيت المال عُكَّةٌ[4] من عسل، فقال عمر: إن أذِنتم لي فيها أخذتها، وإلا فإنها عليَّ حرام، فأذِنوا له!.

● وذات عامٍ جهز عيراً إلى الشام (فبعث إلى عبد الرحمن بن عوف يستقرضه

---

(١) هو بساط من جلد.
(٢) الحثا: دُقَاق التِّبن، أي: الذهب منثور كالتبن.
(٣) أزيّل: أفرّق.
(٤) هي وِعاء من جلد مستدير.

أربعة آلاف درهم، فقال للرسول: قل له يأخذها من بيت المال، ثم ليردّها. فلما جاءه الرسول فأخبره بما قال؛ شقَّ ذلك عليه، فلقيه عمر فقال: أنت القائل ليأخذها من بيت المال؟! فإن مِتُّ قبل أن تجيء قلتم: أخَذها أمير المؤمنين، دَعوها له، وأُوخَذُ به يوم القيامة!! لا، ولكن أردت أن آخذها من رجل حريص شحيح مثلك، فإن مِتُّ أخذها من ميراثي).

● وحتى في سفره للحج كان يخرج وسط صحراء قاحلة، ولا يهيّئ لنفسه من ضرورات الرحلة الطويلة إلا الشيء اليسير؛ لأنه من مال الأمة، ويسير في وقدة الحرّ الشديد، ويذوق القيظ كما تذوقه عامة الناس.

يروي عبد الله بن عامر بن ربيعة فيقول: (صحبتُ عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة في الحجّ، ثم رجعنا، فما ضرب فُسْطاطاً[1]، ولا كان له بناء يستظل به، إنما كان يلقي نِطْعاً أو كساء على شجرة فيستظلّ تحته)!!.

ويروي مجاهد فيقول: (أنفق عمر بن الخطاب في حجَّة حجَّها ثمانين درهماً من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة، قال: فجعل يتأسف، ويضرب بيده على الأخرى، ويقول: ما أخلقنا أن نكون قد أسرفنا في مال الله تعالى.

● وشرب يوماً لبناً فأعجبه، فسأل الذي سقاه: من أين لك هذا اللبن؟. فأخبره أنه ورد على ماء، فإذا نَعَمٌ من نَعَمِ الصدقة، وهم يسقون، فحلبوا لنا من ألبانها، فجعلته في سقائي هذا. فأدخل عمر أصبعه فاستقاءه!.

هكذا، لأنه من مال المسلمين، وهو لا يحق له إلا الراتب الذي فرضوه له، وهذه المَذْقَة من اللبن لم تكن بإذنهم ورضاهم، فكيف يسمح لها أن تستقرَّ في أحشائه، وتنبت بعضاً من لحم جسمه؟!.

هذا هو الورَع الأخّاذ المتفرد الذي عبر عنه المِسْوَرُ بن مَخْرمة رضي الله عنه عندما قال: (كنا نلزم عمر بن الخطاب، نتعلم منه الورع).

---

(١) هو بيت يُتَّخذُ من الشَّعَر.

إن أبا حفص أستاذ، بل إمام، في كل شيء، حتى في الورع!!.

* * *

وقد حمل نفسه وأهله أن يعيشوا من مال الأمة كفافاً، من غير إسراف ولا مخيلة، حتى دخل عليه من ذلك الجهد والشدة، فقالت له حفصة ذات يوم: (يا أبتِ، إنه قد أوسع الله في الرزق، وفتح عليك الأرض، وأكثر من الخير؛ فلو طعمت طعاماً ألين من طعامك، ولبست ألين من لباسك!.

فقال: سأخاصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش؟ فما زال يذكّرها حتى أبكاها.

ثم قال: إني قد قلتُ لكِ إني والله لئن استطعت لأشاركنَّهما في عيشهما الشديد لَعَلِّي ألقى معهما عيشهما الرخيّ ـ يعني رسول الله وأبا بكر ـ).

ورأى الصحابة ما عليه عمر من الشدة على نفسه وأهله، وقد فاض المال بين أيدي المسلمين، ولا تزال مخصصات عمر وعطاؤه كما هي، بل إنه ليقترض أحياناً من بيت المال ليسد حاجاته. فسعى إليه عثمان وعلي وطلحة والزبير ليكلّموه في ذلك، لكنهم تهيبوا منه، لعلمهم بشدة وطأته إذا بوحث في هذا الأمر، فكلّموا حفصة، واستكتموها أمرهم، وقالوا لها: (أبى عمر إلا شدة على نفسه وحصراً، وقد بسط الله الرزق، فليبسط في هذا الفَيء فيما شاء منه. وهو في حِلٍّ من جماعة المسلمين).

وقامت حفصة ـ على وجل ـ تطلب من أبيها ذلك، فعلم عمر أن حفصة ما تقول هذا من عند نفسها، وقد ذكّرها قبل حين بعيش رسول الله ﷺ؛ فقال: من بعثكِ إليَّ بهذا؟ قالت: لا أحد. قال: بل بعثك بهذا قوم لو عرفتهم لحاسبتهم! ثم قال لابنته: لقد كنتِ زوجة لرسول الله ﷺ، فماذا كان يقتني في بيتك من الملبس؟ قالت: ثوبين اثنين. قال: فما أطيب طعمة رأيتِه يأكلها؟ قالت: خبز شعير طري مَثرود بالسمن. قال: فما أوطأ فراش كان له في بيتك؟. قالت: كساء

ثخين، كنا نبسطه في الصيف، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثَّرنا بنصفه.

قال: (ياحفصة، فأبلغي الذين أرسلوك إليَّ أن مَثَلي ومثل صاحبيَّ ـ رسول الله وأبي بكر ـ كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضى الأول وقد تزوَّد فبلغ المنزل، ثم اتبعه الآخر، فسلك طريقه فأفضى إليه، ثم الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما أُلحق بهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما)!!.

سبحانك يا خالق هذا الإنسان!! أصحيح أن هذا بشر يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، أم هو مَلَك تمثَّل بشراً سوياً؟! لا، بل هو حقيقة واقعة نهلت من معين النبوة، وترقَّت في معارج الفضيلة والكمال، حتى بلغت منها مبلغاً لا مزيد عليه، ولا لأحد مطمع في الوصول إليه.

ولقد زهد عمر بالدنيا، وعزفت نفسه عن ملذّاتها، ترفعاً عنها، مع الاقتدار عليها؛ اقتداءً بالنبي ﷺ وصاحبه الصدّيق، ثم بعد ذلك لأنه الحاكم والخليفة، فإذا رتع رتع الناس، وانصرفوا إلى دنياهم، وشُغلوا بها عن الجهاد والفتوح ونشر راية الحق، فليكن إماماً لهم في كل شيء، حتى يقتدي به أغنى الناس، وأدناهم وأقلهم مؤنة. ولقد عاش هذا الخليفة الأمين الفريد حيناً من الدهر يحكم دولة مترامية الأطراف، وقد سالت الكنوز من تحت رجليه أنهاراً؛ فما ألقى لها بالاً، وهو يترنّم ـ والكون من حوله يؤوّب ـ بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

نفقته على أهله وتاديبه لهم:

أما نفقته على أهله فلنستمع لهذا الموقف الذي يرويه ابنه عاصم ـ وقد زوّجه عمر، وأنفق عليه من مال الله شهراً ـ فيقول: (أرسل إليَّ عمر يَرْفأ[1]، فأتيتُه وهو في مصلاّه عند الفجر ـ أو عند الظهر ـ فقال: والله ما كنتُ أرى هذا المال يَحِلُّ لي من قبل أن أَلِيَه إلا بحقِّه، وما كان قطّ أحرمَ عليَّ منه إذ وَلِيتُه، فعادَ أمانتي! وقد أنفقتُ

---

(١) هو حاجب عمر رضي الله عنه.

عليك شهراً من مال الله، ولستُ بزائدك، ولكني مُعينك بثمر مالي بالغابة، فاجْدُدْه[1] فبِعْه، ثم ائتِ رجلاً من قومك من تُجّارهم، فقم إلى جنبه، فإذا اشترى شيئاً فاسْتَشْرِكْهُ، فاستنفِقْ وأنفِقْ على أهلك).

هكذا فلتكن الخلافة، ومثل هؤلاء فليكن الحكام، ولمثل هؤلاء فليبايع الناس، وليسمعوا وليطيعوا. إنه لا يريد لابنه أن يكون كَلاً على أبيه، عالة على بيت المال، بل يوجهه للعمل بالتجارة، ويعطيه بعض ماله، ليثمِّره بالعمل المبارك، ويتولى بذلك شؤون أهله وأولاده.

● ويرى عمر جارية منحولة الجسم، خائرة القوى، تطيش هزالاً؛ فيقول عمر: من هذه الجارية؟ فقال عبد الله ـ ابنه ـ: هذه إحدى بناتك! قال عمر: وأي بناتي هذه؟ قال عبد الله: ابنتي. قال عمر: ما بَلَغَ بها ما أرى؟ قال عبد الله: عملك، لا تُنْفِقُ عليها! فقال عمر: إني والله ما أَغُرُّك[2] من ولدك، فأَوسع على ولدك أيها الرجل!!.

● ويروي محمد بن سيرين (أن صِهْراً لعمر بن الخطاب قدم على عمر، فعرَّض له أن يعطيه من بيت المال؛ فانتهره عمر وقال: أردتَ أن ألقى الله مَلِكاً خائناً؟! فلما كان بعد ذلك أعطاه من صُلْبِ ماله عشرة آلاف درهم).

● بل إن عمر ليحمل أهله أن يعيشوا معه على صراط أحدّ من الشفرة، وأدق من الشعرة، فيشدّد عليهم أكثر من باقي الرعية؛ حتى يعلموا أن الحكم ليس فيه محسوبية، ولا هوادة لأحد، بل إنه ليضاعف العقوبة لأي فرد من أهله قد يقترف شيئاً نهى عمرُ الناس عنه.

يروي مولاه أسلم فيقول: (خرج عمر، فقعد على المنبر، فثاب الناس إليه، حتى سمع به أهل العالية فنزلوا، فعلّمهم، حتى ما بقي وجه إلا علّمهم. ثم

---

(١) أي: اقطعه.

(٢) ما أغرُّك: ما أطعم ولدك بالباطل.

أتى أهله وقال: قد سمعتم ما نهيتُ عنه، وإني لا أعرف أن أحداً منكم يأتي شيئاً مما نهيتُ عنه؛ إلا ضاعفت له العذاب ضِعْفَيْن)!!.

هكذا يا أمير المؤمنين! أوَما كان يكفي أهلك أن تنزل بهم من العقوبة مثل باقي الناس؟ لا ، فإن الفاروق يريد أن يستأصل من نفس أهله مجرد التفكير بالمخالفة، والوقوع في المحظور؛ لأنه يرى أن الخلافة مَثَل أعلى، وقدوة ينظر الناس إليها، كما ينظر الطير إلى اللحم، وهو قد تفوّق على الناس بتقديره للمسؤولية، فلِمَ لا يكون أهله مثله، أو قريباً من مثله؟!.

لذا تراه يرتفع بهم عن الشبهات، والويل لمن يرى عليه بعض ما يشوب سيرته، أو يخالف نهجه، فهذا ابنه عبد الله ـ وكان مثالاً في الورع وإماماً يقتدى به في الزهد والتقوى ـ يقول: (اشتريت إبلاً، وارتجعتها إلى الحِمَى، فلما سمنت قدمت بها، فدخل عمر السوق فرأى إبلاً سماناً، فقال: لمن هذه الإبل؟) فقيل: لعبد الله بن عمر. فجعل يقول: يا عبد الله بن عمر، بخٍ بخٍ، ابن أمير المؤمنين!. فجئت أسعى فقلت: مالكَ يا أمير المؤمنين؟. قال: ما هذه الإبل؟. قلت: إبل اشتريتُها، وبعثتُ بها إلى الحِمَى أبتغي ما يبتغي المسلمون.

فأخذ عمر يفتل سَبَلة شاربه ـ كعادته إذا غضب ـ فقال: ويقول الناس: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين! يا عبد الله بن عمر، اغْدُ على رأس مالك، واجعل الفَضْل في بيت مال المسلمين)!!.

ألا ترون أننا أمام أسطورة! بل لو كانت أسطورة لصعب تصديقها، لكن لحسن حظ البشرية أننا أمام حقيقة ماثلة للعيان، ملأت سمع الزمان والمكان، وسار بعبيرها الركبان.

إن عبد الله لم يأت شيئاً نُكراً، ولا استثمر ماله إلا في أحلّ الحلال، لكن عمر خشي من الشبهة، التي قد تدنّس ثياب آل عمر، بسبب محاباة الناس لإبل ابن أمير المؤمنين. فهو يريد أن يجتاز هذه المحنة ـ محنة الخلافة ـ بسلام وأمان.

• والويل لمن يفكر أن يهدي شيئاً لعمر أو لآلِهِ، ولقد كانوا من الفطنة بحيث لم يتورطوا في ذلك، لكن حدث أن أهدى أبو موسى الأشعري لامرأة عمر عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل طُنْفُسَةً[1] ـ أراها تكون ذراعاً وشبراً ـ فدخَلَ عليها عمرُ فرآها فقال: أنَّى لكِ هذه؟. فقالت: أهداها لي أبو موسى الأشعري، فأخذها عمر، فضرب بها رأسها، حتى نَغَضَ[2] رأسُها، ثم قال: عليَّ بأبي موسى الأشعري، وأتْعِبوه. قال: فأُتي به وهو يقول: لا تَعْجَل عليَّ يا أمير المؤمنين! فقال عمر: ما يحملك على أن تهدي لنسائي؟! ثم أخذها عمر، فضرب بها فوق رأسه، وقال: خُذْها فلا حاجة لنا فيها)!!.

وتالله ما كانت خيانة من أبي موسى، ولا شائبة فيها لسيرة عمر وأهله، لكن أمير المؤمنين كان يخشى أن تكون هذه الطنفسة ما أهديت لزوجته إلا لأنها في بيت الخلافة، وكأنه يخاف أن يصبح ذلك ذريعة لمن بعده من الخلفاء والحكام؛ فيقولون: كيف لا نقبل الهدية، وقد قبلها من هو خير منا (عمر بن الخطاب)؟!.

• بل إنه ليرتفع بأهله إلى أوج شاهق في التعفف والتورع، والاحتياط لدينهم أعلى ما يكون التحوّط والتوقِّي. قدم عليه مسك وعنبر من البحرين، فقال عمر: (والله لوددتُ أني وجدت امرأة حسنة الوزن، تزِن لي هذا الطِّيب حتى أقسمه بين المسلمين. فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد بن عَمْرو بن نُفيل ـ رضي الله عنهما ـ: أنا جيدة الوزن، فهلمَّ أزِن لك؟ قال: لا. قالت؛ لِمَ؟. قال: إني أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا ـ أدخل أصابعه في صدغيه ـ وتمسحين به عنقك، فأصبتِ فَضْلاً على المسلمين)!!.

سبحان ربّ عمرّ! يخاف أن تمسح زوجته عنقها بما علق بيديها من رائحة الطيب، فيكون قد حاباها على غيرها، وليس ذلك من أمانة الخلافة!!.

---

(١) بساط له خَمْل رقيق.

(٢) أي: تحرَّك في ارتجافٍ واضطراب.

● ويرتاع يوماً وقد رأى على غلامه أسلم ثوباً جديداً، فيقول له: (من أين لك هذا؟. قال أسلم: كسانيه عبيد الله بن عمر. فقال عمر: أمّا عبيد الله فخذه منه، وأما غيره فلا تأخذنَّ منه شيئاً)!!.

طعامه ولباسه:

وأما في طعامه، فقد اقتدى بسيد الزاهدين رسولِ الله ﷺ، يأخذ من الطعام ما يقوى به على الحياة، والقيام بأمر الناس، ونأى بنفسه وأهله عن ملاذ الحياة وأطايب المأكل.

● دخل على ابنته حفصة ذات يوم، فقدّمت إليه مرقاً بارداً، وصبّت في المرق زيتاً، فقال: (أُدْمانِ في إناء واحد، لا أذوقه حتى ألقى الله عز وجل)!.

● ودخل على ابنه عاصم وهو يأكل لحماً، فقال: (ما هذا؟ قال: قَرِمْنا[1] إليه! قال: أوَ كلما قرِمتَ إلى شيء أكلتَه؟! كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كل ما اشتهى).

وجاء عبد الله وحفصة وغيرهما، فكلّموا عمر في طعامه، فقالوا: (لو أكلتَ طعاماً طيباً كان أقوى لك على الحق. قال: أكلكم على هذا الرأي؟! قالوا: نعم. قال: قد علمتُ نصحكم، ولكني تركت صاحبيَّ على جادَّة، فإن تركتُ جادتهما لم أدركهما في المنزل).

● وبينا عمر ذات يوم قد وضع بين يديه طعاماً، إذ جاء الغلام فقال: هذا عتبة بن فرقد بالباب؟ قال: وما أقدم عتبة، ائذن له. فلما دخل رأى بين يدي عمر طعامه: خبز وزيت! قال: اقترب يا عتبة فأصِبْ من هذا. فذهب يأكل، فإذا هو طعام جَشِبٌ[2]، لا يستطيع أن يسيغه، قال: يا أمير المؤمنين، هل لك في طعام يقال له: الحُوَّارى[3]؟. قال: ويلك، ويسعُ ذلك المسلمين كلهم؟!. قال:

---

(١) القرم: شدة الشهوة إلى اللحم.
(٢) أي غليظ، أو بلا أدم.
(٣) هو الخبز الذي نُخِلَ مرَّةً بعد مرة.

لا والله. قال: ويلك يا عتبة، أفأردت أن آكل طيباتي في حياتي الدنيا وأستمتع بها؟!.

هذا الذي كان يشغل بال عمر: (ويسعُ ذلك المسلمين كلهم)؟! فهو لم يحرم نفسه من طيبات كثيرة، ومناعم لم يحرّمها الله، لأنه كان عاجزاً عن نوالها؛ بل لأن بطولة روحه، وقوة عزمه، واستقامة نهجه، وعلياء نفْسه، كانت تحمله على أن يلتزم الكفاف، ويرضى بالشَّظَف، لأنه في مقام المسؤولية والقدوة! وهو إذا نال المناعم والملاذّ وأطايب الطعام، فماذا يفعل فقراء الناس واليتامى والأيامى؟ وماذا سيقول عمر لربه غداً إذا سأله: كيف شبعت وفي رعيتك من هو جائع؟!.

● قدم عليه أبو موسى الأشعري في وفد أهل البصرة فقالوا: (كنا ندخل كل يوم وله خُبَز ثلاث، فربما وافقناها مأدومةً بزيت، وربما وافقناها بسمن، وربما وافقناها باللَّبن، وربما وافقناها بالقدائد اليابسة قد دُقّت، ثم أُغلي بها، وربما وافقنا اللحم الغَرِيض[1]، وهو قليل.

فقال لنا يوماً: أيها القوم، إني والله لقد أرى تعذيركم وكراهيتكم لطعامي، وإني والله لو شئتُ لكنتُ أطيَبكم طعاماً، وأرفعكم عيشاً، أما والله ما أجهل عن كَرَاكِرَ[2] وأسْنِمَةٍ، وعن صِلاءٍ[3] وصِنَابٍ[4] وصَلائِقَ[5]؛ ولكن سمعتُ الله جل ثناؤه عيّر قوماً بأمرٍ فعلُوه فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

● ويزوره حفص بن أبي العاص، فيرى طعاماً خشناً غليظاً، فلم يشأ حفص أن يكبّد نفسه مشقة ازدراده، ولا أن يتعب معدته في هضمه، ويُدعى إلى الطعام

---

(١) هو اللحم الطَّريّ.
(٢) جمع كِرْكِرة، وهي صدر البعير.
(٣) هو الشِّواء.
(٤) هو الخردل المعمول بالزيت، وهو صِباغ يُؤتَدم به.
(٥) هو الخبز الرُّقاق، أو الحُمْلان المَشْويّة.

فيعتذر شاكراً، ويدرك عمر سرّ عزوفه عن الطعام، فيرفع إليه بصره ويقول له: (ما يمنعك من طعامنا؟) قال: إن طعامك جَشِبٌ غليظ، وإني راجع إلى طعام ليّن قد صنع لي، فأصبت منه. فقال عمر: أتراني أعْجِزُ أن آمُرَ بشاةٍ فيُلقى عنها شعرُها، وآمرَ بدَقيق فَيُنْخَلَ في خرقة، ثم آمُرَ به فيخبزَ خبزاً رُقاقاً، وآمرَ بصاع من زبيب فيُقْذَفَ في سُعْن[1]، ثم يُصَبّ عليه من الماء فيصبح كأنه دَمُ غزال؟!. فقال حفص: إني لأراك عالماً بطيّب العيش! ويجيب عمر: والذي نفسي بيده، لولا أن تنتقص حسناتي لشاركتكم في ليّن عيشكم.

ويستأنف فيقول: ولو شئت لكنت أطيبكم طعاماً، وأرفهكم عيشاً، ولَنَحْنُ أعلم بطيب الطعام من كثير من آكليه، ولكننا ندعه ليوم تَذْهَلُ فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حَمْلٍ حَمْلَها. وإني لأستبقي طيباتي، لأني سمعت الله تعالى يقول عن أقوام: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

● ولما قدم عليه ناس من أهل العراق فيهم جرير بن عبد الله، قام (فأتاهم بجَفْنة قد صنعت بخبز وزيت، فقال لهم: خذوا. فأخذوا أخذاً ضعيفاً، فقال لهم عمر: قد أرى ما تَقْرِمُون[2] فأي شيء تريدون؟ حلواً وحامضاً، وحاراً وبارداً؟ ثم قذفاً في البطون)؟!.

وكان شعاره في ذلك قوله: (نظرتُ في هذا الأمر، فجعلتُ إذا أردتُ الدنيا أضرُّ بالآخرة، وإذا أردت الآخرة أضر بالدنيا، فإذا كان الأمر هكذا، فأضروا بالفانية).

لقد عزله حياؤه من الله، وخوفه على آخرته، من كل ترف، وتأبى أن يأكل هو وأهله إلا تقوّتاً، وأن يعيش إلا كفافاً.

* * *

---

(١) قِرْبة تُقطع من نصفها ويُنْتَبَذُ فيها.

(٢) يقال: قَرَمَ الصغيرُ إذا أكل أكلاً ضعيفاً.

ولم يكن في ملبسه أرفه منه في عيشه، فقد لبس الخشن والغليظ، فكان لا يتميز عن الناس وهو أمير المؤمنين. يقول أنس بن مالك: (لقد رأيتُ بين كتفَيْ عمر أربع رقاعٍ في قميص له).

● ويروي أبو عثمان النهدي فيقول: (رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت، عليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة، إحداهن بأديم أحمر).

وكان يتحرى الحلال في ملبسه، وإذا تحدثنا عن الحلال في جانب الفاروق فلسنا نعني ما يقابل الحرام وحسب، بل نريد ما هو فوق الشبهات بمفاوز!! فما للسيئات وعمر! إذا كان الشيطان يفرّ من كل طريق يسلكه أمير المؤمنين؛ فأين مكان الاجتراحات والسيئات؟! وإذا كان يترفع عن الطيبات المباحة، فأنى للمحرمات أن تدنو من طريقه؟!.

● ولنصغ لهذا النبأ الباهر يرويه دهقان قرية مرّ بها عمر، فيقول: (مرّ بي عمر بن الخطاب، فألقى إليّ قميصه فقال: اغسل هذا بالأُشنان. فَعَمَدْتُ إلى قَطَرِيَّتَيْنِ، فقطعتُ من كل واحدة منهما قميصاً، ثم أتيته، فقلت: البَسْ هذا، فإنه أجمل وأَلْيَنُ. قال: أَمِنْ مالِكَ؟. قلت: من مالي. قال: هل خالطه شيء من الذِّمَّة؟. قلت: لا. إلا خياطه. قال: اعْزُبْ، هلمَّ إليَّ قميصي. قال: فلبسه وإنه لأخضر من الأشنان)!!.

● وأبطأ عمر جمعة بالصلاة، فخرج، فلما صعد المنبر، اعتذر إلى الناس فقال: (إنما حبسني قميصي هذا، لم يكن لي قميص غيره).

● ولما جاء الله بالخير، ففتحت البلاد وفاضت الكنوز، وأخرجت مخبوءها للمسلمين، ما غيّر ذلك من خلقه شيئاً، ولا امتاز عن آحاد المسلمين في مطعم ولا ملبس. فقد صعد المنبر ذات يوم، واستقبل الناس بصوته الجهوري فقال: اسمعوا يرحمكم الله. وينطلق صوت سلمان فيقول: والله لا نسمع، والله لا نسمع! . ويتلهف عمر قائلاً: ولم يا سلمان؟. ويجيب سلمان: ميّزت نفسك

علينا يا عمر، أعطيت كلاً منا بردة واحدة، وأخذت أنت بردتين!!. ويجيل عمر ناظريه في الناس ويقول: أين عبد الله بن عمر؟. فينهض عبد الله: هاأنذا يا أمير المؤمنين، فيسأله عمر على مشهد من الناس: مَنْ صاحب البردة الثانية؟. فيجيب عبد الله: أنا يا أمير المؤمنين.

ويتوجه الفاروق للناس عامة ولسلمان خاصة، فيقول:

إنني كما تعلمون رجل طُوَال، ولقد جاءت بردتي قصيرة، فأعطاني عبد الله بردته، فأطلت بها بردتي!!. وتتلألأ دمعات الغبطة والسرور في عيني سلمان، ويقول مع الحاضرين: الآن يا أمير المؤمنين، قل نسمع ونُطِع!!.

هل رأت عين التاريخ رجلاً كأبي حفص، أم هل سمعت أذن الزمان بسيرة كسيرة هذا الإمام الهمام، والخليفة الراشد، والحاكم الزاهد؟!.

هذا الرجل الفذّ الذي صحح مفاهيم الحياة، وأفرغ عليها نوراً من روحه، وكساها من عظمة سلوكه، فكان للناس مثلاً وللمتقين إماماً. هذا الرجل الذي عنده من الكمالات والميزات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا يكاد يخطر على قلب بشر!! ولقد سطر التاريخ منها الشيء اليسير بأحرف من نور، وتضوّع عبيرها في الآفاق، حتى علم بها البعيد والقريب، وأذعن لتفوّقها المفارق والموافق!!.

وهذا الخليفة الباهر، والحاكم العادل، الفذّ المتفرّد، لم يكن مَلَكاً ولا رسولاً يوحى إليه، وهو حجة الله على كل حاكم سيمثل بين يدي الله تعالى فيسأله: لِمَ لمْ تعدل؟ لِمَ لمْ تفرّج كربات المكروبين، وتتسمّع الآهات الحرّى، وجؤار الثكلى؟ الِمَ لمْ ترفع الظلم عن المظلومين، وتضرب على أيدي المتجبرين؟ لِمَ نمت شبعان ورعيتك جائعة، وصبيتك يتضاحكون، وأبناء الأيامى واليتامى يتباكون ويتضاغون؟!.

سيقول: يا رب عجزت! فيجيبه: لِمَ لمْ يعجز عمر؟! سيقول: ضعفت!. فيجيبه: لِمَ استطاع عمر؟!.

وما أروع قول حبر الأمة عبد الله بن عباس: (أكثروا ذكر عمر، فإنكم إذا ذكرتموه ذكرتم العدل، وإذا ذكرتم العدل؛ ذكرتم الله تبارك وتعالى)!!.

عام الرمادة:

وقد حمل عمر مسؤوليته على نمط فذّ في عام الرمادة، وأعطى حكام الدنيا بخاصة، والبشرية بعامة، درساً في الأمانة أيَّ درس، وقدوة في العدل أي قدوة، ومَثَلاً في السهر على أمور الناس أي مَثَل!! وكانت له آنئذٍ مواقف مترعة بالجلال والإكبار، تعالت على الوصف، وتناهت في الكمال.

وعمر لا ينظر للمسؤولية على أنها التزام ومساءلة أمام الناس أو التاريخ، بل هي المسؤولية أمام الحق الكبير المتعال، الذي يعلم خائنة الأعين، وما تُخفي الصدور؛ لذا طاقاته محتشدة متضافرة على نحو فريد أمام كل صغيرة وكبيرة.

فقد عمَّ أرضَ الحجاز قحطٌ ومَحْلٌ، فأصابَ الناس جهدٌ شديد، وأجدبت البلاد، وهلكت الماشية وجاع الناس، حتى كانوا يُرَوْنَ يَسْتَفُّون الرِّمّة[1]، ويحفرون نُفَقَ اليرابيع والجُرْذان يُخْرِجون ما فيها، وجعلت الوحوش تأوي إلى الإنس، لأنها لا تجد ما تأكله. واسودَّت الأرض من قلة المطر، حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد؛ فسمِّي ذلك العام عام الرمادة.

وقام عمر يعسّ بالمدينة ذات ليلة، فلم يجد أحداً يضحك، ولا يتحدث الناس في منازلهم على العادة، ولم ير سائلاً يسأل!!. فسأل عن سبب ذلك؟ فقيل له: يا أمير المؤمنين، إن السؤّال سألوا فلم يُعْطَوا، فقطعوا السؤال، والناس في همٍّ وضيق، فهم لا يتحدثون ولا يضحكون!.

فاغتمَّ عمر لذلك غمّاً شديداً، وكان يجأر إلى الله بالدعاء في الليل حتى يرفع البلاء. ويروي ابن عمر موقفاً من ذلك فيقول: (كان عمر بن الخطاب

---

(١) العظام البالية.

أَحْدَثَ في زمان الرمادة أمراً ما كان يفعله، لقد كان يصلي بالناس العشاءَ، ثم يخرج حتى يدخل بيته، فلا يزال يصلي حتى يكون آخر الليل، ثم يخرج فيأتي الأنقاب فيطوف عليها، وإني لأسمعه ليلة في السحر وهو يقول: اللهم لا تجعل هلاكَ أمة محمد على يَدَيَّ).

وكان يصلي في جوف الليل في مسجد رسول الله ﷺ، ويدعو الله ويقول: اللهمَّ لا تهلكنا بالسِّنين[1]، وارفع عنا البلاء. يرددها مراراً.

* * *

وقام عمر فكتب إلى عمّاله في الأمصار الإسلامية، يأمرهم أن يبعثوا إليه من الطعام والكساء ما يصلح الناس في أرض الحجاز قلب الدولة الإسلامية.

فكتب إلى عمرو بن العاص بمصر، وإلى معاوية بن أبي سفيان بالشام، وإلى سعد بن أبي وقاص في العراق.

كتب إلى عمرو بن العاص ما نصّه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عُمَرَ إلى العاصي بن العاصي!! سلام عليك، أما بعد: أَفَتَراني هالكاً ومَنْ قِبَلي وتعيش أنت ومن قِبَلك؟! فيا غوثاه، يا غوثاه، يا غوثاه)!!.

فكتب إليه عمرو بن العاص: (بسم الله الرحمن الرحيم، لعبدِ الله عُمَرَ أمير المؤمنين، من عَمْرو بن العاص، سلام عليك فإني أَحْمَدُ إليكَ الله الذي لا إلـه إلا هو، أما بعد: فقد أتاك الغَوْث، فلبِّث لبِّث، لأبعثَنَّ إليك بعيرٍ أولها عندك وآخرها عندي)!.

وجاء الطعام، فأمر عمر واحداً من صحابة رسول الله ﷺ أن يأخذ ما على العير إلى أهل البادية، فيقسمها بينهم، وقال له: (أما ما لقيت من الطعام فمِلْ به

---

(١) أي القحط.

إلى أهل البادية، فأما الظروف[1] فاجعلها لُحُفاً يلبسونها، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها، ويحملون من وَدَكها، ولاتنتظر أن يقولوا: ننتظر بها الحَيَا[2]، وأما الدقيق فيصطنعون، ويحرزون، حتى يأتي أمر الله بالفرَج.

وكان عمر ينحر كل يوم على مائدته عشرين جَزُوراً من الجُزُر التي بعث بها عمرو بن العاص، فيصنع الطعام، وينادي مناديه: من أحب أن يحضر طعاماً فيأكل فليفعل، ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله فليأتِ فليأخذه.

وبعث إليه عمرو في البر والبحر: بعث إليه في البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق والوَدَكَ، وبعث إليه في البر بألف بعير تحمل الدقيق، وبعث إليه بخمسة آلاف كساء. وبعث إليه معاوية بثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق، وبعث إليه بثلاثة آلاف عباءَة. وبعث إليه والي الكوفة بألفي بعير تحمل الدقيق.

وأرسل عمر إلى أطراف بلاد الحجاز، فتلقوا المدد وعدلوا به يميناً وشمالاً في أفواه العراق وأفواه الشام، فجعلوا ينحرون الجُزُر، ويطعمون الناس الدقيق، ويكسونهم العباء، حتى رفع الله ذلك عن المسلمين.

* * *

ورحلت جماعات الأعراب من كل ناحية حتى قدموا المدينة المنورة؛ طمعاً في لقيمات تسدُّ جوعتهم، فأمر عمر رجالاً ـ كعبد الله بن عتبة بن مسعود والمِسْوَر بن مَخْرمة، وعبد الرحمن بن عبد القاريّ ـ يقومون عليهم، ويقسمون أطعمتهم وإدامهم، وكان كل رجل منهم على ناحية من المدينة. وقد أحصوا من تعشى عند أمير المؤمنين ـ ذات ليلة ـ فوجدوهم سبعة آلاف رجل، وأحصوا العيالات الذين لا يأتون والصبيان؛ فبلغوا أربعين ألفاً، كان يرسل إليهم بالدقيق والتمر والأدم، فيصلهم حيث هم.

---

(١) هي الأوعية.

(٢) أي: الخِصْب.

ولم يجلس عمر في بيته، ويرى أن عماله قد كفوه مؤنة توزيع الطعام والكساء على الناس، بل قام يطعم الناس بنفسه، يحدث أبو هريرة فيقول: (يرحم الله ابن حَنْتَمة[1]، لقد رأيته عام الرمادة، وإنه ليحمل على ظهره جرابين، وعُكَّة زيت في يديه، وإنه ليعتقب هو وأسلم، فلما رآني قال: من أين يا أبا هريرة؟ قلت: قريباً. قال: فأخذت أعقبه، فحملناه حتى انتهينا إلى (صِرار)، فإذا صِرْمٌ[2] نحو من عشرين بيتاً من (محارب) فقال عمر: ما أَقْدَمَكُمْ؟ قالوا: الجهد. قال: فأخرجوا لنا جلد الميتة مشوياً، كانوا يأكلونه، ورمّة العظام مسحوقة كانوا يَسُفّونها!! فرأيت عمر طرح رداءَه، ثم اتَّـزَرَ، فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا. وأرسل أسلمَ إلى المدينة فجاءه بأبعرة، فحملهم عليها، حتى أنزلهم الجبّانة، ثم كساهم، وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم، حتى رفع الله ذلك).

وكان رضي الله عنه يقول: (لو لم أجد للناس من المال ما يسعهم إلا أن أُدْخِلَ على كل أهل بيت عدّتهم، فيقاسمونهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بحيا؛ فَعلتُ، فإنهم لن يَهلكوا عن أنصاف بطونهم).

* * *

ولقد كان عمر رضي الله عنه في تلك الشهور العجاف يعيش كآحاد الناس، ويرى أن الله سبحانه قد حمله مزيداً من التبعات، حين استخلفه على الناس، وولاّه أمرهم، ولم يؤثره بالحكم ليتسلط على رقابهم، ويجعل مال الأمة له كلأً مباحاً، فكان أول من يجوع إذا جاعت رعيته، وآخر من يشبع إذا شبعوا.

يحدّث مولاه أسلم فيقول: (كان عمر يصوم الدهر، فكان زمان الرمادة إذا أمسى أُتي بخبز قد ثُرد بالزيت، إلى أن نحروا يوماً من الأيام جزوراً، فأطعمها

(١) يريد أمير المؤمنين عمر، وحنتمة أمه.
(٢) هي الجماعة المنعزلة.

الناس، وغرفوا له طيِّبها، فأُتي به، فإذا فِدَرٌ[1] من سَنامٍ ومن كَبِد. فقال: أنّى هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، من الجَزور التي نحرنا اليوم. قال: بَخٍ بَخٍ، بئس الوالي أنا إن أكلت طيِّبها، وأطعمت الناس كراديسها[2]، ارفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام. فأُتي بخبز وزيت، فجعل يكسر بيده، ويَثْرُدُ ذلك الخبز.

ثم قال: ويحك يا يَرْفَأ، احمِلْ هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت (بِثَمْغ)[3]، فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مقفرين، فضَعْها بين أيديهم)!!.

يا لعظمة روحك، وبهاء عقلك، وسموّ عدالتك يا أمير المؤمنين!! هذا خليفة هو أرأف برعيته من الأم بولدها، فهكذا فليكن الحكم، ولمثل أبي حفص تكون البيعة والسمع والطاعة، (بئس الوالي أنا إن أكلت طيِّبها، وأطعمت الناس كراديسها)!! أي عظمة، وأي شموخ، وأي كمال ناله هذا الإمام الشاهق الفريد؟!.

ويؤتى ذات يوم من أيام عام الرمادة بخبز ملتوت بسمن (فدعا رجلاً بَدَويّاً، فجعل يأكل معه، فجعل البدويّ يتبع باللقمة الوَدَك في جانب الصحفة!. فقال عمر: كأنك مُقْفِر من الوَدَك؟. فقال: أجل، ما أكلت سمناً ولا زيتاً، ولا رأيت آكلاً له منذ كذا وكذا إلى اليوم!. فَحَلَفَ عمر لا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يحيا الناس أول ما أحيوا).

وهذا أنس يحدثنا فيقول: (تَقَرْقَرَ بطنُ عمر بن الخطاب، وكان يأكل الزيت عامَ الرمادة، وكان حرَّم عليه السمن، فَنَقَر بطنه بإصبعه وقال: تَقَرْقَرْ تقرقرك، إنه ليس لك عندنا غيره، حتى يحيا الناس).

ويخاطب بطنه ويقول: (لتمرنن أيها البطن على الزيت ما دام السمن يباع بالأواقي).

---

(١) جمع فِدْرَة، وهي القطعة من اللحم.
(٢) هي رؤوس العظام.
(٣) موضع تلقاء المدينة.

وبلغ به الأمر أنه كان يأكل رديء التمر، ويمتنع من أكل الدقيق المنخول، حتى لا يتميز عن فقراء الناس، فيُسأل يومِ القيامة عن حالهم، يقول أنس: (رأيتُ عمر بن الخطاب ـ وهو يومئذٍ أمير المؤمنين ـ يُطرح عليه من صاع من تمر فيأكلها، حتى يأكل حَشَفَها)[1].

ويقول يسار بن نُمير[2]: (والله ما نخلتُ لعمر الدقيقَ قطّ إلا وأنا له عاصٍ).

* * *

وقد حمل عمر أهل بيته على أن يشاركوا الناس في شظف عيشهم، ومنعهم من التميّز عليهم، يقول أسلم: (حرَّمَ عمر على نفسه اللحم عام الرمادة حتى يأكله الناس، فكان لعبيد الله بن عمر بَهْمَة، فجُعِلت في التنّور، فخرج على عمر ريحها، فقال: ما أظن أحداً من أهلي اجترأ عليَّ ـ وهو في نفر من أصحابه ـ! فقال: اذهب فانظر. فوجدتها في التنور، فقال عبيد الله: استرُني سَتَرَكَ الله! فقال: قد عرف حين أرسلني أن لن أكذبه، فاستخرجها، ثم جاء بها، فوضعها بين يديه، واعتذر إليه أن تكون كانت بعلمه! وقال عبيد الله: إنما كانت لابني، اشتريتُها، فقَرِمْتُ إلى اللحم).

وذات يوم نظر إلى بطّيخة في يد بعض ولده، فقال: (بخٍ بخٍ يا ابن أمير المؤمنين، تأكلُ الفاكهة وأمة محمد هَزْلى؟! فخرج الصبي هارباً، وبكى، فأَسكت عمر بعدما سأل عن ذلك، فقالوا: اشتراها بكفٍّ من نوىً)!!.

* * *

وصبر عمرُ نفسَه مع المسلمين على شدة البلاء، ووطأة الجدب والقحط، حتى أذِن الله بالفرج، وأقبل بلال بن الحارث المُزني، فاستأذن على عمر فقال: أنا رسول رسول الله ﷺ إليك)!. وبلهفة شديدة يقول عمر: وما ذاك؟ قال بلال:

---

(١) الحَشَفُ من التمر: أردؤه.

(٢) هو مولى عمر.

(رأيت رسول الله ﷺ في المنام يقول: أبشرْ بالحياة ايتِ عمر فأقرِه مني السلام وقل له: إن عهدي بك وفيّ العهد، شديد العقد، فالكَيْسَ الكَيْسَ[1] يا عمر).

ففزع عمر لذلك، فخرج فنادى في الناس الصلاة جامعة، فصلى بهم ركعتين، ثم قام فقال: (أنشدكم الله الذي هداكم للإسلام، هل رأيتم مني شيئاً تكرهونه؟. فقالوا: اللهم لا، وعمَّ ذلك؟. قال: إن بلال بن الحارث يزعم ذَيْتَ وذَيْتَ[2]!. فقالوا: صدق بلال، إنما استبطأك في الاستسقاء، فاستسقِ بنا).

فأسرع عمر إلى ذلك، فقام فخطب الناس ونصحهم، وحثَّهم على التقوى والإخبات والإخلاص في الدعاء، وكان فيما قال:

(أيها الناس اتقوا الله في أنفسكم، وفيما غاب عن الناس من أمركم، فقد ابتُليتُ بكم وابتُليتم بي، فما أدري السُّخْطة عليَّ دونكم، أو عليكم دوني، أوْ قد عمَّتني وعمَّتكم! فهلمّوا فلنَدْعُ الله يُصْلِحْ قلوبنا، وأن يرحمنا، وأن يرفع عنا المحل). فرُئي عمر يومئذٍ رافعاً يديه يدعو الله، ودعا الناسُ، وبكى وبكى الناس ملياً، ثم نزل.

وأجمع عمر على أن يستسقي ويخرج بالناس، و(كتب إلى عماله أن يخرجوا يومَ كذا وكذا، وأن يتضرعوا إلى ربهم، ويطلبوا إليه أن يرفع هذا المحل عنهم، وخرج لذلك اليوم عليه بُرْدُ رسول الله ﷺ، حتى انتهى إلى المصلى، فخطب الناس، وتضرّع، وجعل الناسُ يُلِحّون، فما كان أكثر دعائه إلا الاستغفار، حتى إذا قرب أن ينصرف رفع يديه مدّاً، وحوّل رداءه، وجعل اليمين على اليسار، ثم اليسار على اليمين، ثم مدّ يديه، وجعل يُلحّ في الدعاء، وبكى عمر بكاءً طويلاً حتى أخضَلَ لحيته).

وأخذ عمر بيد العباس بن عبد المطلب وقال: اللهم إنا نتشفّع إليك بعمِّ

---

(١) هو الظَّرف والعقل.

(٢) هي مثل كَيْتَ وكَيْتَ، وهو من ألفاظ الكِنايات.

نبيِّك أن تُذْهِبَ عن المحل، وأن تَسْقِينَا الغيث. وجثا لركبتيه وقال: (اللهم إياك نعبد، وإياك نستعين، اللهم اغفر لنا وارحمنا وارضَ عنا). ثم انصرف.

وكان مما دعاه: (اللهم عجزت عنا أنصارنا، وعجز عنا حولنا وقوّتنا، وعجزت عنا أنفسنا ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم اسقنا، وأحي العباد والبلاد).

فما بلغوا المنازل راجعين حتى خاضوا الغُدْران، وأطبقت السماء عليهم أياماً.

وقدم أعراب فقالوا: (يا أمير المؤمنين، بينا نحن في وادينا في ساعة كذا، إذ أظلتنا غمامة، فسمعنا منها صوتاً: أتاك الغوث أبا حفص، أتاك الغوث أبا حفص).

وتَقَضَّتْ تسعة أشهر من الجدب والضيق والضنك، عاشها المسلمون في عاصمة دولة الإسلام وما حولها، وأحيى الله الناس، فأمر عمرُ الأعراب الذين قدموا المدينة أن يخرجوا إلى البادية، وقال لهم: (اخرجوا من القرية إلى ما كنتم اعتدتم من البرية). وكان يخرجهم هو بنفسه، ويحمل الضعيف منهم حتى لحقوا ببلادهم، وأعطاهم قوتاً وحُمْلاناً.

الفتوحات:

هذا الرجل الذي كان من أعظم ميزاته ـ وكله ميزات ومفاخر ـ جهره بالحق ولو كان مرّاً؛ ما كان ليقبل أن تبقى دعوة الهدى والخير رابضة في المدينة المنورة، أو محصورة في محيط الجزيرة العربية، بل أراد أن يجلجل التكبير في كل أرض أضاءتها الشمس، ومادامت الأرضون تستفيء بالضياء الذي خلقه الله، فلِمَ لا يصلها نور الوحي، الذي أنزله الله على قلب رسوله محمد ﷺ؟!.

لذا نجد عمر يتمم الدور العظيم الذي خطَّت بداياته يدا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وبَعْثِ أسامة، وسار فيه أبو بكر الصديق ما كتب الله له، ثم لحق بالنبي ﷺ، وجاء الفاروق ليكمل ما تطلّع إليه الصدّيق.

● جاءه رجل فقال: (يا أمير المؤمنين، احملني فإني أريد الجهاد. فقال عمر رضي الله عنه لرجل: خذ بيده، فأدخله بيت المال يأخذ ما يشاء. فدخل فإذا بيضاء وصفراء. فقال: ما هذا؟ ما لي في هذا من حاجة، إنما أردت زاداً وراحلة! فردُّوه إلى عمر، فأخبروه بما قال: فأمر له بزاد وراحلة، وجعل عمر يُرَحِّل[1] له بيده. فلما ركب، رفع يده، فحمد الله، وأثنى عليه بما صنع به وأعطاه، وعمر يمشي خلفه، يتمنى أن يدعو له، فلما فرغ قال: اللهم، وعمر فاجْزِه خيراً).

● فكان يحثّ الناس على الجهاد والغزو، ويبيّن لهم فضائل ذلك، ويذكِّرهم بأحاديث رسول الله ﷺ. قال يوماً لجلسائه: (أي الناس أعظم أجراً؟ فجعلوا يذكرون له الصوم والصلاة، ويقولون: فلان وفلان بعد أمير المؤمنين. فقال: ألا أخبركم بأعظم الناس أجراً ممن ذكرتم ومن أمير المؤمنين؟قالوا: بلى. قال: رُويجل بالشام، آخذ بلجام فرسه، يكلأ مِنْ وراء بيضة المسلمين[2]، لا يدري أسبع يفترسه، أم هامَّة تلدغه، أو عدوّ يغشاه؛ فذلك أعظم أجراً ممن ذكرتم ومن أمير المؤمنين).

● وبعث ذات مرة جيشاً وفيهم معاذ بن جبل رضي الله عنه، فلما ساروا؛ رأى معاذاً، فقال: (ما حبسك؟ قال: أردت أن أصلّي الجمعة، ثم أخرج. فقال عمر: أما سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «الغَدْوَة والرَّوْحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»).

● وقام رضي الله عنه فجيّش الجيوش، وعقد الألوية، فشرّقت وغرّبت، وكثرت في عهده الفتوحات، ورفرفت راية التوحيد خفّاقةً في مشارق الأرض ومغاربها، وتحققت نبوءة عظيمة لرسول الله ﷺ إذ يقول:

---

(١) أي: يضع الرَّحْل على الدابة.
(٢) أي: مركز الإسلام، والمراد المدينة المنورة.

«بينا أنا نائم رأيتُني على قَلِيب[1]، فنزعتُ ما شاء الله أن أنزعَ، ثم أخذها ابن أبي قحافة، فنزع ذَنُوباً أو ذَنُوبين[2]، وفي نزعه ضَعْفٌ[3]، والله يغفر له، ثم أخذها عمر، فاستحالَتْ غرْباً[4]، فلم أرَ عبقرياً من الناس يَفْرِي فَرِيَّهُ[5]، حتى ضرب الناس حوله بِعَطَنٍ[6]».

وقد ذلَّ لوطأته ملوك فارس والروم وعتاة العرب، ففتح الفتوح، ووضع الخَراج، ومصَّرَ الأمصار[7]، واستقضى القضاة، ودوَّن الدواوين، وفرض الأعطيات.

ففتح الشام كله، والجزيرة، والموصل، وميَّافارقين، وآمِد، وأرمينية، ومصر، وإسكندرية، ومات وعساكره على بلاد الري.

* * *

ولقد كان الصديق رضي الله عنه سيّر الجيوش إلى الشام لفتحها، ثم بعث إلى العراق يأمر خالد بن الوليد أن يأتي مدداً لجند الشام، ويكون أميراً على من به.

وعبّأ خالد الجيوش، وأشار على الأمراء أن يتعاوروا الإمارة، وكانت نوبته

---

(١) هي البئر بعدما حفرت، وقبل أن تبنى جدرانها.
(٢) الذَّنوب: الدلو المملوءة، وهو شك من الراوي، والمراد ذنوبان، وهو إشارة لمدة خلافة الصدّيق، التي كانت سنتين وأشهراً.
(٣) هذا إخبار عن قِصَر مدة خلافته.
(٤) استحالت: تحولت من الصغَر إلى الكِبَر. غرباً: هو الدلو الكبير، يُسقى به البعير، وهو أكبر من الذَّنوب.
(٥) أي: لم أر سيداً يعمل عملاً مصلحاً وجيداً مثله.
(٦) أي أرووا إبلهم، ثم آووها إلى عطنها، وهو الموضع الذي تُساق إليه بعد السقي لتستريح. قال العلماء: هذا المنام مثال لأيام خلافتهما، وأن أبا بكر رضي الله عنه قصُرَتْ مدة خلافته، ولم يفرغ من قتال أهل الردة لافتتاح الأمصار، وأن عمر رضي الله عنه طالت مدته، حتى تيسَّرت له الفتوح، واتسع الإسلام في زمنه، وتقرر لهم من أحكامه ما لم يقع مثله.
(٧) أي: بناها.

في اليوم الأول، وبينما هم في جولة الحرب، وحومة الوغى، والأبطال يتصاولون من كل جانب؛ إذ جاء الخبر بموت أبي بكر، واستخلاف عمر.

فعزل عمر خالداً عن إمرة الجيوش، واستناب أبا عبيدة بن الجراح، ولم يعزل الفاروقُ سيفَ الله المسلول عن عجز أو خيانة، إنما خاف أن يفتتن الناس به، إذ ما كان يخوض حرباً إلا والظفر حليفه لا يريم عنه.

وكان عمر يقـول في ذلك: (لأعزلنّ خالد بـن الوليد والمثنى ـ مثنـى بني شيبان ـ حتى يعلما أن الله إنما كان ينصر عباده، وليس إيّاهما كان ينصر).

ولما بلغه ما فعله خالد في (وقعة قنسرين)، قال عمر: (يرحم الله أبا بكر، كانَ أعلمَ بالرجال مني، والله إني لم أعزله عن ريبة، ولكن خشيت أن يوكل الناس إليه).

واستمرت جيوش المسلمين تقاتل في (اليرموك) حتى فتح الله عليهم، وأنزل نصره، وجاءت البشارة إلى عمر، وحُمل الخمس إليه، فكتب إلى أبي عبيدة ـ بعد أن ولاّه وعزل خالداً ـ يقول:

(أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه، الذي هدانا من الضلالة، وأخرجنا من الظلمات إلى النور. وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحقّ عليك، لا تقدِّم المسلمين إلى هَلَكَة رجاءَ غنيمة، ولا تُنزلهم منزلاً قبل أن تَسْتَرِيدَهُ[1] لهم، وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلا في كَثْفٍ[2] من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة، وقد أبلاك الله بي، وأبلاني بك، فغضَّ بصرك عن الدنيا، والْهِ قلبك عنها، وإياك أن تهلكك كما أهلكتْ مَنْ كان قبلك، فقد رأيتَ مصارعهم). وأمرهم بالمسير إلى دمشق.

وكان عمر رضي الله عنه يوجه الأمراء، ويرسم لهم الخطط، ويشير عليهم

---

(١) أي: تبعث رائداً يرود المكان ويتعرف عليه.
(٢) أي: جماعة.

بآرائه الملهمة، ونظرته المسدَّدة، وبصيرته النافذة وعبقريته الفذة، فما إن سار أبو عبيدة إلى دمشق لحصارها؛ إذ أتاه الخبر بأن الروم قد تجمعوا في طائفة كبيرة بـ(فِحْل) من أرض فلسطين، فكتب إلى الخليفة يستأمره في ذلك، فجاءه الجواب:

(أن ابدأ بدمشق فإنها حصن الشام، وبيت مملكتهم، فانْهَدْ لها، واشغلوا عنكم أهل فِحْل بخيول تكون تلقاءهم، فإن فتحها الله قبل دمشق، فذلك الذي نحبّ، وإن فُتحت دمشق قبلها، فسِرْ أنت ومن معك، واستخلف على دمشق، فإذا فتح الله عليكم فحل، فسِرْ أنت وخالد إلى حمص، واترك عَمْراً وشرحبيل على الأردن وفلسطين).

وفي (حمص) عزم الروم على حصار أبي عبيدة، فأحاطوا به، فبعث أبو عبيدة إلى خالد، فقدم عليه، وكتب إلى عمر بذلك، فأسرع الخليفة، وكتب إلى سعد أن يندب الناس مع القعقاع بن عمرو، ويسيرهم إلى حمص نجدة لأبي عبيدة فإنه محصور. فأسرع القعقاع بأربعة آلاف لنجدة أبي عبيدة.

ولم يهدأ بال عمر، وما اكتفى بذلك، بل خرج بنفسه لينصر أبا عبيدة، حتى بلغ (سَرْغ)، وقام أبو عبيدة فناجز الروم، فنصره الله عليهم، وهزمت الروم هزيمة منكرة، وذلك قبل ورود عمر ومجيء الأمداد بثلاث ليال. وكتب أبو عبيدة إلى عمر، يخبره بالفتح، فحمد الله تعالى، وعاد إلى المدينة المنورة.

وسارت كتائب المسلمين تنشر نور الرسالة، وتستأصل كل من يقف في وجه الدعوة من الطواغيت، الذين يحولون دون وصول الحق للناس، دونما إكراه لأحد على الإسلام. وفتحوا مدن الشام: دمشق، وحمص، وفحل، وتدمر، وبيروت، والبقاع، وحوران، وفتحوا الأردن، وفلسطين، وعسقلان، وغزة، والسواحل، وغيرها، وانضمت جميعها إلى الدولة الإسلامية.

* * *

وما إن فرغ أبو عبيدة من فتح دمشق حتى كتب إلى أهل القدس يدعوهم

إلى الله وإلى الإسلام، أو الجزية، أو الحرب. فأبوا ذلك، فحاصرهم، وضيّق عليهم، حتى أجابوا إلى الصلح، واشترطوا أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فكتب إليه أبو عبيدة بذلك.

ووصل الكتاب إلى عمر، فاستشار الناس: فأشار عثمان بن عفان بألا يركب إليهم، ليكون أحقر لهم، وأرغم لأنوفهم. وأشار علي بن أبي طالب بالمسير إليهم، ليكون أخفَّ وطأة على المسلمين في حصارهم. فهوي ما قال عليٌّ، ولم يهوَ ما قال عثمان.

وقدم عمر على جمل أورق[1]، تلوح صلعته للشمس، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة، تصطَفِق رجلاه بين شعبتي الرَّحْل بلا رِكاب، وِطاؤه كساء أنْبجاني ذو صوفٍ؛ هو وِطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيبته شملة محشوة ليفاً: هي حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل، وعليه قميص من كرابيس[2] قد رُسِّمَ[3] وتخرّق جنبه.

فلما وصل الشام تلقاه أبو عبيدة ورؤوس الأمراء كخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان، وطلبوا إليه أن يغيّر مركبه، فأُتي بِبِرْذَون[4]، فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رَحْل، فلما سار جعل البرذون يهملج به، فقال لمَن معه: (احبسوا! ما كنت أظن الناس يركبون الشياطين، هاتوا جملي، ثم نزل، وركب الجمل)، ثم لم يركب برذوناً قبله ولا بعده!!.

وبينا هو في الطريق إذ عرضت له مخاضة[5]، فنزل عن ناقته، وخلع خفَّيه، فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته، فخاض بها المخاضة.

فقال أبو عبيدة: (يا أمير المؤمنين، أأنت تفعل هذا؟تخلع خفَّيك، وتضعهما

---

(١) أي: أسمر.
(٢) جمع كِرْبَاس: وهو الثوب المصنوع من القطن الأبيض.
(٣) أي: رُسمت فيه خطوط خفية.
(٤) البِرْذون: هو التركي من الخيل.
(٥) هي موضع الخوض في الماء.

على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك، وتَخوض بها المخاضة؟! ما يسرّني أن أهل البلد استشرفوك)[1]!.

فقال عمر: (أوّه!! لو يقول ذا غيُرك أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ، إنا كنا أذلَّ قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزنا الله به أذلّنا الله)!!.

ثم سار حتى وصل القدس، فصالح نصارى بيت المقدس، واشترط عليهم إجلاء الروم. ودخل المسجد من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء. وصلّى تحية المسجد بمحراب داود عليه السلام، وصلّى بالمسلمين فيه صلاة الفجر من الغد، فقرأ في الركعة الأولى بسورة (صّ) وسجد فيها، وسجد المسلمون معه، وفي الثانية بسورة (الإسراء). ثم نقل التراب عن (الصخرة) في طرف ردائه، ونقل المسلمون معه.

هذه هي العزّة الإسلامية التي نادى بها أمير المؤمنين عمر، ليست بالرّكوب الفاخر، ولا بالثياب الجميلة؛ بل هي عزة الإسلام، التي امتنّ الله بها علينا. وهذا الاعتزاز قد تمثّل على نحو باهر بأوّل عمل قام به عمر، وهو الدخول من الباب الذي دخله رسول الله ﷺ، ليتحقق القصد من (معجزة الإسراء) وهي أنّ هذا المسجد من مقدسات المسلمين، وأن الإسلام مهيمن على كل الديانات. ثم صلاته بالمسلمين والسجود شكراً لله تعالى، وبعد ذلك تنظيف الصخرة برداء الخلافة لا بأي شيء سواه!!.

* * *

واستهلت سنة أربع عشرة للهجرة وعمر يحثّ الناس، ويحرّضهم على جهاد أهل العراق؛ وذلك لِما بلغه من قتل أبي عبيد (يوم الجسر)، وانتظام شمل

---

(١) أي: نظروا إليك.

الفرس، واجتماع أمرهم على (يزدجرد)، ونقض أهل الذمة بالعراق عهودهم، ونبذهم المواثيق التي كانت عليهم، وأنهم آذوا المسلمين، وأخرجوا العمال من بين أظهرهم.

فركب عمر رضي الله عنه في أول المحرم من هذه السنة في الجيوش من المدينة، فنزل على ماء يقال له (صِرَار)، فعسكر به عازماً على غزو العراق بنفسه، واستخلف على المدينة عليّ بن أبي طالب، واستصحب معه عثمان بن عفان وسادات الصحابة.

وعقد عمر مجلساً لاستشارة الصحابة فيما عزم عليه ونادى: الصلاة جامعة، وأرسل وراء عليٍّ فقدم، واستشارهم، فكلهم وافقوه إلا عبد الرحمن بن عوف قال: (إني أخشى إن كُسرت أن يضعف المسلمون في سائر أقطار الأرض، وإني أرى أن تبعث رجلاً وترجع أنت إلى المدينة). فجنح عمر لهذا الرأي واستصوبه.

ولَنِعْمَ الرأي كان من ابن عوف، فإن الخليفة يجب أن يبقى في مركز الدولة الإسلامية، يوجه البعوث، ويخطط للمعارك، وينصح الأمراء، ويقضي بين الناس، ويقوم على حاجات النساء والأطفال، الذين خرج ذووهم إلى الجهاد، ثم هو بعد ذلك يتلقى الكتب من الثغور، ويوجه الأمداد إلى حيث تدعو الحاجة.

قال عمر لعبد الرحمن بن عوف: (فمن ترى أن نبعث على العراق؟. فقال: قد وجدته. قال: ومن هو؟. قال: الأسد في بَرَاثِنه[1]، سعد بن مالك الزهري)!. فاستجاد عمر هذا الاختيار، وأرسل إلى سعد بن أبي وقاص، فأمّره على العراق، وأوصاه فقال:

(يا سعدُ سعد بني وُهَيْب، لا يغرّنَّك من الله أن قيل: خال رسول الله ﷺ وصاحبه، فإن الله لا يمحو السيِّئ بالسيِّئ، ولكن يمحو السيِّئ بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء،

---

(١) جمع بُرْثُن: وهو مِخْلَب الأسد.

الله ربُّهم، وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيتَ رسول الله ﷺ منذ بُعث إلى أن فارقنا عليه؛ فالزمه، فإنه الأمر. هذه عظتي إياك، إن تركتَها ورغبتَ عنها حَبِط عملك، وكنت من الخاسرين).

ولما أراد فراقه قال له: (إنك ستقدم على أمر شديد، فالصبرَ الصبرَ على ما أصابك ونابك، تجمع لك خشية الله.

واعلم أن خشية الله تجتمع في أمرين: في طاعته واجتناب معصيته. وإنما طاعة من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة، وإنما عصيان من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة).

* * *

وسار سعد في جيش عرمرم من المسلمين إلى العراق، ورجع عمر بمن معه من المسلمين إلى المدينة. وانضم إلى سعد مَنْ هناك من الجيوش، ولم يبق بالعراق أمير من سادات العرب إلا تحت إمرته.

وأمر عمر سعداً بالمبادرة إلى القادسية، فإنها باب بلاد فارس في الجاهلية، وأمدّه بأمداد، حتى اجتمع لسعد فيها نحو من ستة وثلاثين ألفاً، فيهم ثلاثمئة وبضعة عشر صحابياً، منهم بضعة وسبعون بدرياً، وفيهم سبعمئة من أبناء الصحابة.

وكتب إليه عمر يشير عليه بتنظيم الجيش، وكيف يقاتل عدوه، ومتى، وأمره بمحاسبة نفسه، وموعظة جيشه، وأمرهم بالنية الحسنة والصبر؛ فإن النصر يأتي من الله على قدر النية، والأجر على قدر الحسبة، وسلوا الله العافية، وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله.

(واكتب إليَّ بجميع أحوالكم وتفاصيلها، وكيف تنزلون، وأين يكون منكم عدوكم، واجعلني بكتبك كأني أنظر إليكم، واجعلني من أمركم علي الجليّةِ، وخفِ الله وارجه، ولا تدلّ بشيء، واعلم أن الله قد توكّل لهذا الأمر بما لا خلف له، فاحذر أن يصرفه عنك، ويستبدل بكم غيركم).

يـا لروعة هذا الخليفـة المؤيـد بنصر الله، ويا لزكانة نفسـه، وطهارة روحـه، وعبقرية بصيرتـه، وبصارة عبقريتـه!! أي توجيه، وأي تخطيط، وأية مواعظ هذه التي تضوَّعت من جنبات هذا الرجل المُحدَّث المُلْهَم! .

إنه الذي يخاف على جَدْي يهلك على شط الفرات، أو بعير يضلّ فيموت هناك، فيسأله الله عنه، أفلا يرهب من إرسال الآلاف من المؤمنين للجهاد وفتح البلاد، الذين قد تعترضهم مهالك، فيقف عمر بين يدي الله يسأله عنهم؟! .

لأجل هذا كان يقول لسعد ـ ولغيره ـ: (واجعلني بكتبـك إليَّ كأني أنظر إليكم) .

وجاء كتـاب سعد يبيّن له حالهم وحال عدوهم، فيقف عمر على الأمـر واضحاً جلياً، ويكتب إلى سعد:

(قد جاءني كتابك وفهمتُه، فإذا لقيتَ عدوك ومنحك الله أدبارهم، فإنه ألقي في روعي أنكم ستهزمونهم، فلا تشـكنَّ في ذلك، فإذا هزمتهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن، فإنه خرابها إن شاء الله تعالى) .

وجعل عمر يدعو لسعد خاصة وللمسلمين عامة .

ونزل سعد (القادسية)، وتواجه جيش المسلمين مع جيش الفرس، وكانت وقعة القادسية وقعة عظيمة، لم يكن بالعراق أعجب منها، وقام سعد فخطب الناس، وحثّهم، ووعظهم، وتلا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقرأ القرّاء آيات الجهاد وسُوَره، واقتتلوا قتالاً شديداً، وهبت رياح النصر على المسلمين، وهزم الله الفرس، وركب المسلمون أكتافهم، وغنموا من الأموال والسلاح ما لا يحدّ ولا يوصف كثرةً .

وكان عمر يستخبر عن أمر القادسية كلَّ من لقيه من الركبان، ويخرج من المدينة إلى ناحية العراق يتنسَّم الأخبار. ولنقرأ معاً هذا الخبر المعجب المفرح:

بينما هو ذات يوم من الأيام يستبرئ الخبر، (إذا هو براكب يلوح من بُعد، فاستقبله عمر فاستخبره، فقال: فتح الله على المسلمين بالقادسية، وغنموا غنائم كثيرة، وجعل يحدثه، وهو لا يعرف عمر، وعمر ماشٍ تحت راحلته! فلما اقتربا من المدينة جعل الناس يحيّون عمر بالإمارة، فعرف الرجلُ عمر فقال: يرحمك الله يا أمير المؤمنين، هلاّ أعلمتني أنك الخليفة؟ فقال: لا حرج عليك يا أخي)!.

هل يحتاج هذا الموقف الباهر الأخّاذ إلى شرح ومزيد بيان؟ فلنتركه بلا تعليق.

* * *

وكانت بلاد العراق بكمالها ـ التي فتحها خالد ـ نقضت العهود والذمم والمواثيق التي كانوا أعطوها خالداً، سوى قرى قليلة، ثم عاد الجميع بعد وقعة القادسية إلى الطاعة، وادّعوا أن الفرس أجبروهم، فقَبِل منهم المسلمون ذلك.

وتتابعت الفتوح، وتحوّلت الفرس إلى (المدائن)، فركبوا السفن، ثم ضمّوها إليهم، ولحق بهم المسلمون، فحجزهم عن الفرس نهر دجلة، وقام سعد، وخطب الناس وحثّهم على مطاردة الفرس، فعبروا النهر إليهم، ونشبت معركة هائلة، ودخل المسلمون (المدائن)، فلم يجدوا بها أحداً، بل قد أخذ كسرى أهله، وما قدروا عليه من الأموال والأمتعة والحواصل، وتركوا ما عجزوا عنه من الأنعام والثياب والمتاع، والآنية والألطاف والأدهان ما لا يُدرى قيمته، وكان في خزانة كسرى (ثلاثة آلاف ألف ألف ألف دينار)[1]. فأخذوا من ذلك ما قدروا عليه، وتركوا ما عجزوا عنه وهو مقدار النصف من ذلك أو ما يقاربه.

ثم جاء سعد إلى (القصر الأبيض)، فدعا أهله ثلاثة أيام حتى نزلوا منه،

---

(١) هكذا ذكره ابن كثير في (البداية والنهاية): (٣٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) أي ثلاثة آلاف مليار دينار!!.

وسكنه سعد، واتخذ إيوان كسرى مصلّى!! وشرع سعد في تحصيل ما هنالك من الأموال والحواصل والتحف، ما لا يُقَوَّم ولا يحدّ، ولا يوصف كثرةً وعظمةً.

واستحوذ المسلمون على ما هنالك أجمع، مما لم يرَ أحدٌ في الدنيا أعجبَ منه، وكان في جملة ذلك: تاج كسرى، وهو مكلل بالجواهر النفيسة التي تحيّر الأبصار، ومِنْطَقَتُهُ[1] كذلك، وسيفه وسواره وقَبَاؤه[2]، وبساط إيوانه، وكان مربعاً، ستون ذراعاً في مثلها من كل جانب، والبساط مثله سواء، وهو منسوج بالذهب واللآلئ والجواهر الثمينة، وفيه مصوّر جميع ممالك كسرى وبلاده، بأنهارها وقلاعها، وأقاليمها وكنوزها، وصفة الزروع والأشجار التي في بلاده.

وقام سعد فخمَّس الغنائم، وبعث الخمس إلى عمر، واستوهب سعد من المسلمين أربعة أخماس البساط ولِبْس كسرى، ليبعثه إلى عمر والمسلمين بالمدينة، لينظروا إليه، ويتعجبوا منه، فطابَ المسلمون بذلك نفساً، وأذِنوا لسعد. ولما ألقي ذلك بين يدي عمر قال: (إن قوماً أدَّوا هذا لأمناء)!. فقال علي ابن أبي طالب: (إنك عففت، فعفَّت رعيتك، ولو رتعتَ لرتعتْ)!!.

وصدق ـ والله ـ علي رضي الله عنه، فهل رأى الناس أو سمعوا عن حاكمٍ أعفَّ من أمير المؤمنين أبي حفص؟! لا، ولن يروا.

وقام عمر رضي الله عنه فألبسَ ثياب كسرى لخشبة، ونصبها أمامه ليرى الناس ما في هذه الزينة من العجب، وما عليها من زهرة الحياة الدنيا الفانية، فسبحان من نزعها عن كسرى، وألبسها خشبة صماء!!.

ثم دعا سراقةَ بن مالك ـ ليحقق نبوءة رسول الله ﷺ أيام الهجرة ـ وقال له:

(يا سراق، قم فالبس. قال سراقة: فطمعت فيه، فقمت فلبست. فقال: أدبر، فأدبرتُ. ثم قال: أقبِل، فأقبلتُ. ثم قال: بخٍ بخٍ، أُعَيْرابيٌّ من بني مُدْلج

---

(١) هي ما يُشَدُّ به الوَسَط.

(٢) القَبَاءُ: ثوب يُلبس فوق الثياب أو القميص، ويُتَمنطق عليه.

عليه قَباء كسرى وسراويله وسيفه ومنِطقته وتاجه وخفّاه! . رب يوم يا سراق بن مالك لو كان عليك فيه هذا من متاع كسرى وآل كسرى، كان شرفاً لك ولقومك. انزع، فنزعت.

ثم قال عمر: اللهم إنك منعت هذا رسولك ونبيك، وكان أحبَّ إليك مني، وأكرم عليك مني، ومنعته أبا بكر، وكان أحب إليك مني، وأكرم عليك مني، وأعطيتنيه، فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بي! ثم بكى، حتى رحمه من كان عنده. ثم قال لعبد الرحمن بن عوف: أقسمتُ عليك لما بعته، ثم قسمته قبل أن تمسي)!!.

ألا هنيئاً لأمة يقودها هذا القوي الأمين المأمون، الذي ما غيَّرته الخلافة، بل ازداد بها تواضعاً وإخباتاً وإنابة لله رب العالمين، وعدلاً ورحمة للرعية التي ولي أمرها، فكان لهم كل الشرف والعزة في إمرته وحكمه رضي الله عنه وأرضاه.

* * *

● ولما استولى المسلمون على دار مملكة فارس ـ وهي المدائن ـ هاج الفرس وماجوا، واستجاشهم (يزدجرد)، الذي تقهقر من بلد إلى بلد، حتى صار إلى (أَصْبَهَان) مبعداً طريداً، لكنه في أسرة من قومه وأهله وماله، فكتب إلى ناحية (نهاوند) وما والاها من الجبال والبلدان، فتجمعوا، وتراسلوا، حتى كمل لهم من الجنود ما لم يجتمع لهم قبل ذلك، فجاءت الفرس من كل فجٍّ عميق، واجتمعوا بنهاوند، واجتمع منهم مئة وخمسون ألف مقاتل.

وجاء كتاب عبد الله بن عبد الله بن عتبان ـ عامل عمر على الكوفة ـ إلى أمير المؤمنين مع قريب بن ظفر العبدي بأن الفرس قد اجتمعوا، وهم متذامرون على الإسلام وأهله، وأن المصلحة في معاجلتهم عما همّوا به من المسير إلى بلاد المسلمين.

فقال عمر لحامل الكتاب: ما اسمك؟. قال: قريب. قال: ابن من؟ قال:

ابن ظفر. فتفاءل عمر بذلك وقال: ظفر قريب!. ثم أمر فنودي (الصلاة جامعة) فاجتمع الناس، وكان أول من دخل المسجد سعد بن أبي وقاص، فتفاءل عمر أيضاً بسعد!. وصعد عمر المنبر، وخطب الناس، فكان فيما قال: (إني رأيت أن أسير بمن قِبَلي حتى أنزل منزلاً وسطاً بين هذين المِصْرَين[1]، فأستنفر الناس، ثم أكون لهم ردءاً حتى يفتح الله عليهم).

فقام عليه الصحابة: عثمان وعلي، وطلحة والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، فتكلموا، واتفق رأيهم على أن لا يسير عمر من المدينة، فقبل عمر ذلك. واستشارهم بمن يوليه أمر الحرب، فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين أبصر بجندك. فولّى النعمان بن مُقَرِّن، وكتب إلى حذيفة بن اليمان، أن يسير من الكوفة بجنود منها، وإلى أبي موسى الأشعري أن يسير بجنود البصرة. وكتب إلى النعمان ـ وكان بالبصرة ـ أن يسير بمن هناك من الجنود إلى (نهاوند).

وإذا اجتمع الناس، فكل أمير على جيشه، والأمير على الناس كلهم النعمان بن مُقَرِّن، فإذا قُتل، فحذيفة بن اليمان، فإن قُتل، فجرير بن عبد الله، فإن قُتل، فقيس بن مكشوح، حتى عدّ سبعة. وكان صورة كتاب عمر:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى النعمان بن مقرِّن، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة، قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا، فسِرْ بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله، بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكْفِرهم، ولا تدخلهم غَيْضة[2]، فإن رجلاً من المسلمين أحبَّ إليّ من مئة ألف دينار! والسلام عليك.

فسِرْ في وجهك ذلك حتى تأتي (ماه) فإني كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك

---

(١) أي: البصرة والكوفة.

(٢) الغيضة: الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتفّ.

بها، فإذا اجتمع إليك جنودك، فَسِرْ إلى الفيرزان[1] ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصِروا، وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله).

وتقابل الجيشان، وحمل المسلمون على المشركين، وجعلت راية النعمان تنقضُّ على الفُرس كانقضاض العقاب على الفريسة، حتى تصافحوا بالسيوف، واقتتلوا قتالاً لم يُعهد مثله، وأنزل الله عليهم نصره.

وكانت (نهاوند) وقعة عظيمة جداً، ما سمع السامعون بمثلها، وكان لها شأن رفيع، ونبأ عجيب، حتى سماها المسلمون (فتح الفتوح).

وأمّا أمير المؤمنين عمر، فإنه كان يدعو الله ليلاً ونهاراً لهم، دعاء الحوامل المقربات، وابتهال ذوي الضرورات، حتى جاءه الرسول بالفتح، وقدم الذين معهم الأخماس، فأخبروه بالأمر على جليته.

ولما أُخبر باستشهاد النعمان بكى، ثم سأل السائبَ بن الأقرع عمن قُتل من المسلمين، فعدَّ له رجالاً من أعيان الناس وأشرافهم، وذكر آخرين لا يعرفهم أمير المؤمنين، فجعل عمر يبكي ويقول:

(وما ضَرَّهم أن لا يعرفهم أمير المؤمنين؟ لكن الله يعرفهم، وقد أكرمهم بالشهادة، وما يصنعون بمعرفة عمر)؟!.

نعم، فهم لم يقاتلوا لأجل عمر، بل جاهدوا في سبيل الله ليرضى عنهم، فأكرمهم الله بالشهادة، وهو سبحانه يعلم مُتَقَلَّبهم ومَثْوَاهم.

● وبعد انتهاء المعركة جاء رجل يقال له الهرند ـ صاحب نار الفرس ـ فسأل حذيفة الأمان، ويدفع إليهم وديعة كانت عنده لكسرى، فأمَّنه حذيفة، وجاء الرجل بسَفطين[2] مملوءين جوهراً ثميناً لا يقوَّم، لكن المسلمين لم يعبؤوا به!.

واتفق رأي المسلمين على أن يبعثوه لعمر خاصة، وأرسلوه صحبة الأخماس

---

(١) هو قائد جيوش الفرس.

(٢) السَّفَط: وعاء كالقُفَّة.

والسبي مع السائب بن الأقرع.

وبعد أن قسم عمرُ الخمس بين الناس على عادته، حُمل ذانك السفطان إلى منزله وهو لا يدري، ورجعت الرسل للعراق، فلما أصبح عمر طلبهم فلم يجدهم، فأرسل في إثرهم البُرُد، فما لحقهم البريد إلا بالكوفة.

ولندعْ السائب بن الأقرع يروي لنا النبأ ـ وقد جرى معه ـ فيقول:

(فلما أنخت بعيري بالكوفة، أناخ البريد على عرقوب بعيري، وقال: أجب أمير المؤمنين. فقلت: لماذا؟. فقال: لا أدري!.

فرجعنا على إثرنا، حتى انتهيت إليه، قال: ما لي ولكَ يا ابن أم السائب؟! بل ما لابن أم السائب وما لي؟!.

فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟.

فقال: ويحك، والله إن هو إلا نمت في الليلة التي خرجت فيها، فباتت ملائكة الله تسحبني إلى ذينك السفطين، وهما يشتعلان ناراً، يقولان: لنكوينَّك بهما، فأقول: إني سأقسمهما بين المسلمين! فاذهب بهما لا أبا لك، فبعهما، فاقسمهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم، فإنهم لا يدرون ما وهبوا، ولم تدرِ أنت معهم)!!.

قال السائب: (فأخذتهما، حتى جئت بهما مسجد الكوفة، وغشيتني التجَّار، فابتاعهما مني عمرو بن حريث المخزومي بألفي ألف، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم، فباعهما بأربعة آلاف ألف، فما زال أكثرَ أهل الكوفة مالاً بعد ذلك.

ثم قسم ثمنهما بين الغانمين، فنال كل فارس أربعة آلاف درهم من ثمن السفطين).

ما أحق الخلافة أن تفخر بعمر، وما أجدر الحكم أن يزهو بفعال هذا الإمام العظيم، والحاكم المتفرد المتميز، وما أصدق قول رسول الله ﷺ حين قال: «فلم أرَ عبقرياً يَفرِي فَرِيَّه».

حقاً لقد كانت حظوظ البشرية وافرة، وأيامها سعيدة محبورة؛ حين ولي الفاروق هذا الأمر، فأمسك الميزان بيديه، ولم يسمح لإحدى كفتيه أن ترجح عن أختها قيد شعرة. فمن مثل أبي حفص بعدالته وحكمته، وريادته وسياسته، وقضائه وعلمه، وزهده وورعه، وخوفه وخشيته، وتبتله وإخباته، وتخشّعه وتضرّعه؟!!.

حلفَ الزمانُ ليأتينَّ بمثلهِ ... حنثتْ يمينُك يا زمانُ فَكَفِّرِ

* * *

وبعث أميرُ المؤمنين عَمْرَو بنَ العاص إلى (مصر) وجَيَّشَ معه جيشاً، فسار عمرو بمن معه، ودخلوا مصر، وأبطأ عليهم فتحها، فلما بلغ ذلك عمرَ بن الخطاب كتب إلى عمرو:

(أما بعد: فقد عجبتُ لإبطائكم عن فتح مصر، تقاتلونهم منذ سنين، وما ذاك إلا لما أحدثتم، وأحببتم من الدنيا ما أحبَّ عدوُّكم، وإن الله تعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم، وقد كنتُ وجهت إليك أربعة نفر[1]، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما أعرف، إلا أن يكون غيَّرهم ما غيَّر غيرهم.

فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس، وحضَّهم على قتال عدوّهم، ورغِّبهم في الصبر والنية، وقدِّم أولئك الأربعة في صدور الناس، وَأْمُر الناس أن يكونوا لهم صدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة؛ فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة، ووقت الإجابة، وليعجَّ[2] الناس إلى الله، وليسألوه النصر على عدوهم.

---

(١) هم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومَسْلَمة بن مُخَلَّد، رضي الله عنهم.

(٢) أي: يرفعون أصواتهم.

فلما أتى عَمْراً الكتابُ، جمع الناس، وقرأه عليهم، ثم دعا أولئك النفر، فقدَّمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهّروا، ويصلوا ركعتين، ثم يرغبون إلى الله، ويسألونه النصر، ففتح الله عليهم).

وانتقلوا يفتحون المدن، واحدة تلو الأخرى، وفي كل مرة يعرضون على أهلها إحدى ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو المناجزة. وفتحوها صلحاً وحرباً، وانضمت هذه البلاد إلى الدولة الإسلامية، دولة الحق والعدالة والرشاد.

* * *

وتابعت جيوش الحق والعدل والإيمان زحفها في شمال الدنيا وجنوبها، وشرقها وغربها، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية، وفتحت جيوش أمير المؤمنين عمر أصقاع الأرض، ففتح في خلافته من الشام: اليرموك وبُصْرى، ودِمشق والأُرْدُنّ، وبَيْسَان وطَبَرِيّة، والجَابِية، وفِلَسْطين والرَّمْلَة، وعَسْقَلان وغَزَّة، والسَّواحل والقُدس، وبَعْلَبك وحِمْص، وقِنَّسْرين وحَلَب وأَنْطَاكِية. وفتح الجَزيرة وحَرَّان والرُّها والرَّقّة ونَصِيبين ورَأس عَيْن، وسُمَيْساط وعين وردة، وديار بكر، ودِيار رَبيعة، وبلاد المَوْصِل وإِرْمينية جميعها.

وفتح مِصْر وإِسْكَنْدَرِية، وطَرَابلُس الغرب وبَرْقَة. وبالعراق: القَادسية والحيرة، وبهرَسِير وسَاباط، ومدائن كسرى، وكورة الفرات ودِجْلة، والأُبُلّة والبَصْرة. وفتح الأهْواز وفارس، ونَهَاوَنْد وهَمَذَان، والرَّيّ وقُومِس وخُرَاسَان، واصْطَخْر وأَصْبَهان، والسّوس ومَرُو، ونَيْسابور وجُرْجَان، وأَذْرَبيجَان، وغير ذلك. وقطعت جيوشه النهر مراراً، واستشهد رضي الله عنه، وخيلُه على الري، وقد فتحوا عامتها.

● ● ●

الفصل الخامس

بناء الدولة وعبقرية عمر في تشييدها

بنـاء الدولـة:

ولـم يترك عمر جيوشه تفتح البلاد، وتنشر الحق بين العباد، ثم يقوم هو فيمصِّر الأمصار، ويوزع الأموال التي فاضت بين يديه، فيسدّ حاجة المحتاجين، ويقتل الفقر، ويقضي على العوز والحرمان ـ وكفى ذلك.

لم يكن عمر بالذي يرى أن هذا يكفي، وأنه قد أدى الأمانة، ونصح للأمة، وقام بالمسؤولية على أكمل وجه؛ بل إنه خلال هذه السنوات الطوال التي تنامت فيها دولـة الإسلام، وترامت أطرافها، كان يبني الأسـس الراسـخة، والدعائم المتينة، لدولة الحق والهدى والخير، لتصبح الأنموذج الحيّ، والمثل الشاهد، للغايات التي جاء هذا الدين لتحقيقها ورفع راياتها.

الشورى:

والحجر الأساس لبناء الدولة في نظر عمر هو (الشورى). والعجيب حقاً أن هذا الرجل المُحَدَّث المُلْهَم العبقري، الذي لم ير النبيُّ ﷺ رجلاً يَفْرِي فَرِيَّه، والذي كان يسلِّم بالنصوص تسـليماًمطلقاً، فلا يحيد عنها قيد أنملة، ولو لم يفهم الحكمة منها، والذي كان في عهد النبي ﷺ وأبي بكر سـيفاً مسلولاً، ومضرب المثل في الشدة والبأس، والذي تمت في عهده أعظم الفتوحات ووصلت جيوشه إلى أقاصي الدنيا. . . نقول: من العجيب أن يكون هذا الرجل هو الذي يحمل لواء الشورى، ويحني لها رأسه العالي الشامخ، ويتهلل وجهه لكل رأي معارض شجاع صادق!!.

وما ذلك إلا لأنه يقدّر مسؤولية الحكم، ويرى أن على الرعية أن يأخذوا مكانهم في الأمة، ويُبدوا آراءهم، ليُنضِجوا بها رأي الخليفة، ويعاون رشدُهم رشَده. ويعلم أن من استبدّ برأيه هَلَك، وأن الشورى هي رئة كل حكم رشيد سديد.

ثم هو يريد ـ بعد ذلك ـ أن يحكم أمة من الأُسود، لا قطيعاً من النعاج، ويريد من الرعية أن تكون عيناً ساهرة، وناقداً بصيراً، وفكراً منيراً، وحركة دؤوبة واعية، لا أن تكون صماء، عمياء، بلهاء، خرساء، تنفذ ما يقال لها، وحسبها ذلك!!.

وليس في فلسفة عمر هذه أدنى عجب إذا علمنا أنه إنما يأتسي في ذلك برسول الله ﷺ، المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى، والذي تلقى عن ربه القرآن الكريم، وكان من جملة آياته قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولقد أدى النبي ﷺ هذه الآيات على وجهها: تلاوة وتطبيقاً عملياً، ومنهج حياة، عاشه الأصحاب، ومنهم عمر.

فليس من عجب أن نرى عمر، الذي يقدّس النصّ المُنْزل أو السنّة المحكمة، والذي كان على درجة من العبقرية وصلت إلى حدّ الإلهام، هو نفسه الذي يحمل لواء الشورى[1]، ولم ينفرد برأيه في ساعة من نهار، ولم يحاول أن يفرض رأيه، بل أشرك ذوي الألباب في مسؤولية الحكم مشاركة فعالة صادقة.

● كان يستشير رؤوس الصحابة وأشياخ بدر وإذا نزل الأمر المعضِل، دعا الفتيان، فاستشارهم، يبتغي حدَّة عقولهم، وكان ممن يدنيه عبد الله بن عباس؛

(١) وليست (ديمقراطية) كما سمّاها صاحب كتاب (خلفاء الرسول)، وبين الشورى والديمقراطية كما بين الوحي والقانون الوضعي، ثم هي تسمية مستغربة، نأباها ولا نرضاها؛ فلنترك (الشورى) وعليها بهاء الوحي الأمين!!.

يستشيره بالأمر، إذا أهمَّه ويقول له: (غصْ غوَّاص). بل إن كان ليستشير المرأة، فربما أبصر في قولها الشيء فيستحسنه، فيأخذ به.

● وهو حين يطلب الرأي في المسألة، لم يكن ذلك منه موقفاً استعراضياً، ولا التماساً للموافقة من الآخرين، وكثيراً ما كان يكرر ويقرر للناس قوله: (لا تقولوا الرأي الذي تظنونه يوافق هواي، وقولوا الرأي الذي تحسبونه يوافق الحق).

ولما كان في أيامه الأخيرة، وأراد أن يستخلف على المسلمين رجلاً يقوم بشؤونهم، استشار الناس، فأشار عليه أحدهم أن يستخلف ابنه عبد الله بن عمر، فقال عمر: (قاتلك الله، والله ما أردتَ الله بهذا)!!.

ودخل عليه حذيفة بن اليمان فوجده مهموماً باكياً، فسأله: ماذا يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: (إني أخاف أن أخطئ فلا يردّني أحد منكم تعظيماً لي. فردّ حذيفة قائلاً: والله لو رأيناك خرجت عن الحق لرددناك إليه. فاستبشر عمر وقال: الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يقوّموني إذا اعوججتُ)!!.

ولما صعد المنبر ذات يوم فقال: (يامعشر المسلمين، ماذا تقولون لو مِلْتُ برأسي إلى الدنيا هكذا؟ فانبرى له رجل مشيراً بيده كالحسام المهنَّد، وقال: إذاً نقول بالسيف هكذا. ويسأله عمر: إياي تعني بقولك؟ فيجيب الرجل بلا وجل: نعم. فتهلَّل وجه عمر وقال: الحمد لله الذي جعل فيكم من يقوِّم عوجي).

وبينا هو ذات يوم في مجلس ضم جمعاً من المهاجرين والأنصار، فقال عمر رضي الله عنه: (أرأيتم لو ترخَّصت[1] في بعض الأمور ما كنتم فاعلين؟ فسكتوا. فقال ذلك مرتين وثلاثاً، فقال بشير بن سعد: لو فعلت ذلك قوَّمناك تقويم القِدْح[2]. فقال عمر: أنتم إذاً، أنتم إذاً).

---

(١) أي: تساهلت.

(٢) هو السهم الذي كانوا يستقسمون به.

● بل إنهم كانوا يوصونه ويحذرونه، ويبينون له مغبّة الزيغ والمَيْل، فهذا سعيد بن عامر الجمحي يقول لعمر: إني أريد أن أوصيك يا عمر. قال: أجل فأوصني. قال سعيد: أوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخشىَ الناس في الله، ولا يختلف قولك وفعلُكَ؛ فإن خير القول ما صدّقه الفعل. لا تقضِ في أمر واحد بقضاءين، فيختلف عليك أمرك، وتزيغ عن الحق، وخُذْ بالأمر ذي الحجة، تأخذ بالفَلْج[1]، ويُعِنْكَ الله، ويصلح رعيتك على يديك. وأقم وجهك وقضاءك لمن ولاك الله أمره من بعيد المسلمين وقريبهم، وأحبّ لهم ما تحبّ لنفسك وأهل بيتك، واكره لهم ما تكره لنفسك ولأهل بيتك، وخُض الغمراتِ إلى الحق، ولا تخف في الله لومة لائم).

فقال عمر: من يستطيع ذلك؟ فقال سعيد: مثلك، من ولاّه الله أمر أمة محمد ﷺ، ثم لم يحل بينه وبين الله أحد.

وكتب إليه أبو عبيدة ومعاذ ما نصّه: (من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، سلام عليك، أما بعد: فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهمٌ[2]، فأصبحت قد ولِّيت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الشريف والوضيع، والعدو والصديق، ولكلٍّ حصتُه من العدل، فانظر كيف أنت عند ذلك ياعمر. فإنّا نحذّرك يوماً تعنو[3] فيه الوجوه، وتجفّ فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج لحجة ملك قهرهم بجبروته، فالخلق داخرون[4] له، يرجون رحمته ويخافون عقابه.

وإنّا كنا نُحدَّث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها على أن يكونوا إخوان العلانية، أعداء السريرة؛ وإنا نعوذ بالله أن ينزل كتابنا إليك سوى المنزل

---

(١) أي: الظفر والفوز.
(٢) أي: تهتم بإصلاح نفسك وتقويمها.
(٣) أي: تخضع وتذلّ.
(٤) أي: أذلاّء.

الذي نزل من قلوبنا، فإنما كتبنا به نصيحة لك، والسلام عليك).

فردّ عمر على كتابهما بسرور وحبور، وكان في آخر ما قال فيه: كتبتما تعوذاني بالله أن أنزل كتابكما المنزل الذي نزل من قلوبكما، وأنكما كتبتما به نصيحة لي؛ وقد صَدَقْتُما، فلا تَدَعا الكتاب إليَّ، فإنه لا غنى بي عنكما، والسلام عليكما).

* * *

هذه الأمة التي يقودها حاكم تلك صفاته وأخلاقه، وعدله وإنصافه، وطاقته وإمكاناته، وهم أولاء رجالها وحماتها، ومجاهدوها وكماتها؛ هذه الأمة ماذا عسى أن تكون صفحات تاريخها وأيامها، سوى الأمجاد والعظائم، والأعاجيب والمعجزات؟!.

فلنسِرْ مع أبي حفص الأمير، ومع صحبه الأطهار الأخيار، ولنتابع لبعض الوقت سيرتهم، ونتملّى بعضاً من المواقف والمشاهد التي أملوها على الدنيا فكتبها التاريخ بأحرف من نور.

التاريخ الهجري:

● رُفع إلى عمر رضي الله عنه صَكٌّ[1] لرجل على آخر، وفيه: إنه يحلّ عليه في شعبان. فقال عمر: (أي شعبان؟ أشعبان هذه السنة التي نحن فيها، أو السنة الماضية أو الآتية)؟.

ثم جمع الصحابة فاستشارهم في وضع تأريخ يتعرفون به حلول الدُّيون وغير ذلك، فقال قائل: أرِّخوا كتاريخ الفرس ـ وكانت الفرس يؤرّخون بملوكهم واحد بعد واحد ـ فكره عمر ذلك، وقال قائل آخر: أرّخوا بتاريخ الروم ـ وكانوا يؤرّخون من زمان الإسكندر المقدوني ـ فكَرِه ذلك. فهو يريد أن تتميز الدولة

---

(١) هو وثيقة بمال أو نحوه.

الإسلامية بشخصية مستقلة، لا تبعية فيها لأحد، ثم إنّ التأريخ بأولئك الملوك فيه بعض رفع لشأنهم، وتنويه بذكرهم، ولا يليق هذا من مسلم.. بجانب طغاة ملؤوا الأرض جَوراً وعَسْفاً.

فقال آخرون: أرّخوا بمولد رسول الله ﷺ. ورأي آخر: بل بمبعثه. وقال غيرهم: بل أرِّخوا بوفاته ﷺ. وأشار علي بن أبي طالب وآخرون أن يؤرَّخ من هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة، لظهور ذلك لكل أحد، فهوي عمر ذلك الرأي، لأن وقت الهجرة متفق عليه، ظاهر للجميع، ثم هو نقطة تحول كبرى في تاريخ الدعوة الإسلامية، وفيه كانت اللبنة الأساسية لبناء الدولة الإسلامية الشامخة.

وأول الهجرة هو شهر ربيع الأول، الشهر الذي هاجر فيه النبي ﷺ، فاستشار عمر أصحابه بأي الشهور نبدأ؟ فاستقرّ رأيهم على (المحرم)، فأمر عمر أن يؤرَّخ من هجرة رسول الله ﷺ من أول تلك السنة، وهو شهر المحرم، لأنه أول السنة الهلالية العربية، لئلا تختلف الشهور ويختلط النظام، وكان ذلك سنة ست عشرة للهجرة، لسنتين ونصف من خلافة عمر رضي الله عنه.

حكم الأرض المفتوحة:

●ولما فتحت العراق، ودخل أكثر أهلها في دين الله سبحانه، وقف عمر أمام أمر، وهو: هذه الأراضي المفتوحة أيقسمها ـ بعد تخميسها ـ بين المجاهدين، أم يتركها لأصحابها، ويضرب عليهم خَراجاً يؤدونه للمسلمين؟.

ونظر عمر في الأمر، فوجد أنه إذا قسمها بين المجاهدين، فإن ذلك سيقعد بهم عن الغاية العظمى التي خرجوا من أجلها؛ وهي فتح البلاد وتحريرها من ظلم الطواغيت، ونشر الإسلام في أصقاع الدنيا، ثم بعد ذلك، فإن هؤلاء المجاهدين ذوو خبرة قليلة بشؤون الزراعة، واستصلاح الأراضي، وزيادة الإنتاج، فإذا آلت إليهم، سيضعف مردودها على بيت مال المسلمين.

وفوق ذلك، فإن صاحب كل سهم منها عندما يموت سيؤول نصيبه إلى

ورثته، ذكراناً كانوا أم إناثاً. والمسلمون الذين سيولدون، ويقدمون إلى هذه الدنيا قد لا يجدون ما يعيشون به عيشة كريمة، فاجتمع أمير المؤمنين بالناس واستشارهم، وقلَّب معهم وجوه الرأي، واستقرّ بهم الأمر على أن تُترك الأرض بيد أصحابها، ويؤخذ منهم الخراج، فيرد في بيت مال المسلمين، لينتفع به عامة الناس، وقد فعل مثل ذلك بأراضي الشام ومصر، فكان هذا عملاً موفَّقاً مسدَّداً من عمر رضي الله عنه.

القضاء:

● ومن الأسس المتينة والأمور الفذّة التي وضعها عمر في بنيان دولته الشامخة؛ أنه وضع للقضاء سياسة محكمة، أمر بها عماله على الأمصار، وأقام للناس قضاة، ليس لهم عمل سوى القضاء.

كتب إلى أبي موسى الأشعري ـ عامله على البصرة ـ: (بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك، أما بعد:

ـ فإن القضاء فريضة محكمة، وسنّة متَّبعة، فافهم إذا أُدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلُّم بحقّ لا نفاذ له.

ـ آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك.

ـ البينة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر.

ـ والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحلَّ حراماً، أو حرَّم حلالاً.

ـ ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، فراجعتَ فيه نفسك، وهُديت لرُشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحقَّ لا يبطله شيء، واعلم أن مراجعة الحقِّ خير من التمادي في الباطل.

ـ الفهمَ الفهمَ فيما يتلجلج في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سُنَّة، واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور بعد ذلك، ثم اعمد لأحبِّها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى.

ـ اجعل لمن ادّعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذ بحقه، وإلا استحللت عليه القضاء.

ـ والمسلمون عدول في الشهادة، إلا مجلوداً في حدٍّ، أو مجرَّباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو قرابه. إن الله تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبينات.

ـ وإياك والقلق والضجر، والتأذِّي بالخصوم في مواطن الحقِّ التي يوجب الله بها الأجر، ويُحسن الذخر، فإنه من صلحت سريرته فيما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للدنيا بغير ما يعلم الله منه شانه الله، فإن الله لا يقبل من عباده إلا ما كان خالصاً. فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته؟ والسلام).

وكتب إلى شريح:

(إذا أتاك أمر فاقضِ فيه بما في كتاب الله، فإن أتاك ما ليس في كتاب الله، فاقضِ بما سنَّ فيه رسول الله، فإن أتاك ما ليس في كتاب الله، ولم يسنَّ فيه رسول الله؛ فاقض بما أجمع عليه الناس، فإن أتاك ما ليس في كتاب الله ولم يسنَّه رسول الله ﷺ، ولم يتكلم فيه أحد؛ فأيَّ الأمرين شئتَ فَخُذْ به).

تدوين الديوان:

● وبعد أن كثرت الفتوح، وترامت أطراف الدولة الإسلامية الشامخة؛ فاض المال، وسالت الكنوز، وألقيت في عتبة الخلافة العمرية، بعد فتح مصر والشام، والعراق وبلاد فارس، والمدائن، وجاء العمال بخراج البلاد المفتوحة،

حتى تزاحمت الأموال في بيت المال، وغصَّ بها. فقد بلغ ـ مثلاً ـ خَراج السواد والجبل ـ بالعراق ـ مئة ألف، وعشرين ألف ألف وافٍ[1].

وهذه البحرين وحدَها يأتي منها خمسمئة ألف درهم، قدم بها أبو هريرة على عمر، ويحدثنا عن ذلك فيقول: (فلقيته في صلاة العشاء الآخرة، فسلَّمت عليه فسألني عن الناس، ثم قال لي: ماذا جئت به؟ قلت: جئتُ بخمسمئة ألف درهم. قال: هل تدري ما تقول؟ قلت: جئت بخمسمئة ألف درهم. قال: ماذا تقول؟ قلت: مئة ألف، مئة ألف، مئة ألف، مئة ألف، مئة ألف، حتى عددت خمساً. قال: إنك ناعس، فارجع إلى أهلك، فنَمْ، فإذا أصبحتَ فأتني، فقال أبو هريرة: فغدوتُ إليه، فقال: ماذا جئت به؟ قلت: جئت بخمسمئة ألف درهم! قال عمر: أطيِّب؟ قلت: نعم، لا أعلم إلا ذلك، فقال للناس: إنه قد قَدِمَ علينا مال كثير، فإن شئتم أن نعدّ لكم عدداً، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلاً، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إني قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدوّنون ديواناً[2] يعطون الناس عليه).

هذا خَراج البحرين، فما بال الكنوز التي جاءت من المدائن، وبعدها جَلُولاء، ثم ما جاء من مصر والشام والعراق، وغيرها من البلاد المفتوحة؟ لمثل ذلك قال عمر للناس إن أرادوا أن يكيل لهم المال كيلاً؛ فعل ذلك!!.

ولما عرضت عليه فكرة الديوان هوى إليها قلبه، فجمع وجوه الناس يستشيرهم في ذلك: (فقال علي بن أبي طالب: تَقْسِمُ كل سنة ما اجتمع إليك من مال، ولا تُمْسِكُ منه شيئاً.

وقال عثمان بن عفان: أرى مالاً كثيراً يَسَعُ الناس، وإن لم يُحْصَوْا ـ حتى

---

(١) الوافي: درهم ودانقان ونصف؛ والدَّانِق: سُدس الدرهم.

(٢) الدِّيوان: هو الدفتر الذي يُكْتَبُ فيه أسماء الجيش وأهل العَطَاء، وأول من دوَّن الدَّوَاوين عُمر رضي الله عنه.

تَعْرِفَ من أَخَذَ ممن لم يأخذ ـ خشيتُ أن ينتشر الأمر! .

فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة: ياأمير المؤمنين، قد جئت الشام، فرأيت ملوكها قد دوَّنوا ديواناً، وجنّدوا جنوداً، فدوِّن ديواناً، وجنِّد جنوداً).

فاطمأن عمر لقول الوليد، ومال قلبه إليه، وكان ذلك في (المحرم) سنة عشرين للهجرة، فدعا رجالاً من نسّاب قريش: عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وقال لهم: (اكتبوا الناس على منازلهم).

(فكتبوا، فبدؤوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه، على الخلافة. فلما نظر إليه عمر قال: وددت والله أنه هكذا، ولكن ابدؤوا بقرابة النبي ﷺ الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله).

وهرعت بنو عديّ ـ قوم عمر ـ يطلبون إليه أن يقبل بما كتبه أولئك الرهط، ولنستمع للرجل الذي منحته الأقدار لهذه الأمة، بل للبشرية جمعاء، بمَ أجاب قومه؛ يقول أسلم: (رأيت عمر بن الخطاب حين عُرِض عليه الكتابُ، وبنو تَيْم على أثر بني هاشم، وبنو عدي على أثر بني تيم، فأَسْمَعُهُ يقول: ضعوا عمر موضعَه، وابدؤوا بالأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ.

فجاءت بنو عدي إلى عمر فقالوا: أنت خليفة رسول الله ﷺ، فلو جعلتَ نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم؟!.

قال: (بَخٍ بَخٍ بني عدي، أردتم الأكل على ظهري، لأنْ أُذْهِبَ حسناتي لكم، لا والله حتى تأتيكم الدعوة، وإن أُطْبِقَ عليكم الدفتر ـ يعني ولو أن تُكتبوا آخرَ الناس ـ! إن لي صاحبين سلكا طريقاً، فإن خالفتُهما خُولف بي! والله ما أدركنا الفضل في الدنيا، ولا نرجو ما نرجو من الآخرة من ثواب الله على ماعَمِلنا إلا بمحمد ﷺ، فهو شرفنا، وقومه أشرف العرب، ثم الأقرب فالأقرب.

إن العرب شَرُفَتْ برسول الله ﷺ، ولو أن بعضنا يلقاه إلى آباءٍ كثيرة، وما بيننا وبين أن نلقاه إلى نسبه، ثم لا نفارقه إلى آدم إلا آباء يسيرة؛ مع ذلك ـ والله ـ لئن

جاءتْ الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل، فهم أولى بمحمد ﷺ منا يوم القيامة. فلا ينظُرُ رجل إلى القرابة، ويعمل لما عند الله، فإن من قَصَّرَ به عَمَلُه لا يُسْرِعُ به نَسَبُه)!!.

ألا حيّا الله هذا الخليفة العادل، وحيّا الأمة التي أنجبته، والشرع الذي ربّاه، وبارك الله في الصدق والأمانة، والإخلاص والإنابة، والزهد والورع، والتقوى والخشية، التي جُبلت عليه روحه الزكية الطاهرة.

نعم هكذا فلتكن الخلافة، وهكذا فليكن الحكم؛ لا محسوبية لأحد، ولا قربى إلا بالتقوى، (فإن من قصّربه عمله لا يسرع به نسبه).

وقام عمر على رأس أولئك الرهط في تدوين الديوان، وترتيب الناس حسب منازلهم، حيث (بدأ ببني هاشم في الدعوة، ثم الأقرب فالأقرب برسول الله ﷺ، فكان القوم إذا استووا في القرابة برسول الله ﷺ؛ قدَّم أهل السابقة. حتى انتهى إلى الأنصار، فقالوا: بمن نبدأ؟ فقال عمر: ابدؤوا برهْط سعد بن مُعاذ الأشْهلي، ثم الأقرب فالأقرب بسعد بن معاذ.

وفرض عمر لأهل الديوان، ففضّل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض، وكان أبو بكر الصديق قد سوّى بين الناس في القَسْمِ، فقيل لعمر في ذلك! فقال: لا أجعلُ من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه!.

فبدأ بمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار، ففرض لكل رجل منهم خمسة آلاف درهم في كل سنة، حليفهم ومولاهم معهم سواء، وفرض لمن كان له إسلام، كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة، ومن شهد أحداً أربعة آلاف درهم لكل رجل منهم، وفرض لأبناء البدريين ألفين ألفين، إلا حسناً وحسيناً، فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما، لقرابتهما برسول الله ﷺ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف درهم، وفرض للعباس بن عبد المطلب خمسة آلاف درهم، لقرابته برسول الله ﷺ.

ولم يفضّل أحداً على أهل بدر إلا أزواج النبي ﷺ، فإنه فرض لكل امرأة منهن اثني عشر ألف درهم.

وفرض لمسلمة الفتح لكل رجل منهم ألفين، وفرض لغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمة الفتح.

وفرض لعمر بن أبي سلمة أربعة آلاف درهم، فقال محمد بن عبد الله بن جحش: لِمَ تُفَضِّلُ عمرَ علينا، فقد هاجر آباؤنا وشهدوا؟ فقال عمر: أفضِّله لمكانه من النبي ﷺ، فليأت الذي يَسْتَعْتِبُ بأمٍّ مثل أمّ سلمة[1] أُعْتِبْه.

وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف درهم، فقال عبد الله بن عمر: فرضتَ لي ثلاثة آلاف، وفرضتَ لأسامة أربعة آلاف، وقد شهدتُ ما لم يشهد أسامة! فقال عمر: زِدْتُه لأنه كان أحب إلى رسول الله ﷺ منكَ، وكان أبوه أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك.

ثم فرض للناس على منازلهم، وقراءتهم للقرآن، وجهادهم، ثم جعل من بقي من الناس باباً واحداً، فألحق من جاءهم من المسلمين بالمدينة في خمسة وعشرين ديناراً لكل رجل، وفرض للمحرَّرين معهم.

وفرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ألفين إلى ألف إلى تسعمئة إلى خمسمئة إلى ثلاثمئة، لم يُنْقص أحداً من ثلاثمئة).

وقال: (لئن كثر المال لأفرِضَنَّ لكل رجل أربعة آلاف درهم: ألف لسفره، وألف لسلاحه، وألف يُخَلِّفها لأهله، وألف لفرسه وبغله).

وكان يقول: (لأزيدَنَّهم ما زاد المال، لأعُدَّنّه لهم عدّاً، فإن أعياني لأكِيلَنَّه لهم كيلاً، فإن أعياني حَثَوْتُه بغير حساب).

وفرض لنســاء مهاجرات، وأجرى القوت على عيــال أهل العوالي، وفرض

---

(١) هي أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنهما، وهي أم عمر بن أبي سلمة.

للمنفوس[1] مئة درهم، وإذا أُتي باللَّقيط فرض له مئة درهم، وفرض له رزقاً يأخذه وليُّه كل شهر، واوصى بهم خيراً، وجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال.

وعاش الناس في سعة من الرزق، وبسطة من المال، وأصبحوا يدعون لأمير المؤمنين، فإذا بلغ ذلك عمرَ قال: (لا تَحْمَدُنّي عليه، فإنه لو كان من مال الخطّاب ماأُعطيتموه، ولكنّي قد علمتُ أن فيه فضلاً ولا ينبغي أن أحْبِسَه عنهم).

وكان يقول في هذا المال الذي فرضه للناس: وما أنا فيه إلا كأحدهم، ولكنّا على منازلنا من كتاب الله، وقسْمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقِدَمُه في الإسلام، والرجل وغَناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيتُ لَيَأْتِيَنَّ الراعيَ بجبل صنعاءَ حَظُّه من هذا المال وهو مكانه.

ويقول: (ما على الأرض مسلم لا يملكون رقبته إلا له في هذا الفَيْء حقّ، أُعْطِيَهُ أو مُنِعَهُ، ولئن عشت ليأتِيَنَّ الراعيَ باليمن حقّه قبل أن يحمَّر وجهُه في طلبه).

ويقول هشام الكعبي: (رأيت عمر بن الخطاب يحمل ديوان خُزاعة حتى ينزل قُديداً، فتأتيه بقديد، فلا يغيب عنه امرأة بكر، ولا ثيِّبٌ، فيعطيهنَّ في أيديهن، ثم يروح فينزل عُسْفان، فيفعل مثل ذلك أيضاً، حتى توفي).

أي موقف يمكننا أن نوضحه ونعلّق عليه؟ بل هل في واحدة من كلمات عمر، أو موقف له لا يعبر عن، نفسه كما تعبر الشمس عن وجودها، وريح المِسك عن جؤنته؟!. انظر وتملَّ قوله رضي الله عنه:

(بَخٍ بَخٍ بني عدي، أردتم الأكل على ظهري).

(مَنْ قصَّر به عمله لا يسرع به نسبه).

(والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل؛ فهم أولى بمحمد ﷺ منا يوم القيامة).

---

(١) المنفوس: المولود.

(لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه).

(لم يفضّل أحداً على أهل بدر إلا أزواج النبي ﷺ).

(فليأت الذي يَسْتَعْتِبُ بأمٍّ مثل أمّ سلمة أُعْتِبْهُ).

(كان أسامة بن زيد أحب إلى رسول الله ﷺ منك، وأبوه أحبّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك).

(فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن وجهادهم).

(لا تحمدنّي عليه فإنه لو كان من مال الخطاب ما أعطيتموه).

(لئن بقيت ليأتينّ الراعيَ بجبل صنعاء حظُّه من هذا المال وهو مكانه).

هل نتجرأ أن نحوم حول هذه المواقف المرهوبه والأقوال الشامخة، فنعبر عنها بالقلم الكليل؟! لا، فلنتركها كما هي، وعليها بهاء الخلافة الراشدة، ونور الإلهام العمري.

دار الدقيق:

●وكان الناس في سفرهم لا يجدون مأوى ولا ظِلاً، فاستأذنه أناس أن يبنوا في الطريق بين مكة والمدينة، فأذِنَ لهم وقال: (ابن السبيل أحقّ بالماء والظلّ).

ثم بدا له بعد ذلك أن هذا من واجب الخليفة، فابتنى (دار الدقيق) وجعل فيها الدقيق والسَّويق والتمر والزبيب، وما يُحتاج إليه، يُعين به المنقطع، والضيف ينزل بعمر الخليفة. ووضع في طريق السُّبُلِ ما بين مكة والمدينة ما يُصْلِحُ مَنْ ينقطع به، ويُحمل من ماء إلى ماء، حتى يبلغ المكان الذي يريد.

راتب المولود:

●وكان عمر رضي الله عنه يمر به الحدث العابر الذي لا يكاد يحرّك أكثر الناس حساسية وتيقظاً ورحمة وإنسانية، أما عمر فيهتز له ويرتجف، وتحتشد كل

طاقاته اليقظة، وإمكاناته الباهرة؛ فيستنبط منه حكماً ويسنّ له قانوناً وتشريعاً.

فهذه رفقة من التجار قدمت المدينة، وحطّوا رحالهم ليلاً، وخيّموا على مشارفها، فيقوم عمر مع عبد الرحمن بن عوف يحميهم من السرق، ويصليان ما كُتب لهما، (فسمع عمر بكاء صبيّ، فتوجه نحوه فقال لأمه:

اتقي الله وأحسني إلى صبيّك، ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه، فعاد إلى أمّه فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه. فلما كان في آخر الليل سمع بكاءه، فأتى أمه فقال: ويحكِ، إني لأراك أم سَوْءٍ، ما لي أرى ابنك لا يَقِرُّ منذ الليلة؟!.

قالت: يا عبد الله قد أبْرَمْتَني[1] منذ الليلة، إني أُريغُه عن الفِطام فيأبَى. قال: ولِمَ؟ قالت: لأن عمر لا يَفْرِضُ إلا للفُطُمِ. قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهراً. قال: ويحك لا تُعْجِليه!.

فصلى الفجر، وما يستبينُ الناسُ قراءتَه من غلبة البكاء، فلما سلّم قال: يا بؤساً لعمر كم قتل من أولاد المسلمين!! ثم أمر منادياً فنادى: ألا لا تُعجِلوا صِبْيَانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام. وكتب بذلك إلى الآفاق: إنا نفرض لكل مولود في الإسلام)

سبحان ربّ عمر!! ما هذه الرحمة التي انطوى عليها قلب هذا الرجل الرباني، حتى يرى أنه قد قتل أولاد المسلمين، وينادي يا بؤساً لعمر! إنه الحاكم المسلم، الذي تربى في مدرسة القرآن، ونهل من معين النبوة، ومن فيض النبي الكريم ﷺ، الذي وصفه ربه فقال فيه: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، وعمر في كل سلوكياته الفذة، إنما يقتدي بالرسول الأعظم ﷺ، الذي هو منبع الخيرات.

لا تُحبس الجيوش فوق أربعة أشهر:

● وخرج ذات ليلة يطوف بالمدينة ـ وكان يفعل ذلك كثيراً ـ إذ (مرّ بامرأة

---

(١) أي: أضجرتني.

من نساء العرب، مُغْلَقاً عليها بابُها، وهي تقول:

تطـاولَ هـذا الليـلُ واسـودّ جـانبُـهْ وأرّقنـــي أن لا خليـــلَ ألاعبُـــهْ
فلـــولا حِـــذارُ الله لا شـــيءَ مثلُـــه لزُحـزح من هـذا السـرير جوانبُـهْ!

فقال عمر: ما لك؟. قالت: أغْزَيْتَ زوجي منذ أشهر وقد اشتقتُ إليه!. قال: أردتِ سوءاً؟. قالت: معاذ الله!. قال: فاملكي عليك نفسكِ، فإنما هو البريد إليه، فبعث إليه.

ثم دخل على حفصة فقال: إني سائلك عن أمر قد أهمَّني، فأفرجيه عني؛ كم تشتاق المرأة إلى زوجها؟ فَخَفَضَتْ رأسها، واستحيت. قال: فإن الله لا يستحيي من الحق، فأشارت بيدها: ثلاثة أشهر، وإلا فأربعة أشهر، فكتب عمر أن لا تُحبس الجيوش فوق أربعة أشهر).

هكذا فليكن الرعاة، وهكذا فلتكن القرارات!! إن عمر لم يمهل الأمر حتى ينام ويستيقظ وبعدها يرسل البريد؛ فإن هذا وقت طويل في نظر الخليفة المسلم! فإن الخطر داهم، لا يحتمل التأخير، وليس هذا الحدث في نظره بأقل شأناً من فتح بلد من البلدان؛ إذ ليس عند عمر أمور عظيمة، وأخرى حقيرة، فكل ما هو في صالح المسلمين والحفاظ على عقيدتهم وأخلاقهم وبلادهم سواء في ميزان الفاروق، وأعظِمْ به من ميزان لا يجور.

يغزي الأعزب والفارس:

● وكان من القوانين الفذة والتشريعات العظيمة التي تفتَّقت عنها عبقرية الخلافة في عهد عمر أنه (كان يُغْزي الأعْزَب عن ذي الحَلِيلَة، ويُغْزي الفارس عن القاعد. وكان يعقب بين الغزاة، وينهى أن تُحمَل الذرّيّة إلى الثغور).

ذلك أن الشاب الأعزب لا يرتبط ذهنه بزوجة يهمه شأنها، كما أن الفارس أقوى وأقدر على الجهاد، وأهيب في صدور الأعداء.

وكذلك لا يترك المجاهدين فترة طويلة في المرابطة والجهاد؛ بل يتناوبون

في ذلك، ولا يحملون ذرياتهم، حتى لا تقعد بهم عن الجهاد والفتوحات، أو ينأى بهم الأمر للمكث هناك، وترك بلادهم وأهليهم.

لا يُجلد أحد الحدَّ قرب العدو:

● وتأمل الآن هذا التوجيه العُمري الفريد، والنظرة الثاقبة والرأي السديد، يرويه حكيم بن عمير فيقول: كتب عمر بن الخطاب: (ألا لا يجلدَنَّ أميرُ جيشٍ ولا سَرِيَّةٍ أحداً الحَدَّ حتى يطلع الدرب؛ لئلا تحمله حميَّةُ الشيطان أن يلحق بالكفار).

فعمر يعلم تمام العلم أن كل إنسان معرض لاجتراح السيئات، وارتكاب ما هو سوء ومنكر، كما أنه يدرك كذلك أن ليس كل الناس على درجة واحدة من الإيمان واليقين والاستسلام؛ فلرُبَّ إنسان أُوقع عليه الحدّ، والعقوبة الإلـٰهية الزاجرة العادلة، قد تؤدي به للنكوص عن طريق الحق، وإنفاذ الحدود قريباً من بلاد العدو قد يفسح المجال للشيطان أن يلعب بقلوب بعض الضِعاف؛ فيشردون إلى الكفار، هروباً من العدالة الربانية! فلْيدرأ عمر هذه المخاوف، ولْيحافظ على المسلمين بمستوياتهم المختلفة، وليكن ذلك بهذا التشريع اللّدني، يوجهه عمر، ويأمر القادة والأمراء بالتزامه.

إجلاء اليهود:

● ولقد كان عمر رضي الله عنه شديدَ الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، حريصاً على تنفيذ ما أشار إليه رسول الله ﷺ، أو أوحى إليه بعمله، لافحَ البأس على أعداء الله ورسوله والمسلمين، لا يمهلهم بالتمادي والطغيان، والتعدي على أي مسلم. وإذا كان بين المسلمين وبين غيرهم عهد أو عقد، ولاح من عدوّهم نقض له، سرّاً أو علانية؛ بادرهم عمر ببأسه العادل، وأنزل بهم حكم الله ورسوله دونما تريّث ولا هوادة!!.

فرسول الله ﷺ لمّا فتح خيبر أراد إخراج اليهود منها، فسألت اليهودُ

رسولَ الله ﷺ لِيُقِرَّهُم بها على أن يَكْفُوا عملها، ولهم نصف الثَّمَرِ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «نُقِرُّكُم بها على ذلك ما شِئْنا».

فلما توفي النبي ﷺ أقَرَّها أبو بكر بأيديهم على المعاملة التي عاملهم عليها رسول الله ﷺ حتى توفي، ثم أقرّها عمر صدراً من إمارته. لكنهم ما كانوا يتخلّون عن طبيعتهم، التي تخللت بأجسامهم، وسيطرت على أرواحهم، من المكر والخديعة والغدر.

فبينا عبد الله بن عمر في ماله هناك، فعُدِيَ عليه من الليل، فَفُدِعَتْ[1] يده ورجلاه، وكان قد عُدِيَ من قبلُ على أحد الأنصار، فقام عمر في الناس خطيباً فقال:

(أيها الناس، إن رسول الله ﷺ كان عامَلَ يهود خيبر على أنّا نخرجهم إذا شئنا، وقد عَدَوا على عبد الله بن عمر، ففدَعوا يديه، كما قد بلغكم، مع عدوتهم على الأنصاري قبله، لا نشكّ أنهم أصحابه، ليس لنا هناك عدو غيرهم، فمن كان له مال بخيبر، فليلحق به، فإني مُخرِج يهودَ).

وزاد من حرص عمر على ذلك ما بلغه من قول رسول الله ﷺ في مرضه الذي قبضه الله فيه: «لا يجتمعنّ بجزيرة العرب دينان».

ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبت، فأرسل إلى يهود فقال: (إن الله أذِنَ لي في إجلائكم)، وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان»، فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ فليأتني به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد فليتجهز للجلاء.

فلما أجمع عمر على ذلك، أتاه أَحَدُ بني أبي الحُقَيْقِ فقال: (يا أمير المؤمنين، أَتُخْرِجُنا وقد أقرّنا محمد، وعامَلَنا على الأموال، وشرط لنا ذَلك؟!.

فقال عمر: أظننتَ أني نسيتُ قولَ رسول الله ﷺ: «كيف بك إذا أُخْرِجت

---

(١) الفَدَع: هو مَيْل المفاصل وزوالها عن بعضها.

من خيبر تعدو بك قَلُوصُكَ[1] ليلةً بعد ليلةٍ[2]»؟!

فقال: كانت هذه هُزَيْلَةً[3] من أبي القاسم!

فقال عمر: كذبتَ يا عدوّ الله. فأجلاهم عمر، وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثَّمَرِ).

لا يدخل المدينة سَبْيٌ بلغ الحلم:

● وكان من القوانين العظيمة، والحصون المنيعة، التي حصَّن عمر بها مركز الخلافة؛ أن لا يدخل المدينة المنورة واحد من السبي قد بلغ الحلم، ومنع العلوج كذلك من دخولها، وذلك ليبقى مركز الدولة الإسلامية نظيفاً محصَّناً من خُبث هؤلاء، وليسلم الناس والدين من كيدهم ومكرهم وتآمرهم وحقدهم الدفين على الإسلام، الذي ثلَّ عروش طغيانهم، وحرَّر الناس من الأغلال التي كانت عليهم.

يحدّث ابن شهاب الزهري فيقول: (كان عمر لا يأذن لسبي قد احتلم في دخول المدينة، حتى كتب المغيرة بن شعبة ـ وهو على الكوفة ـ يَذْكُرُ له غلاماً[4] عنده صَنَعاً، ويستأذنه أن يُدْخِلَهُ المدينة، ويقول: إن عنده أعمالاً كثيرة، فيها منافع للناس؛ إنه حدّاد نقّاش نجار. فكتب إليه عمر، فأذِنَ له أن يُرْسِلَ به إلى المدينة).

ولما طُعن عمر رضي الله عنه، وعلم أن الذي غدر به هو هذا العِلْجُ[5] الكافر؛ عتب على ابن عباس وقال له: (لقد كنتَ أنتَ وأبوك تُحِبّان أن تكْثرَ العُلُوج بالمدينة.

---

(١) هي الناقة الصابرة على السير.
(٢) أشار ﷺ إلى إخراجهم من خيبر، وكان ذلك من إخباره بالمغيبات قبل وقوعها.
(٣) تصغير هزلة، واحدة الهزل، وهو ضد الجد.
(٤) هو الغادر الفاجر أبو لؤلؤة الذي قتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه.
(٥) العِلْجُ: هو الرجل من كفار العجم وغيرهم.

إن عمر المُحَدَّث الملهم الذي كانت له في عهد رسول الله ﷺ المواقف الحازمة، والبصيرة الخارقة، والرؤية الباصرة بالمنافقين وغدرهم وحنقهم على الإسلام ونبيِّه وأهله؛ هو هو عمر، الذي يدرك كل الإدراك أن الطواغيت الذين دُكَّتْ عروشهم لم يكونوا ليرضوا عن دين الله وجنده.

ولقد كان هذا القانون الباهر الذي أبرمه عمر من الإلهامات التي فاضت عليه من لدن حكيم خبير. وهو بمثابة حصن منيع شامخ لمدينة النبي ﷺ - عاصمة الخلافة - من رياح السموم، التي تلفح بها نفوس الشانئين على رسالة الحق والهدى والخير والنور، وكثيرٌ ما هم!!.

توسعة المسجد النبوي:

● ومن الأعمال الجليلة، والصنائع الخالدة، التي طوق بها عمرُ جِيدَ الزمان؛ توسعته للمسجد النبوي، فقد كثر المسلمون في عهد عمر، وضاق بهم المسجد، فاشترى أمير المؤمنين ما حوله من الدور، إلا دار العباس بن عبد المطلب، وحجر أمهات المؤمنين.

فقال عمر للعباس: (يا أبا الفضل، إن مسجد المسلمين قد ضاق بهم، وقد ابتعتُ ما حوله من المنازل، نوسّع به على المسلمين في مسجدهم؛ إلا دارَك وحُجَر أمهات المؤمنين، فأما حُجر أمهات المؤمنين فلا سبيلَ إليها، وأما دارك فبعنيها بما شئتَ من بيت مال المسلمين، أوسّع بها في مسجدهم. فقال العباس: ما كنتُ لأفعل. فقال له عمر: اخترْ مني إحدى ثلاث: إما أن تبيعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين، وإما أن أخطُّطكَ حيث شئتَ من المدينة، وأبنيها لك من بيت مال المسلمين، وإما أن تَصَدَّقَ بها على المسلمين، فنوسّع بها مسجدهم.

فقال: لا، ولا واحدة منها!!. فقال عمر: اجعل بيني وبينك من شئتَ. فقال: أُبَيّ بن كعب.

فانطلقا إلى أُبيّ، فقصَّا عليه القصة، فقال أبيّ: إن شئتما حدثتُكما بحديث

سمعتُه من النبي ﷺ؟. فقالا: حدِّثنا. فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أوحى إلى داود أنِ ابْنِ لي بيتاً أُذْكَر فيه، فخطَّ له هذه الخِطَّة - خِطَة بيت المقدس - فإذا تربيعها بيت رجل من بني إسرائيل، فسأله داود أن يبيعه إيّاه فأبى، فحدَّث داود نفسه أن يأخذ منه، فأوحى الله إليه أن يا داود أمرتُك أن تبني لي بيتاً أُذكَرُ فيه، فأردتَ أن تدخِلَ في بيتي الغَصْبَ، وليس من شأني الغَصْبُ! وإن عقوبتك أن لا تَبْنِيه. قال: يا رب فَمِنْ ولدي؟ قال: من ولدك»!!.

فقال عمر للعباس: اذهب فلا أَعْرِضُ لك في دارك. فقال العباس: أمَّا إذ فعلتَ هذا، فإني قد تصدَّقتُ بها على المسلمين، أوسّع بها عليهم في مسجدهم، فأما وأنت تخاصمني فلا).

يا لَبهاء الإنسان الرباني، ويا لَعظمة هذا الخليفة الفذ الفرد، ويالَسعادة الخلافة، ويا لَفَخَار الحكم؛ أن يكون فيه أمير المؤمنين عمر!!.

هو لا يريد أن يأخذ الدار لنفسه، أو لشأن بسيط من شؤون المسلمين، بل يريد توسعة مسجد رسول الله ﷺ، ببيت رجل من المسلمين، فيأبى عليه، فيسير الخليفة في عظمة التواضع، وقوة العدل، ليمثل أمام القضاء، ليقول الكلمة الفصل، والحكم العدل. ولا يتأبّى عمر أن يقف أمام القاضي، ولا يألم لذلك؛ بل يزداد غبطة وسروراً، لأنه سيجد من يشد عضده إن كان محقّاً، أو يهديه للصواب إن كان مخطئاً!!.

أفيطمع الطامع أن يصل إلى هذه القمم الشاهقة من العدل، التي تربع الفاروق على عرشها؟ ألا فلتسعد البشرية أن يكون فيها أبو حفص أميراً وحاكماً للمسلمين.

ولم يكن العباس رضي الله عنه بالذي يضنّ بكومة من التراب شيدت منها داره على مسجد النبي ﷺ بل أراد أن يعلّم الناسَ والدنيا أنْ ليس ثمة سلطانٌ أكبرُ من الحق، وليس لأية سلطة أن تغصب شبراً من ملكية أبسط إنسان في الدنيا، لأي غرض مهما سما وعلا! ويريد أن يبهر الدنيا بعبقرية وعدالة أمير المؤمنين، ويُرِيَ

الناسَ أنه بمقدور كل واحد أن يخاصم الخليفة المسلم إن كان هذا الحاكم حقاً يلتزم بشرع الله تعالى. ومن ثَمَّ رفض أن يعطي داره عندما خاصمه عمر، وبعد أن ظفر بالحكم القسط، تبرع بداره طيبة بها نفسُه، دونما طلب من أحد، ولا مجاراة لسلطان، أو رهبة لخليفة.

التعليم:

● ومن شوامخ فعاله في دولته العظيمة، أن شيَّدَ صرح التعليم عالياً شاهقاً، وأراد قبل كل شيء أن يكون صافي الأصول، خالص الوجهة ليس فيه شائبة تشويه، وقد استحضر آنئذٍ ذلك الموقف الذي حدث له مع رسول الله ﷺ عندما جاء عمر بصحيفة من التوراة، وقال للنبي ﷺ: ألا أعرضها عليك يا رسول الله؟ فتغيَّر وجه رسول الله ﷺ، فقال عمر من لحظته: (رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً)؛ فَسُرِّي عن رسول الله ﷺ، فقال: «والذي نفس محمد بيده لو أن موسى كان حيّاً ما وسعه إلا أن يتبعني».

لذلك لما عَلِمَ عمر بأن رجلاً من المسلمين قد نسخ كتب (دانيال)[1]، بعث وراءه، فأُتي به من مسكنه بالسوس[2]، فلما جاءه ضربه عمر بعصاً معه. فقال الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: (اجلس، فجلس، فقرأ عليه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ١ ـ ٣] فقرأها عليه ثلاثاً، وضربه ثلاثاً. فقال الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كُتب دانيال؟! قال: مُرْني بأمرك أتبعه. قال: انطلق فامحه بالحميم[3] والصوف الأبيض، ثم لاتقرأه أنت، ولاتقرئه أحداً من الناس، فلئن بلغني عنك أنك قرأته، أو أقرأته

---

(١) يذكر العهد القديم أن (دانيال) أحد أنبياء يهود.
(٢) هي مدينة في الأهواز.
(٣) أي: الماء الحار.

أحداً من الناس لأنهكنّك[1] عقوبة).

لقد أرادها عمر بيضاء نقية، صافية لا كدر فيها، ولم يرتضِ لأحد من الناس أن يخلط مع شرع الله أي شيء كان، فهو وحده الحق، ومن زاد أو نقص فقد افترى وتعدّى.

● وكان رضي الله عنه يعلّم الناس أمور الدين بنفسه، ويجلس للأعراب وأهل البادية، فقد جاءه ذات يوم رجل فقال: (يا أمير المؤمنين، إني رجل من أهل البادية، وإن لي أشغالاً، فأوصني بأمر يكون لي ثقة، وأبلغْ به. فقال: اعقل وأرني يدك، فأعطاه يده، فقال: تعبد الله لاتشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتحج وتعتمر وتطيع، وعليك بالعلانية وإياك والسرّ، وعليك بكل شيء إذا ذُكر ونُشر لم تستحِ منه، ولم يفضحك، وإياك وكل شيء إذا ذُكر ونُشر استحييت وفضحك. فقال: يا أمير المؤمنين، أعمل بهن، فإذا لقيت ربي أقول: أخبرني بهن عمر بن الخطاب؟ فقال: خذهن، فإذا لقيت ربك فقُلْ ما بدا لك).

● وبعث رضي الله عنه علماءَ الصحابة ليعلّموا الناس القرآن، ويفقهوهم في الدين؛ فأرسل إلى الشام ثلاثة من فقهاء الصحابة: معاذ بن جبل، وعُبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، ووجّههم إلى حمص أولاً، فكانوا بها، حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة، ورجع أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين.

وحبس عمر عنده زيدَ بن ثابت في المدينة المنورة، وإذا طلب الناس زيداً قال عمر: (أهل البلد يحتاجون إلى زيد، لأنهم يجدون عنده فيما يحدث لهم ما لا يجدون عند غيره). فجلس زيد بالمدينة، يفتي أهلها وكل قادم إليها.

● بل إن أمير المؤمنين أمر الباعة أن يتفقهوا في دين الله سبحانه، حتى لا يقعوا في الحرام، وكان يقول: (لا يبع في سوقنا هذا إلا من تفقه في الدين).

ويوجه الناس لآداب التعلم، والجلوس في حلقات العلم، فيقول: (تعلّموا

---

(١) أي: أبالغ في عقوبتك.

العلم، وعلِّموه الناس، وتعلَّموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منه، ولمن علمتموه، ولا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم بجهلكم[1]).

جمع الناس في التراويح وإنارة المسجد:

● وجمع الناس في (صلاة التراويح) على أُبيّ بن كعب، وكتب إلى سائر الأمصار يأمرهم بالاجتماع في قيام شهر رمضان؛ ليكون أدعى لوحدة الكلمة، والحفاظ على هذه الشعيرة العظيمة من الضياع، أو التهاون بأمرها.

● ونوَّر المساجد بالقناديل، فقد مرّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه على المساجد في شهر رمضان ـ وفيها القناديل ـ فقال: (نوَّر الله على عمر قبره، كما نوَّر علينا مساجدنا).

مبدأ من أين لك هذا:

● ووضع المبدأ العظيم في محاسبة الولاة والأمراء؛ وهو (من أين لك هذا)، وقد شهدت أيامه أمثلة باهرة لتطبيق هذا المبدأ البارع العادل الشامخ.

يقرِّب أهل السابقة:

●● وكان في مجلسه يقرِّب أهل السابقة، ومتقدمي الإسلام، وأصحاب البلاء فيه، فقد حضر أناس باب عمر، وفيهم سهيل بن عَمْرو، وأبو سفيان بن حرب، والشيوخ من قريش رضي الله عنهم، فخرج آذِنُه يأذن لأهل بدر كصهيب وبلال وعمار رضي الله عنهم.

فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قطّ! إنه يأذن لهذه العبيد، ونحن جلوس لا يلتفت إلينا!.

فقال سهيل بن عمرو: (أيها القوم، إني ـ والله ـ قد أرى الذي في وجوهكم،

---

(١) أي: ما تجهلونه أكثر مما تعملونه.

فإن كنتم غضاباً، فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القوم ودُعيتم، فأسرعوا وأبطأتم)!.

● وقسم ذات مرة مروطاً[1]، وكان فيها مِرْط جيّد واسع، فقال بعض من عنده: (إن هذا المرط لَثَمن كذا وكذا، فلو أرسلتَ به إلى زوجة عبد الله بن عمر صفية بنت أبي عبيد ـ وذلك حِدْثان[2] ما دخلت على ابن عمر رضي الله عنهما ـ فقال: أبعثُ به إلى من هو أحق به منها: أم عُمارة نُسيبة بنت كعب، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني»).

● بل إنه كان يقرّر إمامة الموالي لوجوه الناس؛ لما معهم من القرآن وتفوقهم به، فقد خرج ذات يوم إلى مكة فاستقبله أميرها نافع بن عبد الحارث رضي الله عنه، فقال له عمر: (مَن استخلفت على أهل مكة؟ قال: عبد الرحمن بن أَبْزَى. قال: عمدتَ إلى رجل من الموالي فاستخلفته على من بها من قريش وأصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، وجدُته أقرأهم لكتاب الله تعالى، ومكة أرض محتَضَرة[3]؛ فأحببتُ أن يسمعوا كتاب الله من رجل حسن القراءة. قال: نِعمَ ما رأيت، إن عبد الرحمن بن أَبْزَى ممن يرفعه الله بالقرآن)!!.

هذا هو القسطاس المستقيم، الذي يزن عمرُ الناسَ به، فأقربهم عنده أتقاهم لله، وأسبقهم إسلاماً، وأصدقهم إيماناً وهجرة، وأثبتهم في المشاهد، وأكثرهم ذوداً عن الدين ورسوله ﷺ، وأحفظهم لكتاب الله تعالى، ومن قصَّر به عمله، لا يُسْرع به نسبه.

● ● ●

---

(١) جمع مِرْط: وهو كساء من صوف ونحوه يؤتزر به.
(٢) أي: أول أمر زواجها.
(٣) أي: يحضرها الناس من العرب والعجم.

الفصل السادس

مكمِّلات في سيرته:
أولياته وكراماته وأقواله وخشيته مسؤولية الخلافة

أوَّليــاته:

تلــك ومضات مما قام به أميـر المؤمنين عمر، فلقد كان ـ حقـاً ـ رجلاً شاهقاً، فذّاً فرداً، وقد شهدت أيام خلافته غير ذلك الكثير من جلائل الأعمال، التي وطّد بها بنيان الدولة الإسلامية الشامخ الصلب، فلقد كان يسابق الزمان، فسبق الناس إلى كثير من الأعمال:

فهو أول من كتب التأريخ الهجري، وأول من جمع الناس على إمام واحد في التراويح، وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز على أربع تكبيرات، وأول من عَسَّ بالليل، وأول من عاقب على الهجاء، وأول من ضرب في شرب الخمر ثمانين جلدة، وأول من أخذ زكاة الخيل، وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد، وأول من دوَّن الديوان وفرض للناس الأعْطِيَةَ من الفَيء، وأول من حمل الطعام في السُّفن من مصر في البحر إلى المدينة، وأول من وقف أرضاً يُتَصَدَّق بِغَلَّتها، وأول من اتّخذ الدِّرَّة، وأول من مصَّر الأمصار، وأول من استقضى القضاة في الأمصار، وأول من مسح السواد وأرض الجبل، ووضع الخراج على الأرضين، وأول من بسط الحصى في المسجد النبوي.

كرامــاته:

هذا الرجل الإمام، العَلَم المُعَلِّم المُحَدَّث المُفَهَّم، الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم نـاس مُحَدَّثون، فإن يكُ في أمتي أحدٌ فإنه

عمر»؛ قد صدرت منه أحوال، وكانت له مواقف تبرهن على إلهامه، وتدلّ على تفرُّده وتفوُّقه، وتشي بعظمة منزلته، وكرامته على ربه سبحانه وتعالى.

● أرسل ساريةَ بن زُنَيم[1] أميراً على جيش، ووجهه إلى بلاد فارس، وبينا عمر يخطب الناس يوم جمعة إذ قطع الخطبة، ونادى: (يا ساريةُ الجبلَ، يا ساريةُ الجبلَ، يا ساريةُ الجبلَ، ظلمَ من استرعى الذئبَ الغنمَ)!! ثم أقبل على خطبته فأتمها.

والتفت الناس بعضهم لبعض دهشين متعجبين، أين صوت عمر من أن يسمع سارية على هذه الأبعاد المتطاولة والمفاوز المترامية؟!.

ولما فرغ، دخل عليه عليّ بن أبي طالب، فسأله عن قوله، وجاء عبد الرحمن ابن عوف، وقال لعمر: (لشدّ ما ألومهم عليك، إنك لَتجعلُ لهم على نفسك مقالاً! بينا أنت تخطب، إذ أنت تصيح: يا سارية الجبل، أي شيء هذا)؟!.

فقال عمر: (إني والله ما ملكتُ ذلك، رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتَوْنَ من بين أيديهم ومن خلفهم، فلم أمِلك أن قلت: يا سارية الجبل، ليلحقوا بالجبل).

فلبثوا إلى أن جاء رسول سارية بكتابه:

(إن القوم لقونا يوم الجمعة، فقاتلناهم، حتى إذا حضرت الجمعة، ودار حاجب الشمس، سمعنا منادياً ينادي يا سارية الجبل، فلحقنا بالجبل، فلم نزل قاهرين لعدوّنا، حتى هزمهم الله وقتلهم)!!.

فقال أولئك الذين طعنوا على عمر واستغربوا قوله: (دَعُوا هذا الرجل فإنه مصنوع له).

إن اهتمام عمر بأمر المسلمين، وخوفه عليهم أن يُهزموا، فيُقتل منهم أناس؛ قد شغل عليه كل حياته وفكره، حتى لقد أكرمه الله بهذا الحدث الجليل،

---

(١) صحابي من الشعراء القادة الفاتحين.

الذي اخترقت فيه الروح المسافات، وحملت الكلمات، لتتخاطب بها القلوب، وتعيها الأسماع، فسبحان الذي خلق فسوّى، وقدَّر فهدى.

● ولما فتح عمرو بن العاص مصر أتى إليه أهلها ـ حين دخل شهر (بؤنة) من أشهر العجم ـ فقالوا: (أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سُنَّةً لا يجري إلا بها.

فقال لهم: وما ذاك؟.

قالوا: إذا كان لثنتي عشرة ليلة خلَت من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل!.

فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله.

فأقاموا (بؤنة)، والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً، حتى همّوا بالجلاء. فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك.

فكتب إليه عمر: قد أصبتَ بالذي فعلتَ، وإني قد بعثتُ إليك بطاقة داخل كتابي هذا، فألقها في النيل.

فلما قدم كتابه، أخذ عمرو البطاقة، فإذا فيها: من عبد الله عمرَ أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد: فإن كنتَ إنما تجري من قِبَلك، ومن أمرك، فلا تجرِ، فلا حاجة لنا فيك، وإن كنتَ إنما تجري بأمر الواحد القهّار ـ وهو الذي يجريك ـ فأسأل الله تعالى أن يجريك.

فألقى عمرو البطاقة في النيل، فأصبحوا يوم السبت، وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقطع الله تلك السُّنَّة عن أهل مصر إلى اليوم).

● وكان رضي الله عنه يكره الأسماء التي تحمل معاني مرغوباً عنها، وينفر منها، ويحذر صاحبها، وينطق بكلمات يجري بها الحق والصواب على لسانه، يقول عبد الله بن عمر: (قال عمر بن الخطاب لرجل: ما اسمك؟. قال: جمرة.

قال : ابن مَنْ؟ قال : ابن شهاب . قال : ممن؟ قال : من الحُرَقة . قال : أين مسكنك؟ قال : الحَرَّة. قال : بأيّها؟ قال : بذات لظىً. فقال عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا. فرجع الرجل فوجد أهله قد احترقوا)!! .

● ولقد بلغ به حبُّه للصدق ومَقْتُه للكذب، أن روحه الطاهرة، وبصيرته الواعية، لتدرك الكذب عندما يتخلل الحديث، ويميزه، كما يميز الصائغ الحجر من الجوهر.

يقول طارق بن شهاب: (إن كان الرجل ليحدث عمرَ بالحديث، فيكْذِبه الكذبة، فيقول: احبس هذه، ثم يحدثه بالحديث، فيقول: احبس هذه. فيقول له: كل ما حدثتك حق إلا ما أمرتني أن أحبسه)!! .

وليس هذا بغريب من رجل قال فيه النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى : «إن الله جعل الحق على لسانِ عمرَ وقلبِه».

من أقواله ومواعظه وخطبه:

ولقد جرت على لسانه ـ رضي الله عنه ـ ينابيع الحكمة، وفاضت قريحته الزكية بمواعظ وعِبَر، هي أشبه ما تكون بكلام النبوة، غير أنها ليست من الوحي، بل فيض من لدن الفتاح العليم.

● قال للناس ناصحاً ومرشداً: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزِنُوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تُحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيَّنوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة : ١٨]).

● ونهى عن كثرة الضحك والكلام، لما فيه من عواقب وخيمة، فقال للأحنف: (يا أحنف، مَنْ كثُر ضحكه قلَّت هيبتُه، ومن مزح اسْتُخِفَّ به، ومن أكثر من شيءٍ عُرف به، ومن كثُر كلامه كثر سَقَطه[1]، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه،

---

(١) أي: زلاّته.

ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه).

● ولقد كان يعرف الصاحب الحق، والصديق الصدق، وكان من نصائحه للناس قوله: (لا تعترض فيما لا يعينك، واعتزل عدَّوك، واحتفظ من خليلك إلا الأمين، فإن الأمين من القوم لا يعادله شيء، ولا تصحب الفاجر، فيعلِّمك من فجوره، ولا تُفْشِ إليه سرَّك. واستشرْ في أمرك الذين يخشَون الله عزَّ وجلّ).

● وقال مادحاً أولئك العباد العارفين المخلصين، الذين استقامت بهم طريقتهم، فوصلوا إلى دار السلام بسلام: (إن لله عباداً يميتون الباطل بهجره، ويحيون الحق بذكره، رُغِّبوا فرغبوا، ورهِّبوا فرهبوا، خافوا فلا يأمنون، أبصروا من اليقين ما لم يعاينوا، فخلطوه بما لم يزايلوه، أخلصهم الخوف، فكانوا يهجرون ما ينقطع عنهم لما يبقى لهم، الحياة عليهم نعمة، والموت لهم كرامة، فزوِّجوا الحور العين، وأُخدِموا الولدان المخلَّدين).

● ومن دعواته المأثورة تلك التي يقول فيها: اللهم إني أعوذ بك أن تأخذني على غِرَّة، أو تذرني في غفلة، أو تجعلني من الغافلين.

(اللهم اعصمنا بحبلك، وثبِّتنا على أمرك).

(اللهم توفَّني مع الأبرار، ولا تخلفني في الأشرار، وقني عذاب النار، وألحقني بالأخيار).

● ولقد وضع للناس ثماني عشرة كلمة، حِكَمٌ كلُّها؛ قال: (ما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وضَعْ أمر أخيك على أحسنه، حتى يجيئك منه ما يغلبك. ولا تظننَّ بكلمة خرجت من مسلم شراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً. ومن عرَّض نفسه للتُّهم، فلا يلومنَّ من أساء به الظن. ومن كَتَم سرَّه كانت الخِيَرة في يده. وعليك بإخوان الصدق تَعِشْ في أكنافهم؛ فإنهم زينة في الرخاء، وعدة في البلاء. وعليك بالصدق وإن قتلك. ولا تعرض فيما لا يعني. ولا تسأل عمّا لم يكن؛ فإنَّ فيما كان شغلاً عمّا لم يكن. ولا تطلبنَّ حاجتك إلى من لا يحب نجاحها لك. ولا تَهَاونْ بالحَلِف الكاذب فيهلكَك الله. ولا تصحب

الفجّار لتتعلم من فجورهم. واعتزل عدوّك واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله. وتخشَّع عند القبور، وذلَّ عند الطاعة. واستعصم عند المعصية. واستشرْ في أمرك الذين يخشون الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]).

● ومن خطبه الجامعة، وكلماته البارعة، وتوجيهاته الرائعة، قوله:

(إن الله إنما ضرب لكم الأمثال، وصرف لكم القول لتحيا القلوب، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله.

من علم شيئاً فلينتفع به، فإن للعدل أمارات وتباشير: فأما الأمارات: فالحياء والسخاء، والهين واللّين. وأما التباشير: فالرحمة.

وقد جعل الله لكل أمر باباً، ويسّر لكل باب مفتاحاً: فباب العدل الاعتبار، ومفتاحه الزهد. والاعتبار ذكر الموت، والاستعداد بتقديم الأموال. والزهد أخذ الحق من كل أحد قِبَله حقّ، والاكتفاء بما يكفيه من الكفاف، فإن لم يكفه الكفاف لم يغنِهِ شيء.

إني بينكم وبين الله، وليس بيني وبينه أحد، وإن الله قد ألزمني دفع الدعاء عنه؛ فانهوا شكاتكم إلينا، فمن لم يستطع، فإلى من يبلغناها نأخذ له الحق غير مُتَعْتَع[1]).

ولما توجه لفتح بيت المقدس، نزل الجابية، وخطب الناس فيها خطبةً طويلة بليغة، منها قوله: (أيها الناس أصلحوا سرائركم، تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم، تكفوا أمر دنياكم، واعلموا أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أب حيّ لَمُعْرَقٌ له في الموت[2]، ولا بينه وبين الله هوادة، فمن أراد لَحْبَ ـ طريق ـ وجه الجنة

(١) أي: من غير أن يُصيبه أذىً يُقلقِله ويُزعِجه.
(٢) أي: إن له فيه عِرْقاً، وإنه أصيل في الموت.

فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ولا يخلونَّ أحدكم بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرّته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن).

تواضعه وخشيته:

والعجيب في هذا الإنسان الفريد ـ وكل أمره عجيب وعظيم ـ أنه كان على درجة من التواضع لا يُطمع بالوصول إليها، وليس شيء يميز الطبائع السويّة المستقيمة أعظم من نأيها عن الغرور.

ولو كان في الدنيا رجل لا بد للغرور أن يقتحم أسوار نفسه المنيعة؛ لكان عمر، لكثرة مزاياه، وتفوّق خصائصه، وروعة أمجاده، وتزاحم انتصاراته، وكثرة فتوحاته المظفرة.

فهو الرجل الذي دخل الإسلامَ بقوة، وجهر به كالشمس، لا يعبأ بظلام الشرك، واستعلن به، ونعته النبي ﷺ بالفاروق، وهاجر جهاراً نهاراً، وخاض تحت لواء النبي ﷺ المعارك، وحضر المشاهد، وتنزّل الوحي بتأييد آرائه في غير ما موضع.

ثم يُضحي خليفة المسلمين الثاني، فتتفتح له بوابات الدنيا، وتُلقى كنوزها بين يديه، وتتحطم على أيدي جنده حصون فارس والروم، ويمصِّر الأمصار، ويدوِّن الدواوين، ويفرض للناس رواتبهم، حتى المواليد منهم، ويعسّ بالمدينة، ليكشف الكروب المخبوءة، ويقوم بنفسه على خدمة الأيامى واليتامى والجياع، ويحاسب الولاة بالقسطاس المستقيم، ويبني الدولة الشامخة على أسس من الحق والعدل الباهر، ويعلّم الناس ويقضي بينهم، ويسبق الدنيا بأولياته المتكاثرة.

ومع كل هذا السجلّ المترع بالعظائم، لم يستطع الغرور أن يجد ثغرة يخترق منها، بل تكسَّرت كل محاولاته أمام هذا الرجل الفذّ والخليفة العظيم.

● ها هو ذا قد جمع الناس ذات يوم، ثم رقي المنبر، فحمد الله، وأثنى

عليه، ثم قال: (أيها الناس، لقد رأيتني وما لي من أكال[1] يأكله الناس إلا أن لي خالات من بني مخزوم، فكنت أستعذبُ لهن الماء، فيُقَبِّضْنَ لي القَبَضات من الزبيب). ثم نزل عن المنبر. فقيل له: ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: (إني وجدتُ في نفسي شيئاً، فأردت أن أطأطىءَ منها)!!.

● وخرج ـ رضي الله عنه ـ في يوم حار، واضعاً رداءه على رأسه، فمرّ به غلام على حمار، فقال: (يا غلام احملني معك، فوثب الغلام عن الحمار، وقال: اركب يا أمير المؤمنين. قال: لا، اركب وأركب أنا خلفك، تريد أن تحملني على المكان الوطيء وتركب أنت على الموضع الخشن! فركب خلف الغلام، فدخل المدينة وهو خلفه، والناس ينظرون إليه).

● وكان وقّافاً عند كتاب الله، شديد الخشية منه سبحانه، كثير العفو واسع التسامح إذا ذكِّر بالله. صاح يوماً على رجل وعلاه بالدِّرَّة، فقال الرجل: أذكّرك بالله! فطرحها عمر، وقال: (ذكَّرْتَني عظيماً).

● وكان شديد المحاسبة لنفسه، يحملها على الترقي الدائم في درجات الكمال والتقوى، والخوف من الله سبحانه، حتى إنه إذا أخطأ بحقّ أحد الرعية، امتثل أمامه في تواضع جمّ، وطلب منه القصاص العادل. يحدث الأحنف فيقول:

(كنت مع عمر بن الخطاب، فلقيه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، انطلق معي، فأعِدني على فلان، فإنه ظلمني. قال: فرفع الدِّرَّة فخفق بها رأسه، وقال: تَدَعُون أمير المؤمنين وهو مُعرَّض لكم، حتى إذا شُغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه: أعدني، أعدني؟! فانصرف الرجل وهو يتذمَّر.

قال: عَلَيَّ الرجلَ، فألقى إليه المخفقة، وقال: امتثل. فقال: لا والله، ولكن أدعها لله ولك. قال: ليس هكذا، إما أن تدعها لله إرادة ما عنده، أو تدعها لي، فأعلم ذلك. قال: أدعها لله.

---

(١) أي: مأكل.

فانصرف، ثم جاء يمشي، حتى دخل منزله ونحن معه، فصلّى ركعتين، وجلس، فقال: يا ابن الخطاب، كنتَ وضيعاً فرفعك الله، وكنتَ ضالاً فهداك الله، وكنتَ ذليلاً فأعزَّك الله، ثم حملك على رقاب الناس، فجاءك رجل يستعديك فضربته؟! ما تقول لربك غداً إذا أتيته؟! فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبة، حتى ظننا أنه خير أهل الأرض).

هكذا يا أمير المؤمنين: (ما تقول لربك غداً)! إن عمر لم يكن في شأن نفسه ساعتئذٍ، بل كان في شغل المسلمين، واعترضه ذلك الرجل، ووقعت من عمر فلتة عارضة، فوضع رقبته للقصاص العادل، لكن ذلك الرجل غفر له، وسامحه، واحتسبها عند الله تعالى، ومع ذلك كله يعاتب عمر نفسه تلك المعتبة الشديدة، ويخاف أن يحاسبه ربه على مثل هذه الهفوات! إنها عدالة العظماء، وعظمة العادلين!!.

● وكان شعاره الدائم الذي أعلنه صريحاً مدوياً بين الناس: (أحبُّ الناس إليَّ مَنْ رَفَعَ إليَّ عيوبي).

يقول أنس بن مالك: (سمعتُ عمر بن الخطاب يوماً، وخرجتُ معه حتى دخل حائطاً[1]، فسمعته يقول ـ وبيني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط ـ: عمر ابن الخطاب، أمير المؤمنين، بَخٍ والله بُنَيَّ الخطّاب، لتتقينَّ الله أو ليُعذِّبَنَّكَ)!!.

● وكان رضي الله عنه يقول: (يا ليتني كنت كبش أهلي، سمَّنوني ما بدا لهم، حتى إذا كنت كأسمن ما يكون، زارهم مَنْ يحبون، فذبحوني لهم، فجعلوا بعضي شِواءً، وبعضي قَدِيداً، ثم أكلوني، ولم أكن بشراً).

وحتى لا ينسى الحساب، ويكون دائماً على استحضار للآخرة، ورهبة منها؛ كان نقش خاتمه: (كفى بالموت واعظاً يا عمر).

---

(١) الحائط: البستان من النخيل.

● بل بلغت به الخشية الضاغطة، والحياء الداهم، وخوف الموقف والحساب بين يدي الله تعالى؛ أنه لما احْتُضِرَ، وكان رأسه في حِجر ابنه عبد الله، قال:

ظَلومٌ لِنَفْسي غيرَ أني مُسلِمٌ   أُصلِّي الصلاةَ كُلَّها وأصومُ

أَبَعْدَ كل تلك الأوسمة والمناقب والفضائل والمكرمات، يقول: (ظلوم لنفسي)؟! نعم، لقد تربى عمر في مدرسة القرآن على يدي رسول الله ﷺ، وعلاقته بالله لم تكن بواعثها الفزع، بل حب الله وخشيته، والحياء منه. ولم يكن يخطر بباله إلا أن يعمل ما يرضي الله ويحب؛ لأنه يعلم أن الله سبحانه قد أفاء عليه نعمة الإيمان، واستخلفه على الناس من محض فضله سبحانه، وقد آثره بذلك على غيره، وكان من الممكن أن يختص بها غيره، لذا كان عمر يستحضر كل ذلك؛ فينكمش، ويذوب أمام فضل الله تعالى وعطاياه له، حتى كان يردد: (بخٍ واللهِ بُنَيَّ الخطّاب، لتتقينَّ الله أو ليُعَذِّبَنَّك).

إنه تواضع العظماء الذين عرفوا حق الله، وحقوق الناس، وحقوق الحُكْمِ والخلافة، فعرفوا أقدار أنفسهم، فتواضعوا لله أَمْثَل ما يكون التواضع، وأنابوا له أَرْفَع ما تكون الإنابة.

● ● ●

الفصل السابع

استشهاده ومراثيه وأسرته

استشهاده:

مثل هذا الرجل العظيم، والخليفة المنقطع النظير، الذي زلزل عروش الظالمين، ودكَّ قلاع الأكاسرة والقياصرة، وخضعت لعدالته الجبابرة والأباطرة، وهَوَتْ عناكب الظلم والطغيان أمام رايات عدله الخفاقة، وفتوحاته المظفرة، فأرغم أنوف الروم، وحطَّم كبرياء الفرس، وأخرج اليهود من جزيرة العرب؛ لغدرهم ونقضهم العهود. . .

مثل هذا الخليفة لم تكن قوى الشر والظلم والتجبر في الأرض لتسكت عنه، أو ترضى بأعماله التي عصفت بتيجانهم، وأنزلتهم من قصورهم صاغرين.

لم يكن لكيد يهود، وحنق الفرس، وخبث الروم؛ أن يتركوا أبا حفص يموت على فراشه مثل بقية الناس.

فلقد كانت المؤامرات الخبيثة، الماكرة الشانئة، الحاقدة الحانقة؛ تُحاك في الظلام، لتأخذ هذا الإمام العادل على غِرَّة!!.

وما كان لجيش لجب أن يجرؤ على الوقوف أمام هيبة الفاروق في وضح النهار؛ فلقد كانت دِرَّته أهيب في نفوسهم من السيوف الباترة.

فلتنفَّذ الجريمة السوداء في الليل البهيم، فإن الخفافيش لا ترى في النور!!.

البُشـريات:

● ولقد كان أمير المؤمنين رضي الله عنه يتطلع للشهادة ويتمناها، وكأنه على يقين بها، وقد تذكر ذلك المشهد الجليل، عندما صعد النبي ﷺ جبل أُحُد، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فَرَجَفَ بهم الجبل، فقال رسول الله ﷺ «اثبُتْ أُحُد، فإنّما عليك نبيٌّ، وصدِّيقٌ وشهيدان».

وبينا عمر ذات يوم مع رسول الله ﷺ، وقد أبصر النبي ﷺ على عمر ثوباً فقال له: «أجديد ثوبك أم غسيل»؟ قال: بل غسيل. قال: «البس جديداً، وعش حميداً، ومت شهيداً، ويرزقكَ اللهُ قُرَّةَ عين في الدنيا والآخرة».

فكانت نفس عمر تتوق لهذه البشرى، وتتطلع لتلك المنزلة الرفيعة، ويتمنى ذلـك، فيدعـو ويقول: (اللهم ارزقني شـهادةً في سبيلك، واجعل مـوتي في بلد رسولك).

وتسأله ابنته حفصة، فتقول: (وأنّى ذلك)؟

فيجيبها: (إنّ الله يأتي بأمره أنّى شاء).

ويجأر إلى الله تعالى ألا يجعل قتله على يد مؤمن، فيدعوه قائلاً: (اللهم لا تجعل قتلي على يدي عبد قد سجد لك سجدة يحاجنّي بها يوم القيامة).

● وبينا عمر ذات يوم في أصحابه، إذ يتذكر قول رسول الله ﷺ: «هذا غَلَق الفتنة ـ وأشار بيده إلى عمر ـ لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغَلَق ما عاش هذا بين أظهركم».

فيسأل جلساءه قائلاً: (أيكم يحفظ قولَ رسول الله ﷺ في الفتنة؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ كما قال. قال: هاتِ، إنك لجريء. قال: قال رسول الله ﷺ: «فتنة الرجل في أهلـه وماله وجاره، تكفِّرهـا الصلاة والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

قال: ليست هذه، ولكن التي تموج كموج البحر. قال: يا أمير المؤمنين، لا بأس عليك منها، إن بينك وبينها باباً مغلقاً! قال: يُفتح الباب أو يُكسر؟ قال: لا ، بل يُكسر. قال: ذاك أحرى أن لا يُغْلَقَ. قلنا: عَلِمَ الباب؟ قال: نعم، كما أن دون غدٍ الليلة! إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط. فهبْنا أن نسأله، وأمرنا مسروقاً فسأله، فقال: من الباب؟ قال: عمر)!!.

● وفي آخر حجة حجها أمير المؤمنين، سنة ثلاث وعشرين، وقبل أن يفيض الناس من عرفات، ينظر عمر، فيرى تكبير الناس ودعاءهم وما يصنعون، فأعجبه ذلك، وتوجه إلى حذيفة ـ وكان بجنبه، حتى إن ركبته لتمس ركبته ـ فقال: (يا حذيفة، كمْ ترى هذا يبقى للناس؟ فقلت: على الفتنة باب، فإذا كُسِرَ الباب، أو فُتِحَ خرجتْ! ففزع فقال: وما ذلك الباب؟ وما كَسْرُ باب، وما فَتْحه؟ قلت: رجل يموت أو يُقْتَلُ! فقال: يا حذيفة، من ترى قومك يؤمّرون بعدي؟ قال: قلتُ: رأيتُ الناس قد أسندوا أمرهم إلى عثمان)!!.

لقد كان عمر يعلم أنه هو الباب الذي سيكسر، وما إن ذكّره حذيفة بذلك في ذلك اليوم العظيم؛ حتى قال عمر له: (مَن ترى قومك يؤمِّرون بعدي)!!.

وبعد أن أفاض من مِنىً (أناخ بالأبطح، فكوَّم كومة من بِطحاءَ[1]، وطرح عليها طَرَفَ ثوبه، ثم استلقى عليها، ورفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم كَبِرَتْ سِنّي، وضَعُفَتْ قوّتي، وانتشرتْ رَعِيَّتي، فاقبِضْني إليك غير مضيِّع ولا مفرِّط). فما انسلخ ذو الحجة حتى قُتل!!.

ثم قال بعد انصرافه من الحج: (الحمد لله، ولا إله إلا الله، يعطي من يشاء ما يشاء، لقد كنت بهذا الوادي ـ يعني ضَجْنانَ ـ أرعى إبلاً للخطّاب ـ وكان فظاً غليظاً، يتعبني إذا عملتُ، ويضربني إذا قصّرتُ ـ وقد أصبحتُ وأمسيتُ وليس بيني وبين الله أحد أخشاه)!! ثم تمثّل:

---

(١) هي الحَصى الصغار.

لا شــيءَ ممّـا تَـرى تبقـى بشـاشتُـهُ ... يبقى الإلـهُ ويُودي[1] المالُ والولدُ
لـم تغـنِ عـن هُـرْمُـزٍ يـومـاً خـزائنُـهُ ... والخلدَ قد حاولتْ عادٌ فما خلدُوا
ولا سليمـان إذ تجـري الـريـاح لـه ... والجـنُّ والإنـسُ فيمـا بينهـا تـردُ
أيـن الملـوك التـي كـانـت لعـزَّتهـا ... مـن كـل أوبٍ إليهـا وافـد يَفِـدُ؟
حـوضٌ هنـالـكَ مـورودٌ بـلا كَـذِبٍ ... لا بـدَّ مَـن ورده يـومـاً كمـا وردوا

● وفي آخر جمعة من أيام خلافته، قام في الناس خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: (أما بعد: أيها الناس، إني أُريتُ رؤيا، لا أراها إلا لحضور أجَلي، رأيتُ أن ديكاً أحمرَ نقرني نَقْرَتَين، فحدَّثتها أسماءَ بنت عُميس، فحدَّثتني أنه يقتلني رجل من الأعاجم)!!.

وتواطأت رؤيا عمر بالشهادة مع رؤيا أبي موسى الأشعري، الذي يحدّث عن ذلك فيقول: (رأيتُ كأني أخذتُ جَوَادَّ كثيرة، فاضمحلَّت، حتى بقيت جادَّة واحدة، فسلكتُها، حتى انتهيتُ إلى جبل؛ فإذا رسول الله ﷺ فوقه، وإلى جنبه أبو بكر، وإذا هو يومئ إلى عمرَ أن تعالَ!! فقلتُ: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات والله أمير المؤمنين). فقال أنـس بن مالـك: (ألا تكتبُ بهذا إلى عمر؟ فقـال: ما كنتُ لأنعى له نَفْسَه).

البدايـات:

● ودنا الأجل المحتـوم، وتحركت يد المكر والكيد ميمِّمة شـطر المدينة المنورة، حيث دخلها أبو لؤلؤة فيروز، المجوسي الأصل، الرومي الدار، غلام المغيرة بن شعبة، حيث كتب المغيرة إلى عمر يستأذنه أن يُدْخِلَ أبا لؤلؤة المدينة ـ وكان عمر لا يأذن لسَبْيٍ قد احتلم في دخولها ـ لأن عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس، فهو حداد نقاش نجار؛ فأذن له عمر رضي الله عنه. وضرب عليه المغيرة أربعة دراهم كل يوم نظير إذنه له بالاتّجار.

---

(١) أي: يهلك.

وكان أبو لؤلؤة خبيثاً ماكراً، إذا نظر إلى السَّبْي الصغار يأتي فيمسح رؤوسهم ويبكي ويقول: (إن العرب أكلت كبدي).

وهذه العبارة وحدها كافية بإلقاء الضوء عما انطوى عليه قلبه من حقد، وما فيه من ظلمات سوداء، وكيد وحنق على المسلمين، الذين حملوا راية الحق، وعلى رأسهم الخليفة العادل، رضي الله عنه.

وجاء أبو لؤلؤة إلى عمر يشتكي إليه شدة الخَراج، فقال: يا أمير المؤمنين، إن سيدي المغيرة يكلفني ما لا أطيق من الضريبة! قال عمر: وكم كلفك؟ قال: أربعة دراهم كل يوم. قال: وما تعملُ؟ قال: الأرْحاء، وسكت عن سائر عمله. فقال: في كم تعمل الرحى؟ فأخبره. قال: بكم تبيعها؟ فأخبره. فقال: لقد كلَّفك يسيراً، انطلِقْ فأعط مولاك ما سألك.

فلما ولّى قال عمر: ألا تجعل لنا رحىً؟ قال: بلى، أجعل لك رحىً يتحدث بها أهل الأمصار! ففزع عمر من كلمته، وأقبل على الرهط الذين معه فقال لهم: أوعدني العبد آنفاً!.

وانصرف أبو لؤلؤة ساخطاً يتذمر، ويقول: يسعُ الناسَ كلهم عدلُه غيري؟!.

هكذا يقول هذا الخبيث الغادر، ويتَّهم عمر بالجَوْر في الحكم والقضاء!! أفهذا رجل يريد الحق، أم أنه انطوى على حقد وغدر؟! أفإن حكم الفاروق بالأمر، ولم يَرُقْ حكمه لأبي لؤلؤة يصبح عمر جائراً ظالماً؟ لكنَّ أبا لؤلؤة ما كان بالذي يريد الحق، وما جاء إلا لتنفيذ المؤامرة الرهيبة، وما كان أمير المؤمنين بالذي يستحقّ القتل لمثل هذا الموقف، حتى ولو كان غير عادل، وحاشاه من ذلك!!.

واغتنم الهرمزان ـ الذي أظهر إسلامه ـ الفرصة، فتآمر مع أبي لؤلؤة على قتل عمر بن الخطاب، وتمالأ معهما جفينة النصراني الغادر، فكانت المؤامرة التي نفذها أبو لؤلؤة، الذي لا يعدو كونه آلة بيد الهرمزان.

يحدِّث عبد الرحمن بن أبي بكر غداة استشهاد أمير المؤمنين عمر؛ فيقول:

(مررت على أبي لؤلؤة عشي أمس ومعه جفينة والهرمزان، وهم نجيّ، فلما رهقتهم ثاروا، وسقط منهم خنجر له رأسَان نصابه في وسطه، فانظروا بأي شيء قتل)؟ .
وخرج في طلبه رجل من بني تميم، فرجع إليهم التميمي ـ وقد كان ألظَّ بأبي لؤلـؤة منصرفه عن عمر حتى أخذه ـ وجاء بالخنجر الذي وصف عبد الرحمن بن أبي بكر! .

تنفيذ الجريمة:

وأضمر أبو لؤلؤة قتل عمر، واتخذ خنجراً ذا رأسين، نصابه في وسطه، وشحذه وسمَّه. وفي صبيحة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة كَمَنَ هذا العِلْجُ في زاوية من زوايا المسجد في غلس السَّحَر، ينتظر خروج عمر.

وكان عمر إذا مرَّ بين الصفّين قال: استووا، حتى إذا لم يَرَ فيهم خللاً، تقدَّم فكبَّر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل، أو نحو ذلك في الركعة الأولى؛ حتى يجتمع الناسُ، فما هو إلا أن كبَّر حتى انقضَّ عليه أبو لؤلؤة فطعنه ثلاث طعنات، إحداهن تحت السرّة قد خرقت الصفاق، وهي التي قتلتـه رضي الله عنه. فقال عمر: دونكم الكلبَ قد قتلني. وطار العِلْجُ بسكِّينٍ ذات طرفين، لا يمرّ على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثةَ عشر رجلاً، مات منهم سبعةٌ، فلما رأى ذلك رجل من المهاجرين يقال له: حطان التميمي طرح عليه بُرْنُساً؛ فلما ظن العِلْجُ أنه مأخوذ نحرَ نفسَه!! .

● وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدَّمه للصلاة، فمن يلي عمرَ فقد رأى الذي حدث، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون، غير أنهم فَقَدوا صوتَ عمر، وهم يقولون: سبحان الله، سبحان الله. فصلى بهم عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة بأقصر سورتين في القرآن: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، و﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾.

واحتمل عمر وهو يقول: وكان أمر الله قدراً مقدوراً! وحُمل وجرحه يَثْعَبُ دماً، وجَعَل يُغمى عليه ثم يفيق، ونظر في وجوه صحبه، فقال: أَصَلَّى الناس؟!

فقالوا: نعم. قال: لا إسلام لمن ترك الصلاة. ثم أُغمي عليه، والمسلمون يذكرونه بالصلاة ويقولون: يا أمير المؤمنين، الصلاة قد صُلِّيَتْ. فانتبه فقال: الصلاة هاءَ الله إذاً، ولاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة! ثم أخذ بيد ابنه عبد الله، فأجلسه خلفه، وتساند إليه، وجراحه تَثْعَبُ دماً ـ حتى إن عبد الله بن عمر ليضع أصبعه الوسطى فما تسد الرَّتْق ـ فتوضأ، ثم صلّى الصبح، فقرأ في الأولى ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ وفي الثانية ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وإن جرحه ليثعب دماً.

ودخل الناس عليه، فقال: يا عبد الله بن عباس، اخرُج فنادِ في الناس، أيها الناس، إن أمير المؤمنين يقول: أَعَنْ ملأٍ[1] منكم ومشـورة كان هذا الذي أصابني؟ فخرج ابن عباس فسألهم. فقالوا: لا والله، ولَوَدِدْنَا أن الله زاد في عمرك من أعمارنا!! فقال ابن عباس: من طعن أمير المؤمنين؟ فقالوا: طعنه عدوّ الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة. فجاء فأخبر عمر. فقال عمر: الصَّنَعُ؟ قال: نعم. قال: قاتله الله لقد أمرتُ به معروفاً! الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجّني عند الله بسجدة سجدها له قطّ، ما كانت العرب لتقتلني!!.

ثم قال لابن عباس: لقد كنتَ أنت وأبوك تحبان أن تَكْثُرَ العُلُوجُ بالمدينة! فقال ابن عباس: إن شئتَ فعلتُ ـ أي قتلناهم ـ! قال: كذبتَ[2]، بعدما تكلّموا بلسانكم، وصلّوا قِبْلَتَكُم، وحجُّوا حَجَّكم؟!.

ثم قال للناس: قد نهيتكم أن تجلبوا علينا من علوجهم أحداً؛ فعصيتموني!.

ثم توجه للناس فقال: (ادعوا لي طبيباً، فدُعِي له الطبيب فقال: أيّ شراب أحب إليك؟ قال: نبيذ[3]. فسُقي نبيذاً، فخرج من بعض طعناته! فقال الناس: هذا صديدٌ، اسقوه لبناً، فسُقي لبناً، فخرج. فقال الطبيب: ما أرى أن تُمسي، فما كنتَ فاعلاً فافعل)!.

---

(١) أي: هل اشترك جماعة من الناس في تدبير هذا الأمر.
(٢) أي: أخطأتَ في قولك.
(٣) هو نقيع التمر والزبيب قبل أن يشتدّ ويصبح مسكراً.

الاستخلاف وأصحاب الشورى:

وقال الناس لعمر: يا أمير المؤمنين، استخلف. فقال: (أي ذلك ما أفعل فقد فعله من هو خير مني: إن أترك للناس أمرهم فقد تركه نبي الله ﷺ، وإن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني؛ أبو بكر).

قال علي: فعرفتُ والله أنه لن يَعْدِلَ بسُنَّة رسول الله ﷺ، فذاك حين جعلها عمر شورى بين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والزبير وطلحة وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبي وقاص.

وقال عمر: (لا أجد أحداً أحقّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفّي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فأيهم استُخْلِفَ فهو الخليفة من بعدي؛ فإن أصابتْ سعداً فذاك، وإلا فأيهم استُخلف فليستعنْ به؛ فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة).

وتحرَّج رضي الله عنه أن يجعلها لواحدٍ منهم على التعيين، فقال: (لا أتحمل أمرهم حياً وميتاً، وإن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خير هؤلاء، كما جمعكم على خيركم بعد نبيكم ﷺ).

ولم يذكر في الشورى سعيد بن زيد ـ وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ـ لأنه ابن عمه: خشية أن يُراعى فيولّى لكونه ابن عمه!.

وقال لأهل الشورى: (يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء)! بل يحضر الشورى ويشير بالنصح، ولا يولّى شيئاً!.

وصاياه:

ثم قال: (أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حُرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوَّؤوا الدار والإيمان من قبلهم، أن يُقْبَلَ من محسنهم، وأن يُعْفَى عن مسيئهم، وأوصيه بأهل

الأمصار خيراً، فإنهم رِدْءُ[1] الإسلام، وجباة المال، وغَيْظُ العدوّ، وأن لا يؤخذ منهم إلا فَضْلُهم عن رضاهم. وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادَّة الإسلام، أن يُؤخذ من حَوَاشي[2] أموالهم، ويُرَدَّ على فقرائهم. وأوصيه بذمَّة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ أن يُوفَى لهم بعهدهم، وأن يُقَاتَلَ من ورائهم، ولا يُكَلَّفوا إلا طاقتهم).

ثم قال رضي الله عنه: (يا عليّ، لعلَّ هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من النبي ﷺ وصِهْرَكَ، وما آتاك الله من الفقه والعلم؛ فإن وَلِيتَ هذا الأمر فاتَّقِ الله فيه).

ثم دعا عثمان فقال: (يا عثمان، لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صِهْرَكَ من رسول الله ﷺ وسنَّكَ وشرفك، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله، ولا تحمِلَنَّ بني أبي مُعَيْطٍ على رقاب الناس).

وأمر صهيباً أن يصلي بالناس ثلاثاً.

وتوجه إلى ابنه عبد الله، فأوصاه قائلاً: (يا بُنيَّ عليك بخصال الإيمان. قال: وما هنّ يا أبتِ؟ قال: الصوم في شدة أيام الصيف، وقتل الأعداء بالسيف، والصبر على المصيبة، وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي، وتعجيل الصلاة في يوم الغَيْم، وترك رَدْغَة الخبال. فقال: وما ردغة الخبال؟ قال: شرب الخمر).

ما أعظمها من وصايا تصدر من ينابيع الحكمة، وتعبر أصدق تعبير عن شدة إيمان هذا الخليفة العظيم، الذي بقي له بضعة أنفاس في هذا العالَم الغابر الداثر.

وكان رأسه على فخذ ابنه عبد الله، فقال له: ضع رأسي على الأرض! قال: وما عليك كان على فخذي أم على الأرض؟ قال: ضعه على الأرض، فوضعه، فقال عمر: (ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي)!!.

---

(١) أي: عونه الذي يدفع عنه، ويمدّه بالقوة.

(٢) هي الوسط التي ليست خيرها وليست أسوأها.

ثم قال له: (يا بُنيَّ، إذا حضرتني الوفاةُ فاحرفني، واجعل ركبتيك في صُلْبي، وضع يدك اليمنى على جبيني، ويدك اليسرى على ذَقني، فإذا قُبِضْتُ فأغْمِضني. واقْصِدوا في كفني؛ فإنه إن يكن لي عند الله خيرٌ أَبْدَلَني خيراً منه، وإن كنتُ على غير ذلك سَلَبَني فأسْرَعَ سَلْبي. واقْصِدوا في حفرتي؛ فإنه إن يكن لي عند الله خيرٌ وسَّعَ لي فيها مَدَّ بصري، وإن كنتُ على غير ذلك ضيَّقَها عَليَّ حتى تختلفَ أضْلاعي. ولا تُخْرجَنَّ معي امرأةً، ولا تُزكّوني بما ليس فيَّ، فإن الله هو أعلم بي. وإذا خرجتم فأسرعوا في المَشْي؛ فإنه إن يكن لي عند الله خير، قدمتموني إلى ما هو خير لي، وإن كنتُ على غير ذلك، كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شراً تحملونه)!!.

دَينه:

وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ استسلف من بيت مال المسلمين ثمانين ألفاً، فأمر ابنه عبد الله بوفائها، فسأله عبد الرحمن بن عوف عن ذلك، فقال عمر: (أنفقتها في حجج حججتها، وفي نوائب كانت تنوبني)!.

ولقد علم عمر أنه لا يلزمه غرامة ذلك، إلا أنه أراد أن يكون عمله في الخلافة خالصاً، ولا يتعجل من الأمر شيئاً في الدنيا، بل يدخره لآخرته.

فدعا ابنه وقال له: (يا عبد الله بن عمر، انظر ما عليَّ من الدَّيْن ـ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه ـ إن وفّاه مال آل عمر فأدِّه من أموالهم، وإلا فَسَلْ في بني عدي بن كعب، فإن لم تفِ أموالهم فسلْ في قريش، ولا تَعْدهم إلى غيرهم؛ فأدِّ عني هذا المال).

فقال عبد الرحمن بن عوف: (ألا تستقرضها من بيت المال حتى تؤديها؟ فقال عمر: معاذ الله أن تقول أنت وأصحابك بعدي: أما نحن فقد تركنا نصيبنا لعمر، فتُعِزّوني بذلك، فتتبعني تبعتُه، وأقع في أمر لا ينجيني إلا المَخْرَجُ منه.

ثم قال لعبد الله بن عمر: اضْمَنْها، فضمنها. فلم يُدفن عمر حتى أشهدَ بها

ابنُ عمر على نفسه أهلَ الشورى وعدة من الأنصار، وما مضت جمعةٌ بعد أن دُفن عمر، حتى حمل ابنُ عمر المالَ إلى عثمانَ بن عفان، وأحضر الشهود على البراءة بدفع المال).

فلله درّ عمر وابن عمر!!.

ولقد كان لعمر ـ رضي الله عنه ـ تركة عظيمة، فقد روى نافع مولى ابن عمر أن رجلاً من ورثة عمر قد باع ميراثه بمئة ألف! ولم يَحْتَجْ عبد الله بن عمر أن يسأل أحداً في وفاء دَين أمير المؤمنين.

صفة موته وغسله والصلاة عليه ودفنه:

ودخل عبد الله بن عباس على عمر، فجعل يثني عليه، فقال عمر: (بأي شيء تثني عليّ؛ بالإمرة أو بغيرها؟ قلت: بكلٍّ. قال: ليتني أخرُجُ منها كَفافاً، لا أجْرَ ولا وِزْرَ).

وقال له يثني على إمارته وخلافته: (يا أمير المؤمنين، والله إن كان إسلامك لنصراً، وإن كانت إمامتك لفتحاً، والله لقد ملأتْ إمارتك الأرض عدلاً، ما من اثنين يختصمان إليك إلا انتهيا إلى قولك! فقال عمر: أجلسوني، فلما جلس قال لابن عباس: أعِدْ عليَّ كلامك، فلما أعاد عليه قال: أتشهد لي بذلك عند الله يومَ تلقاه؟ فقال: ابن عباس: نعم! ففرح بذلك عمر، وأعجبه).

ولكن عمر لم يكن بالذي يغترّ بعمله، وهو من الآخرة قاب قوسين أو أدنى، فهذا ابن عباس يذكر منزلة عمر من النبي ﷺ وأبي بكر فيقول: (لقد صحبتَ رسول الله ﷺ فأحسنتَ صحبته، ثم فارقته وهو عنك راضٍ. ثم صحبتَ أبا بكر فأحسنتَ صحبته، ثم فارقتَه وهو عنك راضٍ. ثم صحبتَهم فأحسنتَ صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنَّهم وهم عنك راضون. قال: أما ما ذكرتَ من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه؛ فإنما ذلك مَنٌّ مِنَ الله تعالى مَنَّ به عليَّ. وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه؛ فإنما ذاك مَنٌّ مِنَ الله جلَّ ذكره مَنَّ به عليَّ. وأما ما ترى

من جزعي، فهو من أجلِكَ وأجلِ أصحابك[1]. والله لو أن لي طِلاَعَ[2] الأرض ذهباً لافتديتُ به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه).

وقام رجل من الحضور فقال لعمر: والله إني لأرجو أن لا تمسَّ النار جلدك أبداً!! فنظر إليه حتى رثينا له، ثم قال: إن عِلْمَكَ بذلك ـ يا فلان ـ لقليلٌ؛ لو أن ما في الأرض لي لافتديتُ به من هوْل المُطَّلَع[3].

* * *

ثم قال لابنه عبد الله: (انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمرُ السلامَ، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يُدْفَنَ مع صاحبيه. فسلَّم واستأذن، ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليكِ عمر بن الخطاب السلامَ، ويستأذن أن يُدفَن مع صاحبيه؟ فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأُوثِرَنَّ به اليوم على نفسي، فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجلٌ إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذي تُحِبُّ يا أمير المؤمنين، أَذِنَتْ! قال: الحمد لله، ما كان من شيءٍ أهمَّ إليَّ من ذلك؛ فإذا أنا قضيتُ فاحمِلوني، ثم سلِّم فقلْ: يستأذنُ عمرُ بن الخطاب، فإذا أَذِنَتْ لي فأدْخِلُوني، وإن ردَّتْني رُدُّوني إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنا، فَوَلَجَتْ عليه، فبكتْ عنده ساعة، واستأذن الرجال، فولجت داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل.

فلما قُبِضَ خرجنا به، فانطلقنا نمشي، فسلَّم عبد الله بن عمر، ثم قال: يستأذن عمر بن الخطاب، قالت: أَدْخِلُوه، فَأُدخِلَ، فَوُضِعَ هنالك مع صاحبيه).

* * *

---

(١) قال ذلك لما توقَّعه من فتن تكون بعده، لأن قتله يشعِر بذلك.
(٢) هو ما يملأ الأرض حتى يطلع ويسيل.
(٣) أي: يوم القيامة.

وغُسِّل ثلاثاً بالماء والسِّدْر، غسّله ابنه عبد الله بن عمر، وكُفِّنَ في ثلاثة أثواب، وحُمل على سرير[1] رسول الله ﷺ، ونظر المسلمون من يصلي عليه، فإذا صهيب يصلي بهم المكتوبات بأمر عمر، فقدَّموا صهيباً، فصلّى على عمر، وكبَّر أربعاً، في مسجد رسول الله ﷺ، بين القبر والمنبر.

ونزل في قبره ابنه عبد الله، وعثمان بن عفان، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن ابن عوف، ودُفن في بيت النبي ﷺ، وجُعل رأس أبي بكر عند كتفي النبي، وجعل رأس عمر عند حَقْوي النبي ﷺ.

ثناؤهم عليه ومراثيه:

ولما وضع عمر على السرير، إذا بعليّ بن أبي طالب يترحَّم على عمر، ويقول: (ما خلّفتُ أحداً أحبَّ إليَّ أن ألقى الله بمثلِ عمله منكَ. وايمُ الله، إن كنتُ لأظنّ أن يجعلك الله مع صاحبيك[2]، وحسبت: إني كنت كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: «ذهبتُ أنا وأبو بكر وعمر، ودخلتُ أنا وأبو بكر وعمر، وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر»).

وكشف الثوب عن وجه عمر، وقال: (رحمك الله أبا حفص، ما أحد أحب إليّ بعد النبي ﷺ أن ألقى الله بصحيفته منك).

ويقول أبو وائل ـ تلميذ ابن مسعود ـ: (قدم علينا عبدُ الله بن مسعود، فنعى إلينا عمرَ، فلم أرَ يوماً كان أكثر باكياً ولا حزيناً منه، ثم قال: والله لو أعلم عمرَ كان يحبُّ كلباً لأحببتُه، والله إني أحسب العِضَاهَ[3] قد وَجَدَ فَقْدَ عمر)!!.

وذُكر عمر عند ابن مسعود ذات يوم، فبكى حتى ابتلّ الحصى من دموعه

---

(١) هو النعش.

(٢) أي: كنت أتوقع أن تُدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر.

(٣) شجر عظيم له شوك.

وقال: (إن عمر كان حِصْناً حصيناً للإسلام، يدخلون فيه ولا يخرجون منه، فلما مات عمر انْثَلَمَ الحصنُ، فالناس يخرجون من الإسلام).

وقال حذيفة بن اليمان: (كان الإسلام في زمن عمر كالرجُلِ المُقبل لا يزداد إلا قُرْباً، فلما قُتل عمر ـ رحمه الله ـ كان كالرُجل المُدْبِر، لا يزداد إلا بُعْداً).

وبكى سعيد بن زيد لموت عمر، فقال له قائل: (يا أبا الأعور ما يبكيك؟ فقال: على الإسلام أبكي، إن موت عمر ثَلَمَ الإسلامَ ثُلْمة لا تُرْتَقُ إلى يوم القيامة).

ودخل ابن عباس على معاوية رضي الله عنهما، فقال له معاوية: ما تقول في عمر بن الخطاب؟ فقال ابن عباس: (رحم الله أبا حفص، كان ـ والله ـ حليف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومحلَّ الإيمان، ومعاذَ الضعفاء، ومعقلَ الحنفاء، للخَلْق حصناً، وللناس عوناً، قام بحق الله صابراً محتسباً، حتى أظهر الله الدين، وفتح الديار، وذُكِر الله في الأقطار والمناهل وعلى التلال وفي الضواحي والبقاع. وعند الخَنَى[1] وقوراً، وفي الشدة والرخاء شكوراً، ولله في كل وقت وأوان ذَكوراً، فأعقب الله من يبغضه اللعنة إلى يوم الحسرة).

وجاء عبد الله بن سلام وقد صُلِّي على عمر، فقال: (والله لئن كنتم سبقتموني بالصلاة عليه، لا تسبقوني بالثناء عليه، فقام عند سريره فقال: نِعْمَ أخو الإسلام كنتَ يا عمر، جواداً بالحق، بخيلاً بالباطل، ترضى حين الرضا، وتغضب حين الغضب، عفيف الطَّرف، طَيِّب الظَّرْف، لم تكن مدّاحاً ولا مغتاباً).

وقال الحسن: (أي أهل بيت لم يجدوا فَقْدَ عمر؛ فهم أهل بيت سَوْءٍ).

وقال أبو أسامة: (أتدرون من أبو بكر وعمر؟ هما أبو الإسلام وأمه)!!.

وقال جعفر الصادق: (أنا بريء ممن ذكر أبا بكر وعمر إلا بخير).

وقال ابن سيرين: (ما أظن رجلاً يَنْتَقِصُ أبا بكر وعمر يُحِبُّ النبيَّ ﷺ).

---

(١) أي: الفحش في القول.

وقالت أم أيمن يوم قُتل عمر: (اليوم وَهَى[1] الإسلام).

وبَكَتْهُ ابنة أبي حَثْمة فقالت: (وَاعُمَرَاهُ! أقام الأوَدَ، وأبرأ العَمَد[2]، أمات الفتن، وأحيى السنن، خرج نقي الثوب، بريئاً من العيب).

فقال علي بن أبي طالب: (والله صدقت، ذهب بخيرها، ونجا من شرها، أما والله ما قالت ولكن قُوِّلت).

وقالت زوجته عاتكة بنت زيد ترثيه:

فجَّعنـــي فيـــروز[3] لا درّ درّهُ ... بـأبيـضَ تـالٍ للكتـاب منيـبِ
رؤوفٍ على الأدنى غليظٍ على العدا ... أخـي ثقـةٍ فـي النـائبـات مجيـبِ
متى ما يَقُل لا يُكذِبُ القولَ فعلُهُ ... سـريـعٍ إلـى الخيـرات غيـرِ قطـوبِ

وقالت أيضاً:

عيـنُ جـودي بعبـرةٍ ونحيـبِ ... لا تملِّـي علـى الإمـام النجيـبِ
فجَّعَتْنـي المنـونُ بـالفـارسِ المُعْـ ... ـلَـم يـومَ الهيـاجِ والتلبيـبِ
عصمـةِ النـاس والمعيـن علـى الـد ... هـر وغيـثِ المنتـاب والمحـروبِ
قـل لأهـل السـرَّاء والبـؤس مـوتـوا ... قـد سَقَتْـه المنـونُ كـأسَ شَعُـوبِ

● ويحدّث العباس بن عبد المطلب ـ عم النبي ﷺ ـ فيقول: (كان عمر لي خليلاً، وإنه لما توفِّي لَبِثْتُ حَوْلاً أدعو الله أن يرينيه في المنام، فرأيته على رأس الحول يمسح العَرَقَ عن جبهته، قلت: يا أمير المؤمنين، ما فعل بك ربك؟ قال: هذا أوانُ فَرَغْتُ، وإن كاد عرشي لَيُهَدّ لولا أني لقيتُ ربّاً رؤوفاً رحيماً)!!.

---

(١) أي: ضَعُف.

(٢) العَمَد: وَرَمٌ يكون في الظَّهر، أرادتْ أنه أحْسَنَ السِّياسَة.

(٣) هو الخبيث أبو لؤلؤة.

هذا حال أمير المؤمنين، السبّاق إلى الإسلام، الشهيد، المبشّر بأعلى الجنان، الخليفة الذي حكم بالعدل والقسطاس المستقيم، وملأ طِبَاق الأرض عدلاً، ومحا الجَوْر من ذاكرة الزمان في خلافته، وقتله وألقى به في مهابّ الرياح؟! فما بال من حَكَم فظَلَم، وتأمَّر فَتَجَبَّر، وقضى، فكان عن العدل في مَنْأىً؛ ماذا سيقول لربّه غداً؟!!.

ويروي عبد الرحمن بن عوف أنه رأى رؤيا وهو قافل من الحج، قال: (والله إني لأرى عمر آنفاً أقبل يمشي حتى ركضَ[1] أمَّ كلثوم[2] بنت عقبة ـ وهي نائمة إلى جنبي ـ فأيقظها، ثم ولّى مدبراً، فانطلق الناس في طلبه، ودعوتُ بثيابي فلبستُها، فطلبتُه مع الناس، فكنتُ أول من أدركه، والله ما أدركته حتى حَسِرْتُ[3]، فقلت: والله يا أمير المؤمنين لقد شققتَ على الناس، والله لا يُدْرِكُكَ أحدٌ حتى يَحْسَرَ، والله ما أدركتُك حتى حَسِرْتُ. فقال: ما أحسبُني أسرعتُ! والذي نفس عبد الرحمن بيده إنه لَعَمَلُه).

نعم إنه لعمل عمر الذي تفوّق به على الناس، وسابقهم إلى الخير، فكان أسبقهم وأسرعهم، ولن يلحق به أحد إلا قصر عنه.

عمره ومدة خلافته:

وطُعن عمر رضي الله عنه صبيحة الأربعاء، لأربع ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين، وهو ابن ثلاث وستين[4] سنة، كسن النبي ﷺ وسنّ أبي بكر، حين توفّيا.

---

(١) أي: ضرب برجله.
(٢) هي زوجة عبد الرحمن بن عوف.
(٣) أي: كللت وأعييت وتعبت.
(٤) ورجح الحافظ ابن حجر أنه مات ابن ثمان وخمسين أو تسع وخمسين سنة؛ لخبر صحيح عن ابن عمر عن عمر نفسه.

وكانت مدة خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وواحداً وعشرين يوماً. وبايع الناسُ عثمانَ بن عفان أميراً للمؤمنين، وحكم الناس في اليوم الذي دُفن فيه عمر.

أزواجه وأولاده:

ومجموع نسائه اللائي تزوجهن في الجاهلية والإسلام، ممن طلقهن أو مات عنهن؛ سبع، وهن: جميلة بنت عاصم بن ثابت، زينب بنت مظعون، عاتكة بنت زيد، قريبة بنت أبي أمية، مُلَيكة بنت جَرْوَل، أم حكيم بنت الحارث، وأم كلثوم بنت علي بن أبي طالب.

وله أَمَتان، هما: فُكيهة ولُهَيَّة.

وجملة أولاده رضي الله عنه ثلاثة عشر ولداً؛ وهم: عبد الله، وعبد الرحمن الأكبر، وعبد الرحمن الأوسط، وعبد الرحمن الأصغر، وزيد الأكبر، وزيد الأصغر وعبيد الله، وعاصم، وعياض، وحفصة ورُقيّة وفاطمة وزينب.

وله من الموالي: أسلم وهانئ، وأبو أمية ومهجع، ومالك الدار وذكوان.

* * *

هذا هو الرجل الكبير الذي لم يُكتب لنا أن نلتقي به في دروب المدينة المنورة، لنرى سجاياه وعظمته ومزاياه تملأ الزمان والمكان؛ فلنحمد الله تعالى أن عشنا لحظات في رحابه، على مائدته الخالية من أطايب الطعام، المزدحمة بالعظائم والأمجاد والبطولات.

هذا هو الخليفة الشاهق في تواضع، الكبير في بساطة، البسيط في قوة، القوي في عدل ورحمة ورأفة، الذي كان المعلّم المنقطع النظير لكل الناس، والمثل الأعلى لكل حاكم يأتي من بعده.

هذا هو عمر بن الخطاب معجزة الإسلام الكبرى، ومفخرة الناس، ومالئ

الدنيا وشاغل الناس، ومشيد الدولة الإسلامية السامقة الباهرة.

وتلك ومضات من ذلك النور المشرق، والنجم المتوهج، المتحرّك السيّار، الذي لا يفتر في ليل أو نهار!!.

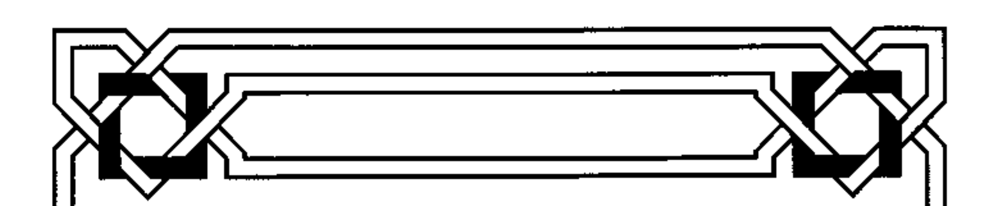
وما كتبناه هو شيء يسير من الكثير الكثير، الذي يمكن أن يقال عن هذا الإمام الفرد، فهو بحر لا ساحل له...

وحسبنا تلك اللحظات الماتعة، والخطى المحبورة، التي مشيناها وراء الفاروق وهو يسابق الناس؛ بل يسابق الزمان! وقبل أن نغادر هذا البناء الشاهق، لنترنّم بقول الشاعر:

عليكَ سلامٌ من أميرٍ وباركتْ	يدُ اللهِ في ذاكَ الأديمِ المخرَّقِ
قضيتَ أموراً ثم غادرت بعدها	بوائقَ في أكْمامِها لم تُفَتَّقِ
فمن يسعَ أو يركبْ جناحَيْ نعامةٍ	ليدركَ ما قدَّمتَ بالأمسِ يُسْبَقِ
أَبَعْدَ قتيلٍ بالمدينةِ أظلمتْ	له الأرضُ، تهتز العِضَاه بأَسْؤُقِ
فلقَّاكَ ربي في الجنان تحيةً	ومن كُسْوة الفِردوس ما لم يُمزَّقِ

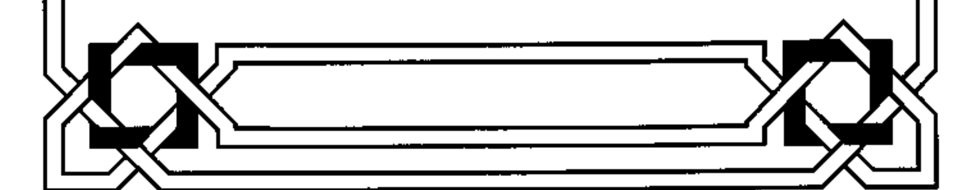
وحيّا الله أبا حفص أمير المؤمنين، ورحمه الله في الأولين، ورضي عنه في الآخرين، وحشرنا في زمرته يوم الدين. والحمد لله رب العالمين.

● ● ●



الباب الثالث





الفصل الأول

نبعته وحليته وإسلامه

اسمه ونسبه، وصفته وحليته، ومكانته في قريش:

في مكة المكرمة حيث الكعبة المعظمة كانت قبيلة قريش تحتل مكان الصدارة والاحترام في الجزيرة العربية؛ لقيامها على شؤون البيت العتيق الذي يفد إليه الناس من كل حدب وَصوْب.

وكانت قريش تضم في تكوينها الاجتماعي تبايناً عجيباً: ففيها السيد المطاع، المتربع على ذُرَا المجد من عشيرته، المتألق في جبين قومه. والغني ذو الثراء العريض، والسرر المرفوعة، والفُرش الموضوعة. والشديد القوي الذي يصارع الأشداء في موسم (عكاظ). والعبقري الألمعي الذي ينبع منه الذكاء والحيلة والاقتدار. وإلى جانب أولئك، كان العبيد الأرقاء الذين يُباعون ويُشترون. والفقراء المعدمون، الذين لا يملكون من دنياهم سوى الحاجة والمسغبة. والضعفاء المهزولون الذين لا يقوون على الوقوف أمام نسمات الهواء الوادعة. والأغرار البسطاء الذين لا تجربة لهم ولا حيلة.

في ذلك التكوين الاجتماعي المتفاوت المتباين ولد عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أُمَيّة بن عبد شَمْس بن عبد مناف بن قُصَيّ، القرشي الأموي.

ولد بعد حادثة الفيل بست سنوات.

وأبوه عفان بن أبي العاص هلك في الجاهلية، ولم يدرك الإسلام.

وأمه أَرْوى بنت كُرَيز بن ربيعة، وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ.

أسلمت أروى بنت كُريز ـ أم عثمان ـ وهاجرت، وبايعت رسول الله ﷺ، ولم تزل بالمدينة المنوّرة حتى ماتت في خلافة ابنها، رضي الله عنهما.

* * *

كان عثمان رجلاً رَبْعة ليس بالطويل ولا بالقصير، حَسَن الوجه، رقيق البشرة، أحسن الناس ثغراً، أقنى[1] الأنف، كثّ اللحية عظيمها، أسمر اللون، عظيم الكَرادِيس[2]، بعيد ما بين المنكبين، ممتلئ الساقين، طويل الذراعين، شعره قد كسا ذراعيه، كثير شعر الرأس، يصفّر لحيته، ويشد أسنانه بالذهب.

كريم الأخلاق، ذا حياء كثير، وكرم منقطع النظير، صادق اللهجة، عفيف اللسان، طاهر الذيل، وصفه عبد الله بن عمر فقال:

(ثلاثة من قريش أصبَحُ[3] الناس وجوهاً، وأحسنها أخلاقاً، وأثبتها حياءً، إن حدثوك لم يَكْذِبوك، وإن حدثتَهم لم يُكَذّبوك: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم).

إذا حدّث ألقى الناس إليه السمع؛ فألفَوْا كلاماً موزوناً، وحديثاً عذباً، وقولاً تاماً فصلاً، وصفه عبد الرحمن بن حاطب ـ أحد كبار ثقات التابعين ـ فقال: (ما رأيت أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا حدّث أتمّ حديثاً ولا أحسن من عثمان بن عفان).

وكان في الذؤابة من قريش، معظَماً، محبّباً فيها، حتى ضُرب المثل بحبها

---

(١) القَنا في الأنف: طوله ورِقَّة أرْنَبَتِهِ مع حَدَبٍ في وسطه.
(٢) هي رؤوس العظام، واحدها كُرْدُوس. أو: هي ملتقى كل عظمين ضخمين كالركبتين والمرفقين. والمراد أنه ضخم الأعضاء.
(٣) الصَّباحة: الجمال.

له، لدرجـة أن الأم كانت عندما تداعب ولدها تقول له: أَحَبّك الرحمنُ، حبّ قريش عثمان.

ولقد ورث عن أبيه مالاً وفيراً، فكان يتّجر فيه، فيعطي التاجر ماله مضاربة على النصف. واشتهر عثمان بالتجارة، والصدق فيها في الجاهلية والإسلام، وكان واحداً ممن يُشار إليه في الغنى الطاهر البعيد عن الاستغلال والحرام.

إسلامه وتحمله المصاعب:

وكان عثمان يعيش ضمن ذلك الطوفان الهادر من الوثنية والشرك، ويتألق أمامـه في ذلك الزحام الهائل محمد بن عبد الله ﷺ وقد نـأى بنفسـه عن دنـس الجاهلية وآلهتها وعاداتها؛ فالتفت إليه بذكاء العباقرة، معظّماً موقّراً، وإلى ركام الوثنيـة محتقراً. فعثمان لم يكن رجلاً عادياً يعيـش بين الرعاع دونما تفكير بما حوله؛ فلقد انطوت شخصيته الفذة على أخلاق عريقة كريمة، أساسها الحياء، وزينتها الكرم والسخاء.

ولقد كان حياء عثمان من طراز فذٍّ فريد، إنه حياء من العليّ القدير، الذي انبثّت آيات وجوده ومقدرته في الكون، فكانت تملأ وجدان عثمان، وتهز كيانه وتحرك مشاعره، وكأنها تقول له: لا بدّ لهذا الكون وما فيه من غاية، ولم يكن الله الحكيم الخبير ليتركه هكذا يعيش عبثاً، فمن ينقذهم ويدلهم على الله الذي تجلّت دلائل عظمته في كل شيء؟! فينظر إلى محمد بن عبد الله ﷺ الذي تفرد في قومه، وتفوق بخصاله وخلاله الحميدة على من عداه، ويرجع فكره إلى الماضي القريب والبعيد، فلا يجد فيه إلا الفضائل الكاملة، والمكارم الفريدة، والعزائم الشديدة، والمستوى الرفيع الجليل الذي بلغه في صدق نفسه، وصدق حديثه، وصدقه مع الناس! ومثل عثمان لا تخفى عليه صفات العظماء.

وتحرك القدر الحكيم إلى ذلك الحشـد الهائل من قريـش، ليختار أبطال العقيدة الإلـهية، ويضع اللبنات الأساسية في بنيان الدعوة الجديدة المباركة.

ولابدّ للأساس أن يكون صلباً، حتى يتمّ البناء على الوجه الأكمل الأتمّ.

وللقدر حكمته ومشيئته عندما يختار أبطاله ليقوموا بالعبء الثقيل، وهو حمل دعوة التوحيد لتصارع أمواج الشرك العنيد؛ فلا بدّ أن يكون أولئك من أصحاب الشخصيات الفذّة، والطبيعة السوية المستقيمة، كي يؤهلها نبلها وطهرها واستقامتها لحمل الراية في فجر الإسلام الغض المتفتح.

وكان عثمان من أولئك الذين اصطفاهم الله ليكونوا حواريّي رسول الله ﷺ، فآمنوا به، وعزّروه ونصروه، وجاهدوا معه، ونهضوا بأعباء الرسالة في أيامها الباكرة.

* * *

فبينما عثمان قادم في ركب من الشام، وفي بعض الطريق أوى إلى مكان ظليل يقيل فيه مع رفاقه، فغلبته عيناه، وأخذته سِنَة من النوم، فرأى رؤيا عجيبة، يحدثنا عنها فيقول: (فلما كنا بين مُعَان والزرقاء، فنحن كالنيام، إذ منادٍ ينادينا:

أيها النيام هبّوا فإن أحمد قد خرج بمكة)!!.

وأغذّ السير نحو مكة، وألقى السمع لما يدور فيها من أحاديث، وهل هناك من نبأ عظيم؟ وحملته رجلاه إلى خالته سعدى بنت كُرَيْز ـ وكانت كاهنة ـ فسمع منها كلاماً يومئ إلى بعثة محمد بن عبد الله ﷺ ونبوّته، فقالت له:

عثمان يا عثمان يا عثمان
لك الجمال ولك الشان
هذا نبي معه البرهان
أرسله بحقه الديّان
وجاءه التنزيل والفرقان
فاتبعه لا تغتالك الأوثان

فقال لها: (إنك لتذكرين أمراً ما وقع ببلدنا).
فقالت: (محمد بن عبد الله، رسول من عند الله جاء بتنزيل الله، يدعو به إلى الله).

فوقع كلامها في قلبه، واعتلجت في فؤاده تلك الذكريات القريبة، وما سمعه من ذلك الهاتف في منامه، انضمت إلى ذلك تلك الصورة البهيّة الرائعة الصادقة التي كانت لمحمد ﷺ في قلب عثمان الطاهر الزكي؛ فأسرع إلى صديقه الحميم، رجل قريش الشهير أبي بكر الصدّيق، فعرض عليه ما رآه وما سمعه من خالته، فقال له أبو بكر:

(ويحك يا عثمان، والله إنك لرجل حازم، ما يخفى عليك الحق من الباطل، هذه الأوثان التي يعبدها قومك أليست حجارة صمّاً لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع!.

قال عثمان: بلى والله، إنها لكذلك.

فقال أبو بكر: والله لقد صدقتك خالتك، هذا محمد بن عبد الله، قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه، فهل لك أن تأتيه وتسمع منه)؟.

ولم يُطل عثمانُ التفكيرَ، وما سمح له حياؤه بالتردد والتلكؤ، أو أن يخالف باطنه الطاهر النقي، وقناعاته الراسخة بصدق رسول الله ﷺ؛ فبادر قائلاً: (نعم).

وذهبا جميعاً إلى رسول الله ﷺ، وتكلم أبو بكر بين يدي النبي ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه على عثمان، وقال:

«يا عثمان، أجب الله إلى جنّته، فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه».

قال عثمان: (فوالله ما تمالكتُ حين سمعتُ قوله أن أسلمت، وشهدت أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله).

وما إن سمعت خالته بإسلامه حتى قالت:

هدى الله عثمان الصفيَّ بقوله ... فأرشده والله يهدي إلى الحق
فتابع بالرأي السديد محمداً ... وكان ابن أرْوَى لا يصدّ عن الحق

وانضم عثمان إلى الركب المؤمن في بدايات البعثة النبوية، فكان أحد

الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام، وصدّقوا رسول الله ﷺ، وآمنوا بما جاء به من عند الله.

* * *

وهكذا دعت الأقدار الإلـٰهية عثمان، واختارته من عِلْية قومه، وصفوة عشيرته، ليأخذ مكانه بين السُّبَّق الأوائل في موكب الهدى والحق والخير، فلبى سريعاً، ولم يتردد لحظة.

وترك مطاعمه ومناعمه، ودنياه الحافلة العريضة، وهجر الفرش الوثيرة، والزرابي المبثوثة، والنمارق المصفوفة، ونأى عن عيشه الرخيّ، وحياته الآمنة المستقرة المترعة بالراحة، وخرج حاملاً لواء الدعوة، وأعباء دوره الجديد الذي خطه القدر، واستقبل الحياة الجديدة، حياة المتاعب والمصاعب، والتضحيات والفداء.

وخرج من نعمائه الوارفة، وثرائه العميم، ملبياً دعوة الله ورسوله في الساعات الأولى لانبثاق نور الرسالة، لا في أيام انتصارها وقيام دولتها، وهو يدرك ما في ذلك من صعاب ومشاقّ، وعسرة وضيق، وعسف واضطهاد. ذلك الاضطهاد الذي يؤذي الرجل العادي الذي لا عشيرة له ولا مكانة، أما عثمان فيؤذيه في كرامته ومكانته، قبل أن يؤذيه في جسده وجوارحه.

لكن عثمان لم يبالِ بذلك، وألقى بنفسه مع الحواريين السابقين الذين أحاطوا برسول الله ﷺ لنصرة دعوته، وحمل الراية معه، وهو يدرك تمام الإدراك ما سيحيق به من أذى وبلاء، وجراحات وآلام!!.

ونزل عثمان إلى ميدان الدعوة المتأجج، ينصرها ويؤيدها في وقت كثرت فيه المخاطر، وقلّت النصرة وعزّ النصير، فحتى (دار الأرقم) التي كان رسول الله ﷺ يلتقي فيها بأصحابه مستخفين لم تكن وجدت بعد!!.

إنها نفس عثمان الطاهرة السوية التي تجاوب معها عقله، فقدّر ثم قرر،

فانتقل من مناعم العيش، ورغد الحياة، والمكانة والصدارة في قريش، إلى حياة البذل وشرف العطاء في سبيل الله ودعوته، وحيث المنزلة الرفيعة تحت لواء الحق والهدى والنور.

تلك هي فلسفة عثمان في إسلامه، وهذه طبيعته التي ما تخلّى عنها منذ أسلم وإلى أن حوصر في داره، فمضى شهيداً إلى ربه سبحانه وتعالى.

وما إن بَصُرَتْ قريش بتلك العصابة المؤمنة، التي يقود خطاها محمد رسول الله ﷺ؛ حتى صبّت عليها حقدها وغضبها، وشحذت أنيابها الضارية، وألقت البلاء والاضطهاد فوق رؤوس أولئك النفر الصالح من المؤمنين السابقين.

ولقد كان حظ عثمان من ذلك وافراً، يضاهي مكانته في قريش، حيث جنّدت له واحداً من أقرب أقاربه، فتولى أمر تعذيبه: عَمّه الحَكَم بن أبي العاص بن أمية، حيث ربطه بالسلاسل والقيود، وصرخ في وجهه:

أَتَرْغَبُ عن ملّة آبائك إلى دين مُحْدَثٍ؟! والله لاأحُلّكَ أبداً حتى تَدَعَ ما أنت عليه من هذا الدّين. فأجابه عثمان بإصرار ثابت، وعزم وحزم: والله لا أَدَعُهُ ولا أُفارِقُه. فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه.

● ● ●

الفصل الثاني

ذو النورين:

اللقب والهجرة والمشاهد والصحبة

زواجه ولقبه (ذو النورين)، وهجرته:

وكان عثمان يكنى في الجاهلية أبا عمرو، وبُعيد إسلامه زوّجه رسول الله ﷺ ابنته رقية ـ التي طلقها عتبة بن أبي لهب، ولم يكن دخل بها ـ فكانا أحسن زوجين، وفيهما قال القائل:

أحسن زوجين رآهما إنسان رقية وزوجها عثمان

وقالت سعدى بنت كُرَيز ـ خالة عثمان ـ:

وأنكحه المبعوثُ بالحقّ بنتَهُ فكان كبدرٍ مازَجَ الشمسَ في الأفقِ

وبقيت عند عثمان رضي الله عنهما، وولدت له ابنه عبد الله فاكتنى به، وكنّاه المسلمون أبا عبد الله. وتوفيت رقية عند عثمان في أيام غزوة بدر ـ وعمرها عشرون سنة ـ فزوجه رسول الله ﷺ ابنته الأخرى (أم كلثوم) التي توفيت عنده سنة تسع من الهجرة.

ولذلك سمّي عثمان (ذا النورين)، ولا يُعرف أحد تزوج ابنتي نبي غير عثمان رضي الله عنه.

* * *

وازداد عدد المسلمين، وترعرعت الدعوة الناشئة، وأخذ عودها يقوى ويشتد، وعلى الجهة المقابلة تضرّمت نار قريش وتأجج لهيب التعذيب والاضطهاد وانصبت على ذلك النفر الصالح.

ويرى الرسول الرحيم ذلك البلاء الذي يلاقيه أصحابه، وأنه لا قِبَل لهم به؛ فيوجّه أنظارهم إلى بلد يجدون فيه الأمان والعافية، فيأمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً عادلاً لا يُظلم عنده أحد.

فخرج المسلمون، وكان أول من خرج عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ. وأبطأ على النبي ﷺ خبرهما، فجعل يخرج ويسأل عن أخبارهما، حتى قدمت امرأة من قريش فقالت له: (يا أبا القاسم، قد رأيت ختنك متوجهاً في سفره، وامرأته على حمار من هذه الدّبّابة[1]، وهو يسوق بها يمشي خلفها). فقال النبي ﷺ: «صحبهما الله، إن عثمان لأول من هاجر إلى الله عز وجل بأهله بعد لوط ﷺ».

وهاجر عثمان الهجرة الثانية إلى أرض الحبشة، ومعه زوجته الطاهرة رقية رضي الله عنها.

هكذا يخلع رسول الله ﷺ على عثمان هذا الوصف البديع، وأنه أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام.

والهجرة كانت في ضمير عثمان هجرة روح، قبل أن تكون هجرة مكان، فهو منذ أسلم هجر المال والثراء، والجاه والمكانة، والمطاعم والمناعم، والرفاه والرخاء، وترك كل ذلك راغباً بما عند الله، غير عابئ بكل الآلام والابتلاءات التي ستلاقيه، والتضحيات التي يتطلبها إيمانه وهجرته. لذا سهل عليه مغادرة الأهل والأحباب والديار، لأن روحه قد امتلأت بمعنى الهجرة الواسع العميم: الهجرة من

---

(١) أي الضعاف التي تدبّ في المشي ولا تسرع.

حياة إلى حياة، ومن وجود إلى وجود. الهجرة التي تعني التنازل عن الماضي القديم والأمجاد العريضة في قريش، والسفر إلى الله ورسوله بزاد جديد وعزم أكيد.

هذه هي الهجرة ومعانيها وأبعادها في ضمير عثمان السيد المتألق في قريش، والناصر السبّاق لدعوة الحق والهدى والنور. فلا غرو أن ينال ذلك الوسام النبوي، فيصفه بأنه أول من هاجر بعد النبي العظيم لوط عليه السلام.

* * *

ثم رجع عثمان إلى مكة مع مَنْ رجع من مهاجري الحبشة، ثم هاجر بأهله إلى المدينة المنورة، ونزل على أوْس بن ثابت أخي حسان شاعر الرسول ﷺ. فازداد عثمان بالهجرة حبّاً، فخالطت فؤاده، وتعلّقت بها روحه، فنال من الهجرة أسمى معانيها وأعمق مضامينها، وبقيت مشاعره تهتز فرحاً لتلك الكلمة النبوية الصادقة: «إن عثمان لأول من هاجر إلى الله عز وجل بأهله بعد لوط ﷺ». وازدادت شمائل عثمان تألقاً ورفعة وفاعلية، وبقي ثابت الخطىٰ على طريق (المؤمن المهاجر) إلى أن لقي وجه ربه وهو عنه راضٍ.

مشاهده مع رسول الله ﷺ:

وهناك في المدينة المنورة شارك في بناء الدولة الإسلامية، وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهده وغزواته، كان له فيها المواقف الرائعة الخالدة، حيث وضع نفسه وماله الوفير الغزير في نصرة دين الله سبحانه.

● في (غزوة بدر) أراد عثمان رضي الله عنه أن يكون له شرف حضورها، لكن زوجه رقية كانت مريضة واشتد بها المرض، فأمره النبي ﷺ أن يبقى عندها ليمرضها، وقال له: «إن لك أجرَ رجلٍ ممن شهد بدراً وسَهْمَه». وماتت رقية يوم قدمَ زيد بن حارثة المدينة بشيراً بما فتح الله على رسوله ﷺ ببدر. وضرب الرسول ﷺ لعثمان بسهمه وأجره في بدر، فكان كمن شهدها.

● كما شهد مع النبي ﷺ (غزوة أُحد)، وكان فيمن صاوَلَ وقاتل تحت راية رسـول الله ﷺ. ولما خالف الرماةُ أَمْرَ النبي ﷺ، ودَهَمَهم المشركون من خلفهم، وكانت كارثة مروعة، وأُشيع أن رسول الله ﷺ قتل؛ ففر المسلمون، وكان معهم عثمان، رضي الله عنهم، وولّوا مدبرين، بدافع الذهول لا الجبن. وقد عذرهم الله تعالى وعفا عنهم، وأنزل فيهم قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

● وشهد (الخندق) و(الحديبية)، وبايع عنه رسول الله ﷺ يومئذٍ بإحدى يديه، وشهد خيبر وعمرة القضاء، وحضر الفتح وهوازن والطائف، وغزوة تبوك، وحج مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، وتوفي وهو عنه راض.

● وفي (يوم الحديبية) انتدبه رسول الله ﷺ لمهمة عظيمة، فسارع إليها وتصدى للمخاطر بحزم واستبسال وشجاعة وبأس.

ففي العام السادس للهجرة خرج رسول الله ﷺ بأصحابه ـ وكانوا زهاء ألف وخمسمئة رجل ـ إلى مكة قاصدين البيت الحرام، يريدون الاعتمار والطواف حول البيت العتيق، قبلتهم التي يتجهون إليها في صلاتهم. وعلمت قريش بذلك، فلبست ثياب الحرب، وخرجت للقائه، فسلك النبي والمسلمون طريقاً وعراً بين الشّعاب، غير الطريق التي سلكتها قريش، حتى وصلوا الحديبية على مشارف مكة، فاستقر بأصحابه هناك.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ والمسلمون، وجاءته رسل قريش واحداً بعد الآخر، جاءه بُدَيْل بن وَرْقاء، ومِكْرَز بن حَفْص، والحُلَيْس سيّد الأحابيش، فسألوه ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأتِ يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت، ومعظّماً لحرمته. ثم جاءه عروة بن مسعود الثقفي، فرأى ما عليه المسلمون من تعظيم النبي ﷺ وتوقيرهم له.

ورجعت رسل قريش وسفراؤها يخبرونها بما عزم عليه رسول الله ﷺ وصحبه، لكن قريشاً أخذتها العزة بالإثم، وعزمت على منع المسلمين من زيارة البيت.

فأرسل لهم النبي ﷺ من عنده رسولاً هو خراش بن أمية، ليبلغ قريشاً ما جاء له الرسول ﷺ والمسلمون، فعَدَت عليه قريش، وعقروا به الجمل، وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، وخلّوا سبيله، فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما جرى له.

بل زاد الأمر اضطراماً والموقف التهاباً، أن قريشاً أرسلت خمسين من رجالها ليتحرشوا بالمسلمين، وليرموا معسكرهم بالحجارة والنبل.

وفي هذا الجو المتوتر الذي ينذر بالخطر، أراد الرسول ﷺ أن يرد قريشاً إلى صوابها، فانتدب رجلاً آخر من أصحابه، ليؤكد لأشراف قريش ما عزم عليه المسلمون؛ فدعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر:

(يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس في مكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفتْ قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكني أدلّك على رجل أعزّ بها مني؛ عثمان بن عفان)!

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأتِ لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظّماً لحرمته.

ووَسْط هذه المخاطرة المرعدة المخيفة حمل عثمان أمر رسول الله ﷺ دونما تهيب ولا وجل، لا يهمه ما يحدث له هناك في أتون قريش المضطرم وغضبها اللافح، فهو في حاجة الله ورسوله وكفى، ولتكن النتائج ما كانت، ومرحباً بلقاء الله إن قُدّر له هذه اللحظة.

فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه ابن عمه أبان بن سعيد بن العاص، فأسرج له فرسه، وحمله عليه، وأجاره، وأردفه أبان حتى دخل مكة. وأتى عثمان أبا سفيان وعظماء قريش، وبلّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان لما فرغ

من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئتَ أن تطوفَ بالبيت فَطُفْ! فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ!!.

هذا هو الالتزام التام والطاعة المطلقة لصاحب الرسالة ﷺ، فعثمان جاء لأمر، وقد بلّغه على الوجه المطلوب، فكيف يطوف قبل رسول الله ﷺ؟ وكيف يتقدم بأمر على النبي ﷺ؟ وكيف يصنع أمراً يسبق فيه الرسول ﷺ؟!.

ولم تكتفِ قريش بما سبق منها، بل اعتقلت عثمان واحتجزته، وأشاعت أنه قُتل، فبلغ النبأ معسكر المسلمين، هنالك قرر الرسول ﷺ أن يلقن المشركين درساً يردهم عن طغيانهم، ويريهم من عزمه وتصميمه ما يزجرهم به عن غطرستهم، ليعلموا أن المسلمين ما توقفوا عن دخول مكة لضعف وهوان، بل لتعظيم هذا البيت الحرام، ولتجنب إراقة الدم في البلد الأمين، وليعلّمهم أن دم المسلم عظيم عند الله، مصان عند رسوله والمؤمنين؛ فقال ﷺ:

«لا نَبْرح حتى نُناجز القوم»!!.

ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت (بيعة الرضوان) تحت الشجرة، وتمّت هنالك أروع مواثيق التاريخ. وبايعه المسلمون على الموت.

وقال رسول الله ﷺ: «إن عثمان في حاجة الله ورسوله»؛ وقال بيده اليمنى: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده فقال: «هذه لعثمان»، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم.

وقد خلّد القرآن الكريم تلك البيعة في آياته المباركات، فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠].

وقال سبحانه:

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

ثم جاء الخبر الصادق بأن عثمان لم يُقتل، وعاد إلى المسلمين سليماً معافىً، وجاء سفير قريش سُهَيل بن عمرو، وعقد مع الرسول ﷺ صلحاً سمّي في التاريخ (صلح الحديبية).

● وفي السنة التاسعة للهجرة عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣]. فأمر الصحابة بالتهيؤ للغزو، وكان ذلك في زمان عسرة من الناس، وجدب من البلاد، وشدة الحر.

وجاء ناس من الأصحاب رسول الله ﷺ يطلبون أن يحملهم على الإبل لضيق ذات يدهم، وهم يرغبون أن يصحبوه في غزوته هذه، فلم يجدوا عنده ما يحملهم عليه، فرجعوا، وهم يبكون تأسفاً على ما سيفوتهم من أجر الجهاد مع رسول الله ﷺ، فسُمّوا (البكّائين).

ورأى النبي ﷺ ما عليه المسلمون من عسرة وضيق، وإذا هم قاوموا وقدة الحر ولهيب الصحراء المستعرة، فمن أين لهم العتاد والسلاح، والنفقات الكبيرة التي يتطلبها القتال؟!.

فقام يحضّ الناس على التبرع، وجاء الأصحاب كلٌّ بقدر وسعه وطاقته: فجاء أبو بكر بماله كله، وعمر بنصف ماله، وحمل العباس وطلحة مالاً كثيراً، وحمل عبد الرحمن بن عوف مئتي أوقية، وحمل سعد بن عبادة مالاً كثيراً، وكذا محمد بن مسلمة، وغيرهم كثير. حتى النساء أخذن الحلي والأقراط والخلاخل والأسورة فتبرعن بها. لكن ذلك كله لم يسدّ الحاجة العريضة التي كان عليها الناس آنئذٍ.

ورغّب رسول الله ﷺ الناس بثواب الله العظيم في الآخرة، فقال: «من جَهّز جيش العُسْرة فله الجنة»! فنشط لذلك عثمان بن عفان، وتصدق بصدقة عميمة

واسعة، ولندع الصحابي عبد الرحمن بن خَبّاب يروي لنا ذلك المشهد الفذّ فيقول:

(شهدتُ النبيّ ﷺ وهو يحثّ على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، عليّ مئة بعير بأَحْلاَسِها وأَقْتَابِها[1] في سبيل الله. ثم حضّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، عليّ مئتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. ثم حضّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، لله عليّ ثلاثمئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله. فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول: «ما على عثمان ما عَمِلَ بعد هذه، ما على عثمان ما عَمِلَ بعد هذه»)!!.

بل إن عثمان زاد على ما تكفّل به أمام النبي ﷺ، فجهز تسعمئة وخمسين بعيراً، وخمسين فرساً أكمل بها الألف!! وجاء بسبعمئة أوقية ذهب، وحمل ألف دينار، ففرغها في حِجْر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلّبها ويقول:

«ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا اليوم». «اللهم لا تنسَ عثمان، ما على عثمان ما عمل بعد هذا اليوم».

وبهذه النفقة العظيمة جهز عثمان ثلث جيش العسرة، وكفاهم مؤونتهم، حتى لم يفقدوا عقالاً ولا خطاماً، وكأنه يعتبر من واجبه أن يموّل الدين الجديد والأمة الجديدة بكل ما يملك، فكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وينظر إلى هذا المال بين يديه على أنه جسر يعبر عليه إلى رضى الله ورسوله والجنة، فكان يبذل بذلاً طوعياً، وهو راغب راضٍ، مسرور محبور.

حبّه للنبي ﷺ، وطاعته له، واقتداؤه به:

وعثمان الذي أسلم راغباً طائعاً في أحرج ساعات الدعوة، وسلك طريقاً

---

(١) أحلاسها: جمع حِلْس، وهو كل ما يوضع على ظهر الدابة تحت السرج أو الرَّحْل. أقتابها: جمع قَتَب، أي الرَّحْل.

قَـلّ طارقوه، وألقى بنفسـه وماله في خدمة الدعوة، ونصرة الحق الذي آمن به، فجاهد بنفسه وماله ـ عثمان هذا الإنسان الباهر العظيم نجده في الجهة الأخرى المكملـة للأولى قد أحب رسـول الله ﷺ حبـاً عظيماً، وبذل له طاعتـه دونما حدود، وتابعه في السر والجهر، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، ما تلكأ لحظة، وما تأخر في موقف، ولا تلجلج إذا دعاه الداعي.

ولقد بيّن ذلك عثمان نفسه، مبيّناً فضل الله عليه، متحدِّثاً بنعمة الله سبحانه، فقال: (أما بعد، فإن الله بعث محمداً بالحق، فكنت ممن اسـتجاب لله ورسـوله، وهاجرت الهجرتين، وبايعت رسول الله ﷺ، فوالله ما غششته، ولا عصيته حتى توفاه الله).

● فعندما بعثه رسول الله ﷺ سفيراً له إلى قريش في عمرة الحديبية، ودخل مكة وقد أجاره ابن عمه أبان بن سعيد بن العاص، وكان إزار عثمان قصيراً، فقال له أبان: (يا ابن عمّ، أراك متخشعاً؟ أسبلْ إزارك. فقال له عثمان: هكذا يأتزر صاحبنـا إلى أنصاف سـاقيه)، أي رسول الله ﷺ، فهو يقتدي به، ويلتزم نهجه، ولا يخالفه في شيء.

وقـال المسلمـون: هنيئـاً لعثمـان يطـوف بـالبيـت ونحـن هـاهنـا! فقـال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف».

هكذا يقول رسـول الله ﷺ لما علمه من عثمان، والتزامه الشـديد بطاعة الرسول ﷺ، ولقد صدّق الواقع قول النبي ﷺ، فلما قال أبان لعثمان: (يا ابن عمّ، طفْ بالبيت، قال عثمان: إنّا لا نصنع شيئاً حتى يصنع صاحبنا ونتّبع أثره).

● ويروي الصحابي الجليل يعلى بن أمية رضي الله عنه فيقول: (طفت مع عثمان ـ رضي الله عنه ـ فاستلمنا، قال يعلَى: فكنت مما يلي البيت، فلما بلغنا الركن الغربي، الذي يلي الحجر الأسود، جررت بيده ليستلم. قال: ما شأنك؟ قلت: ألا تستلم؟ فقال: ألم تَطُفْ مع رسول الله ﷺ؟ فقلت: بلى. قال: أرأيته

يستلم هذين الركنين الغربيين؟ قلت: لا. قال: أفليس لك فيه أسوة حسنة؟! قلت: بلى. قال: فانفُذْ[1] عنك).

● بل إن عثمان كان يعظّم كل ما يعظمه رسول الله ﷺ، ويحترمه، ويحمل الناس على ذلك، يحدِّث القاسم بن محمد فيقول: مما أحدث عثمان فرُضي به منه أنه ضرب رجلاً في منازعة استخفّ فيها بالعباس بن عبد المطلب، فقيل له؛ فقال: أيفخّم رسولُ الله ﷺ عمّه، وأرخّص في الاستخفاف به؟! لقد خالف رسولَ الله ﷺ مَنْ رضي فِعل ذلك. فرُضي به منه.

● ولما مات رسول الله ﷺ حزن عليه الصحابة حزناً عظيماً، لأنهم فقدوا الناصح الأمين، والمعلّم الذي لا ينطق عن الهوى، وانقطعت عنهم غدوات جبريل وروحاته، ولقد كان حظ عثمان من الحزن عليه وافراً عظيماً، يحدث عن ذلك فيقول:

(توفي رسول الله ﷺ، فحزن عليه رجال من أصحابه، حتى كاد بعضهم يُوَسوس[2]، فكنت ممن حزن عليه، فبينا أنا جالس في أُطم من آطام المدينة ـ وقد بويع أبو بكر ـ إذ مرّ بي عمر، فلم أشعر به لما بي من الحزن! فانطلق عمر حتى دخل على أبي بكر، فقال: يا خليفة رسول الله، ألا أعجِّبك! مررت على عثمان فسلمتُ عليه فلم يردّ عليّ السلام)!!.

فلقد شغله حزنه على رسول الله ﷺ، وتفكيره الشديد به، وبالأيام التي قضاها بين يديه، والكلمات التي سمعها منه، فأنساه كل ما حوله ـ وحُقّ له ذلك ـ حتى إنه لم يشعر بعمر وهو يلقي عليه السلام.

● ● ●

---

(١) أي دعه وتجاوزه.
(٢) يختلط كلامهم.

الفصل الثالث

أخلاقه وشمائله وعلمه ومكانته

أخلاقه العظيمة:

ولقد كان عثمان قبل إسلامه على جانب عظيم من الخلال الحميدة، والخصال الفريدة، ولما آمن بالله وأسلم له قياده، وعقد مع رسول الله موثقاً على السمع والطاعة؛ انصهرت تلك الشمائل، فازدادت بالإسلام تألقاً ونصاعة. ولقد اكتسب من رسول الله ﷺ الخلق العظيم، والفضائل والمكارم، حتى استحق من النبي ذلك الثناء العظيم، عندما دخل على ابنته رقية وهي تغسل رأس عثمان، فقال لها: «يا بنيّة أحسني إلى أبي عبد الله، فإنه أشبه أصحابي بي خُلُقاً». وخلق رسول الله ﷺ يعجز عنه الوصف، ولا تتسع له الصفحات، وحسبه قوله سبحانه وتعالى فيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾. وعندما سُئلت السيدة عائشة عن خلق رسول الله ﷺ، أجابت إجابة دقيقة، موجزة، فقالت: (كان خُلُقه القرآن)!!.

وإذا كان عثمان رضي الله عنه ـ بشهادة النبي ـ من أشبه الناس به ﷺ خُلُقاً، فكيف ستكون أخلاق هذا الصحابي الجليل، والحواريّ الكريم، والرجل الشاهق الباهر؟!.

حياؤه:

● لقد كان من أبرز أخلاقه، وأشدها تمكناً من نفسه خُلق الحياء، الذي تأصل في كيانه، فكان ممعناً في الأصالة، ودائماً ممعناً في الديمومة، لذا فقد أشاد الرسول ﷺ بهذا الحياء الواسع العميم، فقال:

«أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر، وأشدها حياء عثمان».

والحياء خُلق عظيم، يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع التقصير في حق ذي الحق، ويشحذ النفس على فعل الطاعات، ويحجزها عن ارتكاب المعاصي والمنكرات، ويسابق بصاحبه لفعل كل خير، وينأى به عن مهاوي الشبهات. ولمثل هذه المعاني يشير قول رسول الله ﷺ: «الحياء خيرٌ كلُّه»، «الحياءُ لا يأتي إلاّ بخير».

وعلى هذا المعنى الرحب تربَّى عثمان وعاش، وبمثل تلك الأبعاد ذهبت روحه الطاهرة تؤدي أعمالها على أوسع نطاق، فلقد كان الحياء في نفسه طاقة هائلة تسيطر على شخصيته كلها، وتقود فضائله في بوتقتها.

فهو يوم عرض عليه النبي ﷺ دعوته، استحيى من نفسه أن يزيّف قناعاته الباطنة؛ فأسرع وأجاب مؤمناً مصدقاً.

ولما تكالب المشركون على الدعوة، قاده حياؤه للتضحية بالثراء والأهل والديار والوطن، فهبّ للهجرة، لينعم بالأمن، ويحافظ على إيمانه من الفتن، واستحى أن يسبقه الضعاف والعبيد ممن آمن برسول الله ﷺ للهجرة.

وإذا دعا داعي الجهاد عزله حياؤه عن أن يقعد في بيته، ويتقاعس عن نصرة الحق؛ فلبى النداء، وألقى بنفسه في ساحات المعارك.

وعندما يسمع الرسول ﷺ يحضّ على النفقة، وتجهيز جيش العُسرة، يأبى عليه حياؤه أن يضنّ بالمال، واستحيى من ربه سبحانه أن يراه والأموال عنده طافحة متزاحمة، وغيره يشكو المسغبة؛ فيبذل المال الكثير سخياً في سبيل الله.

● وعندما استُخْلِف زاد حياؤه تأججاً وتألقاً؛ كالغصن الرطيب، زاده المطر نضرة واخضراراً.

فإذا ولّى قائداً أو والياً تخيّر أفضل الناس رأياً، وأعظمهم شجاعة؛ وأكثرهم

عوائد وفوائد للمسلمين، واستحيى من الله سبحانه أن يراه قد استعمل رجلاً على المسلمين وفيهم من هو خير منه وأعظم فائدة.

وإذا انتُهك حدٌّ من حدود الله، ألحّ عليه حياؤه من الله أن لا يراه متباطئاً في تنفيذ حدوده، وإمضاء أوامره؛ فأسرع ولبّى.

وحتى حين حاصره البغاة، وأرادوا منه أن يخلع سربال الخلافة؛ أبى عليهم أشد الإباء، لأن النبي ﷺ أمره أن لا يخلع نفسه، فاستحيى أن يعصي رسول الله ﷺ، ولو كان ثمن ذلك دمه الطاهر الزكي.

هذا هو الحياء عند عثمان، لا ما يتخيله المرجفون من أنه لين وضعف وعجز وانكسار نفس!! وما أروع قول رسول الله ﷺ في ذلك وهو يصف عثمان بقوله: «أصدق أمتي حياءً عثمان».

ولقد عرف الناس لعثمان هذا الخُلق العظيم، والطاقة الزاخرة، التي فرضت الاحترام على الآخرين، بل إن واقعة مدهشة تُرينا كيف كان النبي ﷺ يقدّر هذا الخلق الفذ عند عثمان، وينبه أصحابه عليه، وذلك فيما يرويه عثمان والسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها (أن أبا بكر استأذن على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراشه، لابس مِرْطَ[1] عائشة؛ فأذِنَ لأبي بكر، وهو كذلك، فقضى إليه حاجته، ثم انصرف. ثم استأذن عمر، فأذِنَ له وهو على تلك الحال، فقضى إليه حاجته، ثم انصرف. قال عثمان: ثم استأذنتُ عليه فجلس، وقال لعائشة: «اجمعي عليكِ ثيابكِ»، فقضيتُ إليه حاجتي ثم انصرفتُ.

فقالت عائشة: يا رسول الله، ما لي لم أرك فَزِعْت[2] لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟.

قال رسول الله ﷺ: «إن عثمان رجلٌ حييّ، وإني خشيت إنْ أَذنْتُ له على

---

(١) هو كساء من صوف.
(٢) أي تأهّبت له متحوّلاً من حال إلى حال.

تلك الحال، أن لايَبْلُغَ إليّ حاجته».

وفي رواية أخرى: «ألا أستحيي ممن تستحيي منه الملائكة»؟!.

وهذه العبارة النبوية الصادقة المضيئة تصور لنا كل أبعاد ذلك الحياء الذي كان يتمتع به عثمان رضي الله عنه.

ولقد بلغ به حياؤه أنه إذا اغتسل لا يرفع المئزر عنه، وهو في بيت مغلق، ولا ينصب ظهره مستقيماً من شدة حيائه، وما مس فرجه بيمينه منذ بايع رسول الله ﷺ!!.

سخاؤه:

وأما سخاؤه وكرمه فذلك بحر لا ساحل له، وعطاء واسع منقطع النظير، فلقد أنفق ماله يميناً وشمالاً في سبيل الله، حتى لقد غطى كرمه ـ مع حيائه ـ على باقي خصاله الكريمة، وسجاياه النبيلة. ولقد تنازل لإسلامه وهجرته عن ماله الفياض، فبذله بغير حساب. ولو ذهبنا نبحث عن رجل مثل عثمان في بذله العريض، وعطائه المفيض، لعزّ علينا أن نجد له مثيلاً ونظيراً.

● فبعد أن بنى الرسول ﷺ مسجده، وكثر المصلّون والعبّاد؛ ضاق بهم المسجد، وتمنى النبي ﷺ أن يشتري أحد أصحابه الأغنياء الأرض المجاورة للمسجد ليضمها إليه، فقال مرغّباً: «من يشتري هذه البقعة من خالص ماله، فيكون فيها كالمسلمين، وله خير منها في الجنة»؟.

فأسرع عثمان، واشترى تلك الرقعة من الأرض بخمسة وعشرين ألفاً.

● وبعد(فتح مكة) رأى النبي ﷺ أن يوسّع المسجد الحرام، فكان أن عرض على أصحاب أحد البيوت الواسعة الملاصقة للمسجد أن يتبرعوا به، فاعتذروا بأنهم لا يملكون سواه، وليس عندهم مؤنة ما يستطيعون تشييد بيت غيره، فترامت الأنباء إلى عثمان، فأقبل إليهم، واشتراه بعشرة آلاف دينار، وضُم للمسجد الحرام.

● وبعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، واجهتهم مشكلة الماء الذي يشربون، وكانت هناك بئر ليهودي تدعى (بئر رُوْمة)، تفيض بالماء العذب، وكان يبيع ماءها للمسلمين، وفيهم من لا يجد ثمن ذلك، فتمنى النبي ﷺ أن يشتريها أحد المسلمين، ويجعلها في سبيل الله تفيض على الناس بغير ثمن، فقال: «من يشتري رومة فيجعلها للمسلمين، يضرب بدلوه في دلائهم، وله بها مشرب في الجنة»؟.

فسارع عثمان لتلبية رغبة رسول الله ﷺ، طمعاً فيما عند الله من الثواب العظيم، وذهب إلى اليهودي، وساومه على شرائها، فتأبى عليه، فساومه عثمان على النصف فاشتراه منه باثني عشر ألف درهم، فجعله للمسلمين، على أن تكون البئر لعثمان يوماً، ولليهودي يوماً. فكان المسلمون يستقون في يوم عثمان ما يكفيهم يومين! فلما رأى اليهودي ذلك قال لعثمان: أفسدت عليّ ركيتي، فاشترِ النصف لآخر، فقبل عثمان ذلك، واشتراه بثمانية آلاف درهم، وجعل البئر كلها للمسلمين، للغني والفقير وابن السبيل، تفيض بمائها بغير ثمن.

● وفي (غزوة تبوك) جهز جيش العسرة بتسعمئة وخمسين بعيراً، وأتمّ الألف بخمسين فرساً، وألقى في حِجْر النبي ﷺ ألف دينار، وجاء بسبعمئة أوقية ذهب، صبّها بين يدي رسول الله حتى جعل النبي ﷺ يقلّب يديه ظهراً لبطن، ويدعو له ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررتَ وما أعلنت، وما أخفيتَ، وما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، ما يبالي عثمان ما عمل بعد هذا».

● وفي واحدة من غزوات النبي ﷺ أصاب الناسَ جَهْدٌ وضيق، حتى ظهرت الكآبة في وجوه المسلمين، والفرح في وجوه المنافقين، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال: «والله لا تغيب الشمس حتى يأتيكم الله برزق»!.

وكان في الجيش عثمان المعطاء الفياض، وسمع ببشرى النبي ﷺ، وقد علم أن الله ورسوله سيصدّقان، فاشترى أربع عشرة راحلة بما عليها من الطعام،

فوجّه إلى النبي ﷺ بتسعة، فلما رأى ذلك رسول الله قال: «ما هذا»؟ قالوا: أهدى إليك عثمان، فعُرف الفرح في وجه رسول الله ﷺ، والكآبة في وجوه المنافقين. يقول أبو مسعود ـ راوي الحديث ـ: فرأيت رسول الله ﷺ قد رفع يديه حتى رُئي بياض إبطيه، يدعو لعثمان دعاءً ما سمعته دعا لأحد قبله ولا بعده بمثله: «اللهم أعطِ عثمان، اللهم افعل بعثمان».

● ولقد بلغ السخاء والكرم من عثمان مبلغه، حتى عرف بذلك بين الناس، بل إن رسول الله ﷺ ليعلم من عثمان أنه يتمنى أية إشارة نبوية للبذل والعطاء. يحدّث عبد الله بن سلام رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى عثمان رضي الله عنه يقود ناقة تحمل دقيقاً وسمناً وعسلاً، فقال ﷺ: «أنخ»، فأناخ، فدعا بِبُرْمَةٍ[1]، فجعل فيها من السمن والعسل والدقيق، ثم أمر فأوقد تحتها حتى نضج، ثم قال: «كلوا»، فأكل منه ﷺ، ثم قال: «هذا شيء يدعوه أهل فارس: الخبيص».

● وكان في بعض الأحيان يدخل مع التجار في مساومات شيّقة، يلفتهم فيها إلى ما عند الله سبحانه وتعالى، وأنه خير وأبقى، ولنستمع لهذا الموقف الفذ من عثمان، يرويه حبر الأمة ابن عباس فيقول: (قَحِط الناس في زمان أبي بكر، فقال الخليفة لهم: إن شاء الله لا تُمْسُونَ غداً حتى يأتيكم فرج الله. فلما كان صباح الغد، قدمت قافلة لعثمان، فغدا عليه التجار، فخرج إليهم وعليه مُلاءة، قد خالف بين طرفيها على عاتقه، وسألوه أن يبيعهم قافلته. فسألهم: كم تُربحونني؟ قالوا: العشرة اثني عشر. قال: قد زادني! قالوا: فالعشرة خمسة عشر. قال: قد زادني. قالوا: من الذي زادك ونحن تجار المدينة؟! قال: إنه الله، زادني بكل درهم عشراً، فهل لديكم أنتم مزيد؟!.

فانصرف التجار عنه وهو ينادي: اللهم إني وهبتها فقراء المدينة بلا ثمن وبلا حساب)!!.

---

(١) هي القِدْر من الحجارة.

● ولقد بذل حُرّ ماله في إعتاق الرقاب، وتحرير العبيد، ليتنسموا هواء الحرية، مع العيش في ظلال هذا الدين العظيم، فلقد كان فؤاده يرتجف إذا لاقى عبداً يكلّف فوق طاقته، ولقد تحدث بهذه النعمة فقال: ما أتت عليّ جمعة إلا وأنا أعتق فيها رقبة منذ أسلمت، إلا أن لا أجدها في تلك الجمعة، فأجمعها في الجمعة الثانية. وعندما حصر في أيامه الأخيرة من قبل الثوار البغاة أعتق عشرين عبداً مملوكاً.

ولم يكن عثمان في ذلك يريد ثناءً من أحد، إنما يبتغي وجه الله والدار الآخرة، فلقد حمله حياؤه على أن يتلفع بهدوء عجيب، مولياً ظهره لصخب الشهرة، هارباً من إغراء الظهور، راجياً من الله القبول، وهو إذ ينفق هذه النفقة الواسعة، يرى أن ذلك شيء يسير بجانب نعم الله تعالى.

فقد حدث أن جاءه رجل يوماً فقال له: (ذهبتم يا أصحاب الأموال بالخير، تتصدقون وتعتِقون، وتحجّون، وتنفقون! فقال عثمان: وإنكم لتغبطوننا؟ قال: إنا لنغبطكم! قال عثمان: فوالله لدرهم ينفقه أحد من جَهْد خير من عشرة آلاف غيض من يفيض)!!.

هكذا يرى عثمان، إذ إن العبرة عنده ليست بكثرة النفقات، وغدق الهبات، إنما هو القبول من الله سبحانه وتعالى.

صلة الرحم:

ولقد كان رضي الله عنه يعلم ما للرحم من حقوق يجب القيام بها، وقد سمع ترغيب النبي ﷺ بصلتها، وترهيبه من قطعها، ورأى ما كان عليه ﷺ في هذا المجال من سلوك فذ عظيم، فكان ـ رضي الله عنه ـ لا يجد سبيلاً لصلة الرحم إلا ولجه، حتى اشتهر بين الناس بذلك، بل صار مضرب المثل، ولقد عبر علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عن ذلك فقال: (كان عثمان أوصلنا للرحم).

وقـالت أم المؤمنين عائشـة بعد مقتله: (لقد قتلـوه، وإنه لمن أوصلهم للرحم، وأتقاهم لربه).

رحمته وعدله:

وأما رحمته فكانت تشيع في نفسه الحانية وقلبه الودود كما يشيع الريّ في العود الأخضر الريّان، فلكأن قلبه خُلق من رحمة الله. فنراه في الليل يقوم وهو يتكئ على شيخوخته المجهدة، ليتهجد نافلة لله، ويسعى في إحضار الماء بنفسه، ولا يوقظ أحداً من أهله أو خدمه ليعينه على ذلك، إلا أن يجده يقظان، فيُعاتَبُ في ذلك، فيُقال له: لو أيقظت بعض الخدم فكَفَوْك؟! فيقول: (لا، الليل لهم يستريحون فيه)!!.

بل إن رحمته قد شملت الأمة الإسلامية كلها حتى لحظته الأخيرة، عندما حاصره البغاة الخارجون، وطلب إليه الصحابة الكرام أن يذودوا عنه، ويدافعوا عن حياته، فأبى عليهم، وضحّى بدمه الطاهر الزكي ليجنب الناس سفك الدماء في مدينة رسول الله ﷺ، فقال لهم: (أُنَاشِدُكُم الله، وأسألكم به أن لا يُراق بسببي مِحْجَنُ دم)!!.

حُسن معاملته:

ويغضب على عبدٍ له ذات يوم فيعرك أذنه حتى يوجعه، وسرعان ما يفكر بالآخرة والقصاص، فيقضّ ذلك مضجعه، ويخاف من ذلك التصرف العابر الذي يـراه كبيراً، ويطلب إلى عبده قائلاً: (إني عركت أذنـك فاقتص مني). فيستحي العبد، ويأبى أن يقف من عثمان ذلك الموقف، لكن عثمان يلحّ عليه، ويأمره في حـزم، فيرضخ ويطيع، وما إن يـأخذ العبد بـأذن عثمان، حتى يقـول عثمان: (اشدد، يا حبذا قصاص في الدنيا، لا قصاص في الآخرة).

* * *

وكان في تعامله مع الناس سهلاً ليناً، سمحاً كريماً، لا يأبه للمال أنّى ذهب ما دام في سبيل الله، وفي طاعة رسول الله ﷺ.

فقد اشترى من رجل أرضاً، فأبطأ عليه الرجل في قبض ثمنها، فلقيه بعد ذلك، فقال له: ما منعك من قبض مالك؟ فقال الرجل: إنك غبنتني، فما ألقى من الناس أحداً إلا وهو يلومني. قال عثمان: أذلك يمنعك؟ قال: نعم. قال له عثمان: فاختر بين أرضك ومالِك، فلقد قال رسول الله ﷺ: «أَدْخَلَ الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشترياً وبائعاً، وقاضياً ومقتضياً».

وإذا ما قصده قاصد ضاقت به حاله، يطلب منه دَيْناً يفرّج به كرباته؛ أسرع عثمان لذلك، بل ربما سامحه عندما يأتي وقت السداد، فقد حدث أن ألمّت بطلحة بن عبيد الله حاجة، استدان على أثرها من عثمان مبلغاً عظيماً من المال، وبعدما ساق الله الأموال لطلحة بادر لوفاء دَينه، فلقي عثمانَ وهو خارج إلى المسجد، فقال له: (إن الخمسين ألفاً التي لك عندي قد حصلت، فأرسل من يقبضها. فقال له عثمان: إنا قد وهبناكها لمروءتك)!!.

هذه هي أخلاق عثمان الرجل الباهر الذي تخلّق بأخلاق الأنبياء، منذ أسلم إلى أن لقي وجه ربه العلي الأعلى، وقد هاجر بكليته إلى الله سبحانه، ووضع كل ما يمتلكه من جاه رفيع، وثراء عريض، في سبيل الله. وتلك لمحة من ضياء، تكشف لنا بعض مزايا هذا الصحابي الشاهق العظيم، الذي كان يعمل بهدوء عجيب، ويتلفع بحياء عميم، ويتقلب على رحمة واسعة، ويهرب من الظهور والشهرة والسمعة.

فلنتابع معه لنرى عبادته ونسكه، وأنسه بالقرآن العظيم، وتبتّله بين يدي الله رب العالمين.

عبادته ونسكه وتقواه:

لقد كان عثمان في العبادة واحداً من أفذاذها المعدودين، وبطلاً من أبطالها

المبرّزين، يصوم النهار، ويقوم الليل، ويديم النظر في المصحف الشريف. وقد ثابر على هذا النمط الفذ طوال حياته وعمره المديد الذي نيّف على الثمانين، فكان أوّاهاً أواباً، خاشعاً ضارعاً، تقياً نقياً، طاهراً عفيفاً، دائم الصلة بالله، موصول القلب بمولاه، عظيم الوفاء لماضيه، الذي ما عَرف غير الطهر والعفاف والصفاء والنقاء، فكان يحدّث بنعمة الله التي أفاءها عليه فيقول: (ما زنيت ولا سرقت في جاهلية ولا إسلام).

فكان ممن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، غالب أحواله الكرم والحياء، والحذر والرجاء، حظه من النهار الجود والصيام، ومن الليل السجود والقيام. فمفهوم العبادة عند عثمان ينساح ليشمل كل حياته وحركاته وسكناته، قياماً بالليل، وصياماً بالنهار، وإنفاقاً بغير حساب، وجهاداً في سبيل الله إذا نودي للضرّاب.

● أما صلاته وقيامه فقد بلغ بها شأواً بعيداً يعزّ نظيره ومثيله، فعن عبد الرحمن بن عثمان التيمي أنه قال: (لأغلبن اليوم على المقام[1]، قال: فلما صليت العَتَمة، تخلّصت إلى المقام حتى قمت فيه، فبينا أنا قائم إذا رجل وضع يده بين كتفيّ، فإذا هو عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ؛ قال: فبدأ بأم القرآن، فركع وسجد، ثم أخذ نعليه، فلا أدري أصلّى قبل ذلك شيئاً أم لا).

ويروي عطاء بن أبي رباح أن عثمان صلى بالناس، ثم قام خلف المقام، فجمع كتاب الله في ركعة كانت وِتْرَه، فسمّيت (البُتَيْرَاءَ).

ولقد بقي على هذا التنسك الرّباني حتى آخر عهده بالدنيا، وقد شاخت قواه، ونحلت عظامه، تروي ذلك زوجته نائلة بنت الفرافصة، وجابهت به البغاة لما أحاطوا بعثمان، ودخلوا عليه ليقتلوه؛ فقالت: (إن تَقْتُلوه أو تَدَعُوه، فقد كان يُحْيي الليل بركعة يجمع فيها القرآن).

---

(١) هو مقام إبراهيم عليه السلام في جوار الكعبة المعظمة.

واشتهر عنه طول القيام، فكان يقوم الليل إلا هَجْعةً[1] من أوله، وإذا سمع الأذان قال: (مرحباً بالقائل عدلاً، وبالصلاة مرحباً وأهلاً).

وعندما يقضي رجل مثل عثمان الليل قائماً، وأمامه الفرش الوثيرة الناعمة، وبُذلت تحت قدميه كل وسائل الدعة والراحة، فنأى عن ذلك، وتجافى جنبه عن فراشه، ووقف يناجي ربه الفتاح الوهاب، فإن هذا يعني أنه حقاً من طراز فريد.

وما أدق وأروع قول ابن عمر عندما كان يتلو قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩]؛ قال: هو عثمان بن عفان.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦] قال: هو عثمان.

● وأما صومه فقد بلغ من هيامه به حداً حمل معاصريه أن يصفوه بأنه (كان يصوم الدهر). وعندما يقضي عثمان الدهر صائماً فهذا نبأ عجيب؛ إذ إن داره تعجّ بأطايب الطعام، وموائده تزخر بما لذّ وطاب، ومع كل هذه المغريات تتبدى نفسية المؤمن المهاجر، الذي هجر كل شيء طمعاً فيما عند الله، وهو خير وأبقى.

* * *

ولقد تعلق قلبه بالقرآن، فكان جليسه وأنيسه، فأدام النظر فيه، وأمعن في تلاوة آياته البيّنات، ليروي روحه الظامئة المشتاقة، وهو لا يبالي بالليل إذا أوشك على الأفول، فكان القرآن صديقه الذي لا يطيق فراقه، وكان يقول في ذلك: (ما أحب أن يأتي عليّ يوم ولا ليلة إلا أنظر في كتاب الله).

ويروي الحسن فيقول: (قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو أن قلوبنا طَهُرت ما شبعنا من كلام ربنا، وإني لأكره أن يأتي عليّ يوم لا أنظر في المصحف).

---

(١) أي طائفة من الليل.

وما مات عثمان حتى خرّق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه.

ومع كثرة التعبد والقيام، والصلاة والصيام، وتلاوة آي الذكر الحكيم؛ كان يكثر من الحج والطواف حول البيت العتيق، مهوى القلوب والأفئدة، فلقد حج مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، وفي خلافته المباركة حج عشر سنين متوالية، إلا السنة التي حوصر فيها، فوجّه ابن عباس فحج بالناس.

وكان مع هذا التعبد الخاشع، والخشوع الضارع، والضراعة المتبتلة، حاضر العبرة، غزير الدمعة، يحدّث مولاه هانئ فيقول: (كان عثمان إذا وقف على قبر يبكي حتى يُبلّ لحيته).

فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي؟!.

فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منزلة من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشدّ».

وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه».

ثم أنشد عثمان على القبر:

فإن تنجُ منها[1] تنجُ من ذي عظيمةٍ وإلا فإني لا إخالك ناجيا

وإذا ما تذكّر الآخرة تخيّل نفسه وقد انشق جَدَثُه، ونَسَلَ منه إلى ربه للعرض والحساب، فكان يقول: (لو أني بين الجنة والنار، ولا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لا خترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير).

أبعد تلك الفضائل والأمجاد، والبطولات والتضحيات، والإنفاق والتبتل، والصيام والقيام، والخوف والرجاء، يقول عثمان هذا؟! نعم، إنها القلوب التي عرفت ربها، وقدّرت عظم نعمائه وآلائه، فعلمت أنها مهما عملت فلن تدخل الجنة إلا بفضله ورحمته سبحانه وتعالى.

---

(١) أي الحفرة.

هذا هو الإيمان العميق الذي عبَّر عنه العبقري المُحَدّث المُلهم عمر بن الخطاب، وقد خرج ذات يوم، فإذا هو بمجلس فيه عثمان بن عفان، فقال: (معكم رجل لو قُسم إيمانه بين جند من الأجناد لوسعهم ـ يريد عثمان بن عفان).

علمه:

● وكما كان عثمان من أبطال المسيرة الأولى التي حملت راية الإسلام في فجره الباكر، وأول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام، وحضر المشاهد مع رسول الله ﷺ، ووضع ثراءه العريض في خدمة الدعوة، فأعطى بغير حساب، مع الخلق العظيم، والتبتل الفريد ـ كذلك كان من أبرز علماء الصحابة، وأحد أعيان المفتين فيهم، حتى إنه كان أحد القلائل الذين كانوا يفتون في عهد النبي ﷺ.

يحدث القاسم بن محمد فيقول: كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضي الله عنهم ـ يفتون على عهد رسول الله ﷺ.

وعن سهل بن أبي خيثمة قال: (كان الذين يفتون على عهد رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من المهاجرين، وثلاثة نفر من الأنصار: عمر وعثمان وعلي، وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت، رضي الله عنهم).

وكان يفتي في خلافة أبي بكر الصديق، ولما وُلّي عمر ـ رضي الله عنه ـ كانت الفتوى تصير إلى: عثمان، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت. فلقد كان أعلم الصحابة بالمناسك، وبعده عبد الله بن عمر.

ومن الأدلة الباهرة على علمه الغزير كونه أصبح ثالث خليفة للمسلمين، فالخليفة يجب أن يكون أعلمَ الناس بكتاب الله، وأقرأهم له، وأكثرهم معرفة بسنة النبي ﷺ، وذلك ليدير شؤون المسلمين على هدىً وبصيرة، ويؤمهم في صلاتهم، ويخطب فيهم، ويبيّن لهم الحلال والحرام، ويقضي بينهم، ويختار لهم الخير في آخرتهم ودنياهم، وكل ذلك يتطلب علماً واسعاً يجب أن يتمتع به أمير المؤمنين.

● وكـان يجلس للنـاس يعلمهـم ويفقههـم ويـرشـدهـم، ويجيـب عـن تساؤلاتهم، روى الحارث بن عبد الله ـ مولى عثمان ـ فقال:

(جلس عثمان ـ رضي الله عنه ـ يوماً وجلسنا معه، فجاء المؤذن، فدعا بماء في إناء، فتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وُضوئي هذا، ثم قال: من توضأ وضوئي هذا، ثم قام يصلي صلاة الظهر غفر له ما كان بينهما وبين الصبح، ثم صلى العصر غفر له ما كان بينها وبين الظهر، ثم صلى المغرب غفر له ما كان بينها وبين العصر، ثم صلى العشاء غفر له ما كان بينها وبين المغرب. ثم لعله يبيت يتمرغ[1] ليلتـه، ثم قام فتـوضأ فصلى الصبح غُفر لـه ما بينها وبين صلاة العشاء، وهن[2] الحسنات يذهن السيئات).

قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟.

قال: (هي لا إلـه إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله).

● وكان يتحرج من التحديث عن رسول الله ﷺ، خشية أن تخطئه الذاكرة، فيزيد حرفاً أو ينقص آخر من كلام النبي ﷺ، فكان رضي الله عنه يقول: (ما يمنعني أن أحدِّث عن رسول الله ﷺ أن لا أكون أوعى أصحابه عنه، ولكني أشهد لَسَمعتُه يقول: «من قال عليَّ ما لم أقل فليتبوأ مقعدَه من النار»).

ولقد وصفه عبد الرحمن بن حاطب فقال: (ما رأيت أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا حدَّث أتمّ حديثاً ولا أحسن من عثمان ـ رضي الله عنه ـ إلا أنه كان رجلاً يهاب الحديث).

● ولذا قلّت مروياته عن النبي ﷺ، فقد رُوي له مئة وستة وأربعون حديثاً. ولقد روى الحديث عن رسول الله ﷺ وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

---

(١) كناية عن التقلب في الإثم.
(٢) يعني الصلوات.

وروى عنه من الصحابة: عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت، وعمران بن حصين وأبو قتادة وأبو هريرة وأنس بن مالك، وسلمة بن الأكْوَع وابن عباس، وابن عمر وابن الزبير، وغيرهم.

ومن التابعين: ابن عمه مروان بن الحَكَم، والأحنف بن قيس، وسعيد بن المسيّب، وأبو وائل شقيق بن سلمة، وأبو عبد الرحمن السلمي، وعلقمة بن قيس، ومحمد بن علي بن أبي طالب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

وروى عنه أولاده: أبان وسعيد وعمرو، ومواليه: حُمْران، وهانئ البربري، وأبو صالح، وأبو سهلة، ويوسف، وابن وارة.

من أهل الجنة:

هذا الصحابي السبّاق في إسلامه، المهاجر إلى الله ورسوله، الحيي الذي تستحيي منه الملائكة، المدافع عن دين الله بنفسه وجاهه، السخي المعطاء الكريم، الذي بذل ماله حتى لكأنه المُمَوّل الوحيد للأمة، فأنفق المال سراً وعلانية، وأطعم الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، وجهّز المجاهدين، وحمل القوافل زاداً للجوعى والمحرومين، المُخبت المتبتل، الخاشع الضارع، الصائم القائم، الأوّاه الأواب، العالِم الفذ ـ أين هي منزلته عند ربه سبحانه وتعالى؟.

● يحدث أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ فيقول: (كنت مع النبي ﷺ في حائطٍ[1] من حيطان المدينة، فجاء رجل فاستفتح، فقال النبي ﷺ: «افتح له وبشّره بالجنة». ففتحتُ له، فإذا أبو بكر، فبشّرته بما قال النبي ﷺ، فَحَمِدَ الله.

ثم جاء رجل فاستفتح، فقال: النبي ﷺ: «افتح له وبشّره بالجنة». ففتحت له، فإذا هو عمر، فأخبرته بما قال النبي ﷺ، فحمد الله.

---

(١) بستان من نخيل.

ثم استفتح رجل فقال لي: «افتح له، وبشّره بالجنة على بلوى[1] تصيبه»! فإذا عثمان فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ، فحمد الله، ثم قال: الله المستعان).

● ولقد توالت البشريات العظيمة من النبي ﷺ ـ الذي لا ينطق عن الهوى ـ لهذا الخليفة الراشد، والمؤمن الشاهق، والمهاجر الصادق، بأنه من أهل الجنة، ولقد شهد له بذلك الأصحاب الكرام عندما قال رسول الله ﷺ: «من يحفر بئر رومة فله الجنة». فحفرها عثمان، ولما قال ﷺ: «من جهز جيش العسرة فله الجنة»؛ فجهزه عثمان رضي الله عنه.

ولهذا قال أبو هريرة: (اشترى عثمان الجنةَ من النبي ﷺ مرتين: حيث حفر بئر رومة، وحيث جهّز جيش العسرة).

وعن النزال بن سبرة قال: قلنا لعلي: (يا أمير المؤمنين، حدثنا عن عثمان بن عفان. فقال: ذاك امرؤ يدعى في الملأ الأعلى ذا النورين، كان خَتَنَ رسول الله ﷺ على ابنتيه، ضمن له بيتاً في الجنة).

منزلته عند النبي ﷺ وأصحابه:

بعد هذه المزايا العظيمة، وتلك الخصال الحميدة، والمناقب الفريدة التي تحلّى بها عثمان، وهذا المآل السعيد، والمُنقلب الحميد إلى الله عز وجل في أعلى جنانه، لهذا الرجل المبارك الميمون ـ أين تكون منزلته من قلب النبي ﷺ؟.

● لقد كانت مزايا عثمان وشمائله تحظى بِحَدَبٍ عظيم، وإيثار كبير له من رسول الله ﷺ، فلقد زوّجه ابنته رقية رضي الله عنها، وماتت عنده، فزوّجه ابنته الأخرى أم كلثوم، وبقيت عنده حتى توفاها الله إليه سنة تسع من الهجرة، فأسف الرسول ﷺ، إذ لم يكن له كريمة أخرى حتى يزوجها صهره الحبيب، فقال:

«والذي نفسي بيده، لو كان عندي ثالثة لزوّجتكها يا عثمان»، بل إن

---

(١) أي بلية، وهي التي صار بها عثمان شهيد الدار عندما قتله البغاة الآثمون.

الحديث يروى بصيغة أخرى، يقول فيها رسول الله ﷺ:

«لو كان لي أربعون بنتاً لزوّجتهنّ بعثمان واحدة بعد واحدة، حتى لا يبقى منهن واحدة».

● وكان يكتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ، كما كان كاتبَ سرّه ﷺ، وإذا جلس النبي ﷺ جلس أبو بكر عن يمينه، وعمر عن يساره، وعثمان بين يديه.

ولقد بلغ من منزلته عند رسول الله ﷺ أنه كان أحد أربعة من الصحابة الكبار الذين اختارهم الله سبحانه لصحبة رسوله ﷺ ونصرته، والقيام بدعوته في حياته، وبعد أن لحق بربه سبحانه، قال رسول الله ﷺ:

«إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختار لي من أصحابي أربعة: أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ـ رحمهم الله ـ فجعلهم أصحابي، وفي أصحابي كلّهم خيرٌ. واختار أمتي على الأمم، واختار من أمتي أربعة قرون، القرن الأول والثاني والثالث والرابع».

● بل إن عثمان ليرتقي منزلاً أشمخ، ومكاناً أرفع عند النبي ﷺ، ليصبح الرجل الثالث في صحابة رسول الله ﷺ، إيماناً وتقوى، وعلماً وعملاً، وجهاداً وتبتلاً، وسخاءً وعطاءً، يقول ﷺ:

«إني رأيت أني وُضعت في كفة وأمتي في كفة فعدلتُها، ثم وُضع أبو بكر في كفة وأمتي في كفة فعدلها، ثم وُضع عمر في كفة وأمتي في كفة فعدلها، ثم وُضع عثمان في كفة وأمتي في كفة فعدلها».

فاستحق بذلك تلك البشرى العظيمة، والصحبة الغالية التي يقول فيها الصادق المصدوق ﷺ: «لِكُلّ نبي رفيقٌ، وَرَفيقِي ـ يعني في الجنة ـ عثمان».

● ولقد كان النبي ﷺ كثير الدعاء لعثمان، لما رأى من كرمه وسخائه، وبذله في سبيل الله ونصرة دعوته، حتى إن أم المؤمنين عائشة تقول: (ما رأيت

رسول الله ﷺ رافعاً يديه حتى يبدو ضبعيه إلا لعثمان بن عفان، إذا دعا له).

ويقول أبو سعيد الخدري: (رأيت رسول الله ﷺ من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعاً يديه يدعو لعثمان يقول: «اللهم، عثمان رضيتُ عنه فارض عنه»).

وفي رواية أخرى يقول لعثمان: «غفر الله لك ما قدمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما كان منك وما هو كائن إلى يوم القيامة».

«اللهم اغفر لعثمان ما أقبل وما أدبر، وما أخفى وما أعلن، وما أسرّ وما أجهر».

* * *

ولقد عرف الصحابة الكرام منزلته رضي الله عنه، فوضعوه من نفوسهم بالمنزلة التي وضعه فيها رسول الله ﷺ، وأثنوا عليه ونشروا فضائله، وأنّبوا مبغضيه، وقاتلوا شانئيه والخارجين عليه.

● فكان رضي الله عنه قريباً من أبي بكر وعمر في خلافتهما، يدخل عليهما في عِلْية الصحابة، ليشيروا بآرائهم في أمور المسلمين والدعوة، وكان الشيخان يقرّبانه ويستشيرانه، لما يرون من رأيه الرشيد، ونصحه وحرصه على مصلحة الأمة والدولة.

● وقد ذكر ناسٌ عثمان بن عفان في خلافة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فقال الحسن بن علي: الآن يجيء أمير المؤمنين، فجاء علي فقال: (كان عثمان من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ . . . ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]).

وقال علي بن أبي طالب يثني على عثمان وخلاله ومزاياه: كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ خيرنا، وأوصلنا للرحم، وأشدّنا حياءً، وأحسننا طهوراً، وأتقانا للرب عزَّ وجلّ.

● ويقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (كنا في زمن النبي ﷺ لانَعْدِلُ

بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم).

● وسأل معاويةُ بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ عبدَ الله بنَ عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال: ما تقول في عثمان بن عفان؟.

فقال ابن عباس: (رحم الله أبا عمرو، كان والله أكرم الحَفَدة، وأوصلَ البَرَرة، وأصبرَ الغزاة، هجّاداً بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر الله، دائمَ الفكر فيما يعنيه الليلَ والنهارَ، ناهضاً إلى كل مكرمة، يسعى إلى كل منجية، فرّاراً من كل موبقة، وصاحب الجيش[1]، والبئر[2]، وخَتَنَ[3] المصطفى على ابنتيه، فأعقب الله من سبَّه الندامة إلى يوم القيامة).

● ولما أشاع بعضُ الشانئين أن حبَّ عثمان وعلي لا يجتمعان في قلب واحد، فالذي يُحبُّ علياً يبغض عثمان، والذي يحب عثمان لا بد أن يُبغضَ علياً، وتنامى هذا الإفك المفترى إلى خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك؛ فرد ذلك قائلاً: كذبوا والله، لقد اجتمع حبهما في قلوبنا.

والصحابة هم الميزان في هذا الميدان، ولا يحيد عن فعلهم إلا شانئ حاقد!!.

● ولقد سمت منزلته وتألّقت في خلافته، وما قام به من أعمال جليلة أثنى عليها علماء الإسلام الثقات، وتناقلتها الرواة جيلاً بعد جيل، ولقد أشار إمام أهل الحديث الحافظ العَلَم الورع الحجة عبد الرحمن بن مهدي إلى خصلتين عظيمتين لعثمان، لم يشاركه فيهما غيره، فقال: خصلتان لعثمان ليستا لأبي بكر ولا لعمر رضي الله عنهما: صبره على نفسه حتى قُتل مظلوماً، وجمعه الناسَ على المصحف.

● ● ●

---

(١) يريد تجهيز جيش العسرة.

(٢) إشارة إلى شرائه بئر رومة.

(٣) أي صهره.

الفصل الرابع

في رحاب خلافته:

سيرته فيها وسياسته وجلائل أعماله

الاستخلاف ـ مع أبي بكر وعمر:

هذه المنزلة الرفيعة السامقة، والمزايا العظيمة، مع سبقه للإسلام، وكونه أحد الأبطال الأوائل الذين حملوا راية الإسلام في عهده الباكر، وأول المهاجرين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، ثم هو صهر النبي ﷺ على ابنتيه، مع الإنفاق العظيم لخدمة الإسلام؛ والرحمة الواسعة والخلق الكريم...

كل هذه الصفات والميزات جعلت عثمان يتألق في عهد رسول الله ﷺ، ويعلو صدر الأحداث في عهد أبي بكر وعمر، فكان أحد أبرز الرجال الذين تكوّن منهم مجلس الشورى، وقد عرف له الصّدّيق وعمر ذلك، فكان يدخل عليهما مع أعيان الصحابة، يشير بالرأي الناصح والقول السديد.

● فبعد أن قضى أبو بكر على حركة الردة، أراد أن يغزو الروم، وينطلق الجيش المجاهد إلى أطراف الأرض، فقام في الناس يستشيرهم، فقال الألبّاء ما عندهم، ثم استزداهم أبو بكر فقال: ما ترون؟.

فقال عثمان بن عفان: (إني أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين، شفيق عليهم، فإذا رأيتَ رأياً تراه لعامتهم صلاحاً، فاعزم على إمضائه فإنك غير ظنين[1]).

---

(١) غير متَّهم.

فقال طلحة والزبير، وسعد وأبو عبيدة وسعيد بن زيد، ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم: صَدَقَ عثمان! ما رأيتَ من رأي فأمضِه.

ولما أراد الصدّيق أن يبعث والياً إلى البحرين استشار أصحابه، فقال عثمان: (ابعث رجلاً قد بعثه رسول الله ﷺ إليهم، فقدم عليه[1] بإسلامهم وطاعتهم، وقد عرفوه وعرفهم وعرف بلادهم - يعني العلاءَ بن الحَضْرمي رضي الله عنه - فبعث الصديقُ العلاءَ إلى البحرين).

كما كان عثمان أمين سرّ الخلافة البكرية، فهو الذي كتب عهد استخلاف أبي بكر لعمر، وختمه، وخرج على الناس فبلّغهم إياه.

● وفي خلافة عمر رضي الله عنه، كان عثمان رفيع المنزلة عند الخليفة، قريباً منه، حتى كان يقال لعثمان: (الرديف)، وهو الرجل الذي يرجوه الناس بعد رئيسهم، فإذا أراد الناس أن يسألوا عمر عن شيء رَمَوْه بعثمان، أو بعبد الرحمن ابن عوف.

وقد حدث ذات مرة أن خرج عمر بالناس، وعسكر بهم بماء يُدعى (صِراراً)، فجاء عثمان فسأله: ما بلغك؟ ما الذي تريد؟ فنادى عمر (الصلاة جامعة) ثم أخبر الناس.

ولما ولي عمر الخلافة استشار وجوه الصحابة في عطائه من بيت مال المسلمين، فقال له عثمان: كل وأطعم.

وعندما أرسل أبو عبيدة إلى عمر أن يقدم إلى بيت المقدس ليفتحه، فاستشار عمر الناس، فأشار عثمان بأن لا يركب إليهم ليكون أحقر لهم، وأرغم لأنوفهم، وأشار علي بالمسير، فهويَ عمر ما قال علي، ليكون أخف وطأة على المسلمين في حصارهم.

---

(١) أي على النبي ﷺ.

وأشار عثمان على عمر بتدوين الديوان فقال: (أرى مالاً كثيراً يَسَعُ الناس، وإن لم يُحْصَوْا ـ حتى تَعْرِفَ من أخذ ممن لم يأخذ ـ خشيتُ أن ينتشر الأمر).

لأجل ذلك كله كانت له تلك المنزلة عند عمر، حتى جعله أحد الستة أصحاب الشورى، ليختار المسلمون خليفة منهم.

الإشارات النبوية لاستخلافه، وإرهاصات ذلك:

كل تلك الصفات أهّلت عثمان ليكون الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ، ويصبح أمير المؤمنين بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد كانت هناك إيماءات نبويّة، وإشارات واضحة لاستخلاف عثمان رضي الله عنه وأرضاه.

● فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما أسس رسول الله ﷺ مسجد المدينة جاء بحجر فوضعه، وجاء أبو بكر بحجر فوضعه، وجاء عمر بحجر فوضعه، وجاء عثمان بحجر فوضعه. قالت: فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «هم أمراء الخلافة من بعدي».

وتروي رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أرسل إلى عثمان بن عفان، فجاء فأقبل عليه رسول الله ﷺ وقال له: «يا عثمان، إن الله عسى أن يلبسك قميصاً[1]، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني»، ثلاثاً).

● ويحدث الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري فيقول: (لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شيء رأيتُه، كنتُ رجلاً أتبع خلوات رسول الله ﷺ، فرأيته يوماً جالساً وحده، فاغتنمت خلوته، فجئت حتى جلست إليه، فجاء أبو بكر، فسلّم عليه، ثم جلس عن يمين رسول الله ﷺ، ثم جاء عمر، فسلّم، وجلس عن يمين أبي بكر، ثم جاء عثمان، فسلّم، ثم جلس عن يمين عمر، وبين يدي رسول الله ﷺ سبع حصيات ـ أو قال: تسع حصيات ـ فأخذهنّ في كفه، فسبّحن، حتى سمعت لهن

---

(١) يعني الخلافة.

حنيناً كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن. ثم أخذهن، فوضعهن في كف أبي بكر، فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر، فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن. ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان، فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل ثم وضعهن فخرسن. فقال النبي ﷺ: «هذه خلافة النبوة».

● ويحدث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أُري الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله، ونيط عمر بأبي بكر، ونيط عثمان بعمر». فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا: (أما الرجل الصالح فرسول الله، وأما ما ذكره رسول الله ﷺ من نوط بعضهم ببعض؛ فهؤلاء ولاة الأمر الذي بعث الله به نبيه ﷺ).

● ويقول عبد الله بن عمر: (كنا نقول في عهد النبي ﷺ: أبو بكر وعمر وعثمان ـ يعني في الخلافة ـ).

● وعندما حجَّ الفاروق عمر حجَّته الأخيرة، ورأى تكبير الناس ودعاءهم وما يصنعون، فأعجبه ذلك، فقال لحذيفة ـ وكان بجنبه ـ: (يا حذيفة، كم ترى هذا يبقى للناس؟ فقال حذيفة: على الفتنة باب، فإذا كُسر أو فُتح خرجتْ! فقال عمر: وما ذلك الباب؟ وما كَسْرُ باب وما فَتْحه؟ قال حذيفة: رجل يموت أو يُقتل! فقال عمر: يا حذيفة، من ترى قومك يؤمّرون بعدي؟ فقال حذيفة: رأيت الناس قد أسندوا أمرهم إلى عثمان)!!.

● ويقول حارثة بن مُضَرّب: (حججت في خلافة عمر، فلم أرهم يشكّون أن الخليفة بعده عثمان).

استخلافه ومبايعة الأمّة له:

وهذه الإشارات النبوية، والمواقف الصريحة الواضحة من الصحابة في عهد النبي ﷺ والخليفتين بعده؛ جعلت عثمان يتبوأ تلك المكانة، ويُشار إليه في الناس بعد عمر رضي الله عنه.

ولقد كان عمر يدرك ما لعثمان من المنزلة والحظوة عند رسول الله وأصحابه، وأنه أهل للخلافة، وعندما طُعن طلب إليه المسلمون أن يستخلف عليهم من يقوم بالأمر بعده، وألحّوا في ذلك، فقال: (لا أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فأيّهم استُخلف فهو الخليفة من بعدي، فسمّى علياً وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن ـ بن عوف ـ وسعداً ـ بن أبي وقاص ـ).

وقال: (لا أتحمل أمرهم حياً وميتاً، وإن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خير هؤلاء، كما جمعكم على خيركم بعد نبيكم ﷺ).

وبعبقريته الفذة أومأ إلى اثنين يرجحان بمنزلتهما عند الناس، فقال: (ما أظن الناس يعدلون بعثمان وعلي أحداً، إنهما كانا يكتبان الوحي بين يدي رسول الله ﷺ بما ينزل به جبريل عليه).

ثم قال لأصحاب الشورى: (تشاوروا في أمركم، فإن كان اثنان واثنان فارجعوا في الشورى، وإن كان أربعة واثنان، فخذوا صِنْفَ الأكثر، وإن اجتمع رأي ثلاثة وثلاثة، فاتبعوا صِنْفَ عبد الرحمن بن عوف، واسمعوا له وأطيعوا).

ولم يكن في أهل الإسلام أحد له من المنزلة في الدين والهجرة والسابقة والعقل والعلم والمعرفة بالسياسة؛ ما لهؤلاء الستة، الذين جعل عمر الأمر شورى بينهم، وإنما جعلها شورى بين هؤلاء ـ مع أن بعضهم أفضل من بعض ـ لأنه تحقق أنهم لا يجتمعون على تولية المفضول، ولا يألون نصحاً في الشورى، وأن المفضول منهم لا يتقدم على الفاضل، وعَلِمَ رضا الأمة بمن رضي به الستة.

ثم أرسل عمر إلى أبي طلحة الأنصاري قبل أن يموت بساعة فقال: (يا أبا طلحة، كن في خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى، فلا تَتْرُكْهُمْ يمضي اليوم الثالث حتى يؤمّروا أحدهم، اللهم أنت خليفتي عليهم.

وقال لأولئك الستة: (إذا أنا متّ فتشاوروا ثلاثة أيام، ولا يأت اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم).

واجتَمعوا في حجرة أم المؤمنين عائشة، وكان طلحة بن عبيد الله غائباً فحضر، وأشار عبد الرحمن بن عوف أن يفوّض ثلاثة منهم ما يستحقونه من الإمارة إلى ثلاثة، فقال: (اجعلوا الأمر إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي. فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان. وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف.

فقال عبد الرحمن بن عوف: أيكما تبرّأ من هذا الأمر، فنجعَلُه إليه، والله عليه والإسلامُ لينظرنّ أفضلَهم في نفسه؟ فأُسْكِتَ الشيخان[1].

فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إليّ، والله عَلَيّ أن لا آلُو[2] عن أفضلكم؟.

قالا: نعم.

فأخذ بيد أحدهما[3] فقال: لكَ قرابة من رسول الله ﷺ، والقِدَمُ في الإسلام ما قد علمتَ، فالله عليك لئن أمّرتُكَ لتعدلنّ، ولئن أمّرتُ عثمانَ لتسمعنّ ولتطيعنّ؟! ثم خلا بالآخر، فقال له مثل ذلك).

فقال كل منهما: نعم. ثم تفرقوا.

وكانت مهمة شاقة وعظيمة، يجب على عبد الرحمن بن عوف أن ينجزها في الأيام الثلاثة التي أوصاهم الفاروق ألا يجاوزوها. وكان على ابن عوف أن يجري خلال هذه المدة القصيرة شورى واسعة وعميمة بين الصحب الكرام.

ولنترك الحافظ المؤرخ ابن كثير يصوّر لنا العمل الضخم والجهد الباهر

---

(١) أي عثمان وعلي.

(٢) لا أقصّر في اختيار أفضلكما.

(٣) هو علي رضي الله عنه.

الذي بذله هذا الصحابي الجليل في هذه المهمة الجليلة الخطيرة، فيقول:

(نهض عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ يستشير الناس فيهما ـ أي عثمان وعلي ـ ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس وقادتهم، جميعاً وأشتاتاً، مثنى وفرادى ومجتمعين، سراً وجهراً. حتى خلص إلى النساء المخدّرات في حجابهنّ، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة.

فسعى في ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها، لا يغتمض بكثير نوم إلا صلاة ودعـاءً واستخارة، وسؤالاً من ذوي الرأي عنهم، فلم يجد أحداً يعدل بعثمان بن عفان رضي الله عنه.

فلما كانت الليلة يسفر صباحها عن اليوم الرابع من موت عمر بن الخطاب، جاء إلى منزل ابن أخته المِسْوَر بن مَخْرَمَة، فقال: أنائم يا مسور؟ والله لم أغتمض بكثير نوم منذ ثلاث!! اذهب فادعُ لي علياً وعثمان. قال المسور: بأيهما أبدأ؟ فقال: بأيهما شئتَ.

قال المِسْوَر: فذهبت إلى علي فقلت: أجب خالي. فقال: أمرك أن تدعو معي أحداً؟ قلتُ: نعم. قال: مَنْ؟ قلتُ: عثمان بن عفان. قال: بأينا بدأ؟ قلت: لم يأمرني بذلك، بل قال: ادع لي أيهما شئت أولاً، فجئت إليك. قال: فخرج معي.

فلما مررنا بدار عثمان بن عفان، جلس علي حتى دخلتُ، فوجدتُه يوتر مع الفجر!! فقال لي كما قال لي عليّ سواء، ثم خرج.

فدخلت بهما على خالي ـ ابن عوف ـ وهو قائم يصلي، فلما انصرف، أقبل على عليّ وعثمان، فقال: إني قد سألت الناس عنكما، فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً. ثم أخذ العهد على كل منهما ـ أيضاً ـ لئن ولاّه ليعدلنّ، ولئن ولّى عليه ليسمعنّ وليطيعنّ.

ثم خرج بهما إلى المسجد، وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عممه رسول الله ﷺ، وتقلّد سيفاً، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجْناد[1] ـ وكانوا وافَوْا تلك الحَجّة مع عمر ـ؛ ونودي في الناس عامة: (الصلاة جامعة). فامتلأ المسجد حتى غصّ بالناس، وتراصّ الناس، وتراصّوا حتى لم يبق لعثمان موضع يجلس فيه إلا في أخريات الناس ـ وكان رجلاً حيياً رضي الله عنه ـ.

ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله ﷺ، فوقف وقوفاً طويلاً، ودعا دعاءً طويلاً لم يسمعه الناس، ثم تكلم فقال:

أيها الناس، إني سألتكم سراً وجهراً، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين: إما علي وإما عثمان.

فقُمْ إليّ يا علي، فقام إليه فوقف تحت المنبر، فأخذ عبد الرحمن بيده فقال: هل أنت مُبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعلِ أبي بكر وعمر؟.

قال: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي.

فأرسل يده.

وقال: قُمْ إليّ يا عثمان، فأخذ بيده فقال: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفعل أبي بكر وعمر؟.

قال: اللهم نعم!.

فرفع رأسه إلى سقف المسجد، ويده في يد عثمان، فقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد. اللهم إني قد خلعت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان).

---

(١) هم: معاوية أمير الشام، وعمير بن سعد أمير حمص، والمغيرة بن شعبة أمير الكوفة، وأبو موسى الأشعري أمير البصرة، وعمرو بن العاص أمير مصر.

فبايعه عبد الرحمن بن عوف، ثم كانت يمين علي بن أبي طالب ثانيَ يمين شدّت بالبيعة على يمين أمير المؤمنين عثمان[1]. ثم بايعه الناس: المهاجرون والأنصار، وأمـراء الأجنـاد، وعامة الناس، وازدحموا عليه حتى غشوه تحت المنبر. واستقبل بخلافته يوم السبت غرة المحرم سنة أربع وعشرين للهجرة.

* * *

وقد بشّـر رسـول الله ﷺ ببيعته، وذلـك فيما يرويه الصحابي عبد الله بن حوالة رضي الله عنه فيقول: قال رسول الله ﷺ: «تهجمون على رجل مُعْتَجِرٍ[2] ببردة من أهل الجنـة يبايع النـاس». قال: فهجمنا على عثمان بن عفان فرأيناه معتجراً يبايع الناس.

وتمّت بيعة عثمان بإجماع المسلمين، واجتمعوا على أفضلهم وخيرهم، وقد عبر عن ذلك صحابي جليل، فيما يرويه أبو وائل أن عبد الله بن مسعود سار من المدينة إلى الكوفة ثمانياً حين استُخلف عثمان بن عفان، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد، فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مات فلم نرَ يوماً أكثر نشيجاً

---

(١) هذه هي رواية البخاري في صحيحه، وابن سعد في (الطبقات)، لكن قال ابن كثير: (وما يذكره كثير من المؤرخين ـ كابن جرير وغيره ـ عن رجال لا يُعرفون أنّ علياً قال لعبد الرحمن: خدعتني، وإنك إنما وليته لأنه صهرك، وليشاورك كل يوم في شأنه، وأنه تلكأ حتى قال له عبد الرحمن: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في (الصحاح)؛ فهي مردودة على قائليها وناقليها، والمظنون بالصحابة خلاف ما يتوهم كثير من الرافضة وأغبياء القصاص، الذين لا تمييز عندهم بين صحيح الأخبـار وضعيفها، ومسـتقيمها وسـقيمها، ومبادهـا وقويمها، والله الموفق للصواب) انتهى.
قلت: وقد راجتِ هذه الرواية الباطلة الكاذبة على بعض الكتّاب المعاصرين، انظر مثلاً (ذو النورين القائد) لبسام العسلي، ص٣٠.

(٢) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفّها على رأسه، ويردّ طرفها على وجهه.

من يومئذٍ، وإنّا اجتمعنا أصحاب محمد، فلم نَأْلُ[1] عن خيرنا ذي فُوقٍ[2]، فبايَعْنا أمير المؤمنين عثمان، فبايعوه).

وكانت بيعة عامة تامة لا تنافر فيها ولا بغضاء، ولا ضغن ولا شذوذ، وقد عبر الإمام أحمد عن هذا المعنى، فقال: لم يتفق الناس على بيعة كما اتفقوا على بيعة عثمان: ولاّه المسلمون بعد تشاورهم ثلاثة أيام، وهم مؤتلفون متفقون، متحابّون متوادّون، معتصمون بحبل الله جميعاً.

وحمل عثمان أعباء الخلافة وهو في السبعين من عمره، وأخذها بقوة وحزم وعزم، وقد علم أن شروطها: العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وما كان عليه عمل أبي بكر وعمر، وهما من لا يستطيع أن ينهج نهجهما إلا رجل مثلهما أو قريب منهما.

ولم يكن عثمان يتطلع للإمارة، ولا حدثته بها نفسه، بل أتته منقادة على غير تشوّف منه إليها، فهو رجل قد بلغ السبعين، وتجاوز سن الطموحات والشهية لمتاعب السلطان، ثم هو ـ بعد ذلك ـ يُقبل على قيادة أمة واسعة الأرجاء، كثيرة الأعداء، تحيط بها المؤامرات الرهيبة التي عصفت بحياة الخليفة العملاق عمر، وتحدّثُ عدله ورحمته وبأسه وهيبته وفتوحاته وسلطانه الواسع الرحب! ومثل هذه الظروف لا تدفع بالشباب على استلام دفة الحكم، فكيف برجل قد ودع من عمره سبعة عقود؟! لكن الخلافة لما جاءت عثمان قبلها رغبة في متابعة مسيرة الخلافة على نهج النبوة، ورجاء استمرار انتشار الإسلام وامتداد الفتوحات الإسلامية العظيمة المباركة.

خطته في الخلافة وكتبه وتوجيهاته:

وتلقى عثمان الخلافة، وحمل مسؤوليتها، وهو يدرك أعباء الطريق التي

---

(١) أي لم نقصِّر.
(٢) أي وَلّينا أعْلانا سَهْماً ذا فُوقٍ، أراد خَيْرَنا وأكْمَلَنا، تاماً في الإسلام والسابقة والفَضْل.

سار عليها الخليفتان الراشدان أبو بكر وعمر، ويعلم تماماً أن الدولة قد اتسعت رقعتها، وترامت أطرافها بشكل رحيب وسيع، وأن عمر كان يمسك بزمام الأمور بحزم وعزم، وقد حمل نفسه والولاة معه على الترفع عن ملاذّ الدنيا، لأنهم قدوة الناس وأسوتهم. كما أن عثمان كان يدرك أن الأموال قد فاضت في عهد الفاروق، وسالت حتى نال أهل كل بيت نصيبَهم من بيت المال، مع ما يقومون به من تجارات وأعمال، زادت في ثرواتهم، ونقلتهم إلى صفوف الأغنياء. وأن الفتوحات قد شملت طبقات مختلفة من الناس، ومتفاوتة في مستوياتها الإيمانية، وإقبالها على هذا الدين.

كل هذه المتغيرات، مع ما جُبل عليه الخليفة عثمان من الحياء الواسع والرحمة العميمة؛ مما قد يطمع المرجفين والمغرضين بالخليفة والخلافة والدولة المسلمة!!.

كل هذا كان واضحاً ساطعاً أمام الخليفة الثالث رضي الله عنه، ولقد كان أشد ما يخشاه على الناس من تلك المتغيرات انفتاح الدنيا وتنافسهم فيها، لما علمه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من خطرها والتحذير منها[1].

---

(١) والعجيب حقاً أن ترى بعض من كتب عن عثمان يقول: (إن الناس استراحوا لبيعة عثمان لما عرفوا من لينه ورقته، فقد ذاقوا من شدة عمر وحزمه وأخذه بالعزيمة ما جعلهم يستبشرون باستلامه). انظر (عثمان بن عفان) لخالد البيطار، ص٩٦.
وآخر يقول: إن أكثر الذين رحبوا باختياره للخلافة دون علي، إنما فعلوه رغبة في الانعتاق من تزمّت الحياة، وتقشف المعيشة، اللذيْن طالت معاناة الناس لهما) يريد زمن عمر!! انظر (خلفاء الرسول) لخالد محمد خالد، ص٢٤٧.
وهو كلام باطل وزور في حق عمر وخلافته، واتهام وافتراء على الصحابة الذين بايعوا عثمان رضي الله عنهم جميعاً، فشدة عمر كانت على أهل الظلم والتعدّي، ورحمته مبذولة لأهل العفاف والكفاف، حتى وضع لهم خده على الأرض!! والتقشف الذي كان إنما حمل عمر عليه نفسه والولاة معه، أما باقي الناس فقد أُغدقت عليهم الأموال ـ كما بيّنا ذلك جليّاً في حديثنا عنه ـ ولما طُعن سئل الناس هل اشتركوا في قتله؟ فقالوا: معاذ الله، لوددنا أن الله أخذ من أعمارنا فزاد في عمره!! ثم إن الشورى العميمة التي أجراها=

لهذا تراه في أول خطبة له عندما بويع يبيّن للناس الطريق التي سيسلكها، ويلخص منهجه في خلافته فيقول:

(أما بعد، فإني قد حُمّلتُ وقد قبلتُ. ألا وإني متّبع ولست بمبتدع.

ألا وإن لكم عليّ بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ثلاثاً: اتِّباعَ من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسَنّ سنةِ أهلِ الخير فيما لم تسنُّوا عن ملأ، والكفَّ عنكم إلا فيما استوجبتم.

ألا وإن الدنيا خضِرة قد شُهّيت إلى الناس، ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا، ولا تثقوا بها، فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا مَنْ تركها).

وزاد من تنبيههم على خطر الدنيا، وحذّرهم مغبّة التلهّي بها، والانصراف إليها، وإعطائها أكثر مما تستحق؛ فقال ـ بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، وصلّى على النبي ﷺ ـ: (إنكم في دار قُلْعَةٍ[1]، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أُتيتم، صُبِّحتم أو مُسِّيتم. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]. اعتبروا بمن مضى، ثم جِدّوا ولا تغفلوا، فإنه لا يُغفل عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها، الذين أثاروها، وعمروها، ومُتّعوا بها طويلاً؟! ألم تلفِظْهم؟! ارمُوا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة؛ فإن الله قد ضرب لها مثلاً، وللذي هو خير فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ

= ابن عوف لاختيار عثمان لتدحض ذلك الافتراء بأن أكثر الذين بايعوه يريدون الانعتاق من ترمّت الحياة!! فلقد بايعه الناس بمختلف مستوياتهم، حتى استشير فيه العذارى والأبكار!! وكان على رأس المبايعين المهاجرون والأنصار وأمراء الأمصار الإسلامية، ثم مسلمو المدينة المنورة بعامة.

(١) دار تحوُّل وارتحال.

ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾[الكهف : ٤٥ ـ ٤٦])[١].

ثم قام عثمان رضي الله عنه يشرح سياسته في الخلافة، ويبعث بذلك إلى الآفاق ليكون الناس جميعاً على المحجّة البيضاء، ولتستمر مسيرة الخير قُدُماً إلى هدفها الأسمى، وهو نشر الحق، وإرساء دعائمه في كل مكان وصلت إليه جيوش الفتوح.

فكتب إلى عماله على الأمصار، وأمراء الحرب، والأئمة على الصلوات، والأمناء على بيوت المال؛ يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحثهم على طاعة الله وطاعة رسوله، ويحرضهم على الاتباع وترك الابتداع.

● فكان أول كتاب كتبه إلى عماله في كل مصر من الأمصار الإسلامية الواسعة الكثيرة، وفيه:

(أما بعد، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جُباة، وإن صَدْرَ هذه الأمة خُلقوا رعاة، ولم يُخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة، ولا يكونوا رعاة؛ فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء.

ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم، فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم. ثم تُثنُّوا بالذمة، فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء).

● ثم كتب إلى أمراء الأجناد في الثغور، الذين يذودون عن الدين، ويحمون بلاد المسلمين، فقال:

---

(١) ويذكر بعض الناس أن عثمان لما خطب أول خطبة له أُغلق عليه، فلم يَدْرِ ما يقول، حتى قال: (أيها الناس إنّ أول مركب صعب، وإن أعش فستأتيكم الخطبة على وجهها). وهذا لا يصح، فإنما يُغلق على الأغرار، الذين لم يتجرؤوا على مواجهة الحياة، وخوض غمارها، أما من ضَرَّسَتْه الأيام، وخاض الغزوات والسرايا والمواقف العظيمة، مثل عثمان ـ فهذا بعيد جداً أن يقع به. ولهذا قال الحافظ ابن كثير في هذه الرواية: (لم أرَ هذا بإسناد تسكن النفس إليه).

(أما بعد، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وَضَعَ لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملأ منّا، ولا يبلغنّي عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغيّر الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه، والقيام عليه).

● وأمر عمالَ الخَراج أن يلزموا الحق فيما يأخذونه، وأن يلتزموا الأمانة والوفاء مع كل الناس؛ فكتب إليهم ما نصه:

(أما بعد، فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يَقبل إلا الحق، خذوا الحق، وأعطـوا الحق به. والأمانـة الأمانـة قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يُسْلَبها، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم. والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهَد؛ فإن الله خصم لمن ظلمه).

● ووجه كتاباً إلى أهل الأمصار، يأمرهم بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمطالبـة بحقوقهم أمـام الأمراء، وإلا فمن شـاء فليأت للحج، ويرفع شكاته إلى أمير المؤمنين، ليأخذها له وافية، مهما كانت مرتبة الخصم، فالحق فوق رؤوس الجميع، فكتب إليهم يقول:

(أما بعد، فإني آخذ العمالَ لموافاتي في كل موسم، وقد سلّطتُ الأمة منذ وُلّيتُ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يرفع إليّ شيء على أحد من عمالي إلا أعطيته، وليس لي ولعيالي حق مثل الرعية إلا متروك لهم. وقد رفع إليّ أهل المدينة أن أقواماً يُشتمون، وآخرون يُضربون؛ فيا مَنْ ضُرب وشُتم سراً، من ادّعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسم، فليأخذ بحقه حيث كان، منّي أو من عمّالي، أو تَصدّقوا فإن الله يجزي المتصدّقين).

فلما قرئ في الأمصار بكى الناس، ودعوا لعثمان!!

● وختم كتبه بتوجيهات عظيمة للرعية جميعها، وأمرهم فيها باتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبين لهم المخاطر المحدقة بهم، وحذرهم منها، ونهاهم

عن الوقوع في أحابيلها؛ فقال: (أما بعد، فإنكم بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع، فلا تَلْفِتَنَّكُم الدنيا عن أمركم؛ فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن!! فإن رسول الله ﷺ قال: «الكفر في العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا»).

وهذه الكتب تبيّن الملامح البارزة، والخطوط العريضة لسياسة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وأنه استقبل خلافته بحزم وعزم، فأمر الولاة أن يكونوا رعاة أمناء، وكل راع مسؤول عن رعيته أمام الله سبحانه، ثم أمام الخليفة، ونهاهم أن يهتموا بجباية الأموال أكثر من القيام على أمور الناس ومصالحهم؛ فيصبحوا جباة لا رعاة!! وأوصاهم في ذلك بالعدل في كل شيء، والأمانة في كل ما يلونه من أمور الناس، ومراقبة الله تعالى، والوفاء بالعهود والعقود، وحمل الناس على ذلك.

وأمر أمراء الأجناد وقادة الحرب أن يبقوا على النهج الذي أمرهم به عمر. وإن غيّروا فسيكون سهلاً على عثمان تغييرهم، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يبالي بتغييرهم، ولا تمنعهم مكانتهم أنّى كانت ومَنْ كانوا!!.

وألزم عمال الخَراج وأمناء بيوت المال في الأمصار أن يلتزموا الحق في أخذ المال، والأمانة والوفاء للناس، وعدم ظلمهم، وحذّرهم عاقبة ذلك، وأن من ظلم فإن الله خصمه!.

كما ألزم الرعية في الأمصار كلها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في المنشط والمكره، وأن لا يبالوا بأي سلطة كانت إن حادت عن الحق، وأن يرفعوا شكاياتهم إلى الولاة، فإن لم تبلغهم، فليأتوا موسم الحج، لرفع الأمر إلى أمير المؤمنين. وليتحقق ذلك فرض على عماله موافاته في الموسم، وهناك سترد الحقوق إلى أصحابها وافية غير منقوصة.

وتلك سياسة عمرية راشدة سار عليها الفاروق، واقتفى أثره أخوه الخليفة البار الراشد عثمان رضي الله عنه وأرضاه.

* * *

وكان له ـ رضي الله عنه ـ مجلس شورى من أهل بدر، وأصحاب الرأي من صحابة رسول الله ﷺ، ويدعو معهم ابن عباس ـ كما كان يفعل عمر ـ يستشيرهم بأمور المسلمين، وتوجيه الجيوش والفتوحات، وتصريف أحوال الدولة وشؤون الخلافة.

كما اختار وجوه أصحاب رسول الله ﷺ للقضاء بين الناس، والفصل فيما يقع بينهم من خصومات، وقد دعا عبدَ الله بن عمر لذلك، فقال له: (اذهب فاقضِ بين الناس. قال: أَوَ تُعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، عزمت عليك إلاّ ذهبتَ فقضيتَ! قال: لا تعجل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من عاذ بالله فقد عاذ بمَعاذ». قال: نعم. قال: فإني أعوذ بالله أن أكون قاضياً! قال: ما يمنعك وقد كان أبوك يقضي؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان قاضياً فقضى بجهل كان من أهل النار، ومن كان قاضياً عالماً فقضى بحق ـ أو بعدل ـ سأل التقلب[1] كفافاً»، فما أرجو بعد هذا؟ فأعفاه عثمان وقال: لا أجبرنّ أحداً).

* * *

● وقام عثمان رضي الله عنه بالدور الرائد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمر الناس بأمور، ونهاهم عن أخرى، وكان في ذلك حازماً شديداً، وتكلّم بلغة لافحة فقال:

(يا أيها الناس إياكم والميسر ـ يريد النرد ـ فإنها قد ذكرت لي أنها في بيوت

---

(١) أي المنقلب، وهو الرجوع إلى الله.

ناس منكم، فمن كان في بيته فليحرقها أو يكسرها).

ولما رأى بعض الناس لم يسارع في إخراجها من بيته، قال رضي الله عنه: (يا أيها الناس، إني قد كلمتكم في هذا النرد، ولم أركم قد أخرجتموها، فلقد هممت أن آمر بحزم الحطب، ثم أرسل إلى بيوت الذين هنّ في بيوتهم فأحرّقها عليهم).

هل بعد هذا من حزم وشدة وبأس وإسراع في إنفاذ حكم الله وأمره؟! وهل هذه كلمات رجل نيّف على السبعين، أم لغة شباب في فورة الشباب؟! بل إنها عزمة الخلافة، ومواقف الرجل الحيي، الذي يستحيي من الله أن يراه في خلافته يتوانى عن إزالة منكر لحظة من نهار، والرجل الرحيم، الذي لا رحمة في قلبه إلا لمن أطاع الله، وخَشِيه واتّقاه، أما مَنْ تنكب عن الحق، فليس له عند عثمان الرقيق الرحيم إلا الشدة والبأس.

● وحتى في أمور الكسب والمعاش، وحياة الناس ومعاملاتهم، كانت للخليفة عثمان إرشاداته الفذة، وأوامره الصارمة، وتوجيهاته الصادقة الناصحة، يقول:

(لا تكلّفوا الصغير الكسب؛ فإنكم إن كلفتموه الكسب سرق. ولا تكلّفوا الأمَةَ غير ذات الصنعة الكسبَ؛ فإنكم إن كلفتموها الكسب كسبت بفرجها! وعفّوا إذ أعفكم الله، وعليكم من المطاعم بما طاب منها).

سيرته في الخلافة:

فكيف كانت سيرته في خلافته، وهذْيه وحياته ومعاشه، وملبسه ومطعمه؟ وهل بقي على هجرته يوم هاجر زمن رسول الله ﷺ، وصحبته تلك المعاني العميقة الرفيعة، التي تأصلت في نفسه من هجرته إلى الحبشة ثم إلى المدينة؟

لنتأمل هذا النبأ:

سئل الحسن البصري عن القائلين[1] في المسجد، فقال: (رأيت عثمان بن عفان يقيل في المسجد، وهو يومئذٍ خليفة، ويقوم وأثر الحصى بجنبه! فنقول: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين).

وقال: (رأيت عثمان نائماً في المسجد ورداؤه تحت رأسه، فيجيء الرجل فيجلس إليه، كأنه أحدهم)!

وقال: (رأيت عثمان ـ رضي الله عنه ـ نائماً في المسجد في مِلْحفة، ليس حوله أحد، وهو أمير المؤمنين).

وقد حدث أن ابناً للصحابي سعيد بن يربوع كان معه طير يرسله في المسجد، فجرى معه ما يحدثنا به فيقول: (انطلقتُ وأنا غلام في الظهيرة، ومعي طير أرسله في المسجد، والمسجد بيننا، فإذا شيخ جميل، حسن الوجه نائم، تحت رأسه لَبِنة أو بعض لبنة!! فقمت أنظر إليه، أتعجب من جماله، ففتح عينيه فقال: من أنت يا غلام؟ فأخبرته. فإذا غلام نائم قريباً منه، فدعاه، فلم يجبه، فقال لي: ادعه، فدعوته، فأمره بشيء، وقال لي: اقعد. فذهب الغلام فجاء بحلّة وجاء بألف درهم، ونزع ثوبي، وألبسني الحلّة، وجعل الألف درهم فيها!! فرجعت إلى أبي فأخبرته، فقال: يا بني من فعل بك هذا؟ فقلت: لا أدري، إلا أنه رجل في المسجد نائم، لم أرَ قط أحسن منه! قال: ذاك أمير المؤمنين عثمان ابن عفان)!!.

إنه أمير المؤمنين عثمان! عثمان المسلم المهاجر، الذي كان ثراؤه وتجارته مضرب الأمثال، ومحط الأنظار، حتى من قِبَل كبار التجار، هو هذا الخليفة الراشد، الذي يتجافى جنبه عن السرر المرفوعة، والفُرُش الموضوعة، والزرابي والنمارق والأرائك، ويذهب إلى المسجد ليقيل فيه، فيؤثر الحصى بجنبه كبقية الناس، لا بل كأفقر الرعية، ليرى الناس جلال الحكم في نظر الحاكم المسلم،

---

(١) أي: النائمين نصف النهار، من القيلولة.

وليثبت لهم أن الخلافة تواضع لا استعلاء، ورحمة لا تجبّر، وغرمٌ لا غُنم، ثم هي بعد كل هذا خدمة للناس صغيرهم وكبيرهم، غنيّهم وفقيرهم، سيدهم ومولاهم، ذكرهم وأنثاهم.

فمن أراد حاجة، أو قضاء أمر، أو النظر في خصومة، أو رفع شكاية؛ فليس أمامه حواجز وحجب، وأسلاك وسدود، تحول دون وصوله إلى ما يريد؛ بل الأمر سهل ميسور، وما عليه إلا أن ييمم وجهه شطر مسجد رسول الله ﷺ، ليجد هناك أمير المؤمنين جالساً بين الناس كأحدهم، لا يتميز عنهم إلا بأنه يقضي بينهم بالحق، ويحملهم على صراط مستقيم.

* * *

أما طعامه ولباسه، فيروي شُرَحْبيل بن مسلم أن عثمان كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت!.

ويقول عبد الله بن شداد: (رأيت عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ يوم الجمعة على المنبر، عليه إزار عدني غليظ، ثمنه أربعة أو خمسة دراهم، ورَيْطة[1] كوفية مُمَشّقة[2]).

وعن موسى بن طلحة قال: (كان عثمان يوم الجمعة يتوكأ على عصا، وكان أجمل الناس، وعليه ثوبان أصفران: إزار ورداء، حتى يأتي المنبر فيجلس عليه).

إنه سلوك العابد الأوّاب الذي اقتدر على الزهد، وارتقى أعلى درجات المراقبة والخشية، والأموال تفيض بين يديه ينفقها باليمين وبالشمال، آناء الليل وأطراف النهار، وإنه لمنهج فذ فريد وعظيم مرتين.

مرة لأنه أمير المؤمنين، يسعه ما يسع الناس، ويحق له أن يأكل من طعام

(١) هي مُلاءَة تكون قطعة واحدة ونسجاً واحداً ليس لها شقتان.
(٢) أي مصبوغة بالمشق وهو المُغرة.

الإمارة، ويلبس مما يحق له باعتباره خليفة.

ومرة لأنه الغني العريض الثراء!.

لكنّك تـرى جلال الأوّاه الحيي الحليم يبهر مُحَيّاك عند عثمان، فتجده يهجر المطاعم الفاخرة، والمآكل الطيبة اللينة، والعيش الرغيد، والرفاه النادر، بل يترقى، فلا يأكل طعام الإمارة، ويجعل الرعية ـ كل الرعية ـ أولى منه بذلك، فيقدّمها ويؤخّر نفسه، وهو ينظر إلى ما هو خير وأبقى، ويستحيي من الله سبحانه أن يراه يأكل اللحم الغريض والسمن والزبد، وهناك في أطراف دولته الراشدة من لا ينال مثل ذلك! فليعكف عثمان على الخل والزيت كأفقر الناس، حتى لا يسأله الله عز وجل: لِمَ لمْ تُسَوِّ نفسك بآحاد الرعية؟!.

ثم هو يلبس الرداء الخشن والإزار الغليظ، الذي قيمته دريهمات معدودة، ومن الميسـور عليه أن يلبـس ما هو ألين من الحرير، وأثمن من الديبـاج، لكن ما لعثمان وهذه الزخارف الزائلة؟! ثم هو ـ وهذا الأهم في نظره ـ خليفة المسلمين، فإذا توسّع في المطعم والملبس، فأنّى لكل الناس أن يجاروه، وينالوا مثل ما عنده؟ وهو لهم قدوة وعنهم مسؤول!!.

إذاً فليكن أمير المؤمنين بين الناس كأحدهم، لا يتميز عنهم إلا بما حمّله الله من أمانة الحكم والخلافة، وأعظِمْ بها من أمانة وحِمْلٍ ثقيل!.

* * *

ولقد زاد في عظمة هذا الإمام البار الراشد، حتى أصبح كل شيء فيه يبهر الألباب ويحيّر العقول، أنه كان عظيم التواضع، بعيداً عن الزهو والعجب، وهذا يتواءم مع حيائه العميم.

يروي من رأى عمرَ وعثمانَ ـ رضي الله عنهما ـ (أنهما إذا قدما مكة ينزلان بالمُعَرّس، فإذا ركبوا ليدخلـوا المدينة لم يبقَ أحد إلا أردف غلاماً، فدخلـوا المدينة على ذلك، وكان عمر وعثمان يُردفان. فقيل له: إرادة التواضع؟ قال:

نعم، والتماس حَمْل الرجل، لئلا يكونا كغيرهم من الملوك. ثم ذكر ما أحدث الناس من أن يُمَشّوا غلمانهم خلفهم، وهم ركبان، ويعيب ذلك عليهم).

ويروي آخر أنه رأى عثمان بن عفان وهو على بغلة، وخلفه عليها غلامه نائل، وهو خليفة.

وكان ـ رضي الله عنه ـ مألفاً للناس، محبباً لهم قبل الخلافة، وازدادت مكانته ومنزلته عندهم بعد أن أضحى خليفة لهم، فكان بينهم كالأب الحاني، يقضي حوائجهم، ويغيث ملهوفهم، ويواسي المصاب فيهم، ويعود مرضاهم، ويجيب دعوتهم، ويحضر مشاهدهم، ويقيم لهم صلاتهم، ويرشدهم وينصح لهم.

يروي أبو مشجعة الجهني فيقول: (عُدْنا مع عثمان ـ رضي الله عنه ـ مريضاً، فقال: له عثمان: قل لا إلـه إلا الله، فقالها، فقال: والذي نفسي بيده، لقد رمى بها خطاياه فحطمها حطماً، فقلت: أشيء تقوله؟ أو شيء سَمعتَه من رسول الله ﷺ؟ فقال: بل سمعتهُ من رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، هذا هي للمريض، فكيف هي للصحيح؟ فقال: «هي للصحيح أحطم»).

وهذا المغيرة بن شعبة قد تزوج وصنع وليمة، ودعا إليها عثمان بن عفان ـ وهـو أمير المؤمنين ـ فلما جاء عثمان قال: (أما إنّي صائم، غير أني أحببت أن أجيب الدعوة، وأدعو بالبركة).

ويقول مالك بن أبي عامر الأصبحي: (كنت مع عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فأقيمت الصلاة، وأنا أكلمه في أن يفرض لي، فلم أزل أكلّمه، وهو يسوّي الحصباء بنعليه، حتى جاء رجال قد وكلهم بتسوية الصفوف، فأخبروه أن الصفوف قد استوت، فقال: استوِ في الصف، ثم كبّر).

ويحدث موسى بن طلحة بن عبيد الله عما رآه فقال: (رأيت عثمان بن عفان والمؤذّن يؤذّن وهو يحدث الناس، يسألهم ويستخبرهم عن الأسعار والأخبار).

ويقول: (رأيت عثمان بن عفان يخرج يوم الجمعة عليه ثوبان أصفران، فيجلس على المنبر، فيؤذّن المؤذن، وهو يتحدث يسأل الناسَ عن أسعارهم وعن قُدّامهم وعن مَرْضاهم، ثم إذا سكت المؤذّنُ قام يتوكأ على عَصاً عَقْفَاء، فيخطب وهي في يده، ثم يجلس جلسة فيبتدئ كلام الناس فيسائلهم كمسألته الأولى، ثم يقوم فيخطب، ثم ينزل ويقيم المؤذّن).

* * *

لله درُّ الخلافة كم كانت سعيدة بأن وليها هذا الإمام الرحيم، والرجل الحيي الكريم، فهو رضي الله عنه كان يطيل الجلوس للناس في المسجد، ويقضي لهم حوائجهم، وينظر في أمورهم، ويفعل ذلك قُبيل الصلوات وبعدها. لكن ذلك كله لا يكفي في نظر أمير المؤمنين عثمان، إذ بين المسلمين من لا يجد الفرصة إلا يوم الجمعة، وقبيل صلاتها، وفيهم الذي يقدم المدينة من غير أهلها، فلا بد للخليفة أن يوسّعَ للناس الوقت الذي يفدون فيه على أمير المؤمنين، ليعرضوا ما عندهم وما يريدون. ولقد كان يقتدي في هذا برسول الله ﷺ الذي وصفه ربه فقال: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]. فقد كانت الصلاة تقام في عهده ﷺ، فيكلّم الرجلُ النبيّ ﷺ في حاجة تكون له، فيقوم بينه وبين القبلة، فما يزال قائماً يكلمه، حتى إن بعض القوم ينعس من طول قيام النبي ﷺ.

بل إن أنس بن مالك يحدّث (أن الصلاة كانت تقام بعشاء الآخرة، فيقوم النبي ﷺ مع الرجل يكلّمه، حتى يرقد طوائف من الصحابة، ثم ينتهون إلى الصلاة).

ألم أقل لكم إن عثمان كان يريدها خلافة على منهاج النبوة؟! بل لماذا أقول أنا، وقد قال رسول الله ﷺ: «عثمان أشبه أصحابي بي خُلُقاً».

الولاة والقادة:

تلك كانت خطة عثمان في الخلافة، وذاك هو هديه ونهجه الذي سار عليه في خلافته، فكيف كان يتخيّر ولاته؟

● لقد كان سلفه أمير المؤمنين عمر يختار ولاته الذين تتوفر فيهم الديانة والفضل، مع العلم بأمور السياسة وقيادة الناس، ولا يكتفي بالأفضل في أمر الدين فقط، ولذلك استعمل معاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص، مع وجود من هو أفضل من كل منهم في أمر العلم والدين كأبي الدرداء في الشام، وابن مسعود في الكوفة، وعنده بالمدينة عثمان والزبير وابن عوف لم يولّهم!!.

كما كان لا يؤمّر من يطلب الولاية، وإذا أرسل والياً أوصاه بخشية الله وطاعته فيما ولاّه، ويسأل عنه الناس، ويقتص أخباره وسيرته فيهم، ويأمر العمال أن يوافوه في موسم الحج، ويعلن بين الناس أن من يشتكي ظلامة فليرفعها لأمير المؤمنين ليأخذ له بحقه.

وإذا اشتكى أهل بلد على واليهم، كان شعار عمر: (هان شيء أُصْلِحُ به قوماً أن أبدّلهم أميراً مكان أمير). فعزل عمار بن ياسر وولّى أبا موسى الأشعري، وعزل خالد بن الوليد عن إمرة الجيوش وأمّر أبا عبيدة، وعزل سعد بن أبي وقاص من غير عجز ولا خيانة.

حتى لقد ضجّ عمر بأهل الكوفة لكثرة شكايتهم، ورأى المغيرة ذلك منه فقال له: يا أمير المؤمنين، هل نابك شيء؟ فقال عمر: (وأي نائب أعظم من مئة ألف لا يرضون عن أمير، ولا يرضى عنهم أمير)؟!.

وكانت حمص قريباً من الكوفة، حتى قيل لها (الكويفة الصغرى)؛ لكثرة شكاية أهلها على أمرائهم!.

● فلما ولي عثمان سار على نهج عمر، فكان لا يعزل أحداً إلا عن شكاة، أو استعفاء من غير شكاة.

وكان يوصي الولاة بالتقوى والطاعة، وأن يكونوا رعاة لا جباة، فكتب إلى قادة الجند: (أما بعد، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملأ منا. ولا يبلغنّي عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغيّر الله بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه). وأمر عمال الخَراج بالأمانة والوفاء، وتجنب الظلم.

وما عرف عنه أنه أمَّر والياً جاء يطلب منه الإمارة، وكان يعزل من تبلغه عنه الشكاية، وكتب إلى أهل الأمصار بموافاته في موسم الحج: (أما بعد، فإني آخذ العمال لموافاتي في كل موسم، وقد سلطتُ الأمة منذ وُلّيتُ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرفع إليّ شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيتُه).

● ولقد كان الولاة على الأمصار عندما تولى عثمان الخلافة على النحو التالي: على (مكة) نافع بن عبد الحارث الخزاعي، وعلى (الطائف) سفيان بن عبد الله الثقفي، وعلى (صنعاء) يعلى بن مُنْية، وعلى (الجَنَد) عبد الله بن أبي ربيعة، وعلى (الكوفة) المغيرة بن شعبة، وعلى (البصرة) أبو موسى الأشعري، وعلى (مصر) عمرو بن العاص، وعلى (حمص) عمير بن سعد، وعلى (دمشق) معاوية ابن أبي سفيان، وعلى (البحرين) وما والاها عثمان بن أبي العاص الثقفي.

فلننظر طريقة عثمان في تعامله مع الولاة: أأبقاهم أم عزلهم؟ ولنقف وقفات قصيرة مع أولئك الولاة وقادة الجند، في عهد هذا الخليفة الراشد المبارك:

معاوية بن أبي سفيان:

ففي الشـام كان واليها الصحابي الأجلّ معاوية بن أبي سـفيان رضي الله عنهما، الذي كان يكتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ، وفي خلافة الصدّيق تولى قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد ـ وكان أكبر منه ـ ولما ولي الخلافة عمر

الفاروق جعل معاوية والياً على الأردن، ورأى فيه حزماً وعلماً؛ فولاّه دمشق بعد موت أخيه يزيد، وفي عهد عثمان ولاّه الديار الشامية كلها، وجعل ولاة أمصارها تابعين له.

وقد قال سعد بن أبي وقاص: (ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب) ـ يعني معاوية ـ. وقال ابن عباس: (ما رأيت رجلاً أخلق بالمُلك من معاوية).

وهل يكون الرجل أخلق الناس بالملك إلا أن يكون عادلاً حكيماً حليماً وقوراً سيداً كريماً شجاعاً شهماً، يحسن الدفاع عن دولته، ويستعين الله في نشر دعوته في الأمصار، ويقوم بالأمانة التي ائتمنه الله عليها؟!.

ولما عزل عمر بن الخطاب عمير بن سعد الأنصاري، قال الناس: عزل عميراً وولّى معاوية! فقال عمير: لا تذكروا معاوية إلا بخير، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اهدِ به»! ويكفي معاوية تزكية أنه من ولاة عمر رضي الله عنه.

وقد كانت سيرة معاوية مع رعيته من خيار سير الولاة، وكان الناس يحبونه، وقد ثبت في الصحيحين: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم».

فهل يلامُ عثمان إذا ولّى معاوية هذا الصحابي العَلَم الجليل، بعد هذه المنزلة وتلك المزايا والشمائل والسجايا؟! وليت شعري كيف يلامُ عثمان على توليته، وقد ولاّه العبقري الملهم المُحَدّث عمر، وتولى لأبي بكر قبل عمر، بل كان كاتب الوحي الأمين لرسول رب العالمين!.

لا جرم أن من يطعن على عثمان أو معاوية قد سوّلت له نفسه الشرّ، وعبث به الشيطان فأفسد عليه عقله وتفكيره قبل أن يفسد عليه دينه!!.

وبهذا يتبين لنا تجني ما جاء في كتاب (خلفاء الرسول)[1]، والميل عن الحقيقة والإنصاف، إذ جاء فيه أن أبا ذر (لم يتردد في أن يقطع الطريق وثباً إلى الشام، حينما سمع أنباءَ ما تموج به من تَرَف، وما يشق فضاءها من بروج وقصور، ويغطي أرضها من ضياع وبساتين امتلكها، وأخْلد إلى نعيمها الأمراء، وعلى رأسـهم معاويـة، ونفر آخر من الصحابة، الذين لم يُخْلَقوا في رأي أبي ذر للدّعَةِ ولا لِنِعَمِ الدنيا الفانية، وفي الشام رفع لواء معارضة كادت تعصف بمقعد معاوية)!.

أَوَ لم يقرأ أمثال من يرددون هذا الكلام ما قام به معاوية وأمراؤه وجند الشام من فتوحات عظيمة، حتى لقد خاضوا غمار البحار، وفتحوا (قبرص)، وتوغلوا في أرض الروم، ولم تزل الفتوحات تتراحب، والجهاد يتعاظم في أيام معاوية، حتى قرعت جيوشه أبواب (القسطنطينية) عاصمة بيزنطة.

وإذا كان المسـلمون والناطقـون بالعربيـة يعتقدون بمثل هذا السـخف، فما بال المستشرقين وغيرهم من أعداء الإسلام إذاً؟!.

سعد بن أبي وقاص ثم الوليد بن عقبة:

وفي الكوفة كان المغيرة بن شعبة والياً لعمر عليها، فعزله عثمان، وولّى سعد بن أبي وقاص، فكان أول عامل ولاّه، لأن عمر قال: (فإن أصابت الإمرة سعداً فذاك، وإلا فليستعن به أيكم ولي، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة). فبقي سعد سنة وبعض أخرى، ثم عزله عثمان، وولى الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط، وهو أخو عثمان لأمه أروى بنت كُرَيز.

وإنما عزل عثمانُ سعداً لخصومة وقعت بينه وبين ابن مسعود ـ أمين بيت مـال الكوفة ـ حيث اسـتقرض سـعد مالاً من بيت المال، فلما حلّ الأجل جـاء

---

(١) انظر (خلفاء الرسول) لخالد محمد خالد، ص٤٠٥. وأقبح من ذلك وأدهى منه وأمرّ ما افتراه العقاد على معاوية رضي الله عنه، وقد أكثر من الافتئـات عليه في (عبقريـة علي)، انظر مثلاً: ص٥٤ ـ ٥٧. وغيرها كثير.

ابن مسعود يتقاضى المال، وكان سعد معسراً، فطلب أن يمهله، فأبى عبد الله، فجرى بينهما كلام، فغضب عليهما عثمان لمكانتهما، وأن ذلك كبير منهما أمام الرعية، فعزل سعداً.

والوليد بن عقبة بن أبي معيط ـ الذي ولاّه عثمان بعد عزل سعد ـ صحابي شاب، ماضي العزيمة، رضيّ الخُلُق، صادق الإيمان، تلقّفه الصدّيق، واستعمل مواهبه في سبيل الله، فجعله موضع السرّ في الرسائل الحربية بين الخليفة وقائده خالد بن الوليد، ثم وجهه الصديق مدداً للقائد (عياض بن غنم)، ثم ولاّه صدقات قضاعة، ثم لما عزم أبو بكر على فتح الشام كان الوليد عنده بمنزله عمرو بن العاص في الثقة والكرامة والحرمة، وكان الوليد قائد الجيش إلى شرق الأردن، وعمرو قائد جيش آخر إلى فلسطين.

وكذلك في عهد الفاروق كان الوليد أميراً على بلاد بني تغلب وعرب الجزيرة، يحمي ظهور المجاهدين في شمال الشام، لئلا يؤتوا من خلفهم، وكان داعياً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة لنصارى (تغلب وإياد)، كي يدخلوا في الإسلام.

وبهذا الماضي المجيد جاء الوليد ليكون والياً لعثمان، بعد أن كسب ثقة الخليفتين الباهرين العملاقين أبي بكر وعمر؛ فولي الكوفة، وكان من خير ولاتها عدلاً ورفقاً وإحساناً.

وكان الحاكمَ المثالي في العدل والنبل والسيرة الطيبة مع الناس، ولبث في الكوفة خمس سنوات، وداره إلى اليوم الذي غادرها ليس لها باب يحول بينه وبين الناس ممن يعرف أو لا يعرف، فكان يغشاها كل من شاء متى شاء من ليل أو نهار!! وأقام للغرباء دار الضيافة، وأدخل على الناس خيراً عميماً، وجعل يقسم المال على الولائد والعبيد، وردّ على كل مملوك من فضول الأموال في كل شهر ما يتسعون به في معاشهم، من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم. فكانت جماهير الشعب متعلقة به تحبّه وتوقّره، عدا الموتورين الحانقين ممن نالتهم عدالة الشريعة على يد الوليد عندما يخالفون أوامر الله.

وكان الفاتح المثالي الذي جاهد في سبيل الله، يذود عن دعوته، حاملاً الراية، ناشراً نور الرسالة، فكانت جيوشه تخرج من الكوفة إلى آفاق الشرق قاهرة ظافرة، فسار بالجيوش إلى أذربيجان وأرمينية ـ وقد انتقضت ـ فوطئ بلادهم، وردّهم إلى صوابهم، وأنزلهم على الصلح، وأعاد الاستقرار إلى تلك البلاد، وجهّز جيشاً بقيادة سلمان بن ربيعة إلى الشام لمعاونة حبيب بن مسلمة على حرب الروم. ولما عُزل عن الكوفة، كانت جيوش عبد الرحمن الباهلي ـ أحد قواد الوليد ـ على (الباب) وهي من أمنع معاقل الدنيا.

هذا هو الوليد بن عقبة، الذي حاول بعض الموتورين والكتّاب أن يطعنوا في دينه وورعه وصدق بلائه وحسن سيرته!!.

وما يذكره المفسرون من أن قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[الحجرات: ٦]؛ قد نزل في الوليد، فليس لذلك سند صحيح[1].

وما ذُكر أن عثمان أقام عليه الحدّ لأنه شرب الخمر، فقد لُفِّقَتْ تهمة من الحاقدين عليه الشانئين له، فجلده عثمان لتوفر الشهود ليس غير، ولذا قال عثمان بعدها: (نقيم الحدود، ويبوء شاهد الزور بالنار، فاصبر يا أخي)[2].

سعيد بن العاص:

وعزل عثمان الوليد عن الكوفة، وولّى عليها سعيد بن العاص ابن أبي أُحَيْحَة الأموي، وهو صحابي جليل، وكان أميراً شريفاً، جواداً مُمَدّحاً، حليماً، وقوراً، ذا حزم وعقل، يصلح للخلافة.

---

(١) وقد ردّها الإمام ابن العربي في كتابه القيّم، (العواصم من القواصم)؛ وكذلك العلامة محب الدين الخطيب في تعليقاته النفيسة على العواصم.

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتابنا (عبد الله بن مسعود)، ص٣١٣ ـ ٣١٨؛ والعواصم، ص١٠٦ ـ ١١٠.

وكـان من عمال عمر على (السـواد)، وندبـه عثمان بن عفان عند كتـابة المصاحف، لأنه أفصح قريش، وأشبه الناس لهجة برسول الله ﷺ.

وكان سعيد حسن السيرة صافي السريرة. وكثيراً ما يجمع أصحابه في كل جمعة فيطعمهم، ويكسوهم الحلل، ويرسل إلى بيوتهم بالهدايا والتحف والبر الكثير، وكان يصرّ الصرر، فيضعها بين يـدي المصلّين من ذوي الحاجـات في المسجد، وقد بلغ من كرمه أنه إذا قصده سائل وليس عنده شيء قال: اكتب عليّ سجلاً بمسألتك إلى المَيْسَرة!! ولما مات كان عليه ثمانون ألف دينار وفاها عنه ابنه عمرو.

ولما ولي الكوفة سار بتلك السيرة الطيبة، ومضى يسأل عن أهل الكوفة، ويستقصي أحوالها وأحوال أهلها، وأرسل إلى وجوه الناس من أهل الفتوحات والقادسية وقال لهم: (أنتم وجوه من وراءكم، والوجه ينبئ عن الجسد، فأبلغونا حاجة ذي الحاجة، وخَلّة ذي الخَلّة).

فكان لايغشى مجلسه إلا نازلة أهل الكوفة، ومن شهد المعارك والفتوحات، وأهل القادسية والقرّاء والمتسمّتون[1]، فإذا جلس للناس دخل عليه كل أحد، فقضى حوائج الناس، وحلّ مشاكلهم.

وتابع مسيرة الجهاد الظافرة، فافتتح (طبرستان) و(جرجان)، وفي جيشه الحسن والحسين، والعبادلة الأربعة، وحذيفة بن اليمان. ولما نقض أهل أذربيجان العهد غزاهم وقضى على تمردهم.

ولكن أهل الشغب وأصحاب الفتن في الكوفة ضاقوا بسعيد ذرعاً، وثاروا عليه، وطلبوا من عثمان عزله، واستغلوا قدوم سعيد على عثمان في المدينة، فلما عاد سعيد إلى الكوفة منعوه من دخولها، وطلبوا من الخليفة أن يولّي عليهم أبا موسى الأشعري، فولاّه عليهم، وذلك سنة أربع وثلاثين.

---

(١) هم أهل السكينة والوقار والهيئة.

عبد الله بن عامر بن كريز:

وفي البصرة عزل عثمان أبا موسى الأشعري عنها سنة تسع وعشرين، وولّى الصحابي الفاتح الكبير عبد الله بن عامر بن كُرَيز، ابن خال عثمان، وابن عَمّة رسول الله ﷺ البيضاء بنت عبد المطلب.

ولد عبد الله بن عامر في حياة النبي ﷺ، وأُتي به إليه وهو صغير، فقال رسول الله ﷺ لبني عبد شمس: «هذا أشبه بنا منه بكم»، ثم تفل في فيه، فجعل يبتلع ريق النبي ﷺ، فقال: «إنه لمُسْقىً»؛ فكان لا يعالج أرضاً إلا ظهر له منها الماء!!.

وكان كريماً مُمَدّحاً، ميمون النقيبة، من كبار ملوك العرب وشجعانهم، فيه رِفْق وحلم، ربما غزا، فيقع الحِمْلُ في العسكر فينزل فيصلحه!.

استنابه عثمان على البصرة بعد أبي موسى، وولاّه بلاد فارس بعد عثمان بن أبي العاص، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة، ولما قدم البصرة قال أبو موسى: (قد أتاكم فتىً من قريش، كريم الأمهات والعمات والخالات، يقول بالمال فيكم هكذا وهكذا)!!.

وحمل ابن عامر راية الجهاد، وسار برسالة الإسلام كالريح الرخاء، ففتح خراسان كلها، وأطراف فارس وسِجِسْتان، وكَرْمان وبلاد غزنة ـ على حدود الهند ـ وقُتل كسرى يزدجرد في أيامه، ودوّخ الفرس، وقوّض آخر أمل للإمبراطورية المجوسية، مما أشعل نار الحقد والبغضاء على عثمان وواليه الفاتح الشجاع.

وبلغ من شكره لله سبحانه أنه لما تمت له تلك الفتوحات أحرم بالعمرة من (نيسابور)!! وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة لحجاج بيت الله الحرام، وأجرى إليها العين، وسقى الناسَ الماءَ.

وبقي على البصرة ست سنين، ولم يزل بها حتى استُشهد أمير المؤمنين عثمان.

عمرو بن العاص ثم ابن أبي سَرْح:

وفي مصر كـان الوالي لعمر بن الخطاب عَمْـرو بن العاص، وفي جنـده الصحابي عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، أخو عثمان من الرضاعة، وهو أحد كتّاب الوحي، أسلم قديماً، وكتب الوحي، ثم ارتد، وعاد إلى الإسلام عام الفتح، وحَسُن إسلامه. وهو أحد عقلاء الرجال وشجعانهم وأجوادهم، ومن الفرسان المعدودين.

أمّـر عثمان عمرو بـن العاص على مصر، وكان ابن أبي سَـرْح على ميمنة جيشه، وقد وجهه عمرو لغزو بلاد المغرب. وفي سنة سبع وعشرين ولّى عثمان ابن أبي سَرْح على خراج مصر، وأقرّ عَمْراً على الصلاة والجُند، فاختلف عمرو وابن أبي سرح، فبلغ ذلك الخليفة، فعزل عمرو بن العاص، وولّى ابن أبي سرح الخراج والجند.

وأمر عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح أن يغزو إفريقية، فإذا فتحها الله عليـه فله خمـس الخمس[1]، فسار إليها عبد الله بجيـش كثيف، فيه جملة من الصحابة، ففتح سهلها وجبلها، ولما قسم الفيء، وأخذ خمس الخمس، غضب أهل إفريقية، وكتبوا لعثمان أن يردّ ذلك، فأرسل عثمان إلى ابن أبي سرح أن يردّ خُمس الخُمس؛ فسمع وأطاع رضي الله عنه.

وقام هذا البطل، والفارس الشجاع، الشهم الكريم الجواد، بالتوغل في أرض إفريقيـة حتى وصل (سـبيطلة)، ونشر الإسـلام هناك، ومهّد الطريق لفتح الأندلس.

---

(١) إعطاء الخليفة من الخُمس لواحدٍ من الناس جائز، وقد أَقْطَعَ رسولُ الله ﷺ وتألّف على الإسلام أقواماً، وكذا أقطع الخلفاء من بعده: عمر وعثمان وعلي. ولعلّ ما فعله عثمان كان لتشجيع هذا الوالي الشجاع، لينشط في فتح البلاد ويبلّغها نور الإسلام.

وأنشأ الأسطول البحري الإسلامي لحماية سواحل مصر والشام وشمال إفريقية، وخاض مع الروم معركة (ذات الصواري)، وكانت معركة هائلة، فقام ابن أبي سرح فصفَّ جنده، وأمرهم بذكر الله وتلاوة القرآن، والتحموا مع الروم على ظهر السفن، حتى غيرت الدماءُ لونَ الماء، وهزموا الأعداء.

ولما كان آخر يوم من أيامه في الدنيا جعل يقولُ من الليل: آصبحتم؟ فيقولون: لا. فلما وجد بَرْد الصبح قال: (اللهم اجعل خاتمة عملي الصبح)، فتوضأ ثم صلى، فقرأ في الأولى بأمّ القرآن وسورة العاديات، وفي الأخرى بأم القرآن وسورة، وسلّم عن يمينه، وذهب يسلّم عن يساره فقُبض رضي الله عنه.

مروان بن الحكم:

وكان مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي كاتب عثمان بن عفان، وإليه الخاتم، وهو صحابي[1]، ومن سادات قريش وفضلائها، ذا شهامة وشجاعة، ومكر ودهاء، قارئاً لكتاب الله، فقيهاً في دين الله، شديداً في حدود الله. وكان من كبار الأمة، وأحد علمائها، روى عنه الصحابي الجليل سهل بن سعد، وكبار التابعين كابن المسيب.

وفقهاء الأمصار على تعظيمه، والانقياد لروايته، والتلفت إلى فتواه.

اتّهم بتزوير كتاب على لسان عثمان موجّهٍ إلى عامل مصر يأمره بقتل الخارجين على أمير المؤمنين[2].

ودافع عن عثمان (يوم الدار)، وقاتل دونه أشد القتال.

قادة آخرون:

وكان من القادة والأبطال الذين برزت أسماؤهم، وسطعت شموسهم في

(١) في رأي كثير من العلماء، وعدّه بعضهم في كبار التابعين.
(٢) انظر تفصيل ذلك ص٣٩٩ وما بعدها.

عهد عثمان، والفتوحات الهائلة التي تمت في زمانه: الأحنف بن قيس، وسلمان ابن ربيعة الباهلي، وعبد الله بن نافع بن عبد القيس، وعبد الله بن نافع بن الحُصَين الفهريّان، وعبد الله بن قيس الجاسي أمير البحرية، ومجاشع بن مسعود السّلَمي، والأسود بن كلثوم العدوي، والأقرع بن حابس، وعبد الله بن خازم، وغيرهم كثير.

أهليــة ولاة عثمان للولايــة:

وإذا استعرضنا أسماء أولئك الولاة وهؤلاء القادة الفاتحين، نرى نجاح أمير المؤمنين عثمان في اختيارهم؛ فهم أصحاب صدق وإيمان، وسيرة طيبة، والتزام للشرع، وطاعة للخليفة، وحرص على الرعية، ورغبة في نشر الرسالة، وحنكة وحكمة، ودربة وخبرة في أمور الحرب، أثبتتها الأيام على ساحات المعارك، التي لم يُهْزَموا في واحدة منها، إذا استثنينا ما حدث في (بَلَنْجَر).

ولقد جدّد عثمان بهؤلاء الولاة والقواد شباب الفتوحات، وأعطاها دفعاً قوياً بهؤلاء الجنود الميامين، الصادقين المخلصين، الكرماء الأوفياء. وإن ما قدمه البطل المغوار الوليد بن عقبة، والشاب الشهم الفاتح المظفر عبد الله بن عامر، الذي سطر نَعْيَ إمبراطورية الفرس في فتوحاته المباركة، وكذلك ابن أبي سَرْح في إفريقية، ومعاوية في الشام، والبحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط، وجولات أمير البحر عبد الله بن قيس الجاسي، الذي غزا خمسين غزوة في الصيف والشتاء في البحر... كل هذا، وما أفاء الله على الأمة من نعمة الرخاء والأموال والأرزاق والعطايا، حتى وزع الخليفة عليهم السمن والعسل!!.

إن هذا كله كان بفضل الله تعالى، ثم بسبب من حكمة وحُسن اختيار عثمان، وقيادته لسياسة الحكم والإحسان إلى الرعية، وتوطيد أركان الدولة، ونشر كلمة (الله أكبر... حي على الفلاح).

ولنستمع بعد كل ذلك إلى تلك الكلمة التي ألقتها أم المؤمنين السيدة عائشة في البصرة، قُبيل وقعة الجمل، قالت:

(وكان الناس يتجنّون على عثمان رضي الله عنه، ويُزْرون على عماله، ويأتوننا بالمدينة، فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم، ويرون حسناً من كلامنا في صلاح بينهم، فننظر في ذلك فنجده بريئاً تقياً وفياً، ونجدهم فَجَرة كَذَبة، يحاولون غير ما يظهرون! فلما قووا على المكاثرة، كاثروه، فاقتحموا عليه داره، واستحلّوا الدم الحرام، والمال الحرام، والبلد الحرام، بلا تِرَةٍ ولا عُذْر).

افتراءات على هؤلاء الولاة:

بعد هذا كله أفلا نعجب أن يوجد في كتّاب المسلمين من يقول[1]: (إن الأموال قد درّت لِقاحها، وكثرت في أيدي الناس جميعاً، وكثرت معها المناعِم، واستشرى الترف، ولم يكن مع الأمراء الأمويين من الزهد ولا من الورع (كذا!!) ما يصرفهم عن مشاركة الناس في تَرَفِهم وتبذّخِهم، بل راحوا بحكم نشأتهم يُبالغون في الترفّه والاستمتاع).

ولنزدد عجباً من قول عالِم معاصر في ولاة عثمان وأن (فيهم من ليس أهلاً للثقة)[2].

وأقبح من ذلك ما افتراه العقاد، فقال ـ وهو يتكلّم على سياسة علي في عزل ولاة عثمان ـ: (فعزلَ الولاةَ ـ أي ولاةَ عثمان ـ الذين استباحوا الغنائم المحظورة، وتمرغوا بالدنيا، وطمعوا وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين، وأثاروا على عثمان سخط السواد، وسخط الفقهاء المتحرجين، والحفاظ الغيورين على فضائل الدين! وردّ القطائع التي وزعتها بطانة عثمان بين المقربين وذوي الرحم،

---

(١) خالد محمد خالد في كتابه (خلفاء الرسول)، ص٤٠٠.

(٢) المذاهب الإسلامية، لمحمد أبي زهرة، ص٤٣.

فصرفتها عن وجوهها التي جعلت لها، من إصلاح المرافق، وإغاثة المفتقرين إليها على شرعة الإنصاف والمساواة)[1]!!.

فإذا كان هذا حال من يكتب ويؤلِّف، ويُحسب من رجال الفكر؛ فما بال الرعاع وعوام الناس الذين لا يسمعون من خصوم الإسلام إلا الطعون والأراجيف على ذلك الجيل الشامخ الذي فتح الدنيا، ووصل إلينا هذا الدين بسببهم ولله الحمد؟!!.

وماذا سيكون دور المستشرقين وأذنابهم إذاً، وكيف سيكتبون عن تلك الحقبة الزاهرة، وذلك الجيل الفريد؟! وهم معذورون إذا كان قلم حقدهم سيسطِّر أسوأ الكلام وأكذب الافتراءات!!.

وماذا يريد هؤلاء جميعاً ـ الكتَّاب المسلمون وعامة الناس والأعداء ـ من معاوية وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة وابن أبي سرح وعبد الله بن عامر بن كُرَيْز؛ غير ما قدّموه للإسلام من فتوحات عظيمة، وغيرة على الرسالة، وحب للرعية، مع حسن السيرة، وصدق السريرة، وكرم الأخلاق، والرفق والرحمة، ثم الشدّة والقسوة على أعداء الله وأعداء شرعه؟! وهل إذا نال واحد منهم الطيبات التي أُحِلّت للناس، نَصِفُهُ بعدم الزهد وقلة الورع؟!.

وهل صحيح أن بطانة عثمان كانت تتصرف بالمال والقطائع بطرق غير شرعية، فتضعها بين يدي المقربين، وتصرفها عن وجوهها التي شُرعت لها؟! إذاً فأين كان الخليفة رضي الله عنه من ذلك؟ وهذا طعن فيه قبل أن يكون طعناً على بطانته. سبحانك هذا بهتان عظيم.

أما آن لتلك الغشاوة أن تُنزع عن عيون الناس، ولذلك السخف الذي حَجَبَ نورَ الحق أن يُهتك ليرى الناس الحقيقة؟!.

ألم يأنِ لنا أن نعرف هَدْيَ سلفنا الصالح وسيرته على حقيقتهم، وأن ما نُسج

---

(١) عبقرية علي، ص٩٢.

حولهم أباطيل لا تخدم إلا أحفاد أبي لؤلؤة وابن سبأ واليهود والنصارى والمجوس الذين أكل الحقد والضغن قلوبهم لِمَا رأوا على أيدي هؤلاء الأبطال من تقويضٍ لعروشهم ودكّ لطغيانهم وظلمهم؟!.

أَوَ ما آن لكتّابنا أن يصححوا النية في حبهم للصحابة، ويعملوا الفكر فيما يقرؤون ويكتبون حتى لا يسمِّمُوا أفكار قرائهم بالأكاذيب التي يحملون أوزارها وأوزار من يصدقها؟!.

بلى آن!!.

ولقد أفردتُ هذا الفصل عن الولاة في عهد الخليفة البار عثمان، لأبيّن أن هؤلاء الولاة الأمويين لم يأتِ بهم الخليفة من عرض الطريق، بل هم أصحابُ سوابق وفضائل ومكارم وأمجاد قبل الولاية، وحافظوا عليها بل زادوها أَلَقاً وإشراقاً إبّان ولايتهم، وما ذكرته يمثّل طرفاً من مكرماتهم، رضي الله عنهم، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

الفتوحات ـ سعتها وسماتها:

تلك سيرة عثمان وهَدْيه، وهم أولاء ولاته وقواد جنده، يتتبع خُطى النبي ﷺ ونهج الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقام في ظل المبادئ الوثقى التي خطها رسول الله ﷺ وصاحباه، يباشر مهامه ومسؤولياته في عزم وحزم، ورشاد وسداد. ولنتابع مع عثمان تحت رايات قواده الميامين مسيرة الفتوحات التي تمت في عهده المبارك.

فلقد نقضت بعض أطراف الدولة الإسلامية العهودَ والمواثيق التي كانت عليهم في عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وقامت قومة واحدة في (أذربيجان، وأرمينية، والإسكندرية، وفلسطين)، واستعرت النار حول الدولة العريضة الرحيبة.

ولم يكن ذلك من شعوب تلك البلدان، لأن فرحها بالإسلام كان عظيماً،

واستبشارها به كان كبيراً؛ لأنه حرّرها من ظلم الفرس وطغيان الروم، وإنما قاد ذلك التمرد فلولُ القوى الحاقدة، التي ثلّ الإسلام عروشها، فبقيت فلولها قابعة متربّصة، تتحيّن الفرصة المناسبة. ولما مات عمر أشاعتْ في تلك البقاع أن الخليفة القوي قد قُتل بيد مجوسي منهم، وأن الإسلام قد انتهى بموت عمر، وزادوا في إرجافهم وتجريء الناس والرعاع والطامعين في زخرف الدنيا؛ أن الذي تولى بعده رجل قد أوشكت شمس حياته على الأفول، فقد ودّع سبعين سنة من عمره!!.

فقام عثمان الشيخ ليلقن هؤلاء درساً يرونه بأعينهم، ويسجله التاريخ ليقرأه مَنْ بعدهم، وليثبت لهم أن أصحاب رسول الله ﷺ ـ وخاصة من ولاّه الله الخلافة والحكم ـ لا تنوء بعزائمهم السنون والأيام، ولا تقاس قوتهم ولا اقتدارهم بما يحملونه من شهرة، بل بما وقر في قلوبهم من إيمان بالله ورسوله وكتابه، ولا تزيدهم السنوات إلا مضاءً وقوة وحزماً وعزماً!!.

فمضى عثمان يشق الطريق، ويفرض على التاريخ أن يسجل له بطولات الشباب، حتى لكأن الخليفة الكهل قد خلع إزار الشيخوخة الذي مزّقته الأعوام الطويلة، وارتدى إهاب الشباب، فأصدر أوامره دونما تلفّت ذات اليمين والشمال، وجيّش الجيوش لتضرب الفلول المناوئة، وتمهّد الطريق لتتابع الفتوحاتُ مسيرتها المظفرة، وتمتد إلى أقاصي الدنيا، وتُدني البلدانَ المنتقضة من قبضة الخلافة، ولا تبقيها أطرافاً هشة لدولة الإسلام.

ولما رأى عثمان أن من ضرورات متابعة الفتوحات إقامة القوة البحرية، أصدر أمره بإنشاء الأسطُول البحري الإسلامي، وهو يعلم تماماً أن عمر ظل طوال خلافته يرفض هذه المخاطرة المرهوبة!.

ورأى القواد الأشبال هذه العزيمة والمضاء من خليفتهم الباهر، الذي بلغ من الكبر عتياً، ومع ذلك فهو في مثل هذه العزيمة؛ فلبوا مسرعين، وازدادوا

مضاءً واقتداراً واستبسالاً، حتى إنك لتعجب حقاً أن أحداً منهم ما هزم في معركة قط، إذا استثنينا معركة واحدة!!.

وقام عثمان يحض الناس على الجهاد، ووقف في الناس خطيباً فقال: (إني محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، ما كان يمنعني أن أحدّثكم إلا الضنّ بكم[١]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حرسُ ليلة في سبيل الله تعالى أفضل من ألف ليلة يُقام ليلها ويُصام نهارها»).

في أذربيجان وأرمينية:

وبدأ الخليفة مقارعة تلك القوى المتمردة التي نقضت العهود، وحملت السلاح ضد دولة الإسلام؛ فأمر الوليد بن عقبة أن يسير بجيش الكوفة إلى (أذربيجان) و(أرمينية)، فأسرع الوليد لذلك، فوطئ بلادهم، وأغار بأراضي تلك الناحية، وردّهم إلى صوابهم، وصالحهم على ما كانوا صالحوا عليه حذيفة ابن اليمان سنة اثنتين وعشرين، على ثمانمئة ألف درهم كل سنة. فقبض منهم جزية سنة، ورجع سالماً غانماً إلى الكوفة، فمر بالموصل، وبينا هو بها إذ جاءه كتاب عثمان يأمره أن يمدّ أهل الشام على حرب الروم، الذين تجمعوا لقتال المسلمين في ثمانين ألفاً، وفيه:

(أما بعد، فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أن الروم قد أجلبت[٢] على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيتُ أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه، وشجاعته وإسلامه في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي، والسلام).

فقام الوليد بن عقبة في الناس خطيباً، حين وصل إليه كتاب عثمان،

---

(١) أي حرصي على قربكم مني.
(٢) أي تجمعت للحرب.

فأخبرهم بما أمره به أمير المؤمنين، وندب الناس، وحثهم على الجهاد، ومعاونة معاوية وأهل الشام، وأمّر سلمانَ بن ربيعة[1] على الناس الذين يخرجون إلى الشـام، فانتدب في ثلاثـة أيام ثمانيـة آلاف رجل من أهل الكوفـة، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلي. فشنوا الغارات على أرض الروم، وافتتحوا بها حصوناً كثيرة، وتوغلت الجيوش المسلمة الظافرة تقتلع عروش الطواغيت من الروم، وتفتح أبواب الإسلام والحرية أمام الجماهير العريضة التي طال انتظارها ليوم الخلاص من طغيان القياصرة.

في الري والإسكندرية وسابور:

وانتفضت مقاطعة (الري) هي الأخرى وتمردت، فتوجّه إليها جيش من أهل البصرة بقيادة أبي موسى الأشعري، وأنزلهم على العهد الذي عقدوه مع حذيفة بن اليمان من قبل.

وجاءت الأنباء إلى أمير المؤمنين أن ملك الروم قد بعث أُسْطُولاً بحرياً إلى أهل الإسكندرية، فطمع أهلها بالنصرة، فنقضوا ذمتهم ومواثيقهم، فأصدر الخليفة أوامره إلى عمرو بن العاص ـ واليه على مصر ـ فغزاهم، وأنزل بهم بأسه العادل، واستأصل شأفة التمرد إلى الأبد.

وتوجه عثمان بن أبي العاص إلى (سابور) فافتتحها صلحاً، وصالح أهلها على ثلاثة آلاف ألف وثلاثمئة ألف.

في الشمال الإفريقي:

وبعد أن دانت الإسكندرية لسلطان المسلمين، التفت أمير المؤمنين عثمان

---

(١) وقد ذكر خالد محمد خالد أن الوليد بن عقبة قد أمَّر على الجيش (حبيب بن مسلمة)، والصواب ما ذكرناه إذ إن حبيباً قد أمّره معاوية على جيش أهل الشام.

إلى الشمال الإفريقي، راغباً أن يصله نور الإسلام، فوجّه أمره لعامله على مصر ـ آنذاك ـ عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، وقال له: (إن فتح الله ـ عز وجل ـ عليك إفريقية؛ فلَكَ مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلاً). وسرّح معه عبد الله بن نافع بن عبد القيس، وعبد الله بن نافع بن الحُصَين الفهريّينْ، على أن يجتمعا مع ابن أبي سَرْح حتى يتم له فتح إفريقية، ثم يتوجهان بجيشهما إلى الأندلس، ويبقى ابن أبي سرح في عمله.

فخرجوا وقطعوا مصر، وأوغلوا في أرض إفريقية، فتصدى لهم الأفارقة وعليهم (الأجلّ) فاقتتلوا، وقُتل الأجلّ، قتله عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وفتح إفريقية، سهلها وجبلها، واجتمعوا على الإسلام، وحسنت طاعتهم، وقسم ابن أبي سرح ما أفاء الله عليهم على الجند، وأخذ خمس الخمس، وبعث بأربعة أخماسه إلى أمير المؤمنين، وضرب فسطاطاً في موضع القيروان، فشكوا عبد الله إلى عثمان فيما أخذ، فقال عثمان: أنا نفّلته، وذاك إليكم الآن، فإن رضيتم فقد جاز، وإن سخطتم فردُّوه!! قالوا: فإنا نسخطه، قال: فهو ردّ. وكتب إلى عبد الله بردّ ذلك واستصلاحهم. وقالوا: اعزله عنا، فإنا لا نريد أن يتأمّر علينا، وقد وقع ما وقع! فكتب إليه عثمان أن استخلف على إفريقية رجلاً ممن ترضى ويرضون، واقسم الخمس الذي نفّلتك في سبيل الله، فإنهم قد سخطوا النفل. ففعل، واستخلف عقبة بن نافع، ورجع إلى مصر.

ثم طلب ابن أبي سرح من أمير المؤمنين عثمان أن يتابع الفتح في إفريقية ويتوغل فيها. فاستشار عثمان الصحابة، فأشار أكثرهم بذلك، فجهز جيشاً فيه من أعيان الصحابة العبادلة الثلاثة: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله ابن الزبير. وسار بهم ابن أبي سرح متوغلاً في إفريقية، والتقى هناك بـ(جُرْجِير) ملك البربر ـ وكانت مملكته تمتد من طرابلس الغرب حتى طنجة، وكان ملك الروم قد ولاّه إفريقية على أن يأتيه بخراجها كل سنة ـ وكان على رأس مئتي ألف ـ وفي رواية مئة وعشرين ألفاً ـ. والتقوا بسُبَيْطِلة ـ على سبعين ميلاً من القيروان ـ فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكانوا يجتلدون إلى الظهر، ثم يأوي كل جيش إلى خيامه،

فأشار ابن الزبير على ابن أبي سرح أن يبقي جملة من الشجعان في الخيام، ويخرج الباقون للقتال، على أن يتابع هؤلاء الشجعان القتال بعد الظهر! فهوى ذلك وأعجبه، وفي اليوم التالي اقتتل الجيشان كأشد ما يكون القتال حتى أتعبوا جميعاً، وماإن أخلد جُرْجِير بجنده إلى الراحة، حتى فجئهم أولئك الشجعان الذين كانوا في راحة ـ وعلى رأسهم ابن الزبير ـ وحملوا عليهم حملة رجل واحد، وقتل ابنُ الزبير ملكَهم جرجير، وفرّ جيشه فرار القطا، وغنم المسلمون أموالاً عظيمة.

وأقام ابن أبي سرح بسُبَيْطِلة، وبعث إليه أهل القصور والمدائن فصالحوه، وبعث بالبشارة إلى أمير المؤمنين عثمان مع ابن الزبير، ورجع هو إلى مصر.

في الأندلس، وإصطخر، وقنّسرين، وأرجان ودَرابْجِرْد:

وبعد أن تمّ فتح إفريقية أرسل عثمانُ عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله ابن نافع بن الحُصَيْن الفهريين من فورهما إلى الأندلس، فأتياها من قِبَل البحر، وكتب عثمان إلى الذين خرجوا إليها يقول: (إن القسطنطينية إنما تفتح من قبل الأندلس، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمن يفتتح قسطنطينية في الأجر، والسلام). فساروا إليها فافتتحوها.

● وفي الوقت نفسه كان عثمان بن أبي العاص يقهر التمرّد في (إصطَخْر)، وفتحها ثانية، وأعاد أهلها إلى الصواب.

وغزا معاوية (قِنّسْرين). وفتحت (أرجان) و(دَرابْجِرْد).

تكوين الأسطول البحري الإسلامي:

ونظر أمير المؤمنين إلى الروم وعدوانهم، فوجد أن مخاطر كثيرة تأتي المسلمين من قِبَلهم من جهة البحر، حيث يتخذون من (جزيرة قبرص) قاعدة لعدوانهم، ولهم أسطول بحري ضخم، يساعدهم على ذلك، وليس للمسلمين أسطول يقاوم أسطول الروم.

وصادف ذلك رغبة شديدة، وإلحاحاً طويلاً من معاوية بن أبي سفيان ـ واليه على الشام ـ الذي كان تقدم إلى أمير المؤمنين عمر كثيراً بأن يركب المسلمون البحر لغزو قبرص، فسأل عُمَرُ عَمْرو بن العاص عن البحر، فقال عَمرو في وصفه: (يا أمير المؤمنين، إني رأيت خلقاً عظيماً، يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، وإنما هم كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق)!! فخاف عمر أن يخاطر بالمسلمين، وقال: (تالله لمسلم أحب إليّ مما حَوَت الروم)، ونهى معاويةَ عن ركوب البحر والقتال فيه.

لكن أمير المؤمنين عثمان تفكّر في الأمر، فوجد أن التأخير ليس في صالح المسلمين، ولا بدّ لهم ـ آجلاً أو عاجلاً ـ أن يركبوا البحر ليبلغوا رسالة الله إلى مَنْ وراءه، وليُسكِتوا كل شغب يأتيهم من قِبَله. وتدارس الأمر مع أصحاب الرأي من الصحابة، ثم عزم عليه، وأصدر أوامره إلى معاوية بركوب البحر، وكانت تلك اللحظة الحاسمة التي شهد التاريخ فيها ميلاد (البحرية الإسلامية)، في عهد الخليفة الراشد الميمون عثمان رضي الله عنه.

فبنى معاوية أسطولاً بالشام، واقتدى به ابن أبي سَرْح، فأنشأ هو الآخر أسطولاً لحماية سواحل مصر وشمال إفريقية.

وبلغ من احتياط عثمان أنه كتب إلى معاوية يأمره قائلاً: (لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعِنْهُ).

فتح قبرص:

وأوعب مع معاوية جيش عظيم من المسلمين، وركبوا في مراكب وقصدوا (جزيرة قبرص)، وكان فيهم جملة من الصحابة، منهم: أبو ذر الغفاري، وعبادة ابن الصامت ومعه زوجته أم حرام بنت مِلْحَان والمقداد بن عمرو، وأبو الدرداء، وشدّاد بن أوس، وأمدّهم أمير المؤمنين بجيش آخر من مصر على رأسه عبد الله بن سعد بن أبي السَرْح، وذلك لخشية الخليفة على المسلمين في أول تجربة بحرية لهم.

والتقى الجيشان في (قبرص)، وأطبقوا على أهلها، واقتتلوا معهم، حتى استسلم أهل تلك الجزيرة، وصالحوا معاوية على سبعة آلاف دينار يؤدونها كل سنة.

وفي هذه المعركة الخالدة تحققت نبوءة عظيمة لرسول الله ﷺ، فقد كان إذا ذهب إلى قُباءَ، يدخل على أمّ حرام[1] بنت مِلْحان فتطعمه ـ وكانت تحت عبادة بن الصامت ـ فدخل يوماً فأطعمته، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟.

فقال: «ناس من أمتي عُرضوا عليّ غُزاةً في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ[2] هذا البحر، مُلوكٌ على الأسِرَّة، أو مثل الملوك على الأسِرَّة».

فقلت: ادعُ الله أن يجعلني منهم. فدعا.

ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ يضحك، فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟.

فقال: «ناس من أمتي عُرضوا عليّ غُزاةً في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ هذا البحر، ملوك على الأسِرَّة، أو مثل الملوك على الأسِرَّة».

فقلت: ادعُ الله أن يجعلني منهم.

قال: «أنتِ من الأوّلينَ»[3].

وبعد أن صالح معاوية أهل الجزيرة وأراد الخروج، قُدّمت لأم حرام بغلة لتركبها، فسقطت عنها، فاندقّت عنقها، فماتت هناك رضي الله عنها، وقبرها هنالك معروف يسمّونه: قبر المرأة الصالحة.

---

(١) كانت مَحْرَماً لرسول الله ﷺ.
(٢) وسطه وظهره.
(٣) الأولون: أصحاب غزوة قبرص، والآخرون: أصحاب غزوة القسطنطينية.

معركة ذات الصواري:

وجاءت معركة ذات الصّواري[١] لتؤكد صلابة الدولة الإسلامية تحت قيادة الرجل (الشيخ) عثمان!! ولتثبت قوة البحرية الإسلامية الناشئة ونجاحها.

فلما رأى الروم ما أصابه عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح من الفرنج والبربر في بلاد إفريقية والأندلس؛ حَمَوْا لذلك ونشطوا، واجتمعت الروم على (قسطنطين بن هرقل)، وساروا إلى المسلمين في جمع لم يُرَ مثله منذ كان الإسلام، خرجوا في خمسمئة مركب، وقصدوا ابنَ أبي سَرْح في أصحابه من المسلمين الذين ببلاد المغرب، فخرج ابن أبي السرح إليهم بأصحابه، ومعهم مئتا مركب. فلما تراءى الجمعان بات الروم يضربون بالنواقيس، والمسلمون يقرؤون القرآن ويصلّون، فلما أصبحوا صفّ ابن أبي سرح أصحابه صفوفاً في المراكب، وأمرهم بذكر الله وتلاوة القرآن.

وأقبل الروم في جمع لم يُرَ مثله من كثرة المراكب، وعقدوا صواريها، وكانت الريح لهم وعلى المسلمين، وأرسى المسلمون سفنهم، وأرسى الروم قريباً منهم، وسكنت الريح، فقال قائد المسلمين للروم: إن شئتم خرجنا نحن وأنتم إلى البر فمات الأعجلُ منا ومنكم، وإن شئتم فالبحر؟ فنخروا نخرة رجل واحد، وقالوا: الماء الماء! فعندئذٍ أسرع المسلمون، وربطوا سفنهم بسفن الروم، واجتلد الرجال بالسيوف وتواجؤوا بالخناجر، وضربت الأمواج السفن حتى ألجأتها إلى الساحل، وألقت الأمواج جثث الرجال إلى الساحل ركاماً، وغلب الدم على لون الماء!! وصبر المسلمون صبراً لم يُعهد مثله قط، وقُتل منهم بشر كثير، ومن الروم أضعاف ذلك، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهرب قسطنطين ـ وقد قلّ جنده جداً ـ وبه جراحات شديدة مكينة.

وأقام عبد الله بن سعد بن أبي سرح بذات الصواري أياماً، ثم رجع مؤيداً منصوراً مظفراً.

---

(١) الصَّوَاري: جمع الصَّاري، وهو عمود يُقام في السفينة يُشَدُّ عليه الشراع.

غزوات عبد الله بن قيس الجاسي:

وفي الشام أمّر معاويةُ على البحر عبدَ الله بنَ قيس الجاسي، فغزا خمسين غزاة بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد، ولم يُنكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وأن لا يبتليه بمصاب أحد منهم؛ فأجابه الله لما دعاه. ولما أراد الله له أن يموت، خرج ذات يوم في قارب طليعة، فعرفته امرأة من الروم، فأخبرت مَنْ هناك منهم، فهجموا على عبد الله وقتلوه، وهرب الملاّح بالقارب.

وخلال نصف قرن من الزمان أصبح اسم البحر المتوسط: (بحر الشام)، وكان قبل ذلك يحمل اسم (بحر الروم)!.

انسياح الفتوحات:

وانساحت جيوش الخليفة العظيم تحت راياتها المنتصرة المظفرة إلى كل مكان.

● فمعاوية بن أبي سفيان يتوغل في أرض الروم حتى يغزو مضيق القسطنطينية، ومعه زوجته عاتكة ابنة قرظة، وغزا مَلَطْية وإفريقية سنة ثلاث وثلاثين هجرية.

● وعبد الله بن سعد بن أبي سرح يتوجه بجيشه فيغزو الحبشة.

● وسعيد بن العاص ـ والي الكوفة ـ يفتتح طَبَرِستان، ويخرج إليها في جيش يضم الحسن والحسين، والعبادلة الأربعة: عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس، وحذيفة بن اليمان، وآخرين من الصحابة، فينزل (قومِس) ـ وهي صلح، صالحهم حذيفة بعد نهاوند ـ ويأتي (جرجان) فصالحه أهلها، ثم (طَميسة) ـ وهي كلها من طبرستان ـ وهي مدينة على ساحل البحر، وهي في تخوم جرجان، واقتتلوا حتى افتتحها.

وفيه يقول الفرزدق:

ترى الغُرّ الجَحَاجِحَ[1] من قريشٍ إذا ما الأمر ذو الحدثانِ عَالاَ
قياماً ينظرونَ إلى سعيدٍ كَأنَّهُمُ يرونَ بهِ هِلالاً

وكتب عثمان إلى سعيد بن العاص أن أغزِ سلمان (الباب)، فبعث سعيدٌ سلمانَ بن ربيعة على جيش، وأمره أن يغزو (الباب) ـ على بحر قزوين ـ. وقام عبد الرحمن بن ربيعة ـ نائب تلك الناحية ـ بمساعدته، فسار حتى بلغ (بَلَنْجَر)، ونصبت عليها المجانيق والعَرّادات[2]، وخرج أهل بلنجر إليهم، وعاونهم الترك، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقُتل عبد الرحمن بن ربيعة، وانهزم المسلمون، وافترقوا فرقتين؛ فرقة ذهبت إلى بلاد الخزر، والثانية سلكت ناحية جِيلان وجُرجان. وهذه هي المعركة الوحيدة التي خسرت فيها جيوش أمير المؤمنين عثمان خلال خلافته المديدة وفتوحاته الكثيرة.

● وعلى جبهة فارس يزحف عبد الله بن عامر ـ ومعه الأحنف بن قيس والأقرع بن حابس ـ فيفتح أصبهان، ثم يتوجه إلى خراسان ويفتتح (أبْرَشَهْر) و(طوس) و(أبِيوَرْد) و(نَسا)، ثم صالح أهل (سَرَخْس)، وبعث الأسود بن كلثوم العدوي إلى (بَيْهق) فافتتحها.

وتابع ابن عامر انتصاراته الباهرة وفتوحاته الواسعة: فافتتح (مَرو الرّوذ، والطالقَان، والفارِياب، والجُوزَجان، وطَخَارستان، ووصلت جيوشه إلى كابُل، وزابُلسْتان)، وهي ولاية غزنة ـ على حدود خراسان والهند ـ.

ولما جمع (قارن) ـ مرزبان من الفرس ـ جمعاً كبيراً بأهل (باذَغيس) و(هَراة) و(قُهستان)، وأقبل في أربعين ألفاً؛ تصدى لهم عبد الله بن خازم في أربعة آلاف، وقدّم ستمئة وأمرهم أن يجعلوا الدهن والزيت والسمن على رؤوس رماحهم، ففعلوا، ثم أشعلوا النار برؤوس الرماح، وهجموا على جيش قارن وسط الليل،

---

(١) جمع جحجاح: وهو السيد الكريم.
(٢) هي آلة حربية كالمنجنيق ترمي بالحجارة المرمى البعيد لدكّ الحصون.

وناوشوا الحرس، وتبعهم ابن خازم بالجيش، فأطبقوا على العدو، وقتلوهم شرّ قتلة. وبعث بالفتح إلى ابن عامر، فأقرّه على (خراسان).

وبعد هذه الفتوح العظيمة قال الناس لابن عامر: (ما فُتح على أحد ما قد فُتح عليك؛ فارس وكَرْمان وسِجِسْتَان وعامة خُراسان! قال: لا جرم، لأجعلنّ شكري لله على ذلك أن أخرج مُحْرِماً معتمراً لله موقفي هذا، فأحرم بعمرة من نيسابور. فلما قدم على عثمان لامَهُ على إحرامه من خراسان، وقال: ليتك تضبط ذلك من الوقت الذي يُحْرم منه الناس)!!.

* * *

● وتراحبت الفتوحات، واتسعت آفاقها في عهد الخليفة المبارك عثمان رضي الله عنه، ففتح الله على يديه كل تلك الأقاليم والأمصار، فبسط يمينه على الشرق، ودانت له بلاد فارس، حتى وصلت جيوشه إلى حدود الهند.

وفي الغرب قرعت كتائبه أبواب الأندلس، وزحفت راياته المنتصرة نحو الجنوب حتى وصلت الحبشة، وأوغلت في أرض الروم حتى مضيق القسطنطينية عاصمة الروم، وعثمان الخليفة الذي يودّع السنة الثمانين من عمره، قد أَخْلَفَ بأعماله الباهرة كلّ الظنون من أعداء الإسلام بأنه خليفة طاعن في السنّ، لا حول له ولا طَول بإدارة تلك الدولة الشامخة، والحفاظ على هيبتها وسلطانها، فهو رابض في المدينة يوجّه الجيوش، ويعقد الألوية والرايات، ويبعث الأمداد، ويولّي القادة الشباب ليبقى الفتح في ربيعه وصباه! ويتلقى الغنائم، ويقسمها بين الناس ذات اليمين وذات الشمال.

فتوسعت الدولة الإسلامية، وترامت أطرافها، وبلغت رسالة الهدى والحق مشارق الأرض ومغاربها، وظهر للناس مصداق قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥]،

وقوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقوله ﷺ: «إذا هلك كِسرَى فلا كِسرى بعده، وإذا هلك قَيصرُ فلا قيصرَ بعده، والذي نفسي بيده لَتُنْفَقَنّ كنوزُهما في سبيل الله».

وهذا كله تحقق وقوعه، وتأكّد وتوطّد في زمان عثمان رضي الله عنه وأرضاه[(١)].

سمات تلك الفتوحات:

ولقد اتسمت تلك الفتوحات العظيمة بسمات عديدة:

أولها: الاستقرار على الجبهات العريضة، وإعادة الاستقرار لبعض الجهات التي انتقضت. وهذه البلاد التي انتقضت لم تؤثر على جاراتها، مما يبرهن على ثبات ذلك الاستقرار.

ثانيها: التوسع المذهل الكبير في الفتوحات، في الشمال والشرق والغرب.

ثالثها: دخول المسلمين بقوة المجال البحري، حيث بنى معاوية أسطولاً لحماية سواحل الشام، وأنشأ ابن أبي سرح هو الآخر أسطولاً لحماية سواحل مصر وشمال إفريقية.

رابعها: أن سياسة عثمان في الفتوحات كان فيها شيء من (اللامركزية)، وذلك استجابة للمرحلة التاريخية التي تمرّ بها الدولة، فكان يتخيّر القادة والولاة

---

(١) هذا ما نصّ عليه ابن كثير في البداية والنهاية: ٧/ ٢٠١، ومع كل هذه الفتوحات التي أشرنا إلى خلاصة عنها، يأتي من يدّعي بأن الفتوحات قد توقفت في عهد عثمان، وبتوقّف الجيوش انقطعت الغنائم، وبقي الجنود بدون عمل، وأن جيش عثمان جاهل يمضي نصف يومه بالطعام والنوم وقضاء الحاجات، والنصف الثاني بالخوض في سياسة الدولة، والحديث عن تصرفات عثمان!! أفهذا كلام يعقل؟ ﴿ سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴾، انظر (الفتنة ووقعة الجمل)، جمع أحمد راتب عرموش، ص١٥.

الأكفاء الثقات الأمناء المقتدرين، ويحدّد لهم واجباتهم، ثم يترك لهم الحرية في إدارة الحرب على ساحات العمليات، يمارسون بعض صلاحياتهم، ويجتهدون بآرائهم، وينظرون في خبرات من سبقهم لمعالجة المواقف الطارئة؛ إذ ليس من المعقـول إذا حدث أمر في أقاصي إفريقيـة أو على أطراف خراسـان، أن يبعث الوالي بالأمر إلى الخليفة، على هذه المسافة الهائلة، ثم ينتظر الردّ! ولقد أثبتت تلك السنوات الطوال نجاح وواقعية هذا التفكير العثماني الموفّق، وأحبَّ الناس والولاة أميرهم، وبادلوه ثقة بثقةٍ، وبذلوا كل الجهد وأوسع الطّاقة لتوطيد أركان الحق والحفاظ على الدولـة المسلمة، ولا أدلّ على ذلـك من أنهم خلال تلك السنوات الطوال والمعارك الكثيرة لم يخسروا إلا معركة واحدة!!.

ولا يعني ذلك استقلال الولاة والقادة بالأمور، وعدم الرجوع إلى الخليفة، بل إن الذي منحه عثمان ولاته وقادته إنما هو التصرف حسب الظروف وضمن الإمكانيـات، مع ضرورة الرجوع إلى الخليفـة في الأمور المهمة والكبيرة التي لا مجال للاجتهاد فيها[1].

من أعماله في خلافته:

وكان من نتائج تلك الفتوحات الكثيرة الواسعة أن كثر الخَراج، وسالت الأمـوال بين يدي أمير المؤمنين، وأتتـه من كل وجه، حتى اتخذ لها الخزائن، وأدرَّ على الناس الأرزاق:

كثرة العطايا والأرزاق:

● فقد كـان عمر فرض لكل إنسـان عطاءً من بيت المال، فجاء عثمـان، وزادهم على ذلك، كل رجل مئة.

● وكان عمر قد فرض لكل نفـس من المسـلمين في كل ليلـة من رمضان

(١) انظر مزيداً من ذلك في ص٣٤٩، وما بعدها.

درهماً من بيت المال يفطر عليه، ولأمهات المؤمنين درهمين درهمين، فلما ولي عثمان أقرَّ ذلك وزاده.

● واتخذ سِمَاطاً[1] في المسجد أيضاً للمتعبدين والمعتكفين، وأبناء السبيل والفقراء والمساكين.

● ويصور الحسن البصري كثرة الخيرات والأرزاق والأموال التي أغدقها أمير المؤمنين على الناس، فيقول:

(شهدت منادي عثمان ينادي: أيها الناس، اغدوا على أعطياتكم، فيغدون فيأخذونها وافية. يا أيها الناس اغدوا على أرزاقكم، فيغدون فيأخذونها وافية. حتى ـ والله ـ سَمِعَتْهُ أذناي يقول: اغدوا على كسوتكم، فيأخذون الحلل. واغدوا على السمن والعسل!!.

قال الحسن: أرزاق دارَّة، وخير كثير، وذات بين حسن، ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمناً، إلا يودّه وينصره ويألفه! فلو صبر الأنصار على الأثرة لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق، ولكنهم لم يصبروا، وسلّوا السيف مع من سلّ، فصار عن الكفار مغمداً، وعلى المسلمين مسلولاً إلى يوم القيامة).

وكل هذا عدا العطاء المفروض لهم من بيت المال، والذي كان عمر قد فرضه، وجاء عثمان فزاده!! فلقد كان يعطي من ماله الخاص بغير حساب، وينفق ما تعجز عنه العصبة من الأثرياء، فكيف، وهو ينفق من بيت مال المسلمين؟! لقد أنفق كل شيء، وما حبس على الناس خيراً قط.

● وفي عهده كانت الجوائز، فقد حدث أن عبد الله بن عامر استعمل قطن ابن عوف الهلالي على (كَرْمان)، فأقبل جيش من المسلمين أربعة آلاف، وجرى الوادي فقطعهم عن طريقهم، وخشي قطنُ الفوتَ، فقال: من جاز الوادي فله

---

(١) هو ما يُمَدُّ ليُوضَعَ عليه الطعامُ في المآدب ونحوها.

ألف درهم! فحملوا أنفسهم على العوم، فكان إذا جاز الرجل قال قطن: أعطوه جائزته، حتى جازوا جميعاً، وأعطاهم أربعة آلاف ألف درهم. فأبى ابن عامر أن يحسبها له، فكتب بذلك إلى عثمان بن عفان، فكتب عثمان أن احسبها له، فإنه إنما أعان المسلمين في سبيل الله! فمن ذلك اليوم سميت الجوائز؛ لإجازة الوادي، فقال الشاعر في ذلك:

فدىً للأكرمينَ بني هلالٍ ... على عِلاّتهم أهلي ومالي
هموا سنّوا الجوائزَ في معدٍّ ... فعادتْ سنةً أخرى الليالي
رماحهمُ تزيدُ على ثمانٍ ... وعشرٍ قبل تركيب النصالِ

توسعة المسجد الحرام والمسجد النبوي:

ولم يشغله الجهاد المتواصل، والزحوف المتلاحقة، والانتصارات المتزاحمة، عن أعماله الأخرى؛ فاهتمّ بالعمارة، مبتدئاً بالمسجد الحرام والمسجد النبوي.

● ففي سنة ست وعشرين زاد في المسجد الحرام، فاشترى أماكن للزيادة ووسّعه، وأمر بتجديد أنصاب الحرم.

● وفي سنة تسع وعشرين زاد في مسجد رسول الله ﷺ زيادة كبيرة ووسّعه، فكانت القَصَّة[1] تحمل من بطن نخل، فبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصّة، وجعل عمده حجارة منقوشة، وسَقَفَهُ بالساج[2]، وجعل طوله ستين ومئة ذراع، وعرضه مئة وخمسين ذراعاً، وجعل أبوابه ستة على ما كانت عليه في عهد عمر رضي الله عنه.

وابتدأ العملُ في بنائه في شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين، وفرغ منه حين دخلت السنة لهلال المحرم سنة ثلاثين، فكان عمله عشرة أشهر.

---

(١) أي الجص.
(٢) شجر ضخم صلب الخشب أسوده.

جمع الناس على المصحف:

والعمل الباهر المعجز، والإنجاز الرائع العظيم، الذي قام به عثمان، والذي لا يقلّ عن تلك الفتوحات الشامخة، بل هو أهم منها وأعظم، وأكثر خيراً وبركة على الإسلام والمسلمين؛ هو جمع الناس على مصحف واحد، فَحُفِظَ بذلك القرآن إلى يوم الدين.

فنحن نعلم أن آيات القرآن كانت تتنزل على رسول الله ﷺ، فيأمر كتّاب الوحي بكتابتها أوّلاً بأوّل، ويتلقاها الصحابة من في رسول الله ﷺ، فيحفظونها في صدورهم. وقد أذِنَ لهم النبي ﷺ أن يقرأ كلٌّ بلهجة قومه فقال: «أُنزل القرآنُ على سبعة أحرف[1]، أيها قرأت أجزأك».

وكان الأصحاب ملتزمين بما علّمهم الرسول ﷺ من أدب ذلك، فلا يحدث بينهم خلاف أو تخطئة لبعضهم بعضاً، وإن حدث ففي النادر، ويفصل بينهم النبي ﷺ، ويقول إذا اختلف اثنان: «كلاكما محسِنٌ، إن مَنْ قبلكم اختلفوا فيه، فأهلكهم، فلا تختلفوا».

ولما انتشرت الفتوحات وكثرت في عهد أمير المؤمنين عمر، ومن بعده عثمان، وأخذت تطوي الأرض طيّاً، فبلغت آماداً بعيدة وآفاقاً رحيبة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأصبح القرآن الكريم كتاب شعوب كثيرة، لكل منها لهجته ولسانه، بل إن بعضهم كان لا يستقيم لسانه بالعربية الفصحى السليمة؛ فآنذاك أمسى الاختلاف في قراءة القرآن مصدرَ خطرٍ ونذيرَ سوءٍ يهدّد كيان الأمة ووحدتها، بل يهدد القرآن ذاته!!.

وقد حدث أن رُفع لعثمان في المدينة أن غلماناً يقرؤون القرآن على معلميهم، فكان الغلمان يلتقون فيختلفون في قراءتهم، حتى احتدم الأمر بين

---

(١) أي سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة، نحو: أقبل وتعال وهلمّ.

مقرئيهم، فقام عثمان فخطب الناس، فقال: (أنتم عندي تختلفون، فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافاً)!.

وكأنَّ الحُجب قد كُشفت لعثمان، فقد كان حذيفة بن اليمان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق سنة خمس وعشرين، فرأى تنازع أهل الشام وأهل العراق في القرآن: أهل الشام يقرؤون القرآن بقراءة أُبيّ بن كعب، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، وأهل العراق يقرؤون بقراءة ابن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفِّر بعضهم بعضاً!!.

فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، وقبل أن يدخل بيته امتطى ظهر راحلته، وخرج يسابق الريح إلى المدينة، وقال لعثمان: (يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى)!.

وسمع عثمان من حذيفة النبأ المفزع المرهوب، فتحقق لأمير المؤمنين ما كان ظنّه من اختلاف الناس في الأمصار، فاستشار الصحابة قائلاً:

(ما تقولون في هذه القراءة، فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفراً)؟!.

قال الصحابة: فما ترى؟.

قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف.

قال الصحابة: فَنِعْمَ ما رأيت.

فأرسل عثمان إلى حفصة[1] (أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيدَ بن ثابت، وعبدَ الله بن الزبير، وسعيدَ بن العاص، وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام،

---

(١) عندما جمع أبو بكر الصدّيق القرآن الكريم كانت الصحف عنده طيلة خلافته، ثم انتقلت إلى عمر في خلافته، فلما طُعن جعلها عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر.

فنسخوها في المصاحف).

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا).

وقامت اللجنة بالمهمة الشاقة العظيمة، وكان المنهج الذي ساروا عليه دقيقاً باهراً، لا تبلغ الطاقة البشرية أكثر منه: فاعتمدوا على عمل اللجنة الأولى التي جمعت القرآن في عهد أبي بكر، أي على (ربعة حفصة) التي هي مستندة إلى الأصل المكتوب بين يدي رسول الله ﷺ وأمره، وبذلك ينسدّ بابُ القالة، فلا يزعم زاعم أن في (الرَّبعة) شيئاً لم يُكتَب في المصحف العثماني، أو أنه كُتب فيه ما ليس في (الربعة).

ويتعاهد هذه اللجنة خليفة المسلمين نفسه.

وأن يأتي كل من عنده شيء من القرآن سمعه من النبي ﷺ بما عنده، وأن يشترك الجميع في علم ما جُمع ـ على نحو ما اتبع في جمع أبي بكر ـ فلا يتغيّب في هذه المرة أيضاً عن جمع القرآن أحد عنده منه شيء، ولا يرتاب أحد فيما يودع المصحف، ولا يشك في أنه جمع عن ملأ منهم.

وإذا اختلفوا في أيّة آية قالوا: هذه أقرأها رسول الله ﷺ فلاناً، فيُرسَل إليه وهو على مسيرة ثلاث ليالٍ من المدينة، فيقال له: كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا؟ فيقول: كذا وكذا، فيكتبونها وقد تركوا لها مكاناً.

وعند الاختلاف يقتصر على لغة قريش، ويُمنع كتابة ما نُسخت تلاوته، وما لم يكن في العَرْضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل، وما لم يثبت من القراءات، وما كان شرحاً لمعنى أو بياناً لناسخٍ أو منسوخ، أو نحو ذلك.

ويلتزم في ترتيب آيات كل سورة ما كان النبي ﷺ قد اتّبعه في العرضة الأخيرة.

وبعد الفراغ من كتاب (المصحف الإمام) يراجعه زيد بن ثابت ثلاث مرات،

ثم يراجعُه خليفة المسلمين بنفسه.

وتمت كتابة المصحف، ونسخوا منه عدة نسخ[1] هي عَيْن ما نزل على قلب رسول الله ﷺ. وبذلك حفظ الله كتابه، مصداقاً لوعده المطّرد: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وأرسل أمير المؤمنين إلى كل أفق بنسخة، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرَق، فرفعَ الخلافَ، وجمع الكلمةَ، وأراحَ الأمة، وجنّبها شرّاً مستطيراً، وأحسن للمسلمين جميعاً بالحفاظ على كتابهم العزيز، الذي يلتقون حول آياته عبر القرون إلى قيام الساعة.

ولقد رضي الصحابةُ ومَنْ بعدهم عملَ عثمان ـ في جمعه الناس على مصحف واحد، وحرق ما سواه ـ فقال مصعب بن سعد بن أبي وقاص: (أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف، فأعجبهم ذلك).

وقال علي بن أبي طالب ـ حين حرق عثمان المصاحف: (لو لم يصنعه هو لصنعتُه).

ويقول غنيم بن قيس المازني: (قرأتُ القرآن على الحرفين جميعاً، والله ما يسرني أن عثمان لم يكتب المصحف، وأنه وُلد لكل مسلم كلما أصبح غلام، فأصبح له مثل ما له!! قالوا: يا أبا العنبر لِمَ؟ قال: لو لم يكتب عثمان المصحف لَطَفِقَ الناس يقرؤون الشعر)!!.

حزم عثمان وسياسته:

أما سياسة أمير المؤمنين عثمان في الحكم، وإدارة الدولة، والحفاظ على سلطانها، وإقامة الشرع على الوجه الأكمل، وتوطيد الفتوحات، ومواقفه من

---

(١) تسمّى (المصاحف الأئمة)، ويقال لها: (المصاحف العثمانية)، ولم يكتبها عثمان بيده، بل نُسبت إلى أمره وزمانه رضي الله عنه، وإنما هي بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه.

الولاة والقواد، وانتشار المال والرعية؛ فليس كما قد استقرّ في أذهان الكثيرين ـ حتى الكتّاب ـ من أنه يميل إلى اللين والهوادة، بل الضعف! .

صحيح أن عثمان كان حيياً شديد الحياء، ورحيماً ودوداً واسع الرأفة والشفقة.

وصحيح ـ أيضاً ـ أنه ولي الخلافة وهو ابن سبعين سنة، وجاء بعد عهد النبوة، وطراز فذٍّ من خلافة أبي بكر وعمر، وبعد عشر سنوات (عُمَرِيَّةٍ) كان الفاروق فيها يمسك بزمام الأمور. وبعد أن أخذت رياح السَّموم تضرب أطراف الدولة الإسلامية، مبتدئة باغتيال رجل العدل الكبير عمر!

لكن هذا كله لا يعني أن عثمان لم يكن بمقدوره أن يأخذ بناصية الموقف، ويقبض على زمام الأمور على أكمل وجه، إذ لم يكن الصحابة ليبايعوا إلا مَن يكون كفُؤاً للخلافة بعد عمر، فبايعوا خير مَن بقي، وخيرهم ليس فقط بالحياء والرأفة والرحمة والبذل، بل على جميع المستويات.

ونحن نقرر هنا ابتداءً أن سياسة عثمان في خلافته لم تكن كنهج عمر، فلكلّ إنسان طبيعته وطريقته في التفكير، والحكم، وقيادة الناس، وتسيير الأمور.

كما أن لكل حقبة تاريخية الأسلوب المناسب لها في إدارة الحياة والقيام على شؤونها المختلفة؛ فالفتوحات قد تراحبت، والدولة ترامت أطرافها، والأصحاب انتشروا في أصقاع الأرض، ودخلت أجيال جديدة في الإسلام لم تكن حياتها على النسق نفسه الذي عاشه الصِّحاب الكرام، وبخاصة في مركز الدولة، والأموال أُغدقت على الناس، حتى لكأن أبواب السماء قد فُتحت بماء منهمر.

زد على ذلك المؤامرات التي شرعت بنسجها قوى الحقد والتآمر، وابتدأت أولى ضرباتها بطعن الخليفة الفاروق رضي الله عنه.

كل هذا كان واضحاً ناصعاً بارزاً أمام الخليفة عثمان، فاتخذ منهجه الفذّ

الذي يساير ويوائم تلك التطورات والمستجدّات، ويستوعبها، فلا هو يقضي عليها ويميتها، ولا هو يترك لها العنان فتشذّ، بل بَوْتَقَ كل هاتيك الأمور في منهج راشد، وسياسة حكيمة، فجعل في طريقته شيئاً من (اللامركزية). فبعد أن تخيَّر الولاة، أعطاهم قسطاً من حرية العمل، فوكل إليهم اختيار قادة المعارك، وإدارة الجهاد على ساحات الحرب، فكانوا يبذلون أقصى الطاقة للوصول إلى غاياتهم النبيلة بأقلّ الخسائر في صفوف المسلمين.

ولا يعني هذا غياب (المركزية) عند عثمان، فقد ألزم الولاةَ بالرجوع إليه فيما لا مجال للاجتهاد فيه، وما يمكن أن يكون له دور في مصائر الأمة، وكثيراً ما كان يوجه أوامره بالتوجّه إلى جبهة معينة، أو فتح بلد قبل آخر، وقد يعيّن القواد، أو يأمر ولاته بتعيين قائدٍ ما، وقد مرّ من ذلك الشيء الكثير.

وقد أثبتت السنوات الطويلة في حكمه رضي الله عنه تفوّقَ هذه السياسة الرشيدة ونجاحَها، ولولا قيام البغاة في آخر عهده بالخروج عن الحق ونزع يد الطاعة؛ لاستمرّت الفتوحات إلى ما شاء الله، ولكن قَدَرَ الله سابق، ومن بغى فإنما يبغي على نفسه.

وقد تجلّى حزم عثمان وصرامته في كل موقف يتطلّب ذلك، ولا يحتمل اللّين والتسامح[1]:

● وقد ابتدأ ذلك بالولاة وأمراء الجند، فأمرهم أن يكونوا رعاة لا جباة، وقال لهم: (وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملأ منّا، ولا يبلغنّي

---

(١) وضمن هذه المفاهيم، وما سأذكره في الصفحتين التاليتين من مواقف الحزم لأمير المؤمنين عثمان؛ يجب أن نفهم سياسته ومواقفه والأحداث التي جرت في آخر عهده، فاغتالت روحه الشهيدة الطاهرة، حتى لا نسقط ونهوي كغيرنا ممن ادّعى أن عثمان كان لا يتابع ولاته، وكان يجب أن يأخذهم بالشظف، ولولا لينه مع الولاة، ثم مع البغاة القتلة المجرمين لما حدث ما حدث!!.
انظر مثلاً: خلفاء الرسول، ص٣٩٦ ـ ٣٩٧، ٤٠٠، ٤٠٢ ـ ٤٠٣؛ المذاهب الإسلامية لمحمد أبي زهرة، ص٤٦.

عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغيّر الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون).

وأمرهم بموافاته في الموسم، وسلّط الرعية على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن له شكاة على أي والٍ فليوافِ الموسم كذلك.

● ولم يتوانَ في إقامة حدود الله متى قامت البيّنة، حتى في الأصقاع البعيدة، فعندما قام شباب من أهل الكوفة، فدخلوا بيت ابن الحيسُمان الخزاعي ليلاً، وقتلوه، وشهد على ذلك الصحابي أبو شُريح الخزاعي وابنه؛ كتب عثمان إلى عامله الوليد بن عقبة بقتلهم، فقتلهم على باب القصر في الرَّحبة.

وقال في ذلك عمرو بن عاصم التميمي:

لاتأكلوا أبداً جيرانكم سَرَفاً	أهل الزعارة في ملكِ ابن عفانِ
إن ابنَ عفانَ الذي جرَّبْتُمُ	فَطَمَ اللصوصَ بمُحْكَمِ الفرقانِ
مازالَ يعمل بالكتابِ مُهَيْمناً	في كلّ عنقٍ منهمُ وبَنانِ

بل إن عثمان قد أقام الحد على الوالي الكبير (الوليد بن عقبة)، وهو يعلم أن الحاقدين الموتورين قد زوّروا شهادتهم، لكنه أقام الحد لتوافر الشهود، ولم يتوانَ في ذلك، وقال: (نقيم الحدود، ويبوء شاهد الزور في النار، فاصبِر يا أخي).

وكان يقول لولاته: (كفكفوا الناس، وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وإذا تُعوطيتْ حقوق الله فلا تُدْهِنوا فيها).

●ولما تمت الفتوحات لابن عامر، وأحرم بعمرة من (نيسابور)، فلما قدم على عثمان، لامَهُ عثمان وقال: (ليتك تضبط ذلك من الوقت الذي يحرم منه الناس)! بل إن رواية تقول إنه قال له: (تعرَّضتَ للبلاء)!!.

إن تلك الفتوحات الواسعة التي قام بها عبد الله بن عامر لم تقف بعثمان أن يجهر بحزمه وعزمه وتأنيبه للقائد المظفر، وطلب منه أن يُحْرِم من حيث يحرم الناس.

● وعلى مستوى الفتوحات وتوجيه المعارك والقواد: أمر عثمان معاوية أن يُغزي حبيب بن مسلمة في أهل الشام، فتجمع لهم الروم، فاستمد معاويةُ عثمانَ، فكتب الخليفة إلى الوليد أن يمدّهم بثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف؛ فاستجاب الوليد وجيَّشَ جيشاً بقيادة سلمان بن ربيعة.

وكان معاوية يرغب في خوض غمار المعارك البحرية، وقد تردد عمر طيلة خلافته، ورفض ذلك، فتصدى لتلك المخاطرة حزمُ عثمان، وأمر بإنشاء أسطولين بحريين، يحميان شواطئ الدولة المسلمة، فأنشأ معاوية أسطولاً، وابن أبي سَرْح آخر.

وأمر ابنَ أبي سرح أن يغزو إفريقية، ووجّه عبد الله بن نافع بن الحُصين إلى الأندلس. واستأذنه ابنُ عامر بغزو خراسان فأذِن له... وغير ذلك كثير مما يطول ذكره في إدارة عثمان للمعارك، وتوجيه الجيوش والقادة والإمدادات، حسبما تقتضيه الظروف، وقد يترك للولاة التصرف أحياناً كثيرة.

● وكان من كمال حزمه وصواب رأيه أن يعزل الولاة وأداً للفتنة: كما فعل مع سعد بن أبي وقاص، لما تشاور مع ابن مسعود، ومع الوليد بن عقبة لما لُفِّقت عليه تهمة شرب الخمر، ومع عَمْرو بن العاص عندما اختلف مع ابن أبي سرح، ومع ابن أبي سَرْح حين طلب أهل إفريقية من عثمان أن يعزله عنهم، ويردّ خمس الخمس، فأمر عثمان عامله، فأجاب وأطاع.

● ولن ينسى المسلمون، ولا التاريخ عزمته الرشيدة، وحزمه الباهر، عندما بلغه اختلاف الناس في قراءة القرآن، فجمع الناس على (المصحف الإمام)، وأحرق ما سواه، وله في ذلك الفضل في أعناق المسلمين إلى يوم الدين.

● ولقد تجلّى حزمه في أبهى صورة وأشمخ موقف؛ عندما حاصره البغاة الخارجون، وأرادوا منه أن يخلع نفسه من الخلافة، فتأبّى وقال: (لم أكن لأخلع سربالاً سَرْبَلَنيه الله، ولكن أنزِعُ عما تكرهون)!!.

هكذا في ثبات مذهل يقف كالطود الأشمّ، فيرفض أن يعتزل الخلافة، لا حباً بها، بل لأن رسول الله ﷺ قال له: «يا عثمان، إنه لعل الله يُقَمِّصُكَ قميصاً، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم».

ألا فلنسأل الذين اتهموا عثمان باللين وعدم الحزم: هل رأوا منذ آدم ـ عليه السلام ـ إلى يوم الناس هذا ـ عدا النبيين والمرسلين ـ في طبائع البشر مثل هذا الموقف لرجل في مثل هذا السنّ؟!.

رجل يتكئ على شيخوخته الوهنانة، وقد نيّف على الثمانين، وودّع رحلة العمر، وأتعب الحياة وأتعبته، وهو يرى أن دمه سيُسفح ظلماً، بعد أن يقول كلمة (لا)؛ فيجيب وكأن حزم السنوات الثمانين قد تجمع في قلبه تلك اللحظة المزلزلة، ويقول: (لا)!!.

إنه رجل الخلافة الباهر، ورجل المسؤوليات، ورجل التضحيات، وصاحب الرسالة وحامل العقيدة....

إنه عثمان الذي آمن راغباً، وهاجر طائعاً، وجاهد في سبيل الله مقبلاً غير مدبر، وقد عَمَرَ الإيمان قلبه، وعقد مع الله ورسوله مَوْثقاً أنه لن يعصيهما ما دام فيه عين تطرف، وعرق ينبض، ونَفَس يخرج!! وما دام رسول الله ﷺ قال: «فلا تخلَعْه»؛ فليقف عثمان عند قول الحبيب المصطفى، ولو كان ثمن ذلك دمه الزكي الطاهر.

لقد كان هذا الحزم الفريد مخبوءاً في سربال الحياء، الذي تلفّع به عثمان، وما كنا لنراه إلا في تلك المواقف الباهرة، كهذا الموقف الزاخر العظيم المرهوب!.

ألا فليبوء بالخزي والبهتان كل من يتهم عثمان بما لا يليق به، وليمضِ أمير المؤمنين شهيد إيمانه وعقيدته، وفضائله ومكارمه، وحزمه وعزمه وتصميمه، رضي الله عنه وأرضاه.

● ● ●

الفصل الخامس

من الافتراءات والمؤامرات
إلى الحصار والاستشهاد

ما نُقم عليه:

ولنتابع مع عثمان ـ رضي الله عنه ـ بعض المواقف التي جرت في خلافته، ونستعرض الأمور التي نُقمت عليه؛ لنرى وجه الحق والكلمة الفصل فيها. ولسنا فيما نقوله هنا ندفع التهم عن أمير المؤمنين، فهو ـ رضي الله عنه ـ أعلى وأعزّ عند ربه، وأسمى وأطهر عند أصحابه، وأرفع وأجلّ في نفوسنا من أن نضعه موضع المتّهم!! وإنما نناقش أهل الزور في ذلك، ونجلّي ما علق بسيرته المشرقة من أدران التاريخ، وسخافات الروايات التاريخية، ونهتك القناع الأسود عن وجوه المتآمرين، ونكشف عن اليد الخبيثة التي اختلقت الأراجيف والأباطيل، ثم روّجت لها، وأخذت ترددها على قلوب الناس حتى صدقوها، وأصبحت عندهم من المسلّمات!! نبيّن ذلك ليهلِك من هَلَكَ عن بيّنة، ويحيى من حَيّ عن بينة.

ونسطّر في صدر هذا الفصل الحديثَ الصحيح الذي يرويه سفينة ـ مولى رسول الله ﷺ ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً». فخلافة الصدّيق كانت سنتين وثلاثة أشهر وأياماً، وكانت خلافة عمر عشر سنين وستة أشهر إلا أياماً، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، وكانت خلافة علي خمس سنين إلا شهرين، وتكميل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي نحو من ستة أشهر.

وهذا نصّ صريح واضح في أن عهد أمير المؤمنين عثمان كان على منهاج

النبوة، وما ظهر فيه إنما هو من أهل الظلم والتعدي، خططتْ له الأيدي الخبيثة الماكرة الحاقدة، ونفّذه الأغرار والرعاع تحت لواء أصحاب المطامع والشهوات الدنيوية من شهرة وحب للرئاسة والمال وغير ذلك.

ولقد صدّقت أيامُ الخلافة على مدى اثنتي عشرة سنة ما نطق به الحديث، وشهد بذلك الصدّيقون من أصحاب رسول الله ﷺ، بأنَّ عثمان سار على هَدْي النبي ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر: ما خالف عهداً، ولا نكث عقداً، ولا اقتحم مكروهاً، ولا خالف سنة، ولا قصّر في حق دعوة الله، وواجبات الخلافة، وإبلاغ الرسالة، والقيام على شؤون الرعية.

وما عَتَبه عليه الشانئون، وما نقمه عليه الخارجون، كله زور وبهتان، ولقد أوضح ذلك الصحابي الجليل عبد الله بن عمر عندما قال: (لقد عتبوا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ماعتبوا عليه)!.

وابن عمر كان شاهد عيان لخلافة عثمان من أولها إلى آخرها، وكان أشد الناس التزاماً بسنة رسول الله ﷺ، ومع ذلك ما رأى في خلافة عثمان ـ على طولها ـ شيئاً يريبه، ويشهد لعثمان بأن كل ما عتبوا عليه كان يحتمل أن يكون من عمر ـ وهو أبوه ـ ولو كان ذلك من عمر لما عَتَب أحد عليه.

وحتى تكون الحقيقة واضحة، والحُكْم عدلاً، فإننا نتناول تلك الأحداث بالتحليل والردّ ضمن المبادئ والمفاهيم والمقاييس التي كانت تسود ذلك العصر الراشد الذي حدثت فيه، ولا نعمد لتلك الظواهر والادعاءات فندرسها بمنظورنا الحالي، ونزنها بموازيننا، ونناقشها بالمنطق الذي يسود مجتمعاتنا وتصرفات الناس فيه!.

قولهم: إنه ضرب عمار بن ياسر حتى فتق أمعاءه!

فأول افتراء على عثمان ـ رضي الله عنه ـ أنه ضرب عمار بن ياسر حتى فتق أمعاءه! وهو إفك مُفترى، ولو ضربه حتى فتق أمعاءه لما عاش أبداً!! وجملة

ما في الأمر أنه كان بين عمار وعباس بن عتبة بن أبي لهب خلاف، حمل الخليفة على أن يؤدبهما بالضرب، وهذا ما يفعله ولي الأمر في مثل هذه الأحوال، قبل عثمان وبعده، وكم فعل أمير المؤمنين عمر ذلك بأمثال عمار، ومَن هو خير من عمار؛ بما لَهُ من حق الولاية على المسلمين، فقد ضرب عمرُ أبيّ بن كعب بالدّرّة لمّا رأى الناس يمشون خلفه، وقال: (هذا ذلة للتابع وفتنة للمتبوع)! أفإن قام عثمان بتأديب اثنين من رعيته أُخذ ذلك عليه، حتى قيل: إنه فتق أمعاء عمار؟! وأي شيء يبقى للخليفة إن لم يكن له حق التعزير؟! ومن ذا الذي يقوم بهذا الواجب إن تركه الخليفة؟.

على أن الذين روّجوا مثل هذا الإفك ليسوا محبين لعمار، ولا حريصين عليه، بل يريدون تأجيج نار الفتنة ضد الخليفة، الذي عاشوا في خلافته في سعة من الأرزاق والأُعطيات، والسماحة والعدالة، والرحمة والاطمئنان.

وإن عمار نفسه قد نسي الذي حدث، وما ألقى له بالاً، ولمّا شدّد القتلة الحصار على عثمان ومنعوه الماء، صرخ عمار بهم وقال: (يا سبحان الله! أتمنعون الماء عمّن اشترى بئر رومة ووهبها للمسلمين)؟! وأسرع إلى علي رضي الله عنه، وأخبره بما رأى، وطلب إليه أن يحمل الماء إلى عثمان!!.

إن ما جرى من خلافات بين الصحابة لم يكن مصدره الأهواء أو النزعات الشخصية، إنما هو للحق وحده، إذا استبان لهم لزموه طائعين راغبين، ولم يؤثر على جلال الصحبة التي جمعتهم في دين الله إخواناً.

قولهم: إنه ضرب ابن مسعود حتى كسر أضلاعه ومنعه عطاءه!

أما عن العلاقة الحميمة بين الخليفة والصحابي الكبير عبدالله بن مسعود، فقالوا: (إن عثمان قد ضرب ابنَ مسعود حتى كسر أضلاعه، ومنعه عطاءه).

وهذا زور وإفك كذلك، فقد كان ابن مسعود وزير بيت مال الكوفة في عهد عمر، ثم كان في عهد عثمان، رضي الله عنهم أجمعين. وعندما جمع عثمان

المصحف، وأمر بإحراق ما سواه؛ امتنع ابن مسعود بادئ الأمر من حرق مصحفه، ثم رجع إلى الوفاق مع باقي الصحابة، وتابع عثمانَ، وبقي على عمله في الكوفة.

لكن الرواية المتهاوية تقول: إن عثمان أمر بإشخاص ابن مسعود، وعندما دخل المسجد وعثمان يخطب، قال عثمان: (إنه قدمت عليكم دابة سوء، فكلّم ابن مسعود بكلام غليظ، فأمر به عثمان، فَجُرّ برجله حتى كُسر له ضلعان)! ثم اعتلّ ابن مسعود، وعاد عثمان وترضاه، فأبى وقال: (إنك أمرت بي فوطئت جوفي، فلم أعقل صلاة الظهر ولا العصر، ومنعتني عطائي)، ولما قال له عثمان: هذا عطاؤ ك فَخُذْهُ، قال: (منعتنيه وأنا محتاج إليه، وتعطينيه وأنا غني عنه، لا حاجة لي به)! بل تذهب الرواية إلى ما هو أسخف من هذا، فتزعم أن ابن مسعود قال: (اللهم إنك عظيم العفو، كثير التجاوز، فلا تتجاوز عن عثمان)!! وأن عثمان جاءه ثانية فترضاه، فأبى عليه، فاستعان عثمان بأم المؤمنين أم حبيبة، فأبى كذلك، ومات ابن مسعود ودفن، ولم يعلم به عثمان.

ولله الحمد فإن الروايات الباطلة تحمل بين طيّاتها ما يكذّبها، فلو أن ابن مسعود تمادى في عدم حرق مصحفه، لأحدث مع أتباعه الكثيرين جداً بلبلةً في الكوفة، ولعزله عثمان، ولكن هذا لم يحدث، لأن ابن مسعود استمر على عمله حتى سنة اثنتين وثلاثين السنة التي توفي فيها.

ثم إن ما تزعمه الرواية من أن عثمان قال في ابن مسعود: (تقدم عليكم دابة سوء)، محال أن يصدر من عثمان مثل هذا الكلام بحقّ هذا الصحابي الجليل! وعثمان لم يعهد التاريخ منه مثل هذا الفحش في القول، حتى بحقّ الثوار الذين أرادوا هدر دمه، فهل من المعقول أن يقول هذا في رجل قال فيه رسول الله ﷺ: «وما حدثكم ابن مسعود فصدّقوه»؟!.

ثم ما هو الذنب الذي اقترفه عبد الله حتى يُجَرّ من رجله ويكسر ضلعاه؟ وهب أنه استحق التعزير، أفيحقّ لمن يعزّر أن يكسر ضلعَي المعزّر!.

وما ادّعته الرواية من أن عثمان قد منعه عطاءه وهو محتاج إليه؛ ليس صحيحاً أيضاً، فقد ترك ابن مسعود عندما توفي تسعين ألف درهم، سوى رقيق وعروض وماشية، بل ثمة رواية تقول: إنه ترك عطاءه حين مات عمر.

والأعجب من ذلك أن الرواية تقول إنه قدم بشأن (قضية المصحف) وضُرب فمرض، فمات بعدها! وهذا كذب صارخ، فَجَمْع المصحف كان سنة خمس وعشرين، ووفاة ابن مسعود كانت سنة اثنتين وثلاثين، ولو أن عثمان استقدمه بشأن موقفه من حرق مصحفه سنة خمس وعشرين، فإن ابن مسعود قد عاد إلى عمله بعدها، ثم قدم المدينة سنة اثنتين وثلاثين، فتوفي فيها وفاة طبيعية لا إثر الضرب، ولا عقب الجمع[1].

قصة ذهاب أبي ذر إلى الربذة:

والآن ننتقل من واقعة الخلاف مع ابن مسعود، إلى ما افتروه على عثمان بشأن صحابي جليل آخر، فقالوا: (وأجلى أبا ذر إلى الرّبَذَة[2]).

وأبو ذر ـ رضي الله عنه ـ من السابقين إلى الإسلام، ومن نجباء أصحاب رسول الله ﷺ، وكان رأساً في الزهد والصدق، والعلم والعمل، قوّالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وفيه حِدّة.

وبلغ من زهد أبي ذر أنه أتاه رجل يعرض عليه نفقة، فقال أبو ذر: (عندنا أعنُزٌ نحلبها، وحُمُرٌ تنقلنا، ومحرّرَةٌ[3] تخدمنا، وفَضْل عباءة عن كسوتنا، إني أخاف أن أحاسب على الفضل)!!

ومّر على أبي الدرداء وقد بنى مسكناً، فقال له أبو ذر: (ما هذا؟! تعمر داراً

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا (ابن مسعود)، ص٣٢٢ ـ ٣٣٨. وقد استسلم لتلك الروايات صاحب (خلفاء الرسول)، ص٤١٠ ـ ٤١١.

(٢) من قرى المدينة على ثلاثة أميال منها.

(٣) هي أَمَةٌ نالت حريتها.

أذن الله بخرابها، لأنْ تكون رأيتُك تَتَمَرّغُ في عَذِرة أحبّ إليّ من أن أكون رأيتُك فيما رأيتُك فيه)!.

وكان ينفق ماله حتى لا يبقى منه شيء، ويحمل الناس على هذا، ويوبّخهم إذا رأى بين أيديهم الأموال، فقد قدم ذات مرة على حلقة بالمدينة فيها ملأ من قريش فقال: (بشّر الكانِزين بِرَضْفٍ يُحمى عليه في نار جهنم، ثم يوضع على حَلْمة ثَدْيِ أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ[1] كتفه، ويوضع على نُغْض كتفه حتى يخرج من حَلْمة ثدْيه، يتزلزل).

ثم ولّى فجلس إلى سارية، ولم يردّ أحد عليه بشيء، فجاءه الأحنف بن قيس فقال له: (لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذي قلتَ! فقال أبو ذر: إنهم لا يعقلون شيئاً، قال النبي ﷺ: «يا أبا ذر، أتبصِرُ أُحُداً»؟ قلت: نعم، قال: «ما أُحبّ أن لي مثلَ أُحُدٍ ذهباً، أُنفِقه كله، إلا ثلاثة دنانير»! وإن هؤلاء لا يعقلون، إنما يجمعون الدنيا).

وكان هذا مذهباً لأبي ذر طوال حياته، وفي عهد عثمان كان يقرّع عماله، وذهب إلى معاوية بالشام، فكان يتلو على الناس قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ . . .﴾ [التوبة: ٣٤]، ويريد منهم إنفاق كل ما بين أيديهم، وإلا نالهم الوعيد الذي في الآية الكريمة!! وقد خالف أبا ذر في هذا جمهور الصحابة، وقالوا: إن ما أُدّيتْ زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين. وكل ما لا تؤدى زكاته فهو كنز، ولو كان على وجه الأرض. وهذا هو الحق.

ورأي أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ لا يقدر عليه إلا آحاد الناس، ثم هو لا يصلح أن يكون قاعدة للأمة والدولة كلها. وللمسلم أن يكون غنياً بلا تحديد، بشرط أن يكون مصدر ماله حلالاً، وأن يحرّر نفسه من أن يكون عبداً للمال، وأن يؤدي

---

(١) هو العظم الرقيق على طرف الكتف، ويسمى الغضروف.

زكاته، ويتصرف فيه بالوجوه المشروعة الكثيرة من نفقة على الأهل، وصلة للرحم، وإنفاقه في وجوه الخير الكثيرة وسبل الجهاد، ومصالح المسلمين، فيما يزيدهم قوة وسعادة وعزاً وسؤدداً.

وطريقة أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ ليست من مصلحة المسلمين، كما أن طريقة أغنياء المسلمين الذين تعبّدوا للمال، وعاشوا لأنفسهم، ونسوا واجباتهم الكبيرة أمام أمتهم ودينهم، ليست من الإسلام، والإسلام لا يعرف الذين لا يعرفونه!!.

وهذا المنهج لأبي ذر لم يوافقه عليه الصحابة، فهو إما أن يخالطهم، ويسلّم لكل أحد حاله، مما ليس بحرام في الشريعة، أو يعتزلهم.

وتذكَّر أبو ذر قول النبي ﷺ له: «إذا بلغ البناء سَلْعاً فاخرج منها»[1]؛ فاختار بنفسه أن يخرج من المدينة، وذلك فيما تحدِّث أم ذر فتقول: (والله ما سيّر عثمان أبا ذر ـ تعني إلى الرَّبَذَة ـ ولكن رسول الله ﷺ قال: «إذا بلغ البناء سَلْعاً فاخرج منها»).

وذهب أبو ذر ليستأذن أمير المؤمنين في الخروج، فقال له: (ائذنْ لي إلى الربذة. قال، نعم، ونأمر لك بِنَعَمٍ من نَعَم الصدقة، تغدو عليك وتروح. قال: لا حاجة لي في ذلك، يكفي أبا ذر صُرَيمتُه[2]!

فلما خرج قال: دونكم معاشرَ قريش دُنياكم فاغْذِمُوها[3] ودَعونا وربّنا)!!.

وخرج أبو ذر إلى الربذة، وطلب إليه عثمان أن يتعاهد المدينة، حتى لا يرتد أعرابياً، ففعل. وأقطعه عثمان قطيعاً من الإبل، وأعطاه مملوكين، وأجرى

---

(١) أي من المدينة.
(٢) تصغير صِرْمة، وهي القطعة من الإبل.
(٣) أي خذوها، والعذم: العضّ والأكل.

عليه رزقاً. ولما مات قال عثمان: (يرحم الله أبا ذر، ويغفر له نزوله الربذة، ثم ضم عياله إلى عياله).

وهكذا فلم يكن بين أمير المؤمنين وأبي ذر إلا الصفو والمحبة والإكبار، والمحافظة على جلال الصحبة، والأخوّة التي جمعتهما في الله تعالى. وما كان الخلاف يحدث بين أولئك العظماء إلا للحق، والحفاظ على المسيرة المباركة التي خطّها رسول الله ﷺ، لا دخل فيه لهوىً أو شيطان. وإن استبعاد وقوع الخلاف بين هؤلاء هو ضد طباع البشر، وهذا الخلاف الذي قد يحدث بين الصحابة لم يؤثّر في بنيان الأمة المسلمة، وما حمل صاحبه على أن ينزع يداً من طاعة الخليفة فقال: (والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة أو أطول جبل لسمعتُ وأطعت، وصبرتُ واحتسبت، ورُئيت أن ذاك خير لي. ولو سيّرني ما بين الأفق إلى الأفق، أو مابين المشرق والمغرب، لسمعتُ وأطعت، وصبرتُ واحتسبت، ورُئيت أن ذاك خير لي. ولو ردّني إلى منزلي لسمعت وأطعت، وصبرتُ واحتسبت، ورُئيت أن ذاك خير لي)!.

ولنتأمل هذا الموقف الباهر من الخليفة وأبي ذر ـ وقد استدعى عثمان أبا ذر ـ يرويه زيد بن خالد الجهني، فيقول: (كنت عند عثمان، إذ جاء أبو ذر، فلما رآه عثمان قال: مرحباً وأهلاً بأخي! فقال أبو ذر: مرحباً وأهلاً بأخي، لقد أغلظتَ علينا في العزيمة، والله لو عزمتَ عليّ أن أحبوَ لحبوتُ ما استطعتُ؛ إني خرجت مع النبي ﷺ نحو حائط بني فلان، فقال لي: «ويحك بعدي»! فبكيتُ فقلتُ: يا رسول الله، وإني لباقٍ بعدك؟ قال: «نعم، فإذا رأيتَ البناءَ على سَلْعٍ فالْحَقْ بالمغرب، أرضِ قضاعة». قال عثمان: أحببتُ أن أجعلكَ مع أصحابك، وخفتُ عليك جهّال الناس)!!.

رده الحكم بعد أن نفاه الرسول ﷺ:

ثم قال المفترون: (وردّ الحَكَم بعد أن نفاه رسول الله ﷺ). والحكم بن أبي العاص هو عم عثمان بن عفان، ووالد مروان، روي أنه كان يفشي سرّ

النبي ﷺ، فنفاه إلى الطائف. وطلب عثمان من النبي ﷺ أن يردّه، فوعده بذلك.

وقصة نفي الحكم لم يرد بها حديث صحيح، وليس لها إسناد يعرف بها أمرها، وقد طعن كثير من أهل العلم في نفيه، وقالوا: هو ذهب باختياره.

وحتى لو أن النبي ﷺ قد عزّره بالنفي، لم يلزم أن يبقى منفياً طول الزمان، فإن هذا لا يُعرف في شيء من الذنوب، وإذا تاب العبد سقطت عنه تلك العقوبة، وصارت الأرض كلها مباحة.

وقد كان عثمان شفع لابن أبي سَرْح، فَقَبِل النبي ﷺ شفاعته فيه، وبايعه؛ فكيف لا يقبل شفاعة عثمان في الحكم، وذنبه دون ذنب ابن أبي سرح بكثير؟! والمعلوم من فضائل عثمان، ومحبته للنبي ﷺ، وطاعته المطلقة له، حتى آخر لحظة في حياته، ثم ثناء النبي ﷺ على عثمان وشهادته له بالجنة، وتزويجه بابنتيه، ومبايعته عنه في بيعة الرضوان، وتقديم الصحابة له في الخلافة، وشهادة عمر له بأنه ممن توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ ـ كل ذلك مما يوجب العلم القطعي بأن عثمان من كبار أولياء الله تعالى، وما كان ليصلَ مهجورَ رسول الله ﷺ ولو كان أباه، ولا لينقض حكمه، لو لم يكن رسول الله ﷺ أَذِنَ له بذلك.

بل إنّ عثمان قال على ملأ من الصحابة وهو محصور: (وقالوا: إني رددت الحَكَم، وقد سيّره رسول الله ﷺ، والحَكَم مَكّي، سيَّره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف، ثم ردّه رسول الله ﷺ، فرسول الله ﷺ سيّره، ورسول الله ﷺ ردّه؛ أكذلك؟! قالوا: اللهم نعم)!!.

إرجافهم بأنه ابتدع في (جمع القرآن):

ثم تمادوا في شغبهم، فراحوا يُرْجِفون بأن الخليفة يبتدع في الدين ما لم يكن في عهد النبي ﷺ وصاحبيه، فقالوا: (وابتدع في جمع القرآن وتأليفه، وفي حرق المصاحف).

وتلك لَعَمْرُ الحق حسنته العظمى، وخصلته الكبرى، جمع الناس على

مصحف واحد، بمشورة الصحابة رضوان الله عليهم، وفي ذلك يقول علي بن أبي طالب: (لا تقولوا في عثمان إلا خيراً، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا).

وبعد أن وزع نسخاً من (المصحف الإمام) أمر بإحراق ما سواه، وأصحاب النبي ﷺ متوافرون، رضوا بذلك ولم ينكروه، بل قال علي رضي الله عنه: (لو لم يصنعه هو لصنعتُه). فأراح الأمة من الخلاف، وجمع كلمتها، وأحسن للمسلمين؛ فله المنة في أعناقهم إلى يوم الدين. وبفعله هذا، وبصنيع الشيخين من قبله تحقق موعود الله سبحانه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. فجزى الله عثمان خير الجزاء، وألزم شانئيه الحسرة إلى يوم الدين.

وأنه حمى الحِمى:

ولم يكتفوا بذلك، بل ولغوا في جهلهم فقالوا: (إن عثمان قد حمى الحمى[1]).

وأي حرج من ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا حِمَى إلا لله ورسوله»؟! وقد حمى رسول الله ﷺ (النّقيع) وهو موقع على عشرين فرسخاً[2] من المدينة، ومساحته ميل في ثمانية أميال، واستمر الأمر على ما هو عليه في خلافة أبي بكر، لأنه لم يخرج عن شيء كان عليه في زمن رسول الله ﷺ، وفي عهد عمر اتسع الحمى فشمل (الشّرَف)[3] و(الربذة). وكما اتسع عمر في الحمى لزيادة خيل الجهاد وسوائم بيت المال؛ فكذلك اتسع عثمان فيه، لاتساع الفتوحات، وازدياد خيل الجهاد وإبل الصدقة.

---

(١) الحِمَى: هو موضع الكلأ والعشب، يحميه الحاكم من الناس فيمنعهم من الرعي فيه، ويجعله مخصوصاً لرعي خيل الجهاد، والإبل التي يُحمل عليها في سبيل الله، وإبل الصدقة.

(٢) الفَرْسَخ يقدَّر بثلاثة أميال.

(٣) ومن قال (سَرِف) فهو خطأ، وسرِف موضع بقرب مكة، ولا تدخله الألف واللام.

وعلى هذا فالاعتراض على عثمان هو اعتراض على رسول الله ﷺ، لأنه أول من حمى، فماذا يقول هؤلاء؟!.

ولما أجاب عثمان عن مسألة الحِمَى على ملأ من الصحابة، أعلن أن الذين يلون له الحمى اقتصروا منه على صدقات المسلمين؛ لئلا يكون بين من يليها وبين أحد من المسلمين تنازع، وأنهم ما منعوا ولا نَحَوْا أحداً، وأنه ـ رضي الله عنه ـ كان قبل أن يلي أكثرَ العرب بعيراً وشاءً، وهو اليوم مالَهُ شاة ولا بعير غير بعيرين لحجّه، وقال لمن يعرف ذلك من الصحابة: أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم!!.

توليتـه أقـاربه:

ثم اتهموا عثمان بأنه ولّى أقاربه وليسوا أهلاً للولاية؛ فقالوا: (وولى معاوية، وعبدالله بن عامر بن كُرَيز، ومروان، وولى الوليد بن عقبة وهو فاسق ليس من أهل الولاية).

أمّا أنه ولّى أقاربه، فليس في تولية الأقارب إثم ولا لوم، ما داموا أكفاء مخلصين، فقد ولى رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب على الأخماس باليمن، والقضاء بها، وولى كثيراً من رجال بني أمية، وهم يمتون إليه بصلة القرابة. وعلي في خلافته، ولّى عبد الله بن عباس، وقُثَم بن العباس، وتمام بن العباس.

ولا تُعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله ﷺ أكثر من بني أمية؛ لأنهم كانوا كثيرين، وفيهم شرف وسؤدد، فقد استعمل النبي ﷺ على أشرف البقاع عَتّاب بن أَسِيد بن أبي العِيص بن أمية، وعلى نجران أبا سفيان بن حرب بن أمية، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص على صدقات بني مذحج وعلى صنعاء واليمن، حتى مات رسول الله ﷺ. واستعمل عثمان بن سعيد بن العاص على تيماء وخيبر، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على بعض السرايا، ثم استعمله على البحرين.

فلعثمان الحجة الثابتة في أن رسول الله ﷺ استعمل الكثيرين من بني أمية،

وكذلك فعل أبو بكر وعمر، ولقد أثبت أولئك الأبطال الميامين، والقادة الأمراء الشجعان، الذين ولاّهم عثمان أنهم في الذروة من الفضيلة والجهاد، وكانوا بناة الأساس القويم في مجد الإسلام الإداري والعسكري، ولهم ثواب نتائج الفتوحات، وانتشار الإسلام في الآفاق، مما يعد معجزة تاريخية خارقة للعادة.

وقد سبقت لنا وقفات مع أولئك الأماجد الأكارم العظماء، الذين كان يقاتل تحت رايتهم أعيان صحابة رسول الله ﷺ من أمثال حذيفة وابن العباس وابن عمر وابن عمرو وأبي هريرة وسلمان الفارسي، فما سمعنا من هؤلاء الأخيار شكوى، ولا صدر منهم طعن ولا مغمز، فما بال المفترين الشانئين يعيبونهم؟!.

ولسنا تعجزنا الحيلة أن نعرف طوية هؤلاء إذا أمعنا النظر في فتوحات أولئك الولاة، الذين نعوا إلى الدنيا إمبراطوريتي الظلم والطغيان: فارس والروم! وقضوا على أوكار المكر والخديعة والتآمر من اليهودية والنصرانية والمجوس؛ فكان للمشفقين على أمجاد هؤلاء اليد الخبيثةُ المدبرة الماكرة، التي نسجت تلك الأوهام، فقام المغفلون والمغرضون بتضخيمها، ورفع رايتها السوداء[1].

وعابوه بأنه يودّ أقاربه ويعطيهم:

والأعجب من ذلك أنهم عابوا على عثمان أنه يودّ أقاربه، حتى إنه أعطى أحدهم خمسَ خمسِ إفريقية!

ونحن نقّرر باديْ ذي بدءٍ أن عثمان كان في طهارة ذمته، ورفيع أخلاقه،

---

(١) وفي هذا المجال وقع تخليط كثير في كتاب (خلفاء الرسول) لخالد محمد خالد، فمما جاء فيه: كان من الخير للخليفة أن لا يولّي أقاربه، وأن الأمراء لم يكونوا في مستوى القدوة التي تفرضها وتتطلبها مناصبهم، وأن أمراءه كانوا من الطلقاء، وأن نشأتهم وطباعهم وتكوينهم النفسي والعائلي يجعلهم يتمادون في الأخطاء، ويستمرئونها، حتى تبلغ بهم المنزلق الوعر، وأن الأمراء كانوا يتصرفون تصرف من ليس وراءه معقّب ولا رقيب... إلى آخر هذا الكلام. انظر: ص٣٨٩ - ٣٩٠، ٣٩٢ - ٣٩٣، ٣٩٦ - ٣٩٧.

وعَظَمة نفسه، وتفَوق سجاياه؛ بحيث لا يتطرّق إليه الشك، ولا يقترب مغمز من سياسته المالية!! والأمر الذي تولى المرجِفون تضخيمه، زعمهم أن عثمان يودّ ذوي قرابته ويعطيهم! فذلك من فضائله حتى قال علي بن أبي طالب: (كان عثمان أوصلنا للرحم).

ولم تكن تلك العطايا من بيت المال، ولقد أجاب عثمان نفسه عن ذلك، فقال:

(وقالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيهم، فأما حبي، فلم يمِلْ معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم. وأما إعطاؤهم، فإني إنما أعطيهم من مالي، ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي، ولا لأحد من الناس. ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأنا يومئذٍ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي، وفَني عمري، وودَّعت الذي لي في أهلي، قال الملحدون ما قالوا)؟!.

وأما إعطاؤه خمس خمس إفريقية، فالذي كان منه ـ رضي الله عنه ـ أن قال لابن أبي سَرْح: (إن فتح الله عز وجل عليك غداً إفريقية فَلَكَ مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلاً). فلما افتتحها، وأخذ ابن أبي سرح ذلك؛ كره ذلك أهل إفريقية، فرده عثمان عليهم، وليس ذلك لهم، إنما فعله عثمان لإطفاء نار الفتنة، وبَتْرِ قالة السوء التي يروّج لها المغرضون.

ومما عابوه به أيضاً:

وماذا بقي لهؤلاء المنحرفين أن يقولوه؟! لقد قالوا وقالوا... ولم يشبعوا قولاً، ولم يعدموا كذباً وزوراً وبهتاناً، فيتصيّدون الأباطيل، وينسجون حولها خيوط المؤامرة، لتشكل فتنة جامحة ترسل فحيحها في كل صَوْب!!.

● قالوا: (إنه علا على درجة رسول الله ﷺ، وقد انحطّ عنها أبو بكر وعمر).

وخلاصة ما جرى أن أبا بكر عندما استُخلف كان إذا خطب الناس على

المنبر لم يقف حيث كان يقف رسول الله ﷺ، بل نزل درجة عن التي كان النبي ﷺ يقف عليها، ثم نزل عمر درجة أخرى عن درجة أبي بكر، ولما ولّي الأمرَ عثمانُ صعد إلى الدرجة التي كان يقف عليها رسول الله ﷺ. فالمسجد قد اتسع كثيراً في عهده، وكثرت غاشيته من المصلين، وبَعُدت أماكنهم، فارتفع عثمان ليراهم ويروه ويسمعوه.

بل إن هناك سبباً آخر أهم ذكره عثمان رضي الله عنه لما رأى أبا بكر وعمر قد نزل كل منهما، فقال: (إن هذا يطول)! فلو أن عثمان نزل هو الآخر درجة، فسيؤول الأمر بالخليفة بعده أن يقف على الأرض، فيخطب الناس، لأن منبر رسول الله ﷺ كان ثلاث درجات[1]. فماذا يفعل من يأتي بعد الخليفة الرابع؟!.

ثم إن الصحابة جميعاً شهدوا فعل عثمان، وما اعترض عليه أحد منهم، أفيظن هؤلاء المفترون الخاسرون أنهم أتقى لله، وأكثر حباً وتعظيماً واحتراماً وتوقيراً لرسول الله ﷺ من عثمان وصحبه؟! لقد خاب وخسر من ظن ذلك.

● وقالوا: (إن عثمان لم يحضر بدراً، وانهزم يوم أحد، وغاب عن بيعة الرضوان).

وهذا من تمام جهلهم، وأبيَن الأدلة على حقدهم وحنقهم، وافتئاتهم على عثمان، وأظهر دليل على اليد الخبيثة التي اختلقت الإفك، وروّجت له حول هذه الأمور، حتى اقتنع به الرعاع، ونقموا على عثمان لجهلهم. ولْنَستمع لهذا الموقف، الذي تولى الردّ فيه الصحابي التقي النقي، الورع النبيل، الشهم المتأسي برسول الله ﷺ، ابن عمر، فيما يروي البخاري:

(جاء رجل من أهل مِصْر وحجّ البيت فرأى قوماً جلوساً، فقال: من هؤلاء القوم؟ فقالوا: هؤلاء قريش. قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر. قال: يا ابن عمر، إني سائلك عن شيء فحدّثني: هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أُحُدٍ؟.

---

(١) وبقي على حاله، حتى زاده مروان بن الحكم في عهد معاوية ست درجات من أسفله.

قال: نعم!.

فقال: تَعْلَمُ أنه تغيّبَ عن بدر ولم يشهدها؟.

قال: نعم!.

قال: تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟.

قال: نعم!.

قال: الله أكبر!!.

قال ابن عمر: تعالَ أُبيّنْ لك:

أما فراره يوم أحد، فأشهدُ أن الله عفا عنه وغفر له[1].

وأما تغيّبه عن بدر؛ فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رَجُلٍ ممن شهد بدراً وسهمه».

وأما تغيّبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحدٌ أعزّ ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان، بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده، فقال: «هذه لعثمان».

فقال ابن عمر: اذهب بها الآن معك)!!.

فالعجب لهؤلاء الجهلة الذين يعيبون على عثمان هذه الأمور، ومنها غيابه عن بيعة الرضوان، ثم يحمل مثلَ هذا الجهل في دماغه رجلٌ جاء يعبد الله بأداء فريضة الحج، فيسأل سؤال المتعنّت، الذي يريد أن يقرّر تهماً على عثمان الخليفة العظيم! ثم تبقى هذه الافتراءات بحاجة إلى توضيح حتى عصرنا الحالي!!.

---

(١) أي في جملة من عفا عنه وغفر له من المسلمين بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

حقاً إننا أمة مسكينة لم تعرف دينها ولا تاريخها ولا رجالاتها، الذين فتحوا الدنيا، وأوصلوا النور إلى الشرق والغرب.

● وقالوا: (إن عثمان لم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان)!!.

وذلك أن عبد الرحمن بن أبي بكر حدّث غداة طُعن عمر بن الخطاب أنه مرّ بأبي لؤلؤة والهرمزان ـ الذي أظهر إسلامه ـ وجفينة النصراني، فلما اقترب منهم سقط منهم سيف له رأسان، نصابه في وسطه، وهو الخنجر الذي قُتل به أمير المؤمنين عمر، وسمع عبيد الله بن عمر ذلك، فأمسك حتى مات أبوه عمر، ثم اشتمل على السيف، وقتل الهرمزان وجفينة وابنة أبي لؤلؤة.

وعندما بويع عثمان شاور الصحابةَ في أمر عبيد الله، فأشار علي بقتله، وقال المهاجرون: قُتل عمر أمس، ويُقتل ابنه اليوم؟! وقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن الله أعفاك؛ فهذا الحدث كان ولا سلطان لك على المسلمين.

فقال عثمان: أنا وليهم، وقد جعلتها دية، واحتملتها من مالي!!.

وثمة رواية تقول بأنه مكّن ابنَ الهرمزان من قتل عبيد الله، فعفا عنه.

وإن الذي جرى من الصحابة شيء لا نظير له في تاريخ العدالة الإنسانية، فأمير المؤمنين عمر يُقتل بيد الغدر والنذالة والكيد والحقد، ثم يطالبون بقتل عبيد الله، الذي أطاح برأس المتآمرين، الذين قتلوا أباه ظلماً وعدواناً وحقداً!!.

فلماذا يشفق البغاة على قَتَلَة أمير المؤمنين عمر؟! إنها الطوية الخبيثة التي تكشفها المواقف والأيام.

* * *

ولنختم هذا الحديث بموقف فذّ للإمام علي رضي الله عنه من ذلك الرجل الأحمق المرذول الذي قال لعلي: إن عثمان في النار!

فقال له علي: (ومن أين علمتَ)؟.

قال: لأنه أحدث أحداثاً.

فقال علي: (أتراك لو كانت لك بنت أكنت تزوجها حتى تستشير)؟.

قال: لا.

قال علي: (أفرأي هو خير من رأي رسول الله ﷺ لابنتيه)؟!

(وأخبرني عن النبي ﷺ أكان إذا أراد أمراً يستخير الله أو لا يستخيره)؟.

قال الرجل: لا. بل كان يستخيره.

فقال علي: (أفكان الله يَخير[1] له أم لا)؟!

قال: بل يخير له.

فجابهه الإمام قائلاً: (فأخبرني عن رسول الله ﷺ، اختار الله له في تزويجه عثمان، أم لم يختر له)؟!.

ثم قال علي: (لقد تجردتُ لك لأضرب عنقك، فأبى الله ذلك، أما والله لو قلتَ غير ذلك لضربتُ عنقك)!!.

مقدمات مقتله:

إن الفتوحات العظيمة التي دكّت عروش الأكاسرة والقياصرة، ومزّقت شمل الروم والفرس، وحطمت خبث اليهود والنصارى وكيدهم؛ لم تكن لتمرّ دون أن تترك انعكاساتها على بنيان الأمة الإسلامية الشاهقة الظافرة. فلقد بقيت من تلك الممالك المنهارة بقايا وأوكار، طوت بين جوانحها ناراً تلظّى وتتأجج على الإسلام وخلفائه وقادته، تنتظر اللحظة المواتية لتضرم نارها. وساعدها على ذلك الخليطُ الهائل من الأجناس التي دخلت أبواب الإسلام الواسعة، وفيهم من أسلم راغباً، ومن دخل تقيّة يطوي على حقد دفين!!.

(١) أي يختار له الأصلح.

ولقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ، وكأنه ينظر ما وراء الحجب، بما علّمه ربه وأوحى إليه، فذات يوم أشرف على أُطُمٍ[1] من آطام المدينة، فقال: «هل ترون ما أرى»؟! قالوا: لا. قال: «فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كَوَقْعِ القَطْرِ».

ونبّه على بعض تلك الفتن، حتى لا يقع الناس فيها، فقال ﷺ: «ثلاث من نجا منهن فقد نجا: موتي، وخروج الدجال، وقتل خليفة مصطبر قوّام بالحق يعطيه».

فكان ذلك إشارة إلى ردود الفعل الطبيعية، التي ستواجه مدّ الإسلام الزاحف، وحَمَلَة راياته المظفّرة، ليأخذ المسلمون حِذْرهم، ويتعاملوا مع تلك الفتن بالوجه المناسب، تعامل الخبير بما سيحدث.

والحق الذي لا نشك فيه أن الأحداث التي جرت في عهد الخليفة البار الراشد عثمان، وانتهت باستشهاده رضي الله عنه؛ كانت شيئاً طبيعياً، وجزءاً من حركة الزمن وتطور الأمم، وهي السنّة الإلـهية المطّردة، التي تفرض نفسها على مسيرة التاريخ عبر الزمان المتطاول. وأيّاً من كان الخليفة في تلك الحقبة ـ عثمان أو غيره ـ فلن يلغي وجود تلك الأحداث والفتن الضارية التي استعر أوارها.

وكأن القدر قد اختبأ لعثمان هذه المرحلة ـ لِيُعْلي مقامه ومنزلته ـ ليواجه تلك المؤامرة الطامية الهوجاء! ولو أن الأمور التي اتُّهِمَ بها، والأخطاء التي نسبت إليه؛ كانت صحيحة ـ ولا سبيل إلى صحتها كما بيّنا ـ لما كان ذلك مبرراً للخروج عليه، وسفح دمه الطاهر الزكي!!.

فلم تكن ـ إذاً ـ الأخطاء المزعومة سببَ تلك الفتن الهُوج، والحملة الحاقدة الماكرة ضد أمير المؤمنين؛ بل هي المؤامرة البعيدة الغَوْر، دبّرتها قوى حاقدة لئيمة خبيثة، واستعانت في تنفيذها بعناصر دخيلة على الإسلام، فسيّرت الرّعاع والطغَام

---

(١) بناء مرتفع.

وذوي المطامع والشهوات الدنيئة لاغتيال عثمان! وما كان هدفها شخص عثمان، بل الخلافة والدولة والإسلام كله!!.

ولو أن ما اتُّهم به عثمان كان سبب قتله، فما هو إذاً سبب قتل الخليفة العظيم عمر، الذي غمر بعدله الناس جميعاً في خلافته، وشملت رحمته حتى الجَدْيَ على شط الفرات؟! والذي تولى قتله غلام فاجر، كانت وراءه قوة مدبّرة تعيش في الظلام، فأطلقت بيدَي أبي لؤلؤة أول رصاصة في جسم الإسلام، فكانت إيذاناً بابتداء المعركة الخفية بين الإسلام وأعدائه.

وسار عثمان على الطريق الذي نهجه عمر، فلقي المصير المحتوم نفسه الذي نفّذه ابن سبأ وأعوانه، الذين ما كانوا ينتظرون أخطاء تقع من الخليفة، فقد انعقد تصميمهم على تنفيذ هدفهم الأسود، فألقوا في أنفس السمّاعين لهم تلك الأباطيل التي نسبوها لعثمان، وجعلوها مبرراً لاغتياله.

الإشارات النبوية إلى قتل عثمان، وحث الناس على متابعته:

ولقد بشّر النبي ﷺ عثمانَ بالشهادة في أكثر من مناسبة، وغير ما موضع، فبينا رسول الله ﷺ على (حِرَاء) هو وأبو بكر وعمر وعلي وعثمان وطلحة والزبير - رضي الله عنهم - فتحركت الصخرة، فقال النبي ﷺ: «اهدأ، إنما عليك نبي أو صدّيق أو شهيد».

ويحدث أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ صَعِد أُحُداً، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «اثبتْ أُحد، فإنما عليك نبي، وصدّيق، وشهيدان». فالنبي هو رسول الله ﷺ وصدّيقه أبو بكر، والشهيدان عمر وعثمان.

● ولقد كانت تلك البشرى من رسول الله ﷺ لعثمان مشفوعة بتنبيهه على أن ذلك سيكون مع بلوى واختبار، سيدفعه عثمان ثمناً للشهادة ودخول الجنة، فعندما ذهب النبي ﷺ إلى حائط في المدينة، ودخل عليه أبو بكر وعمر، وبشرهما بالجنة،

ثم دخل عثمان، فقال الرسول ﷺ لأبي موسى الأشعري: «افتح له وبشّره بالجنة، على بلوى تصيبه»! فتلقى عثمان ذلك فرحاً، وحمد الله، وقال: الله المستعان.

وأبان النبي ﷺ أن تلك البلوى هي إرادة المنحرفين خلعه من الخلافة، ثم قَتْله، وحذّره أن يجيبهم إلى ذلك، فأجاب عثمان صابراً محتسباً رضي الله عنه، فقد قال ﷺ: «يا عثمان، إنه لعلّ الله يُقَمّصُكَ[1] قميصاً، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم».

● فكان عثمان ـ رضي الله عنه ـ يعلم علم اليقين أنه مقتول، وأنه ستتمالأ عليه جماعة كبيرة، ولقد حدّث بذلك قبل وفاته بسنوات، فقال لابن مسعود: (إني قد سمعت رسول الله ﷺ، وحفظتُ أن رسول الله ﷺ قال: «سيُقتل أمير، ويتبرى متبرئ»، وإني أنا المقتول، وليس عمر، إنما قتل عمرَ واحدٌ، وإنه يُجتمع عليّ)!!.

● وقد فضحت تلك الأحاديث النبوية الصحيحة نوايا أولئك المنحرفين الخارجين على أمير المؤمنين عثمان، وبينت أنهم ظالمون، وأن الخليفة سيُقتل ظلماً وعدواناً؛ فعن عبد الله بن عمر قال: (ذكر رسول الله ﷺ فتنة، فمر رجل، فقال ﷺ: «يُقتل فيها هذا المقنّع يوم إذن مظلوماً» قال[2]: فنظرت فإذا هو عثمان ابن عفان).

● بل إن رسول الله ﷺ بلغ من شفقته على أمته من تلك الفتنة الرعناء، أن أكد في أحاديث كثيرة أن عثمان على الهدى والحق والرشاد والصواب، فهذا كعب بن عُجْرة يصور لنا واحداً من تلك المواقف النبوية فيقول: (ذكر رسول الله ﷺ فتنة، فقرّبها وعظّمها، ثم مرّ رجل مقنّع في ملحفة، فقال: «هذا يومئذٍ على الحق». قال:

---

(١) قَمَّصته هذا الأمر: أي فوّضته إليه، وجعلته في عهدته، وألبسته إياه مثل القميص، وأراد به الخلافة.

(٢) أي ابن عمر.

فانطلقت مسرعاً، وأخذت بضبعيه. فقلت: هذا يا رسول الله؟ قال: «هذا»، فإذا هو عثمان بن عفان).

ومثل ذلك حدث مع مُرّة بن كعب، فحدث بذلك في الشام، فقال: (لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما قمت، وذكر الفتن وقربها، فمر رجل مقنّع في ثوب، فقال: «هذا يومئذٍ على الهدى». فقمتُ إليه فإذا هو عثمان بن عفان. قال: فأقبلتُ فقمتُ عليه بوجههِ، فقلتُ: هذا؟ قال: «نعم»).

● ولذا حثّ رسول الله ﷺ الناس على أن يلزموا عثمان ويتبعوه، ولا يلتفتوا إلى ما يُثار عليه، وعلى عهده المبارك، الذي شمخت فيه الفتوحات، وامتدت رسالة الإسلام إلى أطراف الأرض، فقد حدّث أبو هريرة فقال: (سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنكم تلقون بعدي فتنة واختلافاً»! فقال له قائل من الناس: فمن لنا يا رسول الله؟ قال: «عليكم بالأمين وأصحابه»، وهو يشير إلى عثمان بذلك).

ويحدّث الصحابي مرة بن كعب البهزي فيقول: (بينما نحن مع رسول الله ﷺ، في طريق من طرق المدينة، فقال: «كيف بكم في فتنة تثور في أقطار الأرض، كأنها صَياصِي[1] بقر»؟! قالوا: نصنع ماذا يا رسول الله؟ قال: «عليكم هذا وأصحابه» أو «اتبعوا هذا وأصحابه». قال: فأسرعت حتى عييت فأدركت الرجل، فقلت: هذا يا رسول الله؟ قال: «هذا». فإذا هو عثمان بن عفان).

ولنصْغِ إلى هذا الموقف الرهيب الذي يحدثنا عنه الصحابي الجليل عبد الله بن حَوَالة، فيقول: (أتيت على رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل دوحة، وعنده كاتب له يملي عليه، فقال: «ألا نكتبك يا ابن حوالة»؟ قلت: فيمَ يا رسول الله؟ فأعرض عني، وأكبّ على كاتبه يملي عليه. ثم قال: «ألا نكتبك يا ابن حوالة»؟ قلت: لا أدري ما خار الله لي ورسوله، فأعرض عني، وأكبّ على

---

(١) أي قُرونُها، واحدتها صِيصِية، شبّه الفتنة بها لشدّتها وصُعُوبة الأمر فيها.

كاتبه يملي عليه. فنظرت، فإذا في الكتاب عمر، فقلت: لا يُكتب عمر إلا في خير! ثم قال: «ألا نكتبك يا ابن حوالة»؟ قلت: نعم.

فقال: «يا ابن حوالة، كيف تفعل في فتنة تخرج في أطراف الأرض كأنها صياصي بقر»؟.

قلت: لا أدري ما خار الله لي ورسوله.

قال: «فكيف تفعل في أخرى تخرج بعدها، كأن الأولى منها انتفاجة[1] أرنب»؟!.

قلت: لا أدري ما خار الله لي ورسوله.

قال: «اتبعوا هذا».

قال: ورجل مقفّي حينئذٍ، فانطلقت، فسعيت حتى أخذت بمنكبه، فأقبلت بوجهه إلى رسول الله ﷺ، فقلت: هذا؟ قال: «نعم». فإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه).

الانحراف والشغب والمؤامرات ودور ابن سبأ:

الفئات المتآمرة ودواعي التآمر:

ولقد بدأت تلك الفتن ـ التي أخبر عنها رسول الله ﷺ ـ تطلّ برأسها، وتعاونت على إيجادها قوى الشرّ والطغيان، التي تحطمت جحافلها تحت سنابك خيول المجاهدين، وشدّت من أزرها فلول الفرس والروم، وكيد اليهود وخبثهم. فائتمروا جميعاً على مجابهة الإسلام، وإيقاف مدّه الزاحف، وإطفاء نوره الذي تفتحت لـه القلوب، ولكن لما لم تكن لهم ـ آنذاك ـ القدرة الكافية للمجابهة؛ عملوا سراً، فكانت رصاصتهم الأولى التي أطلقوها في المعركة الخفية هي قتل الخليفة العادل عمر رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) أي وَثْبَة، يريد تقليلها.

ثم قامت حركـات تمرّد وارتداد في أطراف الدولـة الإسـلامية، فنقضوا عهودهم والمواثيق التي كانت عليهم، وأعلنوا خروجهم وانفصالهم عن الدولة الأمّ! ولم يكن ذلك من قِبَل أهل تلك البلاد، الذين استبشروا بقدوم الإسلام ـ حتى الذين لم يدخلوا فيه ـ لأنه خلّصهم من طغيان الفرس والروم؛ إنما كان من هاتيك الأوكار المختفية الشانئة المتربّصة، التي أفقدها الإسلام نفوذها ومكانتها، وقد حرّضهم على ذلك الفرس والروم، الذين لم يقصّروا بدورهم في الهجوم أحياناً على الدولة الإسلامية متى سنحت لهم الفرصة.

وردف ذلك تحركٌ من الداخل، أضرم ناره رجل يهودي خبيث، رحل من اليمن، ويمّم شطر المدينة المنورة في عهد عثمان، وأظهر إسلامه مدّعياً حبه لهذا الدين، ورغبته بجوار المسلمين، وقام بتأدية دوره الماكر.

وقامت الجيوش الإسلامية بتأديب حركات التمرّد، وعصفت بمحاولات الهجوم الفاشلة من قبل الفرس والروم، فألقى هؤلاء سلاحهم صاغرين، ولجؤوا إلى الائتمار بالدولـة من الداخل، وإيقاد الفتن، وإضرامها في أطـراف الدولـة الإسلامية. ولكي يكون مخططهم ناجحاً، وضربتهم صائبة ومؤثرة، بل مزلزلة؛ فلا بد من إثارة العاصفة في وجه الخليفة القيّم على أمر الأمة، والذي يحمي حماها بسلطان الحق والشرع والعدل! وكأنهم اغتنموا بذلك قول عثمان: (إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)؛ فعلموا ما للسلطان من دور بارز في إحقاق الحق، وإرساء قواعد الدولة، وتوطيد أركان الإسلام، فوجهوا حملتهم الضارية إليه!!.

مخطط ابن سبأ:

وقام ابن سبأ بتسقُّط الأخبار، وتابع بمكر ودهاء ما يجري في المدينة، وجعل يتسمّع الأنباء التي تَفِدُ إليها من أطراف الدولة، وأخذ يجمع بين الأشباه، ويؤلّف بين النظائر، ويستبين مواطن الضعف ومنافذه، حتى أبرم خطته لتنفيذ أهدافه المرسومة لضرب الخلافة متمثلة بالخليفة.

فالإسلام قد خرج من الفتوحات الكبيرة الواسعة والمعارك الظافرة، شامخاً شاهقاً، وبقيت على جسمه نُدَبٌ كتلك التقرحات التي تظهر على جسم الجندي عندما يقفل من المعركة، وتمثّلت تلك التقرحات في جسم الأمة بفئات مرذولة من الناس.

فراح ابن سبأ يعتني بهذه الدمامل التي طفحت في جسم الدولة الإسلامية، لا ليطببها ويداوي داءها؛ بل لينميها ويذكي النار فيها، لتكبر وتنمو وتنتشر من الأطراف لتتجه نحو الرأس فتضربه وتقضي عليه!!.

● فاعتنى بأحداث الانتقاض والتمرّد على أطراف دولة الإسلام، ودرس طبيعتها، وعرف نفسيات مؤججيها، أولئك الذين دخلوا الإسلام راهبين، وانتظروا الفرصة السانحة لضربه.

● واغتنم وجود بعض النفسيات المريضة من أصحاب الشهوات والمطامع، ممن قد ظهر أمثالهم في زمن عمر، كذاك الذي جرى في الكوفة من أولئك الذين اتهموا صحابياً كسعد بن أبي وقاص بأنه (لا يُحْسن يصلي)!!.

● كما استفاد من الموتورين الحاقدين على الولاة، ممن طالتهم يد العدالة، كأولئك الذين نقموا على الوليد بن عقبة، حتى لفقوا له تهمة شرب الخمر، وشهدوا على ذلك زوراً، فأُقيم عليه الحدّ.

● واهتمّ بأولئك الذين حررهم الإسلام من فارس والروم، فلم تسعهم أجسامهم على العيش في ظل حرية الإسلام التي ما ألفوها، فسوّلت لهم أنفسهم التطلع إلى الولاة والخليفة للطعن عليهم.

● كما نصب شِبَاكه لأولئك الأغرار الذين دخلوا الإسلام مع الأفواج المتزاحمة، وكانوا رَعاعاً لا يفقهون شيئاً، وتسهل قيادتهم.

● ولم ينسَ أولئك الغلاة في الدين، الذين ضاقت نفوسهم، وتحجّرت عقولهم عن أن تدرك أمامها أكثر من شبر!.

ويصورّ ابن الكوّاء أهل الإحداث في الأمصار ـ وهو يجيب معاوية عندما سأله عنهم ـ فيقول: (أما أهل الإحداث من أهل المدينة: فهم أحرص الأمة على الشرّ، وأعجزه عنه، وأما أهل الإحداث من أهل الكوفة: فإنهم أنظر الناس في صغير، وأركبه لكبير! وأما أهل الإحداث من أهل البصرة: فإنهم يردون جميعاً، ويصدرون شتى. وأما أهل الإحداث من أهل مصر: فهم أوفى الناس بشرّ، وأسرعه ندامة. وأما أهل الإحداث من أهل الشام: فأطوع الناس لمرشدهم، وأعصاه لمغويهم).

تحركات ابن سبأ في البصرة والكوفة ونشر مبادئه:

فنظر ابن سبأ في المدينة، فعلم أن لا أرب له فيها ولا بأهلها، فانطلق إلى الشام، فوجد أهلها أمناء أوفياء مخلصين لله ورسوله، محبين لولاتهم، ومطيعين لأمرائهم. فيمّم شطر البصرة ونزل على اللّص (حُكَيم بن جَبَلة)، واجتمع إليه نفر من أهلها، فألقى إليهم مبادئه، فقبلوا منه، واستعظموه! وعلم به عبد الله بن عامر ابن كُرَيز، فأخرجه من البصرة، فخرج حتى أتى الكوفة، فأُخرج منها، فخرج بعد أن صنع له صنائع وحواريين! وتوجه بعدها إلى مصر، واستقرّ بها، وجعل يكاتب أولئك الذين خلّفهم في الكوفة والبصرة، ويكاتبونه، ويتردد الرجال بينهم.

وما خرج ابن سبأ من البصرة والكوفة حتى ترك فيها مبادئه تُتلى على أتباعه، فكانت تلك المبادئ بمثابة قنابل موقوتة زرعها ابن سبأ في أطراف الدولة الإسلامية ووضع فتيلها بيد أناسي أحسن اختيارهم، وألقى تعاليمه إليهم؛ فأعانوه بتأجيج النار، وتحريض الناس، منتظرين اللحظة الحاسمة، وهي الانقضاض على المدينة، لقتل الخليفة، وهدم الخلافة.

ولكي يثير ابن سبأ الاضطراب وينجح في تعميمه، ونشره في الأصقاع، وجّه حملته إلى الخليفة، ليشكّك الناس بشرعيته! ولكي يتمّ له ذلك، لابد أن يضع بديلاً عنه، ويرفع أمامه رجلاً يضاهيه في السابقة والجهاد والمنزلة من

نفوس الناس، فنفث أول سمومه فقال:

(لَعَجَبٌ ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذّب بأن محمداً يرجع، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، ومحمد أحق بالرجوع من عيسى)!!.

والدنيا كلها تعلم، والتاريخ يشهد أن في الناس من يعجب للخرافات ويَطْرَبُ لها، بل إذا سمعها قام بنشرها! وكذا كل أحد يعلم أن التاريخ ـ في جميع حقبه ـ لم يعدم من يتلاعب ببعض آيات القرآن، ليؤيّد مذهبه الفاسد!! وسيبقى هذا ديدن بعض الفئات من الزنادقة والمغرضين. وهذا ما فعله ابن سبأ، واستجاب له سامعوه، ونشروا عنه مقالته الخبيثة الماكرة.

ثم قال لهم: (إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصيّ، وكان عليّ وصيّ محمد). و(محمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء).

ثم قال بعد ذلك: (مَنْ أَظْلَمُ ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ، ووثب على وصيّ رسول الله ﷺ، وتناول أمر الأمة)!!.

فأوحى للناس أن علياً مظلوم، ليلتفتوا إليه، ويرددوا النظر بينه وبين الخليفة الحالي.

ومن ثَمَّ صرّح لهم بعدم شرعية الخليفة عثمان، فقال: (إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصيّ رسول الله ﷺ، فانهضوا في هذا الأمر فحرّكوه، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر).

وانطلقت هذه المبادئ كالريح السّموم، تشتعل في أقطار الإسلام، وقد ألقى بها إلى أتباعه ومؤيديه خلال رحلته إلى الشام والبصرة والكوفة، وقام المفتونون به بنشرها، كلٌّ في الجهة التي تصل إليها كلمتهم، فكانت الخطة مكونة من ثلاثة بنود:

١ ـ ابدؤوا بالطعن على أمرائكم.

٢ ـ تظاهروا بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس، وادعوهم إلى ذلك.

٣ ـ قولوا لهم: إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، وهذا علي وصيّ رسول الله، فقوموا فردوا الحق إلى صاحبه!!.

والمبدآن الأول والثاني يؤولان إلى الثالث، وهو ضرب الخليفة، والهدف من وراء ذلك كله ليس شخص أمير المؤمنين عثمان، بل ضرب الخلافة والأمة والدولة الإسلامية.

ومن العجيب حقاً أن هذه الخطة المرسومة ببنودها قد سارت على النهج نفسه، وبوتيرة واحدة في أطراف الدولة الإسلامية؛ مما يشي بإتقان الدور الرهيب الذي لعبه ابن سبأ، واستمد ذلك من أعداء الإسلام في الخارج، وأعانته عليه قوى داخلية، تمثّلت بتلك الرؤوس الخبيثة والعقول الملوثة، التي عبث بها ابن سبأ، فأسلست له قيادتها، بل انطلقت متحمسة أكثر منه، لأنه كان يحدوها الطمع والشهوات للمناصب والمكاسب الدنيوية!!.

ووقائع التاريخ وأحداثه ـ في القديم والحديث ـ تُرينا ما يفعله رجل واحد إذا وُجد له من يدعمه، وبخاصة إذا كان الرأس المدبّر يهودياً، لما اشتهروا به من الخبث والكيد، والحرب في الخفاء من وراء ستار.

إثارة الشغب والفتن في الكوفة وقصة (المُسَيَّرين):

ففي الكوفة حيث كان واليها الوليد بن عقبة، حنق عليه الأشتر النخعي، الذي كان يرى نفسه أهلاً للولاية، وسار فيهم الوليد بالسيرة الطيبة، والهدي الصالح، فمكث خمس سنوات ليس له باب يُغلق في وجه أحد، لا ليلاً ولا نهاراً، والناس محّبون له، مطيعون مطمئنون، حتى إذا قام الوليد، ونفّذ حكم الله في قَتَلَةِ ابن الحيسُمان، أبغضه ذوو القتلة الذين نالهم عقاب الله، فلفقوا له تهمة شرب

الخمر، حتى حدّه عثمان وعزله.

وجاء بعده سعيد بن العاص، الذي كان يدني من مجلسه وجوه الناس وأفاضلهم، وأهل القادسية والقرّاء وأصحاب السكينة والوقار. وبينا هو ذات يوم في دار الإمارة بالكوفة، ومعه أولئك القوم جالسون، قال رجل يسمى خُنيساً: (ما أجود طلحة بن عبيد الله! فقال سعيد بن العاص: إن من له مثل (النّشَاسْتَج)[1] لحقيق أن يكون جواداً، والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً. فقال عبد الرحمن بن خنيس الأسدي: والله لوددت أن الملطاط[2] لك! فغضب الأشتر وأصحابه، وقالوا للأسدي: تتمنى له من سوادنا؟! فقال والده: ويتمنى لكم أضعافه).

فثار الأشتر وأصحابه: ابنُ ذي الحبَكة وجندَب وصعصعة وابن الكوّاء وكُمَيل بن زياد وعُمَير بن ضابئ، على الأسدي وأبيه، وضربوهما في مجلس الإمارة، حتى غشي عليهما. وجعل سعيد يناشدهم ويأبون، حتى قضوا منهما وطراً. وسمعت بذلك بنو أسد، فجاؤوا وأحاطوا بالقصر، ليدافعوا عن رجليهما، فتلافى سعيد بحكمته هذه الفتنة، وردّ بني أسد عن الأشتر وجماعته.

ولما أفاق الرجلان قال لهما سعيد: أبكما حياة؟ قالا: قتلتنا غاشيتك! قال: لا يَغْشوني والله أبداً، فاحفظا عليّ ألسنتكما، ولا تجرّئا عليّ الناس، ففعلا.

لكن الأشتر وأصحابه جلسوا في بيوتهم، وأقبلوا على نشر الشائعات، وشتم عثمان وسعيد، . وأقبل الناس عليهم، حتى جاء صلحاء الكوفة سعيداً في أمرهم، فقال: هذا عثمان قد نهاني أن أحرّك شيئاً فمن أراد منكم شيئاً فليكتب إلى عثمان.

فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان في إخراجهم، فكتب

---

(١) ضيعة بالكوفة كانت لطلحة بن عبيد الله، وكانت عظيمة الدخل، اشتراها من أهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخيبر.

(٢) يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة.

أمير المؤمنين إلى سعيد وأهل الكوفة: (إذا اجتمع ملؤكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية). فسيّرهم إلى معاوية بالشام، وسُمّوا (المُسَيّرين)، وهم: الأشتر النّخَعيّ، وابن الكوّاء اليشكري، وصعصعة بن صُوحان العبدي، وأخوه زيد، وكُمَيْل بن زياد النخعي، وجندَب بن زهير الغامدي، وجندَب بن كعب الأزدي، وثابت بن قيس النخعي، وعُروة بن الجَعْد البارقي، وعَمْرو بن الحَمِق الخُزاعي.

وكتب عثمان إلى معاوية: (إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً قد خُلقوا للفتنة، فَرُعْهُمْ وقُمْ عليهم، فإن آنستَ منهم رشداً فاقبلْ منهم، وإن أعْيَوْكَ فارددهم عليهم).

فاستقبلهم معاوية، وعمل بأمر عثمان، فرحّب بهم، وأنزلهم كنيسة تسمى (مريم)، وأجرى عليهم ـ بأمر عثمان ـ ما كان يُجرى عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغدى ويتعشى معهم، فقال لهم يوماً: (إنكم قوماً من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً، وغلبتم الأمم، وحويتم مراتبهم ومواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً، وإن قريشاً[1] لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم. إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنّة[2]، فلا تَشِذّوا عن جُنّتكم، وإن أئمتكم يصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة. والله لتنتهنّ أو ليبتلينّكم الله بمن يسومكم، ثم لا يحمدكم على الصبر، ثم تكونون شركاء لهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم).

فقال رجل[3] من القوم: (أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب، ولا أمنعها في الجاهلية، فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجُنّة، فإن الجُنّة إذا اخترِقَتْ خُلِص إلينا)!!.

---

(١) لم يرد معاوية ـ رضي الله عنه ـ التعصب لقبيلة قريش، إنما لفت أنظارهم إلى أنّ قريشاً هم حَمَلة هذا الدين إلى الدنيا، فلهم السابقة والفضل.

(٢) وقاية.

(٣) هو صَعْصَعة بن صُوحان.

وهذا يعبر عن مخبوء نفسية هؤلاء، وأنهم ما أرادوا وجه الله، ولا تقويم الأخطاء التي ادعوا وجودها، فهم يرون أن الجُنّة ـ وهم الولاة ـ إذا اختُرقت خلص الأمر إليهم، وأصبحوا ولاة الأمر!! ولو أن مثل هذه الكلمة قالها ثائر وهو في قبضة حاكمه ـ منذ بدأت الحكومات إلى قيام الساعة ـ ما وجد من حاكمه حلماً وتؤدة وسعة صدر وصفحاً كالذي وجده هذا المتكلم من معاوية رضي الله عنه[1].

وهنا ردّ عليه معاوية فقال: (عرفتكم الآن، علمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول، وأنت خطيب القوم، ولا أرى لك عقلاً! أُعْظِم عليك أمر الإسلام، وأذكرك به، وتذكّرني الجاهلية، وقد وعظتك؟! وتزعم لمايجنّكَ أنه يُخترق، ولا ينسب ما يخترق إلى الجُنّة! أخزى الله أقواماً أعظموا أمركم، ورفعوا إلى خليفتكم! افقهوا ـ ولا أظنكم تفقهون ـ أن قريشاً لم تُعَزّ في جاهلية ولا إسلام إلا بالله عز وجل، لم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأمحضهم أنساباً، وأعظمهم أخطاراً، وأكملهم مروءة، ولم يمتنعوا في الجاهلية ـ والناس يأكل بعضهم بعضاً ـ إلا بالله الذي لا يُستذل من أعز، ولا يوضع من رفع، فبوّأهم حرماً آمناً يُتَخَطّفُ الناس من حولهم)[2].

ثم أنّبهم ووبّخهم وقرّعهم، ثم بذل لهم النصح، وأرشدهم إلى طريق الحق

---

(١) ومع هذا يأتي صاحب (خلفاء الرسول) فيقول: (إنَّ معاوية يومئذٍ لم يكن في مستوى مسؤولياته، بل ولا في مستوى ما عُرف عنه من قدرة على الحلم والدهاء)، ص٣٨١ ـ ٣٨٢. ونحن لا ندري ماذا يريد هذا الكاتب من الوالي العظيم معاوية تجاه هؤلاء البغاة الخوارج، وهم يصرّحون بمثل ذلك الكلام!! وهل هناك أروع مما فعله معاوية من تذكيرهم بالإسلام والطاعة، والتلويح لهم بمغبّة الخروج على الأمراء والولاة؟!.

(٢) وللأسف فإن خالد محمد خالد اقتطع جزءاً من كلام معاوية، وبتره عما سبقه وعما لحقه؛ ليدين معاوية، فقال: (وتمادى ـ عفا الله عنه ـ في عصبيته هذه فقال: وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها، إلا ما جعله الله لنبيّه) ـ خلفاء الرسول، ص٣٨٢. فهل هذا من الإنصاف والبحث العلمي أن يدين هذا الصحابي الكبير بكلام مبتور؟!.

إن كانوا يريدونه؛ فقال: (وبعد، فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم، ولْيَسَعْكُم ما وسع الدهماء، ولا يبطرنكم الإنعام، فإن البطر لا يعتري الخيار، فاذهبوا حيث شئتم، فإني كاتب إلى أمير المؤمنين فيكم).

فكتب معاوية إلى عثمان: (إنه قدم عليّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أثقلهم الإسلام، وأضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجة، إنما همهم الفتنة، وأموال أهل الذمّة، والله مبتليهم ومختبرهم، ثم فاضحهم ومخزيهم، وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم، فانهَ سعيداً ومَنْ قِبَله عنهم، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب أو نكير)[1].

فكتب إليه عثمان أن يردّهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة. فردّهم إليه، فلم يكونوا إلا أطلق ألسنة منهم حين رجعوا.

وضجّ بهم سعيد، فكتب إلى عثمان بذلك، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان أميراً على حمص، وكتب إلى الأشتر وأصحابه: (أما بعد، فإني قد سيّرتكم إلى حمص، فإذا أتاكم كتابي هذا فاخرجوا إليها، فإنكم لستم تألون الإسلام وأهله شراً، والسلام).

فلما قرأ الأشتر الكتاب قال: (اللهم أسوأنا نظراً للرعية، وأعملنا فيهم بالمعصية؛ فعجِّل له النقمة).

وقدم سعيد بن العاص إلى عثمان بالمدينة، واستعمل عمرو بن حريث على الكوفة، والقعقاع بن عمرو على الحرب.

---

(١) ومن عجب أن هذا الفعل من معاوية لم يرضِ كاتباً كالعقاد، الذي قال في كتابه (عبقرية علي)، ص٥٨ ـ ما نصّه: «ثم أخرجهم من دمشق إلى غيرها مستريحاً منهم بالنفي والإقصاء، كأنما دمشق وحدها من بلاد المسلمين هي التي ينبغي لها أن تستريح»! وهو اتّهام جائر باطل، فقد بذل معاوية كل ما في وسعه، ونصحهم ووعظهم، ثم قرعهم وخوّفهم. ونسأل الله العصمة من الزلل والخذلان والحط من شأن الصحابة والطعن في صدق نواياهم!!.

ولما قدم (المسيَّرون) على عبد الرحمن بن خالد، قبض عليهم بمثل مخالب أبيه ـ رضي الله عنهما ـ وأنزلهم بجزيرة ابن عمر، وقال لهم: (يا آلة الشيطان، لا مرحباً بكم ولا أهلاً! قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد نِشاط!! خَسَّر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم. يا معشر من لا أدري أعرب أم عجم، لكي لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقئ الردّة! والله لئن بلغني يا صعصعة ابن ذل أن أحداً ممن معي دق أنفك ثم أمصّك[1]، لأطيرنّ بك طيرة بعيدة المهوى)!!.

ولوّح لهم عبد الرحمن بهذه الكلمات التي هي كبريق سيف أبيه، وأقامهم أشهراً كلّما ركب أمشاهم، فإذا مرّ به صعصعة قال: (يا ابن الخطيئة، أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشرّ؟! مالكَ لا تقول كما كان يبلغني أنك تقول لسعيد ومعاوية؟ فيقول ويقولون: نتوب إلى الله، أقِلْنا أقالك الله! فما زالوا به حتى قال: تاب الله عليكم).

ثم سرّح الأشتر إلى عثمان، وقال لهم: ما شئتم، إن شئتم فاخرجوا، وإن شئتم فأقيموا، وخرج الأشتر، فأتى عثمان بالتوبة والندم، والنزوع عنه وعن أصحابه، فقال عثمان للأشتر: احلل حيث شئت، فقال: مع عبد الرحمن بن خالد، وذكر من فضله. فقال عثمان: ذاك إليكم. فرجع إلى عبد الرحمن.

الشغب وإثارة الفتن في البصرة:

وفي البصرة نقم أهلها على واليهم أبي موسى الأشعري، وطلبوا من الخليفة عزله، وتولية (غيلان بن خَرَشَة)، فأبى عثمان أن يوليه، لأنه أحيى أمر الجاهلية، وولى عبد الله بن عامر بن كُرَيز.

---

(١) أمصّه: قال له: يا ماصّ هُنَ أبيه، أو يا ماصّ بَظَر أمه.

وسلك أهل البصرة مسلكاً آخر في الشغب وإثارة الفتن، وطعنوا بالصالحين من أهلها، فقد كان حُمْران بن أبان قد تزوَّج امرأة في عدتها، فنكّل به عثمان، وفرّق بينهما وسيَّره إلى البصرة، فبقي فيها هناك. ولما جاء ابن سبأ إلى البصرة كان حمرانُ أحدَ رجاله، وقام أتباع ابن سبأ بالطعن على الصالحين، فاتهموا عامر بن قيس بأنه: لا يشهد الجمعة، ولا يرى التزويج، ولا يأكل اللحم.

وأظهر حُمران التوبة لعثمان، فأذن له بالقدوم، فجاء المدينة بنفر معه، وتكلموا على عامر بكلام باطل! فأمر عثمان بتسييره إلى معاوية بالشام. وبعد أن ساءله معاوية، وكشف عن أحواله، علم أن ما قيل عنه هو إشاعات، وتبين له براءة عامر بن قيس، فقرّبه وأكرم مثواه.

وبقي أتباع عبد الله بن سبأ في البصرة، يتلقون الكتب من زعيمهم المقيم بمصر، ويتردد الرجال بينهم، لإثارة الفتن باستمرار.

الشغب في مصر، ومتابعة ابن سبا دوره الخبيث:

وفي مصر حيث استقرّ الرأس المدبّر هناك، فباض وفرّخ، قام الخوارج المنحرفون بشكاية عَمْرو بن العاص إلى عثمان، فما زال دأبهم كذلك، ويطلبون أن يولى عليهم من هو أيسر منه، فعزل عَمْراً عن الحرب، وتركه على الصلاة، وولّى ابن أبي سرح. ثم قاموا بالنميمة بين عمرو وابن أبي سرح، حتى تقاولا فيما بينهما، فاضطر عثمان لعزل عمرو.

وتابع ابن السوداء[1] نشر أراجيفه وأباطيله، فسارت كالنار المستعرة، فأفسد العقول بمبادئه الباطلة، التي راجت على بعض أبناء الصحابة مثل محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر، اللّذين خرجا في معركة (ذات الصواري)، فأظهرا العيب على عثمان، واتهماه بأنه خالف أبا بكر وعمر، وفعل وفعل، وأن دمه حلال! فبلغ ذلك ابن أبي سرح، فقال: لا تركبا معنا. فركبا بمركب ما فيه

---

(١) هو عبد الله بن سبأ.

أحد من المسلمين، ولقوا العدو، وكانا أقل الناس قتالاً! فقيل لهما في ذلك؟ فقالا: كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكّمه! عبد الله بن سعد، استعمله عثمان، وعثمان فعل وفعل! فأفسدا أهل تلك الغزاة، وعابا عثمان أشد العيب. فأرسل عبد الله بن سعد إليهما ينهاهما أشد النهي، وقال: والله لولا أني لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين؛ لعاقبتكما وحبستكما.

وهذا دليل ناصع على أن عثمان في أحلك الظروف، وأقسى الأزمات كان يأخذ بزمام الولاة، فلا يقضون أمراً من ورائه، كأنما ليس عليهم رقيب، كما يحلو لبعض الكتّاب أن يقول مثل هذا!!.

وكان محمد بن أبي بكر يقول للرجل: (أما والله قد تركنا خلفنا الجهاد حقاً! فيقول الرجل: وأي جهاد؟ فيقول: عثمان بن عفان، فعل كذا وكذا!! حتى أفسد الناس، فقدموا بلدهم وقد أفسدهم، وأظهر من القول ما لم يكونوا ينطقون به).

وكيف يعيب هذان الرجلان على الخليفة العظيم وواليه المظفر ابن أبي سرح ويتأففان منهما ويطعنان عليهما، وفي جيش ابن أبي سرح، ويقاتل معه تحت رايته، من هو خير من محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة بدرجات كبيرة، من أمثال: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن الزبير؟! أفكان هؤلاء الصحابة الأعيان يسكتون على عثمان وواليه لو رأوا منهما ما يُستنكر؟! كلا، وألف لا، لكنها الفتنة السوداء من ابن السوداء قد فعلت فعلها.

المكاتبات بين المتآمرين في مصر والكوفة والبصرة، وأحداث كبيرة في الكوفة:

وفي الوقت الذي كان فيه سعيد بن العاص عند عثمان، والأشتر قد أعلن توبته وتوبة مَنْ وراءه بين يدي الخليفة، فأباح له عثمان أن يذهب حيث يشاء، فاختار جوار عبد الرحمن بن خالد في جزيرة ابن عمر ـ خلال ذلك كان العملاء يتكاتبون.

فكان أهل مصر قد كاتبوا أشياعهم من أهل الكوفة وأهل البصرة، وجميع من أجابهم؛ أن يثوروا خلاف أمرائهم، واتّعدوا يوماً محدداً، حيث ذهب أمراؤهم إلى أمير المؤمنين، للوثوب على الولاة وخلعهم، وذلك سنة أربع وثلاثين، فلم يستقم ذلك لأحد منهم، ولم ينهض إلا أهل الكوفة، حيث كانت الجيوش تجاهد متوغّلة في أرض فارس، فقام يزيد بن قيس الأرحبي، واغتنم خلوّ الكوفة إلا من المفتونين، ودخل المسجد، وهو يريد خلع عثمان، فثاب إليه من كان يجالس ابن سبأ في قدمته للكوفة، ففوجئ بالقعقاع قد أتى وانقضّ عليه، فَخَنَسَ يزيد وقال: إنما نستعفي من سعيد بن العاص! فقال القعقاع: لا تجلس لهذا، ولا يجتمعُنّ إليك، واطلب حاجتك، فلعمري لتعطينّها. فرجع إلى بيته، واستأجر رجلاً، وأعطاه دراهم ونعلاً، على أن يأتي (المُسَيّرين) في جزيرة ابن عمر، وكتب إليهم: (لا تضعوا كتابي من أيديكم حتى تجيئوا، فأهل المصر قد جامعونا).

فلما جاءهم وبّخوه وخالفوه، إلا الأشتر خالفهم ونقض توبته، وخرج عاصياً، والتحق بثوار الكوفة، ولفّق كذباً على سعيد بن العاص، الذي كان يتجه إلى عمله بالكوفة، فقال الأشتر:

(أيها الناس، إني قد جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان، وتركت سعيداً يريده على نقصان نسائكم إلى مئة درهم، وردّ أهل البلاء منكم إلى ألفين. ويقول: ما بال أشراف النساء وهذه العلاوة بين هذين العِدْلين؟! ويزعم أن فيئكم بستان قريش، وقد سايرته مرحلة، فما زال يرجز بذلك حتى فارقته، يقول:

ويل لأشراف النساء مني صَمَحْمَحٌ[1] كأنني من جِنّ)

فاستخفّ الناسَ فخرجوا معه، وبقي في الكوفة حلماء الناس وأشرافهم، ووجوههم وأهل الحِجى فيهم. وخرج يزيد بن قيس الأرحبي، ومعه الأشتر ومن شايعهم، فنزلوا (الجَرَعة)[2]، وتلقوا سعيداً هناك، ومنعوه من دخول الكوفة،

---

(١) الصَّمَحْمَح من الرجال: الشديد المجتمع.

(٢) مكان مشرف قرب القادسية.

وقام الأشتر إلى مولى لسعيد فضرب عنقه.

ورجع سعيد إلى عثمان، فأخبره بالأمر، وقال: إنهم يريدون أبا موسى الأشعري. فكتب الخليفة بتولية أبي موسى، الذي قام بدوره فخطبهم، فقالوا له: صلِّ لنا، قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان! قالوا: على السمع والطاعة لعثمان.

وبذلك فشل موعد الأحزاب سنة أربع وثلاثين، واقتصرت الفتنة على ما حدث من أهل الكوفة في (الجرعَة)، فسميّ ذلك اليوم (يوم الجَرَعة).

وكتب عثمان إلى الكوفة: (بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فقد أمّرتُ عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنكم عرضي، ولأبذلنّ لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه؛ أنزل فيه عندما أحببتم، حتى لا يكون لكم عليّ حجة)! وكتب بمثل ذلك في الأمصار.

لكن المنحرفين من أهل مصر والكوفة والبصرة ما كانوا يريدون وجه الله، ولا يخطّطون لعزل والٍ أو اثنين هنا وهناك؛ بل خطتهم وهدفهم ضرب الخلافة متمثلة بالقيِّم عليها، وهو عثمان. ولمّا لم يتفق ليزيد الأرحبي أن يجاهر بخلع عثمان، وقد رأى قبضة القعقاع تسد أنفاسه؛ وجّه سهامه إلى من هو دون الخليفة، فطالب بخلع واليه سعيد بن العاص. وكذا لم يتمكن الآخرون من الوثوب في البصرة ومصر.

الكتب المزورة عن أحوال أهل الأمصار، وبعث عثمان بعض الصحابة للتحقيق في الأمر:

فاستمرت المكاتبات بين المتآمرين، وازداد أوارها، وأضرم نارها ابنُ سبأ، فأوحى إلى أعوانه في مصر والكوفة والبصرة بتوسيع دائرة الفتن، ليعمّ البلاء، ويضج الناس، وتصل أخبار ذلك إلى عاصمة الخلافة (فبث دعاته، وكاتب من

كان استفسد في الأمصار، وكاتبوه، ودعوا في السرّ إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك!!

ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرّون غير ما يبدون!! فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما ابتُلي به هؤلاء، إلا أهل المدينة، فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنا لفي عافية مما فيه الناس)!!.

فأسرع محمد بن مَسْلَمة، وطلحة بن عبيد الله إلى عثمان، وقالا: (يا أمير المؤمنين، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟ قال: لا والله، ماجاءني إلا السلامة! قالوا: فإنا قد أتانا، وأخبروه بالذي أسقطوا إليهم. قال: فأنتم شركائي وشهود المؤمنين، فأشيروا عليّ. قالوا: نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهم إلى الأمصار، حتى يرجعوا إليك بأخبارهم).

فقام عثمان، وبادر بإجراء سديد عظيم، وتخيّر نفراً من الصحابة، لايختلف اثنان في صدقهم وتقواهم وورعهم ونصحهم: اختار محمد بن مسلمة الذي كان عمرُ يأتمنه على محاسبة ولاته، والتفتيش عليهم في الأقاليم. وأسامة بن زيد حِبّ رسول الله ﷺ وابن حِبّه، وأمير الجيش الذي أوصى النبي ﷺ بإنفاذه في آخر عهده ﷺ بالدنيا، والمجاهد العظيم الذي قال فيه النبي ﷺ: «واهتدوا بهدي عمار». وعبد الله بن عمر، التقي الفقيه الإمام الورع، بقية عمر بن الخطاب.

فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة إلى البصرة، وعماراً إلى مصر، وابن عمر إلى الشام، وكانوا على رأس جماعة، فأرسلهم إلى تلك الأمصار الكبيرة، فمضوا جميعاً إلى عملهم الشاقّ المضني الخطير العظيم.

ثم عادوا جميعاً ـ عدا عمار بن ياسر، الذي استبطأ في مصر، ثم عاد ـ وقدموا بين يدي أمير المؤمنين ما شاهدوه وسمعوه، وسألوا الناس عنه، وكان

ما جاء بـه هؤلاء واحداً من كل الأمصار؛ قالـوا: أيها الناس، ما أنكرنا شيئاً، ولا أنكره أعلام المسلمين، ولا عوامّهم، وقالوا جميعاً: (الأمر أمر المسلمين، إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم، ويقومون عليهم).

بعث عثمان إلى ولاته ليشهدوا موسم الحج، وتحققه بنفسه من واقع الحال:

إذاً فليس هناك ما يوجب على الخليفة أن يعزل واحداً من ولاته، والناس في عافية وعدل وخير ورحمة واطمئنان، وأمير المؤمنين يعدل في القضية، ويقسم بالسوية، ويرعى حق الله وحقوق الرعية، وما يثار هو شكوك وأراجيف وأكاذيب يبثها الحاقدون في الظلمات لكي لا يعرف مصدرها.

ولكن الخليفة البار الراشد العظيم لم يكتفِ بهذا، بل كتب إلى أهل الأمصار فقال: (أما بعد، فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم، وقد سلّطتُ الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرفع عليّ شيء، ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته، وليس لي ولعيالي حقٌّ قِبَل الرعية إلا متروك لهم!!.

وقد رفع إليّ أهلُ المدينة أن أقواماً يُشْتَمون، وآخرون يُضْرَبون؛ فيا مَنْ ضُرِبَ سراً، وشُتم سراً، من ادعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسم، فليأخذ بحقه حيث كان، مني أو من عمالي، أو تصدّقوا فإن الله يجزي المتصدّقين)!!.

فلما قرئ في الأمصار أبكى الناسَ، ودعوا لعثمان، وقالوا: إن الأمة لتمخّضُ بشرّ.

● فهل تريد الدنيا أن تسمع بحزم وعزم أعلى وأشمخ من هذا الحزم والعزم من رجل زاد سنّه عن اثنتين وثمانين سنة، وهو في هذه الفورة والقوة من المتابعة والتنقيب عن المظالم؟!.

أم هل يريد الناس أن يروا عدلاً أرفع وأسمى من هذا العدل والإنصاف، حتى إن حق أمير المؤمنين الشخصي متروك لرعيته، ما دام حق الله قائماً وحدوده مرعيّة؟!.

نعم عند عثمان، الذي لم يقف عند ذلك، ولم يكتفِ بأن أرسل أمناءه للتفتيش عن أحوال الناس، وكتابته من ثَم إلى أهل الأمصار، بأن يأتوا موسم الحج ليرفعوا شكاتهم ـ إن كانت لهم ـ أمام جموع الحجيج! نقول: لم يكتف عثمان بذلك كله، بل بعث إلى عمال الأمصار أنفسهم ليواجهوا الناس عندما يرفعون مظالمهم ـ إن وجدت ـ ثم ليسألهم أمير المؤمنين عما يتناقله الناس، وليشيروا عليه بالرأي الناصح السديد الرشيد.

فقدم عليه ولاته الكبار: معاوية بن أبي سفيان، وعبدالله بن عامر، وعبد الله ابن سعد بن أبي سرح، وأدخل معهم سعيد بن العاص، لكونه أميراً معزولاً منذ لأي عن الكوفة، وكذلك عمرو بن العاص يرى سداد رأيه وعمق فهمه وثاقب نظره، وقد ولي مصر سنين طويلة. فقال لهم عثمان: (ويحكم، ماهذه الشكاية؟ ما هذه الإذاعة!! إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يُعْصَبُ[1] هذا إلا بي)!!.

فقالوا له: (ألم تبعث؟ ألم نرجع إليك الخبر عن القوم؟ ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء؟! لا والله ما صدقوا ولا بّروا[2]، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً، وما كنتَ لتأخذ به أحداً فيقيمك على شيء، وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها، ولا الانتهاء إليها)!!.

قال: فأشيروا عليّ. فأشار معظمهم بالشدة مع المفسدين والمنحرفين. وكان من نهج عثمان رضي الله عنه أنه لا يأخذ الناس بالشبهات، ويصطبر عليهم حتى يرى الانتهاك الواضح، ثم إنه خشي إن استخدم الشدة في هذه الظروف العصيبة أن تُنكأ الجراح، فتفجّر بركاناً من الفتن، وهو لا يريد أن يكون فَتْحُ باب الفتن على يديه ولا في حياته؛ فقال رضي الله عنه:

---

(١) يناط بي.

(٢) أي الذين يروّجون مثل هذه الأكاذيب والأباطيل.

(كل ما أشرتم به عليّ قد سمعتُ، ولكل أمر باب يؤتى منه، إن هذا الأمر الذي يُخاف على هذه الأمة كائن، وإن بابه الذي يغلق عليه فيكفكف به: اللين والمؤاتـاة والمتابعة، إلا في حدود الله ـ تعالى ذكره ـ التي لا يستطيع أحد أن يباديَ بعيب أحدها، فإن سدّه شيء فرفْق، فذاك والله لَيُفْتَحَنّ، وليست لأحد عليّ حجة حق، وقد علم الله أني لم آلُ الناس خيراً، ولا نفسي.

ووالله إن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرّكها!! كفكفوا الناس، وَهَبُوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وإذا تُعوطِيَتْ حقوق الله، فلا تُدْهِنوا فيها).

● وعاد الأمراء إلى أعمالهم بعد أن ودّعوا الخليفة، وقال له معاوية غداة ودّعه وخرج: (يا أمير المؤمنين، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قِبَلَ لك به، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا.

فقال: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء، وإن كان فيه قطع خَيْط عنقي!.

قال معاوية: فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة، لنائبةٍ إن نابت المدينة أو إياك.

فردّ عثمان: أنا أُقتّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند يساكنهم، وأضيّق على أهل دار الهجرة والنصرة؟!.

فقال معاوية: والله يا أمير المؤمنين لتُغْتَالَنّ أو لَتُغْزَيَنّ!!.

فقال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل).

لكأنما معاوية رضي الله عنه كان يعلم أن وراء تلك الفتن والشائعات يداً خبيثة، تخطط لهدف مرهوب، ليس دونه ضرب الخليفة والخلافة! لكن الخليفة كان له رأي آخر، فهو يريد أن يسير مع هؤلاء لآخر الطريق، حتى لا يترك لهم حجة عند الله ولا عند الناس، فيفضحهم في الدنيا والآخرة. وتلك لَعَمْرُ الحق مصابرة عظيمة من هذا الإمام العادل العظيم.

تكاتب المنحرفين للاجتماع في المدينة، ومناقشة الخليفة ببعض الأمور لإدانته بها:

ولما رجع الولاة إلى أعمالهم، وعلم المنحرفون بما جرى؛ أيقنوا أن لا سبيل للخروج للأمصار، فكاتبوا أشياعهم من أهل البلاد، أن يتوافوا بالمدينة، لينظروا فيما يريدون، وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف، ويسألون عثمان عن أشياء يمكن إدانته بها، ثم إشاعتها بين الناس، وكأنها قد لزمت عثمان، فتوافوا بالمدينة.

فاختار عثمان رجلين مخزومياً وزهرياً[1]، فلما رآهما المنحرفون باثُّوهما، وأخبروهما بما يريدون؛ فقالوا: (نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم، فنزعم أنّا قررناه بها، فلم يخرج منها، ولم يتب، ثم نخرج، كأنّا حجاج حتى نقدم، فنحيط به فنخلعه، فإن أبى قتلناه)!!.

فرجع الرجلان إلى عثمان بالخبر، فضحك وقال: (اللهم سلّم هؤلاء، فإن لم تسلمهم شقوا).

وأرسل عثمان إلى أولئك المنحرفين، ونادى (الصلاة جامعة)، وهم عنده في أصل المنبر، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى أحاطوا به، فحمد الله، وأثنى عليه، وأخبرهم خبر القوم، وقال الرجلان، فقالوا جميعاً: (اقتلهم، فإن رسول الله ﷺ قال: «من دعى إلى نفسه أو إلى أحد وعلى الناس إمام، فعليه لعنة الله، فاقتلوه». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا أحل لكم إلا ما قتلتموه، وأنا شريككم).

فقال عثمان: (بل نعفو ونقبل، ونبصّرهم بجهدنا، ولا نحادّ أحداً حتى يركب حداً، أو يبدي كفراً. إن هؤلاء قد ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم، إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونيها ليوجبوها عليّ عند من لا يعلم)!!.

---

(١) كان عثمان قد أدّبهما، فصبرا للحق، ولم يحقدا على عثمان، وقد اختارهما ليرتاح إليهما المنحرفون، فيفشوا إليهما بدخيلة أنفسهم، وذلك من تمام حكمة عثمان!.

فهم إذاً يعلمون حقيقة تلك الفِرى والأكاذيب التي اتهموا بها عثمان، وإنما أرادوا أن يناقشوه بها، ليجعلوا منها صحيفة اتهام يقرؤونها على أتباعهم، وينشرونها من ثَمّ بين الناس، لتعم وتطمّ. ولكن أمير المؤمنين عاد فناقشهم بها واحدة إثر الأخرى، وبيّن لهم الحق في كل ذلك، وأن ليس إلى اتهامه بواحدة منها من سبيل، فهو بريء منها براءة يوسف ـ عليه السلام ـ من تُهَم امرأة العزيز.

وقام عثمان رضي الله عنه يذكر تلك الأمور التي ادعوا ـ زوراً وبهتاناً ـ أن عثمان ابتدع فيها، وخالف نهج النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، وكان في كل مرة يناشد الصحابة الأخيار لا أولئك الفجار، فذكر لهم إتمام الصلاة بمنى، والحِمَى، وجمع المصحف، وردّ الحَكَم بن أبي العاص، وعزل الولاة وتولية الأحداث، وإعطاء خمس الخمس لابن أبي سَرْح، وتفضيل أقربائه بالعطايا...[1]، وفي كل مرة يقول مناشداً الصحابة: أَوَ كذلك هو؟ فيقولون: اللهم نعم!!.

خروج الجيوش الثلاثة لقتل عثمان:

وبعد أن أخفقت محاولة المنحرفين الأولى سنة أربع وثلاثين في الوثوب على الولاة، واقتصرت على ما حدث (يوم الجَرَعة)، ثم لم ينالوا مرادهم في الحملة الثانية عندما ناقشوا الخليفة، واحتجوا عليه بأخطاء ابتدعوها، وأمور ظنوها حقاً، وليس معها إلاّ الباطل ـ عندئذٍ قرروا إطلاق آخر سهم في كنانتهم، وتنفيذ ضربتهم القاتلة.

فلقد قالوا في قدمتهم الأخيرة على عثمان: (نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قرّرناه بها، فلم يخرج منها، ولم يتب! ثم نخرج كأنا حجاج، حتى نقدم فنحيط به، فنخلعه، فإن أبى قتلناه)!.

ومشوا على هذه الخطة التي رسموها، وأوحوا إلى أتباعهم والسمّاعين

---

(١) سبق تفصيل ذلك في ص٣٥٥ وما بعدها.

لهم أن عثمان ولج في تلك الأخطاء ولم يتب، وزادوا الأمر سوءاً، فزوّروا كتباً على لسان الصحابة: علي وطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة، يدعون الناس فيها إلى قتال عثمان، ونصر الدين، وأنه أكبر الجهاد!!.

ومرّت الأحداث بسرعة دونما بطء، فقرروا الخروج، وغزو المدينة عند استعداد الحُجاج لقصد بيت الله الحرام، من مصر والكوفة والبصرة، فيذهب المؤمنون إلى حجهم وطاعة ربهم، وينطلق هؤلاء البغاة بغدرهم وخبثهم إلى المدينة النبوية، قاصدين هدم الخلافة وقتل الخليفة!!.

فخرجوا في شوال سنة خمس وثلاثين، وهم يريدون عزل الخليفة، فإن أبى قتلوه، ولم يتفقوا على رجل معين يخلفه، بل كان أهل مصر يريدون علياً، وأهل البصرة يشتهون طلحة، وأهل الكوفة يطالبون باستخلاف الزبير!! وقد أحكم المكر اليهودي هذه الخطة الخبيثة، إذ لربما قبل عثمان أن ينخلع ويستخلف واحداً مكانه، فيبوء مخططهم بالفشل، وهم في الحقيقة لا يريدون أحداً بعينه، إنما قتل الخليفة والخلافة، لتزداد الفتنة اضطراماً، حتى بين أتباعهم الذين بث ابن سبأ الاختلاف بينهم على الرجل الذي سيخلف عثمان، فسار الأغرار في تنفيذ الخطة، وهم لا يدرون أبعادها!!.

● ونظموا أنفسهم في اثنتي عشرة فرقة: أربع فرق من مصر، وأربع من الكوفة، وأربع من البصرة، وفي كل فرقة مئة وخمسون رجلاً، أي من كل بلد نحو ستمئة رجل، ومجموع الفرق من الجهات الثلاث ألف وثمانمئة رجل.

وقادة الفرق الأربع التي من مصر هم: عبد الرحمن بن عُدَيس البلوي، وكنانة ابن بِشْر التّجيبي، وسودان بن حُمران السّكوني، وقُتيرة السّكوني، ورئيسهم الأعلى الغافقي بن حرب العَكّي، ومعهم ابن السوداء، ولم يتأمّر على واحدة من الفرق، بل بقي في الظل، ليحسن إدارة المعركة على الجبهات كلها، وإمعاناً في الكيد والمكر والتخفّي.

وقادة الفرق الأربع التي من البصرة هم: حُكَيم بن جَبَلة العبدي،

وذَريح بن عباد العبدي، وبشـر بن شُرَيح (الحُطَم)، وابن المُحَرّش الحنفي، ورئيسهم الأعلى حرقوص بن زهير السعدي.

وقادة الفرق الأربع التي من الكوفة هم: الأشتر مالك بن الحارث النخعي، وزيد بن صُوحـان العبدي، وزيـاد بن النضر الحارثي، وعبد الله بـن الأصمّ، ورئيسهم الأعلى عمر بن الأصم.

● فخرجوا وهم على الخروج متفقون مجتمعون، وفي الناس شتى؛ حتى لا ينكشف أمرهم، حتى توافوا حول المدينة المنورة، كما تواعدوا في كتبهم في شهر شوال. فتقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا (ذا خُشُب)[1]، وناس من أهل الكوفة فنزلوا (الأَعْوَصَ)[2] وجاءهم ناس من أهل مصر، ونزل الجمهور منهم بذي المَرْوَة[3].

وقام أناس من معسكر أهل مصر بزيارة معسكري أهل البصرة والكوفة، للتنسيق فيما بينهم، ثم سار برأيهم زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم، وقالوا: لا تَعجلـوا ولا تُعَجلونـا، حتى ندخل لكم المدينـة ونرتاد، فإنه قد بلغنا أنهم قد عسكروا لنا، فوالله إن كان أهل المدينة قد خافونا، واستحلوا قتالنا، ولم يعلموا علمنا، فَهُم إذا علموا علمنا أشد، وإن أمرنا هذا لباطل. وإن لم يستحلّوا قتالنا، ووجدنا الذي بلغنا باطلاً، لنرجعن إليكم بالخبر. قالوا: اذهبا.

فدخل الرجلان، فلقيا أزواج النبي ﷺ وعلياً وطلحة والزبير، وقالا: إنا نـأتمّ هذا البيت، ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنـا، ما جئنـا إلا لذلك، واستأذناهم للناس بالدخول، فكلهم أبى ونهى، وقال: بيض ما يُفرخَنّ!!.

وعاد الرجلان يجران أذيال الخيبة والخذلان، لكنهما قد استطلعا الأمر،

---

(١) وادٍ على مسيرة ليلة من المدينة.
(٢) موضع بشرقي المدينة على بضعة عشر ميلاً منها.
(٣) قُرىً واسعة من أعمال المدينة.

وعرفا كيف يدخل المنحرفون في مثل هذه الظروف. ولما رجعوا إلى معسكراتهم، تدارسوا الأمر جميعاً، فقرروا إرسال ثلاثة وفود: فاجتمع من أهل مصر نفر فأتوا علياً، ومن أهل البصرة نفرٌ فأتوا طلحة، ومن أهل الكوفة نفرٌ فأتوا الزبير، وقال كل فريق منهم: إن بايعوا صاحبنا، وإلا كدناهم، وفرقنا جماعتهم، ثم كررنا حتى نبغتهم!!.

فأتى المصريون علياً وهو في عسكر عند أحجار الزيت[1] ـ عليه حلة رقيقة، معتم بشقيقة حمراء يمانية ـ متقلد السيف، ليس عليه قميص، وقد سرّح الحسنَ إلى عثمان، فيمن اجتمع إليه، فالحسن جالس عند عثمان، وعلي عند أحجار الزيت، فسلّم عليه المصريون، وعرّضوا[2] له، فصاح بهم واطّردهم، وقال: (لقد علم الصالحون أن الجيش ذي المَرْوَة وذي خُشُب ملعونون على لسان محمد ﷺ، فارجعوا لا صحبكم الله). قالوا: نعم، فانصرفوا من عنده على ذلك.

وأتى البصريون طلحةَ، وهو في جماعة أخرى إلى جنب علي ـ وقد أرسل ابنيه إلى عثمان ـ فسلّم البصريون عليه، وعرّضوا له، فصاح بهم واطّردهم، وقال: (لقد علم المؤمنون أن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ). فرجعوا إلى معسكراتهم.

وأتى الكوفيون الزبير، وهو في جماعة أخرى ـ وقد سرّح ابنَه عبدَ الله إلى عثمان ـ فسلّموا عليه، وعرّضوا له، فصاح بهم واطّردهم، وقال: (لقد علم المسلمون أن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد ﷺ). فرجعوا إلى معسكرهم.

إظهار المنحرفين أنهم رجعوا إلى بلدانهم، وقصة الكتاب المزوّر:

وأظهر هؤلاء البغاة المنحرفون لأهل المدينة أنهم راجعون إلى بلدانهم،

---

(١) موضع بالمدينة.

(٢) أَوْمَؤُوا له بنيّتهم في خلع عثمان ومبايعته، ولم يصرحوا بذلك.

وقد أقلعوا عن مبتغاهم؛ فقوّضوا خيامهم، وخرجوا عن المدينة، ليوهموا أهلها بأن الأمر قد انتهى، فيطمئن أهل المدينة، ويضعوا سلاحهم وحِذْرهم!! وحقيقة الأمر أنهم عازمون على مباغتة المدينة بعد أن درسوا الخطة، وأحكموا تنفيذها، وأيقنوا أنه لا مفرّ من خلع الخليفة، فإن أبى قتلوه، ولن يكون هذا إلا بمفاجأة الناس، ولا بد لذلك من ذريعة يواجهون بها أتباعهم، وكذلك أهل المدينة، إذا رأوهم قد رجعوا إليها!! ولهذا تخلّف منهم رجلان هما الأشتر النخعي وحُكيم ابن جبلة، ومكثا في المدينة لأمر أراداه!!.

ولقد كان هؤلاء الخوارج على فريقين: رؤساء خادعين ماكرين على درجات متفاوتة، ومرؤوسين مخدوعين مغفّلين، وهم الكثرة ـ ألقوا أسماعهم إلى رؤسائهم فيما أشاعوه عن الخليفة، حتى صدقوهم بما يقولون.

وخرج العراقيون ـ من بصريين وكوفيين ـ في طريقهم نحو الشرق إلى الشمال، متوجهين إلى بلادهم، والمصريون في طريقهم نحو الغرب إلى الشمال، وجهة كل من الفريقين مختلفة، والمسافة بينهما تأخذ بالازدياد كلما أمعنوا في السير.

وقطع كل من الفريقين مراحل، ووصل المصريون إلى (البُوَيْب)[1]، وإذا راكب يتعرّض لهم، ثم يفارقهم مراراً!! قالوا: مالَكَ؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر، ففتشوه فإذا هم بكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه، إلى عامل مصر أن يصلبهم أو يقتلهم، أو يقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

فرجعت قوافل الثوار المصريين إلى المدينة، ومعهم محمد بن أبي بكر[2]، ورجعت كذلك قوافل العراقيين، ووصل الجميع إلى المدينة في آن واحد، كأنما

---

(١) مدخل أهل الحجاز إلى مصر.
(٢) وكان عثمان قد ولاّه على مصر بطلب من المصريين، بدل ابن أبي سَرْح.

كانوا على ميعاد!! ولم يرع أهلَ المدينة إلا التكبير في نواحي المدينة، وقد زحف إليها المنحرفون، وأحاطوا بها، وجمهورهم عند دار عثمان بن عفان، وقالوا للناس: مَنْ كفّ يده فهو آمن.

وصلى عثمان بالناس أياماً، ولزم الناس بيوتهم، ولم يمنعوا أحداً من كلام، فأتاهم الناس فكلّموهم، وفيهم علي فقال: ما ردّكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ فقالوا: أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا! وكذلك قال البصريون لطلحة، والكوفيون للزبير. وقال الكوفيون والبصريون: فنحن ننصر إخواننا ونمنعهم جميعاً. فقال لهم علي: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أُبرم بالمدينة!! قالوا: فضعوه على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا.

وجاؤوا بالكتاب وداروا به على الناس، فكلّم الناسُ أَمير المؤمنين في ذلك، فقال: بيّنة عليّ بذلك، وإلا فوالله ما كتبتُ ولا أمليتُ، ولا دريت بشيء من ذلك، والخاتم قد يزوّر على الخاتم!!.

وقالوا لعلي: قم معنا إليه، قال: والله لا أقوم، قالوا: فلِمَ كتبتَ إلينا؟ قال: والله ما كتبتُ إليكم، فنظر بعضهم إلى بعض!!.

التحقيق في أمر هذا الكتاب:

وهذا الكتاب ـ الذي زعم هؤلاء الثوار البغاة المنحرفون أنه من عثمان، وعليه خاتمه يحمله غلامه على واحد من إبل الصدقة، إلى عامله بمصر ابن أبي سَرْح؛ يأمره فيه بقتل هؤلاء الخارجين ـ هو كتاب مزوّر على لسان عثمان، وذلك لعدة أمور:

أولها: أن حامل الكتاب المزوّر، قد تعرض لهؤلاء المصريين، ثم فارقهم، وكرّر ذلك مراراً، وهو لم يفعل ذلك إلا ليلفت أنظارهم إليه، ويثير شكوكهم فيه، وكأنه يقول لهم: معي شيء هام بشأنكم!! وإلا فلو كان من عثمان

لخافهم حاملُ الكتاب المزعوم، وَلأَبْعَدَ عنهم، وأسرع إلى والي مصر ليضع بين يديه الأمر، فينفذه.

ثانيها: كيف علم العراقيون بالأمر، وقد اتجهوا إلى بلادهم، وفصلتهم عن المصريين ـ الذين أمسكوا بالكتاب المزعوم ـ مسافةٌ شاسعة، فالعراقيون في الشرق والمصريون في الغرب، ومع ذلك عادوا جميعاً إلى المدينة في آن واحد، كأنما كانوا على ميعاد؟! لا يُعقل هذا إلا إذا كان الذين زوّروا الكتاب، واستأجروا راكباً، ليحمله ويمثل هذا الدور في (البُوَيْب) أمام المصريين؛ قد استأجروا راكباً آخر انطلق إلى العراقيين، ليخبرهم بأن المصريين قد اكتشفوا كتاباً بعث به عثمان لقتل المنحرفين المصريين!! وهذا مااحتج به الإمام العظيم علي بن أبي طالب فقال: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا؟!.

ثالثها: كيف يكتب عثمان إلى ابن أبي سَرْح بقتل هؤلاء، وابن أبي سرح كان عقب خروج الثوار من مصر متجهين إلى المدينة كتب إلى الخليفة يستأذنه بالقدوم عليه، وقد تغلب على مصر محمد بن أبي حذيفة، وفعلاً قد خرج ابن أبي سرح من مصر إلى العريش وفلسطين فالعقبة؛ فكيف يكتب له عثمان بقتلهم، وعنده كتابه الذي يستأذن به منه بالقدوم عليه؟!.

رابعها: أن عثمان رضي الله عنه قد نهى عن قتل محمد بن أبي بكر والثوار عندما حاصروه، وأبى على الصحابة أن يدافعوا عنه، ولم يأمر بقتال الخارجين دفعاً عن نفسه؛ فكيف يكتب مثل هذا الكتاب المزوّر، وقد خرجوا عنه من المدينة مظهرين التوبة والإنابة؟!.

خامسها: تخلّف حُكيم بن جَبَلة والأشتر النخعي ـ بعد خروج الثوار ـ في المدينة، يشير إشارة واضحة إلى أنهما هما اللذان افتعلا الكتاب، إذ لم يكن لهما أي عمل بالمدينة ليتخلفا فيها، وما مكثا إلا لمثل هذا الغرض، فهما صاحبا

المصلحة في ذلك. وقد أشار علي رضي الله عنه إلى ذلك عندما أنكر على العراقيين رجوعهم مع المصريين في آن واحد؛ فقال: (هذا والله أمر أُبرم بالمدينة)!.

ولم يكن لعثمان ـ رضي الله عنه ـ في ذلك أية مصلحة، وكذلك ليس لمروان ابن الحكم أية مصلحة. والذين يتهمون مروان في هذا إنما ينسبون إلى الخليفة الغفلة عن مهامه، وأن في ديوان الخلافة من يجري الأمور ويقضي بها دون علمه، وبذلك يبرّئون ساحة أولئك المجرمين الغادرين. ثم لو أن مروان زوّر الكتاب لكان أوصى حامل ذلك الكتاب أن يبتعد عن أولئك المنحرفين، ولا يتعرض لهم في الطريق حتى يأخذوه، وإلا لكان متآمراً معهم على عثمان، وهذا محال!!.

سادسها: أن هذا الكتاب المشؤوم ليس أول كتاب يزوّره هؤلاء المجرمون، بل زوّروا كتاباً على لسان أمهات المؤمنين، وكذلك على لسان علي وطلحة والزبير. ولهذا لما قال الثوار لعلي: (فَلِمَ كتبتَ إلينا؟ قال: والله ما كتبتُ إليكم! فنظر بعضهم إلى بعض)!! وهؤلاء الذين نظر بعضهم إلى بعض هم المخدوعون من الثوار، والذين زوّروا هم الرؤساء، أكابر مجرمي الفتنة الطائشة.

ولما عاتب مسروقٌ أمّ المؤمنين عائشة بأنها كتبت إلى الناس بالخروج على عثمان، أقسمت بالله أنها ما كتبتْ سواداً في بياض!! نعم، لقد كان تزوير الكتب من أسلحة البغاة، استعملوه في كل وجه، وفي كل الأحوال.

إن الأيدي المجرمة التي زوّرت الرسائل الكاذبة على لسان أولئك الصحابة، هي نفسها التي أوقدت نار الفتن من أولها إلى آخرها، ورتبت ذلك الفساد العريض، وهي التي زوّرت وروّجت على عثمان تلك الأباطيل، وأنه فعل وفعل، ولقّنتها للناس، حتى قبلها الرعاع. ثم زوّرت على لسان عثمان ذلك الكتاب، ليذهب عثمان ضحيته إلى ربه شهيداً سعيداً.

ولم يكن عثمان الشهيد هو المجني عليه وحده في هذه المؤامره السبئيّة اليهودية الضارية، بل الإسلام نفسه كان مجنياً عليه قبل ذلك، ثم التاريخ المشوّه المحرّف، و الأجيال الإسلامية التي تلقّت تاريخها مشوّهاً هي كذلك ممن جنى

عليهم الخبث اليهودي، وأعوانه من أصحاب المطامع و الشهوات والحقد الدفين.

أفما آن للأجيال الإسلامية أن تعرف تاريخها الحق، وسير رجالاتها العظام؟ بل ألم يأنِ لمن يكتب في هذا العصر ـ من المسلمين ـ أن يخاف الله ولا يتجرأ على تجريح الأبرياء، قبل أن يحقّق ويدقق، حتى لا يسقط كما سقط غيره؟!.

حصر أمير المؤمنين:

وتفرّق الثوار المنحرفون في المدينة، ونزل أناس منهم حول مسجد رسول الله ﷺ، وعثمان يصلي بالناس، فيصلي وراءه أهل المدينة وهؤلاء الخارجون، واستمر عثمان على ذلك زهاء عشرين يوماً، والبغاة في عينه أحقر من التراب، ويغشى عثمان من شاء، وكانوا لا يمنعون أحداً من الكلام، غير أنهم يمنعون الناس من الاجتماع!.

وكان أول من اجترأ على عثمان بالمنطق السيّء جبلة بن عمرو الساعدي ـ قبّحه الله ـ فقد مرّ به عثمان وهو بفناء داره، ومعه جامعة[1]، فأقبل على عثمان فقال له: (يا نَعْثَل[2]، والله لأقتلنّك، ثم لأحملنّك على قَلوص[3] جرباء، ولأخرجنّك إلى حرة النار).

وبينا هو ذات يوم قائم على المنبر يخطب، وفي يده العصا التي كان رسول الله ﷺ يعتمد عليها في خطبته ـ وكذلك أبو بكر وعمر من بعده ـ قام إليه جهجاه الغفاري، وأنزله عن المنبر، وأخذ العصا، فكسرها على ركبته اليمنى، فدخلت شظية منها فيها، فبقي الجرح حتى أصابته الأكِلة[4]. فنزل عثمان وحملوه،

---

(١) قيد يشدّ به اليدان إلى العنق.

(٢) كان أعداء عثمان يسمّونه (نعثلاً) تشبيهاً برجل من مصر، كان طويل اللحية اسمه (نعثل).

(٣) هي الناقة القوية الطويلة القوائم.

(٤) داء في العضو يأتكل منه.